

الخشوف

المجلس
الأعلى
للثقافة



تأليف : ميلان كونديرا
ترجمة : خالد أبو اليزيد البلتاجي
عمرو أحمد شاطوري صابر

المشروع القومي للترجمة

375

المشروع القومي للترجمة

الخلود

ميلان كونديرا

ترجمة: خالد أبو اليزيد البلتاجي
عمرو أحمد شطوري صابر



٢٠٠٣

المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

– العدد : ٣٧٥

– الخلود

– ميلان كونديرا

– خالد أبو اليزيد البلتاجي ، وعمرو أحمد شطوري صابر

– الطبعة الأولى ٢٠٠٣

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية :

NESMRTELNOST

المؤلف : MILAN KUNDERA

الناشر : ATLANTIS 1990

سنة النشر : 1985

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo,

Tel : 7352396 Fax : 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

7 مقدمة المترجمين
13 الجزء الأول - الوجه
75 الجزء الثاني - الخلود
133 الجزء الثالث - الصراع
135 الأخوات
141 النظارة السوداء
147 الجسد
153 جمع وطرح
159 سيدة عجوز ورجل شاب
167 الوصية الحادية عشرة
173 الإيميجولوجيا
181 حليف متعهدي دفنه البارع
189 الحمار الكبير
199 القطة
205 إيماءة اعتراض على انتهاك حقوق الإنسان ...
211 عصرى بمعنى الكلمة
219 ضحية الشهرة

225 الصراع
235 البروفيسور أفيناريوس
243 الجسد
251 إيماءة رغبة فى الخلود
257 التباس
263 العرافة
269 الانتحار
279 النظارة السوداء
289 الجزء الرابع - الإنسان العاطفى
329 الجزء الخامس - المصادفة
395 الجزء السادس - ميناء الساعة
471 الجزء السابع - الاحتفال
	- تعقيب : فيليب سوليرز
495 « الشيطان يقود حفلاً راقصاً »
503 - تعقيب المؤلف

مقدمة المترجمين

من حسن الطالع أن يكون أول عمل روائي نقوم بترجمته من الأدب التشيكي هو للأديب الكبير "ميلان كونديرا" ، والذي يعد واحداً من أشهر الكتّاب الروائيين على مستوى العالم ، وهو أشهر كاتب تشيكي على الإطلاق ؛ فهو كاتب روائي ومسرحي وشاعر ومترجم وكاتب مقالات. ولد "ميلان كونديرا" عام ١٩٢٩ في مدينة "برنو" التشيكية ، والتي تعد المدينة الثانية بعد العاصمة براغ ، وبعد انتهائه من دراسته الثانوية في برنو عام ١٩٤٨ بدأ الدراسة في كلية الفلسفة جامعة شارل في براغ ، ولكنه لم يكمل دراسته بها وفضل دراسة التأليف الموسيقى ، وتخرج في كلية السينما التابعة لأكاديمية الفنون ، والتي قام فيها بتدريس الأدب العالمي في الفترة بين عامي ١٩٥٨ و ١٩٧٠ وفي عام ١٩٧٥ رحل إلى فرنسا حيث عرض عليه أن يعمل أستاذا زائرا في جامعة "رينيه" . وفي عام ١٩٧٩ سحبت منه الجنسية التشيكوسلوفاكية من قبل النظام الشيوعي الذي كان قائما في تشيكوسلوفاكيا في ذلك الوقت ، ولكنها ردت إليه بعد قيام الثورة المخملية عام ١٩٨٩ ، وهو يعيش الآن في باريس بفرنسا ويعود إلى الجمهورية التشيكية من وقت لآخر . بدأ "ميلان كونديرا" حياته شاعرا ثم تحول إلى كتابة المسرحية والرواية ، وقد نالت أعماله

شهرة كبيرة فى جميع أنحاء العالم وخاصة رواياته ، والتي ترجم بعضها إلى الكثير من لغات العالم ، ومن أعمال "ميلان كونديرا" فى الشعر والمسرح والرواية والمقال:

فى الشعر صدر له ثلاثة دواوين هى:
الإنسان حديقة مترامية الأطراف (١٩٥٣)
مايو الأخير (١٩٥٥)
مونولوجات (١٩٥٧)

المسرحيات:

أصحاب المفاتيح (١٩٦٢)
شئ أحرق (١٩٦٩)
يعقوب وسيدته (١٩٨١)

الروايات:

مزحة (١٩٦٥)
غراميات مضحكة (١٩٦٨)

الحياة فى مكان آخر (١٩٦٩)

حفلة وداع (١٩٧٥)

كتاب الضحك والنسيان (١٩٧٨)

الخفة الغير محتملة للوجود (١٩٨٤)

الخلود (١٩٩٠)

البطاء (١٩٩٤)

التطابق (١٩٩٦)

ومن أشهر مقالاته الأدبية مقالاته فى فن الرواية (١٩٦١ و ١٩٨٦)

ويعتبر ميلان كونديرا هو حاصد الجوائز فقد حصل على الكثير من الجوائز والأوسمة من مختلف الدول ، وذلك تقديرا لأعماله ولعطائه ومن العديد من الدول الأوروبية وغير الأوروبية ، ومن هذه الجوائز على سبيل المثال وليس الحصر:

١ - جائزة الدولة أو جائزة كليمنت جوتفالد من تشيكوسلوفاكيا
عام ١٩٦٣ .

٢ - جائزة هايس فى الأدب من الولايات المتحدة الأمريكية
عام ١٩٨١ .

- ٣ - جائزة النقد من الاكاديمية الفرنسية عام ١٩٨٧ .
 - ٤ - جائزة نيللى ساشيس من جمهورية ألمانيا الاتحادية عام ١٩٨٧ .
 - ٥ - جائزة الدولة فى الأدب من النمسا عام ١٩٨٨ .
 - ٦ - جائزة كرسنال فيلينس من سلوفينيا عام ١٩٩٢ .
 - ٧ - جائزة الأوجوردويه الفرنسية عام ١٩٩٣ .
 - ٨ - جائزة ياروسلاف سايفرت من الجمهورية التشيكية عام ١٩٩٤ .
 - ٩ - وسام الاستحقاق عام ١٩٩٥ .
 - ١٠ - جائزة إسماعيل قدرى من ألبانيا عام ١٩٩٦ .
 - ١١ - جائزة هيردر من ألمانيا عام ٢٠٠٠ .
 - ١٢ - الجائزة الكبرى للأكاديمية الفرنسية لمجمل أعماله عام ٢٠٠١ .
- أما رواية "الخلود" التى ترجمت إلى ما يقرب من إحدى وعشرين لغة فقد حصلت فى عام ١٩٩١ "الخلود" فى إنجلترا على جائزة "الإنديبندنت" كأفضل عمل مترجم إلى الإنجليزية .
- صدرت الخلود مترجمة عن اللغة التشيكية بالفرنسية، والإيطالية، والإسبانية، والكتلانية، والنرويجية، والهولندية، والعبرية، والدنمركية، والفنلندية، والإنجليزية (فى طبعين مختلفتين:

فى أمريكا وإنجلترا)، وبالكرواتية، والسلفينية . وترجمت من الفرنسية إلى التركية، والبرتغالية، والبرتغالية البرازيلية، واليونانية، والأيسلندية، والكورية، والسويدية، والصينية، واليابانية، وترجمت إلى اللغة الهندية الملايلم من الإنجليزية . وقد صدر عن الرواية فى التشيك (على أساس الترجمة الفرنسية أو الإيطالية) بعض التحليلات الرائعة .

لقد نشأت رواية الخلود مرتبطة بالوسط الفرنسى الذى عاش فيه ميلان كونديرا بعد رحيله من تشيكوسلوفاكيا ؛ فهى تتناول حياة امرأة فرنسية جذابة ولدت من مخيلة المؤلف عندما كان يجلس بالقرب من حمام سباحة ورأى سيدة عجزوز فى الخامسة والستين من عمرها وهى تنظر إلى مراقب حمام السباحة الشاب الذى كان يعلمها السباحة وعند انصرافها استدارت للخلف ولوحت له بيدها وهى تبسم ، وكأنها تلقى بكرة فى الهواء إلى حبيبها ، ولكن هذه الابتسامة وهذا السحر لا يناسبان إلا فتاة فى العشرين من عمرها ، ولكن هذه الإيماءة وهذه الابتسامة كان لهما تأثيرهما على كونديرا ؛ فهنا خطر له أسم "أجنس" ورغم أنه لم يكن يعرف هذا الاسم من قبل إلا أن "أجنس" ولدت من هذه الإيماءة ، وكما يقول كونديرا لقد ولدت "أجنس" من هذه الإيماءة تماما كما ولدت حواء من ضلع آدم ، وكما ولدت فينوس من رغبة البحر .

لقد فسر الكاتب هذه الإيماءة على أنها إيماءة الرغبة فى الدخول إلى التاريخ ، الرغبة فى أن تصبح مشهورة وأن تصبح خالدة وقد ذهب كونديرا إلى أبعد من ذلك مبحراً فى أعماق التاريخ ، وذلك فى قصة "بيتينا فون أرزم" وعلاقتها بالشاعر الألمانى الكبير "جوته" ؛ فقد كانت "بيتينا" تتودد وتتقرب إلى الرجال المشهورين رغبة منها أن تدخل معهم التاريخ ؛ فقد قامت فى عام ١٨٣٥ بنشر خطابات غرامية ادعت أنها كانت تتبادلها مع جوته ، ولكن أمرها انكشف فيما بعد أن ظهرت الخطابات الحقيقية ، وظهر أنها قامت بتحريف هذه الخطابات وأعدت كتابتها . ويتطرق المؤلف بعد ذلك إلى شخصيات تاريخية أخرى حاولت بشتى الطرق أن تصبح مشهورة ، وأن تدخل التاريخ لكى تحصل على الخلود الذى تنشده .

الجزء الأول

الوجه

(١)

وقع بصري على امرأة تقارب الستين أو الخامسة والستين من عمرها وأنا مستلق على أريكة عند حمام السباحة في ناد للرياضة البدنية ، يقع في الطابق العلوى لمبنى حديث يمكن رؤية باريس كلها من هناك عبر النوافذ الزجاجية الكبيرة . كنت في انتظار البروفيسور " أفيناريوس " الذى ألتقى به هناك أحيانا لتتجاذب أطراف الحديث . غير أن البروفيسور لم يأت . رأيت سيدة تقف بمفردها في حمام السباحة والماء يصل إلى خصرها وهى تنظر إلى مراقب الحمام الشاب ، الذى يرتدى زيه الرياضى ، ويعلمها السباحة ، كان يعطيها بعض الأوامر وهى تمسك بحافة الحمام وتتنفس بعمق شهيقا وزفيرا . حاولت جادة تنفيذ هذه الأوامر ، وبدا هذا كصوت قاطرة بخارية قديمة يصدر من أعماق الماء (هذا الصوت الهادئ الذى قد نسيناه اليوم ، ولا يمكن وصفه لمن لا يعرفه إلا كصوت السيدة العجوز التى تتنفس شهيقا وزفيرا بصوت عال عند حافة حمام السباحة) نظرت إليها وقد أثارت إعجابى . جذبتنى خفة دمها الأخاذة (كان مراقب الحمام يدرك هذا أيضا ، فقد كان يعرض على شفتيه من حين لآخر) إلى أنا نادانى أحد معارفى فحول ناظرى عنها . وعندما أردت معاودة النظر إليها بعد ذلك كان التمرين قد انتهى . كانت تنصرف بمحاذاة حمام السباحة مرتدية المايوه . مرت بالمراقب ، وما أن ابتعدت عنه

بثلاث أو خمس خطوات حتى التفتت إليه ، وابتسمت ، ولوحت إليه بيدها . عندها انقبض قلبي ، هذه الابتسامة والإيماءة لا تليق إلا بفتاة فى العشرين ! لقد رفعت يدها بخفة ساحرة ، كانت كمن يلقي بكرة ملونة إلى الهواء لتلهو بها مع حبيبها . على الرغم من أن هذه الابتسامة والإيماءة كان بهما سحر وجمال فإن وجهها وجسدها لم يكن بهما سحر على الإطلاق . كان هذا سحر الإيماءة الغارق فى جسد ليس به أى سحر . ولكن هذه المرأة ، وعلى الرغم من أنها كانت تعرف بالتأكيد أنها ليست جميلة فقد تناست هذا فى تلك اللحظة . إننا نعيش جميعا فى فترة ما من فترات حياتنا خارج الزمن ، ولكن من الممكن ، وفى لحظات نادرة فقط ، أن نفطن إلى أعمارنا ، وإلى أننا جميعا فى غالبية الأحيان لا نساوى شيئا . أيا كان الأمر ففي اللحظة التى استدارت فيها إبتسمت ولوحت بيدها إلى مراقب الحمام الشاب (الذى لم يتحمل فبصق) لم تعرف كم هو عمرها . وبغض النظر عن الزمن فإن هذه الإيماءة أخرجت ما بداخلى ، وأبهرتنى بعبير سحرها . لقد تأثرت بشكل غريب . وهنا خطر على ذهنى اسم " أجنس " . " أجنس " . لم أعرف امرأة بهذا الاسم مطلقا .

(٢)

كنت مستلقياً في الفراش في حالة عذبة ما بين النوم واليقظة .
في الساعة السادسة ، وبحركة خفيفة من حركات السيقظة الأولى
مددت يدي إلى مذياع صغير بجوار الوسادة ، وضغطت على الزر ،
انطلقت منه أخبار الصباح الأولى ، وأنا لا أكاد أميز مختلف الكلمات ،
ثم أسلمت نفسي إلى النعاس من جديد ، وهنا تحولت عبارات
المذيعين إلى أحلام . هذه هي أجمل ساعات النوم ، وألذ أوقات
اليوم . فبفضل المذياع أدركت حالة النوم واليقظة المتواصلة ، تلك
الأرجوحة الرائعة بين النوم واليقظة التي هي في حد ذاتها سبباً كافياً
لكي لا يندم الإنسان على مولده . يبدو لي أنني في الأوبرا أو أنني
بالفعل كذلك ، وأرى المغنين في رى الفرسان ، وهم يغنون عن حالة
الطقس المتوقعة . ولكن كيف لا يغنون عن الحب ؟ ولكن أدركت
حينئذ أنهم مذيعون ، وأنهم لا يغنون ، بل يقاطع كل منهم الآخر
بظرف ، فيقول الأول : " سيكون الجو حاراً وخانقاً وعاصفاً " ،
فيرد الثاني بخفة : : أحقا ؟ " ، فيجيبه الصوت الأول بنفس
الطريقة : " آسف يا برنارد . ولكنه كذلك ، علينا أن نتحمل
" ويرد برنارد ضاحكاً : " إنه عقاب لنا على ما ارتكبناه من ذنوب " .
يقول الصوت الأول : " لماذا على أن أتعذب من جراء ذنوبك يا برنارد ؟
في هذه اللحظة يعلو صوت برنارد ضاحكاً أكثر وأكثر حتى يوضح
للمستمعين ما هو الذنب الذي يتحدث عنه ، وأنا أفهمه : إنها رغبتنا

الوحيدة والعميقة في الحياة ؛ فليعتبرونا جميعاً ذنوباً كبيرة ! وليشبهوا كل سيئاتنا بالسيول والعواصف والأعاصير ! عندما يفتح الفرنسيون مظلات المطر فوق رؤوسهم اليوم سيتذكرون جميعاً ضحكة برنارد ذات المعنى المزدوج ، وليحسدوه على ذلك !

أدير زر المذياع على المحطة التالية ؛ لأننى أريد أن أستدعى تصورات مشوقة إلى حالة النعاس التى تقترب . فى المحطة المجاورة يقول صوت نسائى : إن الجو اليوم سيكون حاراً وخنقاً مع هبوب عواصف . أنا سعيد بأن لدينا فى فرنسا هذا الكم من المحطات الإذاعية ، وأن جميعها يقول نفس الشيء فى نفس الوقت عن نفس الموضوع . ترابط متناغم بين التنسيق والحرية . أليس هذا غاية ما يتمناه البشر ؟

ومن جديد أدير المفتاح إلى برنارد حيث تعرض قبل قليل لذنوبه ، ولكن بدلاً منه أسمع صوتاً آخر يغنى للطرار الجديد للسيارة رينو . أدير مؤشر المذياع مرة أخرى ، وأسمع هناك صوت فرقة نسائية تروج لتصفية مبيعات الفراء . أدير المؤشر عائداً إلى محطة برنارد . أسمع آخر مقطعين من أنشودة السيارة رينو وعلى الفور يتحدث برنارد بمفرده ، وبصوت فيه طرب يشبه فى الواقع اللحن السابق للدعاية ، ويعلن أنه صدرت السيرة الذاتية الجديدة لـ " إيرنست هيمنجواى " وهى تصدر للمرة ١٢٧ ، ولكنها هذه المرة فى الواقع فى غاية الأهمية ، حيث يتضح منها أن هيمنجواى لم يقل طوال حياته كلمة حقيقة واحدة .

فقد بالغ فى عدد الإصابات التى أصيب بها فى الحرب العالمية الأولى ، وادعى أنه مغرر كبير بالنساء . على الرغم من أنه اتضحت إصابته التامة بالعجز الجنسي مرة أخرى ومنذ يوليو ١٩٥٩ . يقول الصوت الثانى ضاحكاً " يا . أحقا ؟ " ويجيبه برنارد بخفة " نعم . . . " وهانحن جميعا على مسرح الأوبرا ، وهنا أيضا هيمنجواى العاجز جنسيا ، وفجأة يظهر صوت شديد الجدية ، يتحدث عن قضية أمام المحكمة ، أثارت فى الأسابيع الأخيرة فرنسا كلها : فإثناء إجراء عملية جراحية بسيطة توفيت المريضة بسبب خطأ فى التخدير . وفى هذا السياق قدمت المنظمة المسؤولة عن حماية ما تسميه " بالمستهلكين " اقتراحاً بأن يتم فى المستقبل تصوير وحفظ كل العمليات الجراحية . وتؤكد " منظمة حماية المستهلكين " أن هذه هى الطريقة الوحيد لكى تضمن للمواطن الفرنسى الذى يموت على طاولة العمليات أن القضاء سيثار له بالطريقة المناسبة . واستسلمت للنعاس من جديد ، وعندما استيقظت كانت الساعة حوالى الثامنة والنصف ، وكنت أتخيل أجنس وهى ترقد مثلى على فراش خاو على يمينها ، أين يا ترى زوجها ؟ من الواضح أنه من هؤلاء الناس الذين يغادرون البيت يوم السبت فى الصباح الباكر . وهى لذلك تتأرجح وحدها بسعادة بين اليقظة والحلم .

ثم استيقظت ، وأمامها يوجد التلفاز على ذراع طويل كطائر اللقلق . ألقت عليه بقميصها الذى غطى شاشته كالستارة المللمة .

تقف الآن بجوار السرير تماما ، وأنا أراها لأول مرة عارية . " أجنس " بطله روايتى . لا أستطيع أن أحول نظرى عن هذه المرأة الجميلة ، أما هى فكما لو أنها أحست بنظراتى ، فانطلقت إلى الحجرة المجاورة لترتدى ملابسها . من هى أجنس ؟

لقد انبعثت أجنس من إيماءة السيدة ذات الستين عاما التى لوحث بيديها عند حمام السباحة إلى مراقب الحمام والتى طبعت ملامحها فى ذاكرتى ، تماما كحواء التى جاءت من ضلع آدم و " فينوس " التى ولدت من رغبة البحر . تلك الإيماءة ولدت فى نفسى شوقا كبيرا وغامضا ، من هذا الشوق ولدت شخصية المرأة التى أسميها أجنس .

لكن ألا يوجد إنسان ، وشخصية الرواية قد تكون أكثر من ذلك بكثير ، يمكن أن نعرفه ككائن فريد لا يمكن أن يتكرر ؟ وكيف يمكن أن الإيماءة التى رأيتها على إنسان معين ، وارتبطت به ، وميزته ، وكانت مصدر جاذبيته المميزة تكون فى نفس الوقت أساسا لإنسان مختلف تماما ، وأساسا لرؤيتى له فى الحلم ؟ هذا أمر جدير بالتأمل . إذا كان عدد من ينتشرون على الكرة الأرضية منذ اللحظة التى ظهر فيها الإنسان الأول على الكرة الأرضية وصل إلى ما يقرب من ٨٠ مليار نسمة ، فمن الصعب القول إن لكل فرد مخزون خاص من الإيماءات . من الناحية الرياضية هذا أمر غير ممكن . وبدون أدنى شك فإنه يوجد فى العالم عدد من الإيماءات أقل من عدد الأفراد . هذا التأكيد يقودنا إلى نتيجة مذهلة : أن الإيماءة أكثر خصوصية من

الفرد ، ويمكننا صياغة ذلك فى صورة قول مأثور : كثير من البشر ، قليل من الإيماءات .

لقد قلت فى البداية عندما تحدثت عن السيدة عند حمام السباحة إنه " بغض النظر عن الزمن فإن هذه الإيماءة أخرجت ما بداخلى وأبهرتنى بعبير سحرها " . نعم ، هذا ما أدركته فى تلك اللحظة ، ولكنى أخطأت ، فالإيماءة لم تكشف عن أى عبير لتلك السيدة ، ولكن على الأحرى يمكن القول إن تلك السيدة جعلتنى أتعرف على سحر إيماءة واحدة . فلا يمكننا إذن اعتبار الإيماءة تعبيراً عن فرد ، أو أنها من إبداعه (فليس فى مقدور أى إنسان خلق إيماءة أصلية تماماً له وحده) ، ولا من أدواته ، بل على العكس ، فالإيماءات هى التى تستخدمنا كوسائل وكحاملين لها ، تتجسد فيهم .

ارتدت " أجنس " ملابسها وخرجت إلى الردهة . توقفت هناك لحظات وأخذت تستمع . كانت تصدر أصواتاً غير واضحة من الغرفة المجاورة . عرفت منها أن ابنتها قد استيقظت . وأسرعت الخطى نحو الممر كما لو كانت تريد تجنب اللقاء . وفى المصعد ضغطت على الزر الذى يشير إلى الطابق الأرضى . ولكن المصعد ، وبدلاً من أن ينطلق ، بدأ يتأرجح فى مكانه كالشخص الذى انتابته رقصة القديس " فيتوس " . لم تكن تلك هى المرة الأولى التى فاجأها بتصرفه هذا . فمرة يبدأ فى الصعود عندما أرادت أن تنزل ، ومرة أخرى لم يرغب فى

فتح أبوابه ، وحبسها لمدة نصف ساعة . شعرت أنه يريد أن يتفق معها على شيء ، أو يخبرها بشيء من خلال أساليب فظة لحيوان أبكم . اشتكته عدة مرات إلى حارسة المنزل . ولأنه يتعامل مع المستأجرين الآخرين بطريقة طبيعية ، ومهذبة ، فقد اعتبرت حارسة المنزل أن نزاع أجنس مع المصعد أمر شخصي ، ورفضت الاهتمام بالأمر . وما كان على أجنس سوى مغادرة المصعد ، والنزول سيراً على الأقدام . وما أن نزلت عدة درجات من السلم حتى هدا المصعد ونزل خلفها .

كان يوم السبت بالنسبة لأجنس دائما من أكثر الأيام إرهاقا . فبول ، زوجها كان يغادر البيت قبل الساعة السابعة ، ويبقى حتى يتناول الغداء مع بعض أصدقائه . فى حين أنها كانت تستغل يوم العطلة لإنجاز آلاف المهام الأكثر إرهاقا من العمل فى وظيفتها . كان عليها الذهاب إلى مكتب البريد ، وأن تجر جر قدميها لمدة نصف ساعة فى الطابور ، وتتسوق فى المحل التجارى ، حيث تتشاجر مع البائعة ، وتضيع وقتها فى الانتظار أمام الخزينة ، تتصل بالسباك وتتوسل إليه أن يأتى فى الساعة المتفق عليها تماما ، فقد كان عليها أن تبقى فى المنزل فى انتظاره طوال اليوم ، وفى وسط كل هذا كانت تحاول إيجاد وقت للاستجمام فى الساونا ، حيث لم تتمكن من الذهاب إلى هناك خلال الأسبوع . آخر النهار قضته مع المكنسة والمنفضة ، لأن الشغالة التى تأتى يوم الجمعة كانت تعمل بلا مبالاة متزايدة .

غير أن يوم السبت هذا كان مختلفاً عن غيره . فقد مرت خمس سنوات على وفاة والدها . تراءى أمام عينيها مشهد : والدها يجلس منكبا على كومة من الصورة الممزقة ، وأختها تصرخ فيه : " كيف تمزق صور أمي ! أجنس تأخذ صف أبيها ، وتتشاجر الأختان ، ويملؤهما حقد شديد غير متوقع .

استقلت سيارتها التي كانت واقفة أمام المنزل .

(٣)

حملها المصعد إلى أعلى طابق فى المبنى الحديث حيث يوجد ناد به صالة للرياضة البدنية ، وحمام سباحة كبير ، وحمام صغير للتدليك تحت الماء ، وساونا ، وحمام تركى مع مشهد على مدينة باريس . وفى غرفة تغيير الملابس انطلقت صاحبة موسيقى الروك من مكبرات الصوت . منذ عشر سنوات عندما بدأت تتردد على هذا النادى كان عدد أعضائه قليلا ، وكان هادئا . ثم تحسن النادى عاماً بعد عام فزاد به كثير من الزجاج ، ووسائل الإضاءة ، والزهور الصناعية ، وعيدان الصبار ، مزيد من مكبرات الصوت ، والموسيقى ، ومزيد من الأعضاء الذين ، فضلا عن ذلك ، تضاعف عددهم عندما بدأت المرايا الكبيرة تعكس صورهم . تلك المرايا التى أمرت إدارة النادى تغطية جدرانها بها .

تقدمت نحو صوان الملابس وبدأت تخلع ملابسها ، وعلى مسافة قريبة منها سمعت حواراً بين امرأتين . كانت إحداهما تشكو بصوت عميق ، هادئ ، وبطيء ؛ لأن زوجها يترك كل شيء مبعثراً على الأرض : الكتب والجوارب والجرائد ، وحتى الكبريت والغليون . وتحديث الثانية بصوت عال وأسرع مرتين . إنها العادة الفرنسية فى نطق المقطع الأخير من الجملة كمقطع شعرى عال . كان إيقاع كلامها يشبه صوت الدجاجة اللاذع : " كم يحزننى هذا ! إننى حزينة عليك ! كم يحزننى هذا ! عليك أن تحزمنى أمرك ، فيجب أن لا يسمح لنفسه بذلك ! إنه بيتك ! وعليك أن تحسمى هذا بلا هوادة ! كيف يسمح لنفسه بهذا وماذا يريد ؟ ! " أما الثانية التى بدت وكأنها حائرة بين صديقتها التى تعترف بنفوذها وزوجها الذى تحبه قالت لها بحزن : " ولكن تلك هى طبيعته . فدائماً يلقي بالأشياء على الأرض . " فقالت الأولى " عليه أن يتوقف عن هذا ! إنه منزلك ! ولا يجب أن يسمح لنفسه بذلك وعليك أن تقولى له هذا بوضوح " .

لم تكن أجنس تشارك فى تلك الأحاديث . إنها لم تذكر بول بسوء قط ، وحتى وهى تعلم أن هذا يجعلها إلى حد ما غريبة عن السيدات الأخريات . نزلت إلى صاحبة الصوت العالى ، إنها فتاة صغيرة ذات شعر فاتح ووجه ملائكى .

استدركت هذه الفتاة قائلة : " لا . يجب أن تعرفي أنك على صواب ، وأن عليه أن لا يتصرف بهذه الطريقة " . لاحظت أجنس أن الفتاة وهى تلقى بهذه الكلمات تهز رأسها بحركات سريعة يمينا ويساراً ومن اليمين إلى اليسار ، وفى نفس الوقت ترفع ذراعيها وحاجبيها ، كما لو أنها تريد أن تظهر استنكارها المرير لأن يرفض شخص ما الاعتراف بالحقوق الإنسانية لصديقتها . لقد عرفت تلك الإشارة : إن ابنتها " بريجيتا " تهز رأسها وترفع حاجبيها وذراعيها تماماً مثل هذه الفتاة .

خلعت أجنس ملابسها ، ثم أغلقت الصوان ، وخرجت من الباب المتحرك إلى البهو المفروش بالبلاط ، تقع على أحد جانبيه الأطباق الهوائية ، وعلى الجانب الآخر يوجد باب زجاجى يؤدى إلى غرفة الساونا . كانت النساء هناك تجلس متلاصقات على المقاعد الخشبية . كانت بعض النساء مكشيات بلباس خاص مصنوع من مادة بلاستيكية وكان حول أجسادهم - أو حول أجزاء معينة من أجسادهم وبخاصة منطقة البطن والمقعدة - غطاء هوائى ، وبهذا تصيب من الجلد عرق غزير . فقد كانت السيدات تؤمن بأنهن بذلك سوف يحصلن على النحافة المطلوبة . صعدت إلى مكان خال فى أعلى مدرج . اتكأت على الجدار وأغلقت عينيها . على الرغم من أنها لم تكن تتحمل صخب الموسيقى إلا أن حديث السيدات اللاتى كن

يقاطعن بعضهن البعض فى الحديث لم يكن أقل قوة . دخلت إلى الساونا سيدة شابة مجهولة بدأت على الفور منذ أن تخطت عتبة الحمام فى تنظيم كل شىء ؛ أجبرت السيدات أن يجلسن أكثر قريباً من بعضهن البعض ، ثم مالت على الإبريق ، وسكبت الماء على الموقد الذى أخذ يثر . تصاعد البخار الساخن إلى أعلى ، الأمر الذى جعل السيدة الجالسة بجوار أجنس تمتعض من الألم ، ثم غطت وجهها بيديها . لاحظت السيدة المجهولة هذا وقالت : " أنا أحب البخار الساخن ، فهو على الأقل يشعرنى بأنى فى الساونا " ، ثم اندست بين جسدين عاريين ، وأخذت على الفور فى الحديث عن برنامج تلفزيونى أذيع أمس دعا إليه للحوار عالمًا شهيرًا للبيولوجيا صدرت مذكراته مؤخرًا ، قالت : " لقد كان رائعًا " . أمنت على كلامها امرأة أخرى قائلة : " نعم ، وكم كان متواضعًا ! " . فردت السيدة المجهولة قائلة : " متواضعًا ! ألم تدركين أن هذا الإنسان متكبر للغاية ؟ ولكنى معجبة بهذا الكبرياء ! فأنا أحب الأشخاص المتكبرين " ، واستدارت إلى أجنس وقالت : " أعتقدين أنه كان متواضعًا ؟ " .

قالت لها أجنس إنها لم تشاهد هذا البرنامج ، ولكن المرأة المجهولة قررت بصوت مرتفع وهى تنظر إلى عيني أجنس وكأنها رأت فى ردها هذا عدم موافقة مستترة : " أنا أكره التواضع !

"يجب أن أشعر فى الساونا بالسخونة الحقيقية ، يجب أن أعرق تماما ،
كم أعشق هذا ! أنا مندهشة من هؤلاء الناس الذين يذهبون بعد
الساونا لأخذ حمام ساخن . أنا أكره الحمام الساخن " .

وسرعان ما بدأت تشعر بالاختناق فى الساونا ، ولم تكذ تكرر
لآخر مرة أنها تكره النفاق حتى نهضت وغادرت المكان . ذات مرة
عندما كانت أجنس طفلة ، سألت أباهما فى إحدى نزهاتهم الطويلة إن
كان يؤمن بالله . أجابها الأب : " أنا أومن بخالق الحاسب الآلى " .
كانت هذه الإجابة شديدة الغرابة لدرجة أن الطفلة لم تنسها . لم تكن
كلمة حاسب آلى غريبة فقط ، ولكن أيضا لفظ خالق : فأبوها لم
يقل مطلقا الله ، ولكن كان يردد دائما لفظ خالق ، فكأنه يريد أن
يقصر معنى الإله فقط على الإنجاز الهندسى . خالق الحاسب الآلى :
ولكن كيف للإنسان أن يتحدث مع الحاسب الآلى ؟ لذلك سألت
أباهما عما إذا كان يصلى فقال : " مثلما تصلين لـ " إديسون " عندما
يتوقف المصباح عن الإضاءة " .

قالت أجنس لنفسها : لقد وضع الخالق الأسطوانة فى الحاسب
الآلى ثم انصرف . إن فكرة أن الله خلق العالم ثم تركه للبشر
المنبوذين الذين يلجأون إليه وينادون فى الفراغ بلا صدى ليست
جديدة . ولكن هناك فرق أن نكون منبوذين من إله أجدادنا ،
وأن نكون منبوذين من الإله - خالق الحاسب الآلى الكونى ، الذى

ينوب هنا عنه برنامج يؤدي مهامه فى غيابه بدون توقف ، وبدون أن
يغير أى إنسان فيه أى شىء . إن وضع برنامج فى الحاسب الآلى
لا يعنى أن المستقبل قد تم تخطيطه بكافة التفاصيل ، وأن كل شىء
مكتوب " هناك فى السماء " . فلم يكن فى البرنامج مثلاً أنه ستقع
معركة " ووترلو " ، وأن فرنسا ستهزم فيها ، ولكن المكتوب هو أن
الإنسان عدوانى بطبعه ، وأنه كتب عليه القتال ، وأن التقدم التكني
سيجعل هذه الحرب تزداد بشاعة . ما عدا ذلك ليست له عند الخالق
أية أهمية ، ما هو إلا لعبة تغيير وتبديل لبرنامج معين ، ذلك
البرنامج الذى لا يعتبر نبوءة رسول للمستقبل ، ولكن يعطى مجرد
حدود للاختيارات ، وتركت كل القوى التى بداخله للصدفة . بنفس
الطريقة تم تصميم الإنسان . فلم يتم تصميم أجنس ولا بول من
خلال الحاسب الآلى ، بل صمم فقط نموذج أصلى لإنسان ، تكونت
على أساسه العديد من النسخ التى تعتبر مشتقات من النموذج الأصلى ،
وليس لها أى جوهر قائم بذاته ، تماماً مثل الطرز المختلفة للسيارة
" رينو " فنموذجها الأصلى يوجد بعيداً فى سجل مكتب التصميمات
الرئيسى ، وتتميز الطرز المختلفة عن بعضها برقم التصنيع .
ورقم التصنيع للنسخة البشرية هو الوجه الذى هو مجموعة من
السمات العشوائية الفريدة . لا يعكس هذا الوجه الطبيعة ولا الروح
ولا ما يسمى " الأنا " فالوجه ما هو إلا رقم للنسخة .

تذكرت المرأة المجهولة التى أخبرت الجميع منذ لحظات أنها تمقت حمام الماء الساخن . جاءت لتقول لجميع السيدات الحاضرات أنها ١ - تحب سخونة حمام الساونا ، ٢ - تعبد الكبير ، ٣ - تكره التواضع ، ٤ - تحب حمام الماء البارد ، ٥ - تكره حمام الماء الساخن . بتلك الخطوط الخمسة رسمت صورتها ، بتلك النقاط الخمسة قامت بتعريف نفسها وعرضها على الجميع ، ولم تعرضها بتواضع (بل قالت إنها تكره التواضع !) ولكن بشراسة . استخدمت الأفعال الانفعالية : أحب ، أكره ، أمقت ، كما لو أنها تريد أن تقول إنها مستعدة للحرب من أجل كل خط من خطوط صورتها الخمسة ، ومن أجل كل نقطة من النقاط الخمسة التى تقدمها بها .

لماذا هذا الانفعال . تساءلت أجنس وتبادر إلى ذهنها الآتى : عندما جئنا إلى العالم هكذا كما نحن ، كان لزاما علينا أن نتكيف مع ما ألقى من لبنات ، ومع المصادفة التى سواها الحاسب الآلى الإلهى ؛ وذلك بأن لا نتعجب من أن " الذى نراه أمامنا فى المرأة " هو ذاتنا نحن ، بدون الإيمان أن وجهنا يعبر عن ذاتنا ، بدون هذا التصور الأساسى ، هذا التصور الأزلى ، لا يمكننا أن نعيش أو على الأقل أن نأخذ الحياة مأخذ الجد . فلم يكن يكفى مجرد أن نتكيف مع أنفسنا ، بل من الضرورى أن نتكيف معها بحماس فى الحياة والموت ، لأنه هكذا يمكننا أن نعبر عن أنفسنا ليس فقط كأحد صور النموذج

الأصلى للإنسان ، ولكن ككائن حتى له جوهره الخاص به والذي لا يمكن تبديله . لهذا السبب أرادت السيدة الشابة المجهولة ، ليس فقط أن ترسم صورتها ، ولكنها فى نفس الوقت أرادت أن توضح أن هذه الصورة تحتوى على شيء فريد تماما ، لا يمكن استبداله ، شيء يستحق أن تحارب وأن تخاطر بحياتها من أجله .

وبعد أن قضت أجنس فى سخونة حمام الساونا ربع الساعة قامت لتغطس فى حمام مياه شديدة البرودة . ثم ظلت مستلقية فى غرفة الاستجمام مع باقى السيدات اللاتى لم يكفنن حتى فى هذا المكان عن الحديث .

انشغل بال أجنس بمأهية الحياة التى برمجهها الكمبيوتر بعد الموت . هناك إمكانيتان ، فإذا كان خالق الحاسب الآلى ليس لديه سوى كوكبنا للتأثير فيه ، وإذا كنا نعتمد على هذا الكوكب وعليه فقط ، أليس من الممكن أن نتوقع بعد الموت أكثر من تبديل لما كان فى الحياة ، وسنرى مرة مناطق ومخلوقات شبيهة . هل سنكون وحدنا أم فى جمع ؟ يا إلهى إن الانفراد بالنفس غير متوقع ، فقد كان نادرا فى الدينا ، فكيف هو إذن بعد الموت ! فالأموات أكثر من الأحياء بمرات ومرات ! .

إن الوجود بعد الموت سيكون فى الغالب شبيها باللحظة التى تقضيها الآن على الأريكة فى غرفة الاستجمام ، وسوف يسمع

من كل مكان ثرثرة السيدات . إن الخلود كصوت ثرثرة لا تنتهى ، وبصراحة قد يكون من الممكن تصور كل ما هو سيئ ، ولكن أن يكون عليها أن تسمع أصوات النساء إلى الأبد وباستمرار وبدون توقف يعتبر بالنسبة لها سببا كافيا للحرص الشديد على الحياة وأن تفعل كل ما فى وسعها بقدر الإمكان .

توجد الإمكانيات الأخرى : توجد حاسبات آلية أخرى ترأس الحاسب الآلى لكوكبنا . فى هذه الحالة بالطبع ليس من الضرورى أن تشبه الحياة الأخرى الحياة الدنيا ، وأن الإنسان يمكنه الموت وهو يشعر بآمال غير واضحة ولكن حقيقية . أجنس تتخيل المشهد الذى كانت تفكر فيه كثيراً فى الفترة الأخيرة : سيأتى لزيارتهم رجل مجهول ، رجل خفيف الظل ، لطيف يجلس على مقعد أمام الزوجين ويتحدث معهما . وأمام طيبة النفس الساحرة التى تصدر من الزائر يشعر بول بأنه فى حالة مزاجية طيبة ، ورغبة فى الحديث والألفة ، فيحضر ألبوم الصور العائلية ، يقلب الضيف الصفحات ، ولكن على ما يبدو لا يفهم بعض الصور ، فعلى سبيل المثال يرى فى إحداها أجنس و"بريجيتا" أسفل برج " إيفل " فيسأل الضيف : ما هذا ؟

" هذه هى أجنس " يرد بول ويضيف : " وهذه هى ابنتنا ، بريجيتا ! "

يقول الضيف : " أنا أعرف ، ولكنى أسأل عن هذا المبنى " ينظر إليه بول متعجبا ويقول : " هذا برج إيفل " . فيتعجب الضيف

قائلا : " آه ، نعم ، هذا هو برج إيفل إذن " يقول هذا بنفس اللهجة كما لو أنكم عرضتم عليه صورة للجد ، وكأنه يقول : " هذا إذن هو جدكم الذى سمعت عنه كثيرا . أنا سعيد أن أراه أخيرا " .

بول مندهش ، وأجنس أقل دهشة . فهى تعرف من هو هذا الرجل . تعرف لماذا جاء ، وعن ماذا سيسأل . وهى لذلك عصبية نوعا ما ، وودت لو أنها جلست معه بمفردها ، بدون بول ، ولا تعرف كيف تفعل هذا .

(٤)

لقد مات الأب منذ خمس سنوات والأم كذلك منذ ست سنوات . كان الأب مريضا والجميع ينتظرون رحيله ولكن الأم كانت على العكس من ذلك فى كامل صحتها وممتلئة بالحماس ، وكان يبدو أنها خلقت لتعيش طويلا كأرملة سعيدة ، ولذلك فقد عاش الأب حياة مضطربة عندما ماتت زوجته على غير انتظار ، ولم يمت هو . لقد كان خائفا من أن الجميع سيلقون اللوم عليه فلقد كان جميعهم من أسرة الأم ، أما أقاربه فكانوا منتشرين فى جميع أنحاء العالم فيما عدا ابنة عم له من بعيد كانت تعيش فى ألمانيا ولم تكن أجنس تعرف أحدا منهم ولكن أسرة أمها كانت كلها تعيش فى مدينة واحدة ، الشقيقات والأشقاء وأولاد العم وبنات العم والكثير من أبنائهم .

لقد كان والد الأم مزارعًا يسكن فى كوخ خشبى فى الجبال وكان يعرف كيف يضحى من أجل أبنائه الذين أنهوا جميعا دراستهم وتزوجوا من أناس ذوى مراكز اجتماعية مرموقة وعندما عرفت الأم وقعت فى غرامه للأبد ، وهذا الشيء لا يدعو للدهشة فلقد كان إنسانا جميلا ، وعندما كان فى الثلاثينيات من عمره كان يعمل أستاذًا فى الجامعة ، والذى كان فى ذلك الوقت منصبا محترماً . لم تكن سعادتها تكمن فقط فى زواجها من هذا الرجل الذى تحسد عليه ولكن كذلك فى أنها ستقدمه كهدية لأسرتها التى تربطها بها التقاليد الريفية القديمة ، والتى تدعو للترابط والتضامن . ولكن لأن الأب لم يكن اجتماعيا وكان فى الغالب يؤثر الصمت أثناء وجوده بين الناس (ولا أحد يعرف إن كان هذا نوعا من عدم الجرأة أم أنه كان يفكر فى شيء آخر أم إذا كان صمته هذا نوعًا من التواضع أو عدم الاهتمام) لقد أصيب الجميع بالحيرة من هديتها أكثر من سعادتهم بها .

وكلما مرت الحياة وتقدم الاثنان فى السن زاد ارتباط الأم بأسرتها أكثر فأكثر وذلك لأن الأب كان قابلاً فى حجرة المكتب فى الوقت الذى كان لديها رغبة شديدة للتحدث ، ولذلك فقد كانت تقضى الساعات الطوال فى الحديث عبر الهاتف لشقيقاتها ولأشقائها ولأبنائهم وبناتهم مشاركة أكثر فأكثر فى همومهم . وعندما تفكر أجنس فى ذلك الآن فإنه يبدو لها أن حياة أمها كانت تشبه الدائرة المفرغة ؛ فقد خرجت من محيطها لتجد نفسها فى عالم آخر مختلف

تماما وبعد ذلك عادت مرة أخرى ، لقد كانت تقيم مع والدها وأختين في فيلا بحديقة وكانت تدعو جميع أقاربها لزيارتها عدة مرات في السنة (في عيد ميلاد المسيح وأعياد الميلاد الأخرى) في احتفال أسرى كبير . فقد كانت تتخيل أنه بعد موت الأب (والذي أعلن منذ وقت طويل ولذلك فقد كان الجميع ينظرون إليه بشفقة كما لو كانوا ينظرون إلى شخص انتهت فترة إقامته الرسمية المفترضة) سوف تأتي لتقيم عندها أختها وابنتها .

ولكن بعد ذلك ماتت الأم وبقي الأب ، وعندما جاءت أجنس مع أختها لاورا بعد أسبوعين من الجنازة وجدوه جالسا عند المنضدة فوق كومة من الصور الممزقة . التقطت لاورا هذه الصور وبدأت تصرخ " كيف هذا ، كيف تمزق صور أمي ؟ " وقد جشت أجنس هي الأخرى على هذه الأشياء الممزقة : لا لم تكن هذه صور الأم فمعظمها صور للأب فقط . في بعض منها كانت مع الأم أو كانت هي بمفردها . وأمام مفاجأة الابنتين له صمت الأب ولم يقدم تفسيراً لما حدث . قالت أجنس لأختها بصوت يملؤه الغيظ : لا تصرخي في والدك ولكن لاورا استمرت في صراخها . وقف الأب وانصرف إلى الحجرة المجاورة واندفعت الأختان في مشاجرة لم يحدث مثلها بينهما من قبل ، وفي اليوم التالي سافرت لاورا إلى باريس ، وبقيت أجنس ، وبعد ذلك أخبرها الأب بأنه وجد شقة صغيرة وسط المدينة ، وأنه قرر أن يبيع الفيلا . كانت هذه مفاجأة أخرى ؛ فقد كان الأب يظهر

دائما كأنه شخص خائب تنازل عن قيادة الحياة العملية لزوجته .
لقد كنا جميعاً نعتقد أنه لن يستطيع العيش بدونها ؛ وذلك ليس فقط
لأنه لا يعرف عمل أى شىء بمفرده ولكن لأنه سلم لها منذ وقت
طويل حتى إرادته ، وما دام قد قرر الرحيل فجأة وبدون أدنى تردد ،
وذلك بعد بضعة أيام من موتها فقد أدركت أجنس أنه فعل شيئاً ففكر
فيه طويلاً ، وأنه عرف جيداً ماذا يريد . إن هذا شىء يستحق
الملاحظة ، فهو حتى لم يكن يتوقع أنه سيعيش أكثر من الأم ، ورغم
ذلك فكر فى شقة صغيرة فى المدينة القديمة ليس كمشروع حقيقى
ولكن كحلم أراد تحقيقه ، فكان يسكن مع زوجته فى فيلتهم
ويتمشى معها فى الحديقة ويستقبل زيارات أخواتها وبنات عموماتها ،
وكان يتظاهر بأنه يستمع لما يقولونه غير أنه كان يعيش بخياله وحيداً
فى شقة العزوبية ، ولكن بعد موت زوجته انتقل إلى هناك ، إلى
المكان الذى أقام به فى قرارة نفسه منذ زمن طويل .

لأول مرة يظهر لها كلغز . ولكن لماذا مزق الصور ؟ لماذا كان
يحلم بشقة العزوبية ؟ ولماذا لم يدعن لرغبة الأم فى أن تأتى أختها
وابنتها للعيش معهم فى القليلا ؟ فقد يكون هذا حلاً أفضل من
الناحية العملية ، فبالتأكيد كانوا سيراعونهم فى مرضه أفضل من أى
ممرضة تفعل ذلك بأجر ، والتى سيكون ملزماً أن يستأجرها فى يوم
من الأيام . وعندما سألته عن أسباب تركه للقليلا ، كانت فى انتظارها
إجابة بسيطة مختصرة " وماذا تريد أن يفعل شخص واحد فى هذا

البيت الكبير ؟ " وأن تقترح عليه أن يحضر أخت زوجته وابنتها لم يكن ممكنا ؛ لأن الأمر كان فى غاية الوضوح وهو أنه لا يريد ذلك . وهكذا دار بخاطرها أن الأب يعود إلى الدائرة التى خرج منها . الأم : من الأسرة إلى الزواج ومرة أخرى إلى الأسرة . هو : من الوحدة إلى الزواج ثم مرة أخرى إلى الوحدة .

فأول مرة مرض الأب مرضاً خطيراً كان قبل موت الأم بعدة سنوات ، فقد أخذت أجنس حينذاك إجازة لمدة أربعة عشر يوماً لتكون فقط بجانبه ولكنها لم تنجح فى ذلك ، فالأم لم تتركهما معا ولو للحظة واحدة . فذات مرة حضر لزيارة الأب زميلان له فى الجامعة وسألاه أسئلة عديدة ولكن كانت الأم دائماً تجيب بدلا منه ، ولكن أجنس لم تتمالك نفسها وقالت : " من فضلك دعى أبى يتحدث ! " فقالت الأم وقد شعرت بالإهانة : " ألا ترين أنه مريض ! " وفى نهاية الأربعة عشر يوماً عندما تحسنت حالته قليلا ذهبت معه أجنس للتمشية مرتين ، ولكن فى المرة الثالثة كانت الأم معهم .

وبعد عام من موت الأم ساءت حالته بسرعة كبيرة فحضرت أجنس إليه وظلت معه ثلاثة أيام وفى صباح اليوم الرابع مات . وفى خلال هذه الأيام الثلاثة فقط كانت معه كما كانت تشتاق دائما أن تكون . كانت تقول إنهما يحبان بعضهما البعض ولكنهما فى الحقيقة لم يستطيعا معرفة ذلك ؛ لأنه لم تكن لديهما فرصة كافية ليكونا معا

بمفردهما . أطول فترة قضياها معا عندما كان عمرها ما بين ثمانية وتسعة أعوام ، عندما كانت أمها مشغولة بالطفلة الصغيرة لاورا . كانا يذهبان معا حيثنذ للتنزه لفترات طويلة فى الطبيعة ، وكان يجيب على الكثير من تساؤلاتها . كان يحكى لها عن الكمبيوتر المعجزة وعن أشياء أخرى كثيرة . بقى فى ذاكرتها من هذه المحادثات بعض العبارات المتفرقة كفتافيت الأطباق الثمينة والتى حاولت عندما وصلت إلى سن البلوغ أن تلصقها معا .

وبموته انتهى انفرادهما اللذيد ببعضهما لمدة ثلاثة أيام . لقد تم دفنه وحضر الدفن جميع أقارب أمها ، ولأن الأم لم تكن موجودة فلم يحاول أحد تنظيم مأدبة جنازية وتفرق الجميع سريعا . والسبب الآخر أن أباهما قد باع الفيلا ورحل إلى شقة العزوبية . وقد اعتبر الأقارب هذا إشارة إلى أنه يرفضهم ، وحيثنذ فكروا فقط فى شيء واحد هو أن البنتين ستصبحان من الأثرياء ، لأنه لابد أن الفيلا كانت تساوى ثمنا كبيرا . فقد عرفوا من الموثق العام بالطبع أن كل ما كان لديه فى البنك تبرع به للجمعية العلمية للرياضيين والتى كان أحد مؤسسيها . ولذلك فقد صار غريبا عنهم أكثر مما كان فى حياته ، وكأنه يريد بوصيته الأخيرة أن يطلب منهم أن ينسوه تماما .

ويعد موته بفترة قصيرة تأكدت أجنس أن حسابها فى البنك قد زاد مبلغا كبيرا . أدركت كل شيء . هذا الشخص الذى كان يبدو غير عملى ، تصرف بذكاء شديد . فقبل عشرة أعوام عندما شعر

للمرة الأولى أن حياته فى خطر وحضرت هى لكى تبقى معه أربعة عشر يوما ، أجبرها على أن تقوم بفتح حساب لها فى سويسرا ، وقبل موته بفترة قصيرة حول عليه تقريبا كل الأموال ، والقليل الذى تبقى تبرع به للجمعية العلمية للرياضيين . فلو أوصى بكل شىء لأجنس فى وصيته الأخيرة ، لكان بذلك قد أذى شعور ابنته الأخرى بلا داع . ولو أنه حول كل أمواله لحسابها ولم يتبرع بمبلغ رمزى للرياضيين ، لتحرى الجميع بفضول عما حدث للنقود .

وللهولة الأولى قالت أجنس لنفسها ، إنها لابد وأن تقتسم هذه النقود مع لاورا ، ولأنها كانت أكبر من أختها بثمانية أعوام لم تستطع أبدا أن تتخلص من شعورها بالمسئولية تجاهها . ولكنها فى النهاية لم تخبرها بشىء ، ليس بسبب البخل ولكن لأنها بهذا ستكون خانت والدها . فبهديته لها أراد أن يقبل لها شيئا ، أن يوضح لها أمرا ، أن يوجه لها نصيحة لم يتمكن من توجيهها لها فى حياته والتي يجب أن تحافظ عليها كسر يتعلق بهما هما الاثنان فقط .

(٥)

أوقفت سيارتها ونزلت منها واتجهت إلى وسط المدينة . أحست بالتعب والجوع لأنه لشيء محزن أن تأكل بمفردها فى مطعم . أرادت أن تتناول أى شىء بسرعة فى أقرب بوفيه يقابلها . ورغم أنه فى

وقت ما كان فى هذا الحى الكثير من المطاعم المفيدة والمحبة إلى الناس ، حيث كان يمكن أن يأكل فيها الإنسان فى راحة وبسعر منخفض أنواع الطعام المختلفة . وفى يوم ما اختفت كل هذه الحانات وظهر بدلا منها المطاعم الحديثة التى تسمى باسم يثير الشجن " فاست فود " . وهنا تغلبت على مشاعر الاشمئزاز التى أثّرت فى داخلها وتوجهت إلى أحد هذه المطاعم . رأت من خلف الزجاج أناسًا جالسين حول المناضد منكين على الأطباق الورقية الممتلئة بالدهون . توقف نظرها عند فتاة وجهها شاحب وشفاتها ملونتان باللون الأحمر ، انتهت من الغداء ودفعت جانبًا كوب الكوكا كولا الفارغ ، ثم أحنت رأسها وأدخلت إصبع السبابة فى فمها إلى عمق كبير . مرت بنظرها على هؤلاء الناس بينما تحجرت نظراتها ، فقد كان الرجل فى المنضدة المجاورة مستلقيًا تقريبًا على الكرسي ونظره مركز على الشارع وفمه مفتوحا . لم تكن هذه مثابة لها بداية ونهاية ، لقد كانت هذه مثابة لانهائية كمعزوفة فاجنر : ثم أغلق فمه للحظة ولكنه لم يكن أبدا مغلقا عن آخره ، ثم فتحه من جديد أكثر وأكثر على مصراعيه بينما عيناه المثبتتان على الشارع ترمشان ثم تفتحان فى حركة مضادة لفمه . لقد كان العديد من الناس بالفعل يتشاءبون حتى ترى أسنانهم وحشو أسنانهم وطرايبشها وأطقم الأسنان ، ولم يضع أحد منهم يده على فمه وهو يتشاءب . وكان يسير بين المناضد طفل صغير فى ملابس وردية ويمسك بلعبة على شكل دب صغير ، حتى هذا الطفل كان فمه مفتوحا وكان واضحًا أنه لا يتشاءب ولكنه يصرخ ، ثم ضرب بالدب

أحد الزبائن . لقد كانت المناضد متلاصقة ، ولذلك فحتى من خلف الزجاج كانت تلاحظ أن كلاً من هؤلاء الزبائن لا بد أن يتلع مع الطعام أيضاً رائحة العرق التي تنبعث من سطح جلد جاره ، والتي تسببها حرارة شهر يوليو . فهذه الموجة من القبح البصرى والشمى والمذاقى (فقد تخيلت طعم الهامبرجر كثير الدهون وقد صب عليه ماء محلى بالسكر) أصابتها بصدمة قوية جعلتها تعدل عن قرارها وتقرر أن تبحث عن مكان آخر لتسد فيه جوعها .

كان الرصيف ممتلئاً بالناس ويصعب السير فيه . ثم شق اثنان طويلاً القامة من الاسكندنافيين الشماليين ذوى الشعر الأصفر طريقهما بين جموع الناس : رجل وامرأة يزيدان فى الطول عن جموع الفرنسيين والعرب بمقدار رأسين ، وكل منهما يحمل على ظهره حقيبة ذات لون وردى وعلى بطنه طفل رضيع مثبت بأحزمة خاصة . وبعد لحظة اختفيا تماماً عن البصر . ثم رأت سيدة تمر من أمامها وهى ترتدى شورتاً واسعاً فوق الركبة تماماً طبقاً لموضة هذا العام . لقد بدت مقعدتها فى هذه الملابس أكثر امتلاءً وأقرب إلى الأرض وربلة ساقها العارية والشاحبة بدت كأنها دورق ريفى محلى ببروز من عروق صارخة ذات لون أزرق زهرى ملتوية كمجموعة من الثعابين الصغيرة . فقالت أجنس لنفسها : كان يمكن لهذه السيدة أن تجد عشرين نوعاً من الملابس التى تجعل مقعدتها تبدو أقل بشاعة ، وتخفى عروق ساقها الزرقاء . لماذا لم تفعل ذلك ؟ فالناس لا يحاولون أن يكونوا أجمل عندما يكونون خارج منازلهم بين أناس آخرين ، ولكنهم حتى لا يحاولون أن لا يكونوا قبحاء .

ثم قالت لنفسها : عندما يصبح هجوم القبح غير محتمل ، ستشترى من محل بيع الزهور زهرة أذن الفأر . زهرة واحدة فقط ، هذه الساق النحيفة ذات الزهرة الصغيرة التى تبدو كأنها رسمت رسماً ، ستخرج بها إلى الشارع وسوف تضعها أمام وجهها ، وستركز مضطرة كل نظرها عليها حتى ترى فقط هذه النقطة الوحيدة الجميلة الزرقاء ، حتى تراها كآخر شيء من هذا العالم الذى لم تعد تحبه . سوف تسير هكذا فى شوارع باريس ، وبعد فترة قصيرة سيعرفها الناس وسوف يجرى وراءها الأطفال ويسخرون منها ويقذفونها بشتى الأشياء وستلقبها كل باريس بالمجنونة صاحبت زهرة أذن الفأر .

واصلت سيرها ثم سمعت بأذنها اليمنى إيقاعات موسيقية قوية وضربات إيقاعية لآلات موسيقية تأتى إليها من المتاجر وصالونات الحلاقة ومن المطاعم ، ودوت فى أذنها اليسرى جميع الأصوات التى تأتى من الطريق . أصوات السيارات المتفرقة وصوت مزعج لإحدى الحافلات المارة . ثم وصل إلى سمعها صوت حاد وقوى لدراجة بخارية ، ولم تستطع أن تمنع نفسها من النظر إلى هذا الذى سبب ذلك الألم البدنى : إنها فتاة ترتدى الجينز ، ذات شعر أسود طويل ينساب خلفها ، تجلس منتصبّة على دراجة بخارية كأنها تجلس خلف آلة كاتبة ، لم يكن بالدراجة البخارية خافض للصوت ولذلك أصدرت هذه الضوضاء الرهيبة .

وهنا تذكرت أجنس هذه المرأة الشابة التي دخلت منذ عدة ساعات إلى الساونا وحتى تلفت انتباه الآخرين إليها وأن تجبرهم على ذلك ، قالت من على عتبة الساونا إنها تكره الحمام الساخن والتواضع ، لقد كانت أجنس متأكدة من أن هذا هو نفس الدافع الذى دفع الفتاة الصغيرة ذات الشعر الأسود لكى تنزع خافض الصوت من الدراجة البخارية . لم تكن الدراجة البخارية هى التى سببت هذه الضوضاء ، لقد كانت " الأنا " عند هذه الفتاة ذات الشعر الأسود ، لقد ربطت هذه الفتاة نفسها باسطوانة المحرك المزعجة هذه ، وذلك حتى يسمعها الآخرون ويشعرون بها . نظرت أجنس للشعر المنساب لهذه النفس المزعجة وشعرت أنها تتمنى من كل قلبها موت هذه الفتاة . فإذا اصطدمت الآن بحافلة وسقطت على الإسفلت غارقة فى دمائها ، لن تشعر أجنس تجاهها بأى صدمة أو حزن ، ولكن ستشعر فقط بالارتياح .

شعرت على الفور بانقباض من حنقها هذا وقالت لنفسها : إن العالم قد وصل إلى نقطة ما ، فإذا تخطاها سيصاب كل شئ بالجنون : فالناس سيسيرون فى الشوارع ممسكين بزهرة أذن الفأر فى أيديهم ، وإلا فإنهم عندما يلتقون سيقتل بعضهم البعض وسوف يكفى القليل ، فبسبب قطرة من الماء ينسكب الكوب كله : فربما من الضرورى أن يكون فى الشارع سيارة أخرى أكثر أو شخص أو ديتسبل ، واحد . فهناك حدود للكم لا يجب تجاوزها ولكن لا أحد يراقب هذه الحدود ويحتمل أنه لا أحد يعرف أن هذه الحدود موجودة فى الأصل .

واستمرت فى طريقها على الرصيف وكلما سارت أكثر كان عدد الناس أكبر ، ولم يفسح لها أحد الطريق من القادمين فى الاتجاه المعاكس ، فنزلت إلى الطريق وتابعت سيرها على حافة الطريق بين جانب الرصيف والسيارات العابرة . لقد كانت هذه هى عادتها القديمة : لم يفسح لها أحد الطريق ، كانت تعرف ذلك ، وشعرت أن هذا قدرها التعس وحاولت كثيرا أن تغيره : لقد حاولت أن تستجمع شجاعته وأن تسير إلى الأمام بثبات وألا تنحرف عن طريقها وتنجبر القادم فى الاتجاه المقابل أن يغير هو طريقه ، ولكنها لم تستطع ذلك مطلقا . وفى هذه التجربة اليومية كانت هى الخاسرة دائما . وذات مرة كان يأتى فى الاتجاه المقابل لها طفل فى حوالى السابعة من عمره وقد حاولت أجنس ألا تتراجع ، ولكن فى النهاية لم يكن أمامها سوى التراجع إذا أرادت ألا تصطدم بالطفل .

وهنا قفزت إلى مخيلتها إحدى الذكريات : كان عمرها عشر سنوات تقريبا عندما ذهبت مع والديها فى نزهة جبلية ، وفى إحدى طرقات الغابة الواسعة. اعترضهم صبيان قرويان : أحدهما كان يمسك بإحدى يديه المفرودة عصا فى وضع أفقى لكى تمنعهم من المرور قائلا : إن هذا الطريق ملكية خاصة وهنا يتم دفع رسوم . قال الصبى ذلك ودفع العصا حتى لامست ملائمة خفيفة بطن أبيها .

من المحتمل أن هذا كان مجرد لعب أطفال وكان يكفى دفع هؤلاء الأطفال جانبا ، أو ربما كانت هذه طريقة للاستجداء ويكفى أن

يخرج من جيبه فرنكا ولكن أبوها استدار وأثر اختيار طريق آخر ،
لقد كان هذا ، بكل الصدق ، تصرفا سلبيا لأنهم بعد ذلك
ساروا لا يعرفون إلى أين وإلى أى وجهة يتجهون . ولكن أمها
غضبت منه ولم تتمالك نفسها لكى لا تقول : " إنه يتراجع حتى
أمام صبيين فى الثانية عشرة من عمرهما ! " حتى أجنس أصيبت
حيثئذ بخيبة أمل من تصرف والدها .

وهنا قطع ذكرياتها هجوم ضوضائى شديد : فهناك بعض الرجال
يلبسون الخوذات على رؤوسهم يتكئون على حفارات يدوية يحفرون
بها فى الأسفلت . ووسط هذه الضوضاء المزعجة سمعت فجأة من
مكان مرتفع كما لو كانت جاءت من السماء مقدمة موسيقية لباخ
معزوفة على البيانو ، هناك شخص ما تقريبا فى الطابق العلوى فتح
جهاز التسجيل على آخره حتى تدوى موسيقى باخ الجميلة كتحذير
رهيب للعالم الذى سار فى طريق خاطئ ، ولكن مقدمة باخ الموسيقية
لم تستطع إيقاف الحفارات والسيارات ، ولكن على العكس من ذلك فقد
احتوت السيارات والحفارات مقدمة باخ وجعلتها جزءا من مقدمتها ،
ولذا فقد وضعت أجنس يديها على أذنيها وواصلت سيرها .

فى هذه اللحظة نظر إليها أحد المترجلين الذى يسير فى الاتجاه
المعكس نظرة تملؤها الكراهية ثم ضرب بيده على جيبه ، وهذا يعنى
بلغة الإشارة فى كل العالم أننا نريد أن نقول لشخص ما إنه مجنون
وأحمق وغبى . رأت أجنس هذه النظرة وهذا الحقد فتملكها غضب

شديد ، توقفت ، أرادت أن تهجم على هذا الشخص ، وأن تمسك به ولكنها لم تستطع فجموع الناس حملته بعيدا ، ثم اصطدم أحد الأشخاص بها ، لأنه لم يكن من الممكن التوقف على الرصيف أكثر من ثلاث ثوان .

لابد أن تواصل السير ، ولكنها لم تستطع أن تتوقف عن التفكير فى هذا الشخص . لقد رأى أنه من الضرورى أن يعطيها إشارة ، أنه ليس هناك ما يدعو ، وأنه ليس لها أى حق فى أن تضع يدها على أذنيها . هذا الشخص دعاها لكى تعود إلى النظام الذى خالفته بحركتها هذه . إن هذا هو مبدأ المساواة بعينه الذى لامها فى شخص هذا الرجل ، فلا يسمح لأى شخص أن يرفض الخضوع لما يخضع له الآخرون . إنه نفس مبدأ المساواة الذى منعها أن ترفض هذا العالم الذى نعيش فيه جميعا .

لم تكن رغبتها فى قتل هذا الرجل رد فعل عابر . فرغم أن هذا الاستفزاز المباشر قد انتهى إلا أن هذه الرغبة ظلت كامنة فى داخلها وانضم إليها دهشتها من أنها تستطيع أن تحمل فى داخلها هذه الكراهية ، فصورة هذا الشخص الذى ضرب يده على جبينه كانت تسبح فى أعماقها كالسم الذى يملأ أحشاء السمكة وهى تتمزق ببطء ولا يمكن بتر أحد أجزائها .

ثم عادت الذكرى مع أبيها إلى مخيلتها مرة أخرى . فمنذ هذه الفترة التى رآته يتراجع أمام صبيين فى الثانية عشرة من عمرهما ،

كانت غالبا ما تتخيله فى الموقف التالى : كأنه فى سفينة تغرق ويوجد عدد قليل من قوارب النجاة لا تكفى للجميع . ولذا فعلى متن السفينة نزاحم شديد . فى البداية يفر الأب مع الفارين لينجو بنفسه ولكنه عندما يرى كيف يتدافع الناس ويصطدم بعضهم البعض ، ومستعدون لأن يدوس بعضهم الآخر ، وعندما تضربه سيدة نائرة بقبضة يدها لأنه يعوقها ، يتوقف ويتنحى جانبا تماما . وفى النهاية يقف متفرجا ليشاهد قوارب النجاة ممتلئة عن آخرها بالركاب المزمجرين الذين أصبحوا فى أمان ، وهى تشق ببطء طريقها وسط الأمواج النائرة .

كيف تسمى موقف والدها هذا ؟ جبن ؟ لا ، فالجبناء يخافون على حياتهم ، لذلك فهم يعرفون كيف يقاتلون من أجلها . هل هى أخلاق الفرسان ؟ يمكن الحديث عن هذا ولكن فى حالة ما إذا كان دافع الأب هو الرغبة فى مساعدة الآخرين . ولكن لم يكن الأمر كذلك فى رأى أجنس . ماذا كان إذا ؟ لم تكن تعرف الإجابة عن هذا السؤال . ولكن شيئا واحدا بدا لها مؤكدا : خاصة فى السفينة التى تغرق ، حيث يصبح من الضرورى الصراع مع الآخرين للنزول إلى قوارب النجاة ، إن الأب قد حكم عليه مسبقا بالموت .

نعم بالتأكيد . فالسؤال الذى طرحته الآن على نفسها كان : هل شعر الأب بالحق على هؤلاء الناس على السفينة كما شعرت هى تجاه الفتاة التى كانت تقود الدراجة البخارية أو تجاه هذا الرجل الذى سخر

منها عندما وضعت يديها على أذنيها ؟ لا . فأجنس لا يمكنها أن تتصور أن أباهما كان يعرف الكراهية . فدناءة الكراهية تكمن في أنها تربطنا مع العدو برباط جسدى . وفى هذا تكمن لا أخلاقية الحرب : خصوصية الدم المختلط بعضه البعض والتقارب الوقح لجنديين يطعن كل منهما الآخر وهو ينظر فى عينيه ، فأجنس متأكدة أن أباهما كان يكره هذه الخصوصية ويعارضها . لقد أصابه بالاشمئزاز هذا التزاحم على ظهر السفينة ففضل الغرق .

لقد بدا له تلاصق الناس الذين يدفع كل منهما الآخر ويلقى كل منهما بالآخر لحتفه ، بدا له أسوأ كثيرا من أن ينهى الإنسان حياته بيده فى ماء البحر الصافى .

فهذه الذكرى عن أبيها بدأت تخلصها من الكراهية التى كانت تملؤها منذ لحظات . فالصورة الكريهة للرجل الذى ضرب بيده على جبهته قد اختفت تقريبا من مخيلتها التى سيطرت عليها هذه العبارة : لا أستطيع أن أكره هؤلاء الناس لأننى لست مرتبطة بهم ولا يوجد شىء مشترك بينى وبينهم .

(١)

وكان لخسارة هتلر للحرب الفضل فى أن أجنس ليست ألمانية ، فلاول مرة فى التاريخ لم يترك للمهزوم ما يتفاخر به أو حتى التفاخر

المؤلم بالفشل ، فلم يرض المنتصر بالانتصار فقط ولكنه قرر أن يحاكم المهزوم ويحاكم كل الأمة ، ولذلك لم يكن من المقبول فى هذه الفترة التحدث باللغة الألمانية أو حتى حمل الجنسية الألمانية .

فجدود أجنس من أمها كانوا من المزارعين الذين يعيشون فى المنطقة الحدودية بين الجزء الألمانى والفرنسى من سويسرا ، وعندما تم ضمهم إداريا إلى الفرنسيين كانوا يتحدثون بشكل جيد كلتا اللغتين . أما والدى أبيها فكانوا من الألمان الذين يعيشون فى المجر . وكان الأب فى شبابه يدرس فى باريس ، حيث تعلم هناك إلى درجة مناسبة اللغة الفرنسية ، وعندما تزوج أصبحت اللغة المشتركة بينه وبين زوجته ، بالطبع وبشكل تلقائى ، اللغة الألمانية . وفقط بعد الحرب تذكرت أمها لغة أبويها الرسمية ، فتم إرسال أجنس إلى المدرسة الثانوية الفرنسية . وقد كان مسموحا للأب بشىء واحد فقط يسعده كألمانى وهو أن يلقي أمام ابنته الكبرى بعضاً من أبيات الشاعر الألمانى جوته فى لغتها الأم .

لقد كانت هذه القصيدة هى الأكثر شهرة من جميع القصائد الألمانية الأخرى التى كتبت حينئذ والتى كان لزاما على جميع الأطفال الألمان أن يحفظوها عن ظهر قلب .

على جميع الربا

يعم السكون ،

وفوق قمم الأشجار

لا تسمع
حتى الأنفاس .
فى الغابة تصمت الطيور .
فقط انتظر ، فقربيا
سترتاح أنت أيضا .

إن فكرة القصيدة بسيطة ، كل شىء ينام فى الغابة وأنت ستنام
أيضا . فالغرض من القصيدة ليس إبهارنا بهذه الفكرة التى تثير
الدهشة ، ولكن اتخاذ لحظة واحدة لا تنسى لكيانه وتستحق الشعور
الجياش بالحقيقة .

عند الترجمة الحرفية تفقد القصيدة كل شىء . فإنك تشعر
بجمالها فقط عندما تقرأها باللغة الألمانية .

über allen Gipfeln

Ist Ruh

In allen Wipfeln

Spürest du

Kaum einen Hauch.

Die Vögelein schweigen im Walde.

Warte nur, balde

Ruhest du auch

فلكل بيت من الأبيات عدد مختلف من المقاطع وتتناوب فى هذه الأبيات القوافى الشعرية التى تنتهى بحرف أو حرفين ، أما البيت السادس فهو على غير المألوف أطول من الأبيات الأخرى رغم أن الأمر يتعلق فقط بيتين مكونين من أربعة أجزاء . فالجمله الأولى تنتهى على غير المعتاد فى البيت الخامس ، مما يؤدى إلى ظهور نغمة لم تكن موجودة قبل ذلك إلا فى هذه القصيدة الوحيدة التى رغم كونها رائعة إلا أنها تبدو عادية جدا .

لقد تعلم الأب هذه القصيدة فى المجر عندما كان يدرس فى المدرسة الألمانية العامة ، وقد سمعت أجنس منه هذه القصيدة لأول مرة عندما كانت فى مثل سنه فى ذلك الوقت . كانا يرددان هذه القصيدة فى نزهاتهما معا ، وكانا يؤكدان على كل نبرة بشكل غير مستساغ ويحاولان أن يحسنا من إيقاع القصيدة ، ولكن الأمر لم يكن سهلا وذلك نظراً إلى عدم انتظام القافية ولكنهم تمكنوا من ذلك فى البيتين الأخيرين فقط :

War - te nur - bal - de - ru - hest du - auch!

فكانوا يقولونها بصوت عال يشبه الصراخ حتى يُسمع تردد صداها لمسافة كيلو متر : auch!

آخر مرة قال لها أبوها هذه القصيدة كان فى أحد الأيام الثلاثة التى قضتها معه قبل وفاته ، لقد اعتقدت للوهلة الأولى أنه يريد

بترديده لهذه القصيدة أن يعود للغته الأم ولطفولته ، ولكن بعد ذلك رآته ينظر فى عينيها نظرة تحمل الكثير من المعانى والخصوصية ، وخطر لها أنه يريد أن يذكّرها بلحظات السعادة التى عاشها معاً فى نزهاتهما الماضية . لكنها فى النهاية أدركت أن هذه القصيدة تتحدث عن الموت . لقد أراد أن يقول لها إنه يحتضر وأنه يعرف ذلك . لم يخطر ببالها أبداً أن هذه الأبيات البريئة المناسبة لتلاميذ المدارس يمكن أن تحمل هذا المعنى . كان أبوها يرقد فى فراشه آنذاك وجبهته تتصبب عرقاً من ارتفاع حرارته ، وكانت تقبض على يده محاولة التغلب على دموعها ، وأخذت تردد معه بصوت منخفض : فقط انتظر - فقريباً سترتاح أنت أيضاً ، فقريباً سترتاح أنت أيضاً . عرفت من هذا الصوت باقتراب رحيله . لقد كان هذا هو صمت الطيور الساكنة فوق قمم الأشجار .

وبعد رحيله لف السكون المكان بالفعل ، لقد كان هذا السكون فى داخلها ، وكان سكونا جميلاً . سأقول ذلك مرة أخرى : لقد كان هذا هو صمت الطيور الساكنة فوق قمم الأشجار . وكلما مرّ الزمان دوت فى هذا السكون أكثر فأكثر كبوق صيد يدوى من أعماق الغابات رسالة والدها الأخيرة . ترى ماذا أراد أن يقول لها بهديته هذه ؟ هل أراد أن تصبح حرة طليقة ، هل لكى تعيش كما تريد أن تعيش ، لكى تذهب حيثما تشاء . فهو لم تكن لديه الشجاعة ليفعل هذا ، ولذلك فقد أعطى كل الإمكانيات لابنته لكى تكون لديها الشجاعة لفعل ما لم يفعله هو .

منذ اللحظة التي تزوجت فيها أجنس فقدت متعة الشعور بالانفراد بالنفس . كانت تعمل لمدة ثماني ساعات يوميًا وتجلس في حجرة واحدة مع اثنين من زملائها ، وبعد العمل كانت تعود لشقتها المكونة من أربع غرف ، ولكن لم تكن لها غرفة خاصة بها في هذه الشقة ، في الشقة صالون كبير ، وغرفة نوم لها ولزوجها وغرفة لبرجيتا وحجرة مكتب لباول .

وعندما كانت تشكو من ذلك كان بول يعرض عليها أن تعتبر الصالون غرفتها الخاصة ، وكان يعدها (بصدق مشكوك فيه) أنه لن يزعجها لا هو ولا برجيتا ، ولكن كيف يمكن أن تشعر بالراحة في حجرة بها طاولة طعام وثمانية مقاعد مخصصة لضيوف المساء .

لعله من الواضح الآن لماذا كانت تشعر هذا الصباح بالسعادة وهي في الفراش الذي تركه بول من لحظات ، ولماذا دخلت إلى الردهة في هدوء وهي خائفة من أن تراها برجيتا . كانت تحب المصعد ذا المزاج المتقلب ، لأنه كان يحقق لها الشعور بالانفراد بالنفس لبعض اللحظات . وكانت تشتاق لركوب السيارة لأنه في السيارة لا أحد يتحدث إليها أو يلاحقها بنظراته . نعم ، إن أهم شيء هو ألا يلاحقها أحد بنظراته . إنه الانفراد بالنفس هذا الشعور العذب بغياب من يلاحقها بنظراته . ذات مرة مرض زميلاها في العمل فظلت لاثني عشر يوما تعمل بمفردها في الحجرة . وما يثير الدهشة أنها تأكدت أنه

فى المساء كانت تبدو أقل إرهاقا إلى درجة كبيرة . فمنذ ذلك الوقت عرفت أن النظرات كالأثقال تجذبها إلى الأرض أو كالقبل التى تمتص قوتها . وأن التجاعيد التى ظهرت فى وجهها حفرتها سهام النظرات .

وفى الصباح وهى تستيقظ سمعت فى المذياع خبراً يقول إن مريضة شابة توفيت أثناء عملية بسيطة بسبب الإهمال فى التخدير ، ولذلك فسيتم محاكمة ثلاثة من الأطباء ، وتتقدم جمعية حماية المستهلكين باقتراح يقضى بتصوير جميع العمليات بلا استثناء وأن يتم حفظ هذه الأفلام فى أرشيف وقد صفق الجميع لهذا الاقتراح .

نحن نطعن كل يوم بألف نظرة ، ولكن هذا لا يكفى ، والأدهى من ذلك أنه سيصبح هناك نظرة أرشيفية لن نتركها لحظة واحدة ، ستلاحقنا فى الشارع ، فى الغابة ، عند الطبيب ، على منضدة غرفة العمليات أو فى الفراش . ستكون أحداث حياتنا محفوظة فى الأرشيف لكى يمكن استخدامها فى حالات النزاعات القضائية أو عندما يتطلب هذا الفصول العام .

لقد أثارت هذه الأفكار فى داخلها الحنين إلى سويسرا ، كانت تسافر إلى هناك مرتين أو ثلاثة كل عام ، علق بول وبريجيتا بابتسامة خفية على أن دافع سفرها هذا بأن السبب هو حاجتها الصحية والوجدانية : إنها تذهب إلى هناك لكى ترفع أوراق الشجر من على قبر أبيها ، وتتنفس الهواء النقى من النافذة المفتوحة على مصراعها

فى أءء فناءق ءبال الألب . لكنهم لم يكونوا على صواب .
فرغم أنه ليس لها هناك عشيق إلا أن سويسرا هى الخيانة الوحيدة
والمنتظمة التى ترتكبها فى حقهم . سويسرا هى غناء الطيور فوق قمم
الأشجار ، فقد كانت تحلم دائما أن تذهب ذات مرة إلى هناك ثم
لا تعود ، بل لقد ذهبت إلى أبعد من ذلك فتفقدت عدة مرات بعض
الشقق المعروضة للبيع أو للإيجار ، حتى أنها صاغت فى خاطرها
خطابا تخبر فيه ابنتها وكذلك زوجها أنها مازالت تحبهما ولكنها قررت
أن تعيش بمفردها بعيدا عنهما ، وترجوهم بأن يبلغاها من وقت لآخر
بأخبارهما لأنها تريد أن تتأكد أنه لم يحدث لهما مكروه . كان هذا
أمرا فى غاية الصعوبة أن تشرح وتعبّر لهما عن حاجتها إلى معرفة
أخبارهما وأحوالهما وفى الوقت نفسه لا ترغب فى رؤيتهما والبقاء معهما .

لم يكن هذا كله سوى أضغاث أحلام ، فكيف يمكن لامرأة
عاقلة أن تترك حياتها الزوجية السعيدة ؟ ورغم ذلك كان هناك صوت
عذب ينادى من بعيد فى داخل هذا الزواج الهادئ . إنه صوت الرغبة
فى الانفراد بالنفس . ثم أغلقت عينيها وأخذت تستمع إلى صوت
بوق الصيد الذى يدوى من أعماق الغابات البعيدة ، وفى نهاية هذه
الغابات كان هناك العديد من الطرق وفى إحداها يقف الأب ينتسم
ويدعوها أن تأتى وراءه .

(٧)

جلست أجنس فى المقعد تنتظر بول فكان من المفترض أنهم سيتناولون طعام العشاء معا - هذا العشاء يسمونه فى فرنسا " **diner en ville** " ويعنى هذا أن الأشخاص الذين يعرف بعضهم البعض معرفة سطحية أو لا يعرفون بعضهم على الإطلاق سيكون عليهم أن يتبادلوا أطراف الحديث وهم يأكلون لمدة ثلاث أو أربع ساعات ، كانت تشعر بالتعب لأنها لم تتناول أى طعام طوال النهار ، ولكى تسترخى قليلا أخذت فى تصفح إحدى المجلات كثيرة الصفحات ، كانت تشاهد فقط الصور الملونة الموجودة بكثرة فى المجلة وفى منتصف المجلة كان هناك تحقيق صحفى عن كارثة وقعت أثناء معرض الطيران ؛ فقد سقطت طائرة مشتعلة وسط جموع المتفرجين . كانت الصور من الحجم الكبير ، وكل صورة من هذه الصور تشغل صفحتين من هذه المجلة المقسمة إلى أجزاء . وتوضح هذه الصور الناس المذعورين وهم يفرون فى كل اتجاه ، الملابس المشتعلة ، الجلد المحروق ، ألسنة اللهب ترتفع من أجسام الضحايا . لم تستطع أجنس أن تحول نظرها عن هذه الكارثة . فأخذت تفكر وتتخيل كيف أن أحد المصورين الذى كان يشعر بالملل أثناء مشاهدة هذا العرض العادى قد عاش سعادة غامرة . ففجأة رأى الحظ يسقط عليه من السماء فى صورة طائرة مشتعلة .

تصفحت بعض الصفحات ثم رأيت صوراً لأناس عراة على شاطئ البحر وعنوان صحفي كبير يقول : صوروا الإجازات التي لن تجدوها في ألبوم ذكريات قصر باكنجهام ، ثم مقالة قصيرة بجملة ختامية : ... " وكان هناك مصور صحفي ، فالأميرة مرة أخرى ستجد نفسها فجأة في مقدمة الأحداث ، والذنب هو علاقاتها " لقد كان هناك مصور ، في كل مكان مصور ، مصور مختبئ خلف الأشجار ، مصور متنكر في صورة شحاذا مريض ، عين في كل مكان ، في كل مكان عدسات التصوير .

وهنا تذكرت أجنس عندما كانت طفلة كانت متشعبة بفكرة أن الله يراها ، يراها دائما . لقد كانت تعيش حيث ولأول مرة هذه الإثارة ، هذا الشعور الغريب بالسعادة التي يشعر بها الإنسان عندما يكون مراقباً ، مراقباً رغماً عنه ، مراقباً في لحظات خصوصيته حيث يغتصب بالنظرات . فوالدتها التي كانت مؤمنة كانت تقول لها " إن الله يراك " لقد أرادت بذلك أن تجعلها تقلع عن الكذب ، وقضم أظافرها ، ووضع إصبعها في أنفها ، ولكن ما حدث كان عكس ذلك ، فعندما كانت تمارس عاداتها السيئة أو في لحظاتها الخاصة كانت تتخيل أنه يراها فكانت تريه ما تفعله .

لقد كانت تفكر في أخت ملكة إنجلترا ، وقالت لنفسها إن عين الله تبدلت اليوم بكاميرات المصورين ، فقد حلت عيون الجميع مكان عين واحدة . لقد أصبحت الحياة مهرجاناً للعريضة أو كما يقولون

فى فرنسا " أورچيا " ، فى مهرجان للعريفة نشترك فىة جميعا .
فالجميع يستطيعون رؤية الأميرة الإنجليزية عارية وهى تحتفل بعيد
ميلادها على أحد الشواطئ فى المنطقة الاستوائية . فالكاميرا تهتم
فقط بالمشاهير ، ولكن يكفى أن تسقط طائرة بالقرب منك وأن
تتصاعد النيران من قميصك وعلى الفور تصبح أنت أيضا مشهورا
وتنضم إلى مهرجان العريفة الكبير الذى ليس له أى علاقة بالسعادة
ويعطى إشارة واضحة للمشاهير بأن يأخذوا فى الاعتبار أنه لن يمكنهم
الاختفاء عن أعين الناس وأنهم عرضة لكل إنسان .

ذات مرة كانت ذاهبة للاجتماع برجل ما ، وفى اللحظة التى كانت
تقبله فيها فى ردهة أحد الفنادق ظهر أمامها فجأة شاب له لحية
وشارب ، ويحمل على كتفيه خمس حقائب لكاميرات تصوير ثم نزل
على إحدى ركبتيه وأخذ وضع التصوير ، فأخذت تلوح بيدها أمام
وجهها ، ولكنه ابتسم ، وأخذ يتحدث بلغة إنجليزية سيئة ، وبصورة
غير مفهومة ويقفز أمامها ثم يعود للخلف كالبرغوث ويضغط على زر
التصوير ، لم يكن ما حدث ذا أهمية ، فقد كان يعقد فى الفندق
مؤتمر علمى ، وكان المصور من العلاقات العامة متحمسا لأن يكون
فى استطاعة العلماء القادمين إلى هنا من جميع أنحاء العالم أن يشتروا
هذه الصور غدا للذكرى . ولكن أجنس لم تطبق تصور أن تظل هناك
وثيقة شاهدة على أنها على علاقة بهذا الرجل الذى تقابلت معه ،
فعادت إلى الفندق فى اليوم التالى واشترت جميع صورها (كانت

تقف فيها بجوار هذا الرجل ويدها أمام وجهها) ، حاولت أن تحصل على الصور السلبية ، ولكن الصور السلبية كانت موضوعة فى أرشيف خدمة التصوير ولا يمكن الوصول إليها . ورغم أنه لم يكن هناك خطر يهددها لكنها كانت تشعر بالضيق لأن لحظة من عمرها بدلا من أن تكون بلا معنى مثل اللحظات الأخيرة من حياتها ، ستظل مبتورة من مجريات الزمن ، وإذا حدثت يوما ما صدفة حمقاء سوف تبعث من جديد كالميت الذى دفن بطريق الخطأ .

ثم تناولت مجلة أسبوعية أخرى تهتم أكثر بالسياسة والثقافة ، لم يكن بهذه المجلة كوارث أو شواطئ للعرافة عليها أميرات الأسرة المالكة ولكن كان بهذه المجلة وجوه ، وجوه فقط . حتى فى آخر المجلة حيث المقالات النقدية للكتب كانت مع كل مقالة صورة الكاتب محل النقد لأن هؤلاء الكتاب لم يكونوا فى الغالب من المعروفين . لذلك من الممكن تفسير وجود هذه الصور على أنها تقدم معلومات مفيدة ، ولكن كيف تفسر وجود خمس صور لرئيس الجمهورية المحفورة ذقنه وأنفه فى ذاكرة الجميع ؟ فحتى كاتب المقال الافتتاحى كانت له صورة صغيرة فوق مقالته فى نفس المكان ككل أسبوع . وفى التحقيق الصباحى عن علم الفلك كانت ابتسامات علماء الفلك فى هذه الصور أكبر ، وكذلك فى كل الإعلانات : إعلانات الآلات الكاتبة ، إعلانات الأثاث ، إعلانات عن الجزر . كان هناك وجوه ، لا شىء غير الوجوه . تصفحت المجلة من جديد من الصفحة الأولى حتى الأخيرة وأحصت

ما بها من صور : اثنتان وتسعون صورة بها وجوه فقط . إحدى وأربعون صورة تصور الوجه مع الجسد ، تسعون وجهاً تظهر في ثلاث وعشرين صورة يوجد بها مجموعات من الناس . فقط في إحدى عشرة صورة يلعب الناس دوراً ثانوياً أو غير موجودين كلية . لقد بلغ المجموع الكلى للوجوه في المجلة مائتين وثلاثة وعشرين وجهاً .

وبعد ذلك عاد بول للمنزل وأخذت أجنس تحكى له عن إحصائياتها . فقال بول وقد اقتنع بكلامها : " نعم ، فكلما كان الإنسان غير مهتم بالسياسة وبمصالح الآخرين كان أسيراً لوجهه . إنها فردية عصرنا " .

الفردية ؟ ما علاقة هذا الموضوع بالفردية ، ما دخل الفردية عندما تصور الكامييرا في لحظة الاحتضار ؟ إن هذا يعنى على العكس من ذلك أن الفرد هنا ليس ملك نفسه بل يصبح ملكاً للآخرين . هل تعرف أننى أتذكر فى طفولتى أنه عندما كان يريد شخص ما أن يصور شخصاً آخر كان هذا الأخير يسأله عن التصريح بالتصوير . فعندما كنت طفلة كان الكبار يسألونى " أيتها الفتاة الصغيرة هل يمكن أن نأخذ صورة معاً ؟ وفجأة توقفوا عن هذا السؤال . لقد أصبحت حقوق الكامييرا فوق جميع الحقوق الأخرى ، وبذلك تغير كل شيء ، تغير كل شيء تماماً .

فتحت المجلة مرة أخرى وقالت : " عندما تضع صورتين لوجهين مختلفين بجوار بعضهما تعرف على الفور من النظرة الأولى

ما الفرق بين كل منهما ، ولكن عندما تضع مائتين وثلاثة وعشرين صورة بجوار بعضها البعض فإنك تدرك على الفور أن جميعها لوجه واحد فقط ، ولكن فى اختيارات مختلفة . وأنه لا يوجد فرد مميز بعينه .

فقال بول وقد اتسم صوته فجأة بالجدية " أجنس إن وجهك لا يشبه أى امرأة أخرى " .

ضحكت أجنس ولكنها لم تنتبه إلى نغمة صوت بول .

فقال بول " لا تضحكى ، إنك عندما تحبين شخصا ما فإنك تحبين وجهه ، وفى هذه الحالة يصبح وجهه مميزاً تماماً عن وجوه الآخرين " .

" نعم فأنت تعرفنى بوجهى أنت تعرفنى كوجهه ، ولم تعرفنى أبداً بشكل آخر ، ألم يخطر ببالك يوماً أن ونجھى لا يعبر عنى ؟ " .

فرد بول وقد بدا عليه القلق المزوج بصبر طيب عجوز : كيف أن وجهك ليس أنت ؟ من يكون وراء وجهك إذا ؟ (" تخيل أنك تعيش فى عالم ليس به مرايا وكنت تحلم أن ترى وجهك وتتخيله كشيء خارجى يعكس ما بداخلك ، وبعد ذلك عندما بلغت سن الأربعين أحضر لك شخص ما مرآة لأول مرة فى حياتك . تخيل هذا الرعب ! سترى لأول مرة وجهاً غريباً عليك تماماً وتعرف تماماً ما لم تكن تعرفه من قبل : إن وجهك ليس أنت " .

فقال بول وهو ينهض من مقعده " أجنس " ثم وقف بجوارها ملتصقًا بها . عند ذلك رأت فى عينيه الحب ورأت فى ملامحه وجه أمه . لقد كان يشبهها ، وأمه بدورها من المحتمل كانت تشبه والدها الذى كان يشبه شخصًا ما . وعندما رأت أجنس والدة بول للمرة الأولى كان الشبه بينها وبين بول غير مقبول لأجنس إلى درجة أصابتها بالقلق ، وعندما وقع كل منهما بعد ذلك فى غرام الآخر تخيلت أن هذا الشبه شىء سىء وبدا لها للحظات أنه فوق هذا الوجه تظهر امرأة عجوز بوجه تبدو عليه سعادة مشوهة ، ولكن بول نسى منذ زمن أنه يحمل فى وجهه بصمة أمه واقتنع أن وجهه ليس أبدا شيئًا آخر منفصلا عنه .

ثم أكملت حديثها قائلة " حتى الاسم تسمينا به عن طريق الصدفة " ولا نعرف نشأة هذا الاسم وكيف توصل إليه أحد أجدادنا الأولين . فإننا لانفهم أسماءنا ولا نعرف تاريخها ورغم ذلك نحملها بإخلاص منقطع النظير ونرتبط بها وتعجبنا ونفتخر بها افتخارًا كبيرًا كأننا نحن الذين اخترعناها فى لحظة وحى عبقرية . فالوجه كالاسم . لقد كنت تقريبا فى نهاية فترة الطفولة عندما كنت أنظر فى المرأة لفترة طويلة حتى صدقت فى النهاية أن من أراه فى المرأة هو أنا . إننى أتذكر هذه الفترة بصعوبة بالغة ولكنى أعرف أن اكتشاف الإنسان لنفسه لا بد وأن يكون شيئًا جميلًا ، ولكن بعد ذلك تأتى لحظة يقف الإنسان فيها أمام المرأة ويقول ؛ هل هذا هو أنا ؟ ولماذا ؟ لماذا أتضامن

مع هذا الوجه ؟ ما علاقتى بهذا الوجه ؟ وفى هذه اللحظة يبدأ كل شيء فى الانهيار . يبدأ فى الانهيار .

" ما الذى يبدأ فى الانهيار ؟ ما الذى حدث لك يا أجنس ؟ ماذا حدث لك فى الفترة الأخيرة ؟ "

نظرت إليه ثم أحنّت رأسها ، إنه يشبه الراحلة أمه لدرجة لا يمكن إصلاحها ، كلما مر الوقت زاد شبهه بها . كلما مر الوقت زاد الشبه بينه وبين هذه السيدة العجوز التى كانت أمه .

أمسكها بكلتا يديه ، وأوقفها من مكانها ، نظرت إليه وهنا فقط لاحظ أن عينيها مغرورقتان بالدموع .

ضمها إليه ، كانت تدرك أنه يحبها كثيراً ، ثم شعرت فجأة بالأسف ، شعرت بالأسف لأنه يحبها كثيراً ، وأرادت أن تنفجر فى البكاء .

" يجب أن نذهب لنغير ملابسنا فبعد قليل لابد أن نخرج " قالت هذا ثم أفلتت من بين ذراعيه وأسرعت إلى الحمام .

(٨)

أكتب عن أجنس ، أتخيلها ، أجعلها تجلس على الأريكة فى حمام الساونا وتتجول فى باريس وتتصفح المجلة وتتحدث مع

زوجها ، وكأننى نسيت ما كان فى البداية كل شىء وإيماءة السيدة التى تلوح بيدها عند الحمام للمراقب . كيف أن أجنس لم تلوح بيدها لأحد على الإطلاق بهذه الطريقة ؟ لم تفعل . على الرغم من أن هذا يعتبر شيئاً مميزاً ، يبدووا لى أنها لم تفعلها منذ زمن طويل . لقد لوحت بهذه الطريقة فى وقت من الأوقات وهى صغيرة جداً .

كان هذا فى الفترة التى عاشتها فى المدينة ، تلك المدينة التى تطل على قمم جبال الألب . كانت فى السادسة عشرة من عمرها عندما ذهبت إلى السينما مع زميلها .

أمسك يدها فى اللحظة التى انطفأت فيها الأنوار ، وسرعان ما تصيب العرق من راحتيهما ، غير أن الفتى لم يقدر على ترك يدها ، التى أمسك بها بجرأة ، لأن ذلك قد يعنى اعترافه بأنه يعرق وأنه خجول من فعلته هذه . ولمدة ساعة ونصف ظلا يغمران أيديهما فى رطوبة حارة . وما أن بدأت الأنوار تضىء ، حتى ترك كل منهما يد الآخر . حاولا بعدها أن يطبلا النظرة . فأخذها إلى أزقة المدينة القديمة وإلى أعلى صوب الدير القديم ، حيث يزدحم فناءه بالسائحين . من الواضح أنه قد أعد لكل شىء ، لأنه صار بها فى خطوات سريعة نسبياً إلى عمر مهجور تحت ذريعة شديدة السخاقة وهى أن يريها لوحة . وصلا إلى نهاية الممر ولم يكن هناك أى لوحة ، بل باب بنى اللون عليه لافتة WC — لم ير الفتى اللافتة ، فتسوقف . كانت تعرف جيداً أن اللوحات لاتعنيه وأنه يبحث فقط

عن مكان منعزل حيث يمكنه أن يقبلها . مسكين ، لم يجد أفضل من ركن مقزز عند المرحاض ، ابتسمت ، وحتى لا يعتقد أنها تسخر منه أشارت إلى اللافتة . ابتسم هو أيضا وأسقط في يده . لم يكن ممكناً على خلفية هذه الأحرف أن يميل عليها ويقبلها " كان من المفترض أن تكون هذه أول قبلة لا تنسى بينهما " ولم يبق أمامه إذن سوى أن يعودا إلى الشارع يتتابه شعور مرير بالاستسلام .

صارا صامتين وأجنس غاضبة . لماذا لم يقبلها ببساطة في عرض الشارع ؟ ولماذا بدلاً من ذلك أخذها إلى ممر مهجور به مرحاض كانت تقضى فيه حاجتها أجيال من القساوسة القدامى القذرين الذين تفوح منهم رائحة كريهة .

أعجبها تردده ، لأنه كان إشارة إلى غرامه المرتبك . ولكنه فضلا عن ذلك أثار حمقها لأنها تأكدت من عدو لدود : فقد اعتبرت مرافقة فتى في مثل عمرها يعتبر عدم تكافؤ . فقد كان يجذبها الأشخاص الأكبر منها سناً . ولأنها في الواقع قد تكون أحبطته نفسياً وعرفت في نفس الوقت أنه يحبها ، أحست أنه من العدالة أن تساعد في محاولته العاطفية وتشد من أزره وتخلصه من تردد الأطفال . فقررت أنه مادام لم يجد هو في نفسه الجرأة فلتجدها هي .

اصطحبها إلى البيت وقررت أنها بمجرد أن يصلا إلى بوابة الفيلا سوف تعانقه سريعاً وتقبله ولن يستطيع التحرك من مكانه من الدهشة . ولكنها فقدت حرصها في اللحظة الأخيرة ، حيث بدا وجهه ليس

فقط حزينًا وجامدًا بل وخاليًا من الود . تصافحنا ، أما هي فأنصرفت وسارت على الرصيف الممتد بين أحواض الزهور . والمؤدي إلى باب البيت . وأحست أن الفتى يقف جامدًا وهو ينظر إليها ، ومن جديد شعرت نحوه بالأسف ويتعاطف الأخت الكبرى ، وفي هذه اللحظة فعلت ما لم تفكر فيه منذ قليل . أدارت رأسها إلى الخلف نحوه وهي تمشي وابتسمت وألقت بسرور ذراعها الأيمن في الهواء برقة وانسياب كما لو أنها ترمى بكرة ملونة إلى أعلى .

إن اللحظة التي رفعت أجنس فيها ذراعها إلى أعلى فجأة وبتلقائية وبحركة انسيابية خفيفة تعتبر لحظة رائعة . يمكن هذا ، أن تهتدى إلى تحريك جسدها وذراعها فورًا ولأول مرة بمثل هذا الكمال وبروعة التعبير ، حركة تشبه عملاً فنياً مكتملاً ؟ كانت تتردد على والد أجنس سيدة تقارب الأربعين وهي سكرتيرة الكلية لتعرض عليه بعض الأوراق لتوقيعها وتأخذ أوراقاً أخرى . ولأن تلك الزيارات لم تكن ذات معنى فقد صاحبها توتر دفين " التزمت الأم الصمت مما أثار فضول أجنس ، وفي كل مرة وعندما كانت السكرتيرة تنصرف ، كانت أجنس تسرع نحو النافذة لكي تنظر إليها خلسة . وذات مرة عندما كانت السكرتيرة تغادر المنزل متجهة نحو البوابة " صارت أجنس حيثئذ في الاتجاه المعاكس قبل أن يتطور الأمر وفيما بعد تراقبها نظرات زميلها المسكين " استدارت ثم ابتسمت ورمت بذراعها في الهواء بحركة انسيابية كبيرة خفيفة وغير متوقعة . كان شيئاً لا ينسى ؛

فقد كان الرصيف المغطى بالرمال يلمع فى أشعة الشمس مثل جدول الماء الذهبى ، وعلى جانبى البوابة شجيرتان من الياسمين ، كما لو أن الإيماة المتجهة إلى أعلى أرادت أن تبين لهذا الجزء الذهبى من الأرض الاتجاه الذى يجب أن يطير فيه ، وتحولت شجيرات الياسمين البيضاء إلى أجنحة .

أما أجنس فلم يكن فى استطاعتها رؤية أيها إلا أنه اتضح من إيماة المرأة أنه يقف بباب الفيلا ويراقبها .

كانت هذه إيماة مفاجئة وجميلة ، لدرجة أنها انطبعت فى ذاكرة أجنس مثل بصمات البرق ، وأخذتها بعيداً فى المكان والزمان وفجرت فى فتاة السادسة عشرة رغبة دفينة غامضة . وعندما أرادت فجأة أن تخبر فتاها عن شىء مهم ولم تجد لذلك الكلمات ، عاجلت الإيماة هذا وقالت نيابة عنها ما لم تستطع هى قوله .

لا أعرف إلى متى استخدمت هذه الإيماة أو بدقة " إلى متى استخدمتها هذه الإيماة " ، من المؤكد إلى يوم أن لاحظت أن أختها التى تصغرها بثمانية أعوام تلقى بذراعها فى الهواء وهى تودع صديقتها الصغيرة . شعرت بضيق عندما رأت إيمااتها على طريقة أختها ، التى أعجبت بها منذ طفولتها الأولى فحاكتها فى كل شىء ، فإيماة الكبار لم تكن لتناسب فتاة فى الحادية عشر من عمرها . إلا أنه خطر لها أن هذه الإيماة يمكن أن يستخدمها الجميع وأنها ليست ملكاً لها ؛ فعندما تلوح بيدها فإنها ترتكب جريمة سرقة أو تزوير ، وبدأت

منذ ذلك الوقت تتجنب هذه الإيذاءة " ليس سهلاً الإقلاع عن الإيذاءات التي اعتادت عليها " وأصبحت تشك في كل الإيذاءات ، حاولت أن تحصرها في تلك الإيذاءات التي لا غنى عنها ، كأن تقول برأسها " نعم " أو " لا " تشير إلى شيء لا يراه صاحبها " وفي تلك التي لا تدعى أنها مقصورة عليها . وما كان أن تلاشت الإيذاءة التي أبهرتها والتي رأتها على سكرتيرة والدها وهي تسير منصرفة على الطريق الذهبي " والتي أبهرتني عندما رأيت السيدة التي كانت ترتدى المايوه وتودع مراقب الحمام " .

إلا أن هذه الإيذاءة بعثت ذات مرة . حدث هذا عندما بقيت مع أبيها المريض في الفيلا قبل أسبوعين من موت أمها . وعندما ودعته آخر يوم ، عرفت أنهما لن يلتقيا قريباً . لم تكن أمها بالبيت وأراد أبوها أن يرافقها إلى الشارع حتى السيارة . وطلبت منه أن لا يذهب أبعد من عتبة الباب ، ثم انصرفت بمفردها وتوجهت إلى البوابة عبر الرمال الذهبية بين أحواض الزهور . ضاعت منها الكلمات وكانت ترغب بشدة في أن تقول لأبيها شيئاً جميلاً لا يمكن التعبير عنه بالكلمات ، وفجأة ودون أن تدري كيف حدث هذا ، أدارت رأسها وألقت بذراعيها إلى أعلى بخفة وانسياب وهي مبتسمة كما لو أنها تقول له إنهم تنتظرهم حياة طويلة وإنهم سيلتقون مرات عديدة . بعد ذلك بلحظة تذكرت السيدة ذات الأربعين ربيعاً التي لوحت لأبيها منذ خمس وعشرين عاماً في المكان نفسه وبالطريقة نفسها . شعرت

ببليلة واضطراب . كان كما لو أنه قد التقى فى لحظة واحدة وعلى غير انتظار عهدان متباعدان ، وكأن امرأتين مختلفتين قد التقتا فى إيماءة واحدة . وعنت لها فكرة ، وهى أن هاتين المرأتين هما الوحيدتان اللتان أحبهما .

(٩)

فى الصالون حيث أخذ الجميع مقاعدهم بعد تناول العشاء ، منهم من يحمل كأساً من الكونياك أو فنجاناً من القهوة وقد شرب نصفه ، تجراً أحد الضيوف وقام ثم انحنى مبتسماً أمام سيدة المنزل ، فاعتبر الآخرون هذا أمراً بالانصراف ، فنهضوا من مقاعدهم مع بول وأجنس وانطلقوا مسرعين إلى سياراتهم . تولى بول القيادة وأجنس تراقب اندفاع السيارات المزعج ووميض النور وصخب ليل العاصمة الدائم بلا داع الذى لا يعرف الهدوء . ومن جديد تملكها ذلك الشعور القوى المميز الذى كان يسيطر عليها أكثر فأكثر : ذلك الشعور الذى لا علاقة له بتلك الكائنات التى تمشى على قدمين وتحمل على رقبتها رأساً وفماً فى وجهها .

لقد كانت متأثرة فى وقت من الأوقات بسياساتهم وعلمهم واكتشافاتهم . واعتبرت نفسها جزءاً صغيراً من مغامراتهم ، إلى أن تولد فيها يوماً ما إحساس بأنها لا تنتمى إليهم . كان هذا الشعور

غريبا ، قاومته ، كانت تعرف أنه شعور أحرق وشاذ ، وقالت لنفسها في آخر الأمر إنها لا يمكنها أن تكبح مشاعرهما : فليس من المفيد أن تزعج نفسها بالتفكير في حروبهم ولا أن تتضرر من احتفالاتهم لأنها تعتقد بشدة أن هذا الأمر لا يعنيه في شيء . أيعنى هذا أن قلبها متحجر ؟ لا ، فهذا الأمر لا علاقة له بالقلب بأية حال من الأحوال . فلا يوجد على ما تظن من يعطى المتسولين مالا أكثر منها فهي لا تتجاهلهم على الإطلاق ، وهم كما لو أنهم أدركوا ذلك ، فكانوا يتجهون إليها وهم يميزونها سريعا عن بعد من بين مائة من المارة الآخرين الذين يرونهم ويسمعونهم هنا . نعم ، تلك هي الحقيقة ، غير أنني يجب أن أضيف لهذا أن إحسانها على السائلين له دافع سلبي ؛ فقد كانت تحسن إليهم ليس لأنهم ينتمون إلى البشرية ولكن لأنهم لا ينتمون إليها وأنهم منبوذون منها ، كما أنهم غالبا ليسوا متضامنين مثلها مع البشرية .

موقفها هو عدم التضامن مع البشرية . فقط شيء واحد يمكنها أن تستثنيه من هذا الاتجاه : وهو الحب الموجه لشخص بعينه . فلو أنها أحبت بالفعل شخصا ما ، لما كان مصير الآخرين بالنسبة لها شيئا مهملا ، لأن حبيبها قد يرتبط بهذا المصير ، قد يكون جزءا من هذا المصير ، وهي لا يمكنها إذن أن تشعر أن ما تعانيه البشرية وأن حروبها وإنجازاتها لا تعنيه في شيء .

أخافتها فكرتها الأخيرة هذه . أصبح أنها لا تحب أحدا ؟ وماذا
عن بول ؟

تذكرت كيف تقدم منها وعانقها منذ عدة ساعات قبل انصرافهم
لتناول العشاء . نعم ، هناك شيء ما يحدث لها : تطاردها فى الفترة
الأخيرة فكرة أن حبها لبول ليس أكثر من رغبة : مجرد رغبة
فى أن تحبه : مجرد رغبة فى أن تعيش حياة زوجية سعيدة .
وإذا توانت عن هذه الرغبة للحظة فإن الحب سيطير مثل الطائر الذى
فتحوا قفصه .

الساعة الواحدة ليلا ، أجنس وبول يخلعان ملابسهما .
إذا كان عليهما أن يقول كل منهما كيف يخلع الآخر ملابسه وكيف
يتحرك وهو يخلعها لأسقط فى يدهما . فمنذ زمن بعيد لا ينظر
أحدهما إلى الآخر . فآلة الذاكرة مجهدة ولا تسجل شيئا من
لحظات أمسياتهم المشتركة التى تسبق خلودهما إلى فراش الزوجية .

فراش الزوجية : معبد الزوجية ، ومن يقول معبداً يقصد بذلك
ضحية . فهنا يضحي أحدهما من أجل الآخر : فكلاهما ينام
بصعوبة ويوقظه نفس الآخر فيلتصقان بحافة السرير تاركين فى منتصفه
فراغا خاليا كبيرا ، ويتظاهران أنهما نائمان ، لأن كلا منهما يعتقد أنه
بهذا يسهل النوم على شريكه الذى سوف يمكنه أن يتقلب من جنب إلى

جنب دون أن يخاف من أنه سيقلقه . وللأسف لا يستغل شريكه هذا لأنه هو الآخر (ولنفس الأسباب) سيتظاهر بأنه ينام ويخشى من الحركة . عدم القدرة على النوم وعدم إمكانية الحركة : هذا هو سرير الزوجية .

ترقد أجنس مستلقية على ظهرها وتدور في رأسها تخيلات :
فها هو هذا الرجل الغريب اللطيف عندهم ، هذا الرجل الذى يعرف عنهم كل شيء ولا يعرف فى الوقت نفسه ما هو برج إيفل . إنها على استعداد أن تفعل كل شيء فى سبيل أن تستطيع التحدث معه بمفردها ، غير أنه اختار متعمدا الوقت الذى يكونان فيه معا فى البيت .
وعبثا تفكر أجنس فى حيلة تخرج بها بول من الشقة . يجلسون ثلاثتهم على المقاعد حول طاولة قصيرة وأمامهم ثلاثة أكواب من القهوة ويحاول بول أن يؤنس ضيفه . غير أن أجنس تنتظر حتى يبدأ الضيف فى الحديث عن سبب مجيئه . هى بالفعل تعرف السبب ، ولكن هى وحدها وليس بول . وأخيراً يقاطع الضيف حديث بول ويدخل فى الموضوع : " أعتقد أنكم تتوقعون من أين أنا قادم ؟ " .

تقول أجنس : " نعم " . هى تعرف أن الضيف قادم من كوكب بعيد جدا له فى الفضاء موقع مهم . وعلى الفور تضيف بابتسامة خجلى " هل الأمور هناك أفضل ؟ " .

فقط يهز الضيف كتفيه ويقول : " أنت تعرفين يا أجنس أين تعيشين . وتقول أجنس : " من الممكن أن الموت أمر لا بد منه ولكن

هل من الممكن أن يتم هذا الموت بصورة أخرى . هل من الضروري أن يبقى الجسد بعد موت الإنسان وأن يدفن في الأرض أو يلقي في النار ؟ فكلاهما أمر مرعب .

يقول الضيف : " الكل يعرف أن الأرض مرعبة " .

تقول أجنس : " هناك سؤال آخر وقد يبدو أنه سؤال غبي . هل لهؤلاء الذين يعيشون عندكم وجوه ؟

" ليس لهم وجوه . الوجه لا يوجد إلا هنا ، عندكم " .

" وكيف يعرفون من بعضهم إذا هؤلاء الذين يعيشون هناك ؟ " .

" كل واحد منهم هناك عمل قائم بذاته . ويمكنني القول إن كلاً منهم يصنع نفسه . ولكن يصعب الحديث عن هذا . فلا يمكنكم أن تفهموا هذا . ستفهمونه يوماً ما . لقد جئت لكي أخبركم أنكم لن تعودوا إلى الأرض في الحياة القادمة " .

كانت أجنس تعرف مسبقاً ما سيقوله الضيف لهم ، فلم يكن هذا ليدهشها . وظل بول فاغراً فمه وهو يسمع هذا ، ينظر إلى الضيف وإلى أجنس التي لم تستطع أن تقول سوى : " وماذا عن بول ؟ " .

قال الضيف : " وحتى بول لن يبقى هنا . لقد جئت لأخبركم بهذا : فنحن نقول هذا للأناس الذين اخترناهم . أريد فقط أن أسألكما : هل تريدان أن تبقيا معاً في الحياة القادمة أم تفترقا ؟ .

كانت أجنس تعرف أن هذا السؤال قادم . فكان هذا هو سبب أنها أرادت أن تكون بمفردها مع الضيف . كانت تعرف أنها لا تستطيع أن تقول فى حضور بول : " لا أريد أن أبقى معه مطلقا " . لا يمكنها أن تقول هذا أمامه وهو لا يمكنه أن يقوله أمامها ، على الرغم من أنه قد يفضل هو الآخر أن يعيش حياته القادمة بشكل آخر ، أى بدون أجنس . إلا أنه عندما يصرح كل منهما أمام الآخر : " لا نريد على الإطلاق أن نبقى معاً فى العالم القادم ، وأنا لا نريد أن نلتقى " هو تماما كما لو أنهما يقولان : " لم يكن بيننا وليس بيننا أى حب " . لا يمكن قول هذا صراحة وذلك لأن حياتهما المشتركة كلها " أكثر من عشرين عاما من الحياة المشتركة " مبنية على وهم الحب ، الوهم الذى يعتنى به كل منهما ويرعاه .

وهكذا دائما عندما تتخيل هذا المشهد وتصل إلى سؤال الضيف تعرف أنها سوف تستسلم رغماً عنها وضد رغبتها وتقول : " نعم . بالطبع أريد أن نكون معاً فى الحياة القادمة " .

ولكنها اليوم كانت واثقة لأول مرة أنها ستجد الشجاعة أن تقول حتى أمام بول ، ما تريده وما تتمناه حقيقة فى قرارة نفسها ، كانت متأكدة أنها ستجد هذه الجرأة حتى ولو انهار فى المقابل كل ما بينهما . سمعت صوت تنفس عال بجوارها ، لقد نام بول . استعرضت المشهد كله أمام عينيها مرة أخرى وكأنها وضعت من جديد فى جهاز العرض نفس الاسطوانة لنفس الفيلم : تتحدث مع الضيف ، بول

ينظر إليهما فى دهشة والضيف يقول : " تريدان أن تبقيا معا فى الحياة القادمة أم تفترقا ؟ " .

" إنه لأمر عجيب : فعلى الرغم من أنه يعرف عنهم كل شيء ، فهو لا يفهم سيكولوجية أهل الأرض ولا يعرف مصطلح الحب . فهو لذلك ، لا يعرف صعوبة الموقف الذى سببه بسؤاله المباشر والعملية الذى عناه جيدا " .

تستجمع أجنس كل قواها الداخلية وتجيّب بصوت قاطع :
" نفضل أن لا نلتقى بعد اليوم ثانية " .

كانت هذه الكلمات كصفع الباب وراء وهم الحب .

الجزء الثانى

الخلاصة

(١)

فى يوم الثالث عشر من سبتمبر ١٨١١ ، وللأسبوع الثالث على التوالى تقيم الزوجة الشابة حديثة الزواج " باتينا " ، والتى كان لقبها قبل الزواج " بريئتانو " ، مع قرينها الشاعر " أخيم فون أرnm " عند " جوته " وزوجته فى مدينة " فايمر " الألمانية . إن عمر " باتينا " الآن ستة وعشرون عاما ، وزوجها " أرnm " ثلاثون عاما . أما زوجة " جوته " " كرستيانا " فعمرها تسعة وأربعون عاما ، أما جوته فيبلغ من العمر اثنين وستين عاما ، ولم يعد فى فمه سنة واحدة . أرnm يحب زوجته الشابة وكرستيانا تحب زوجها العجوز . باتينا لم تتوقف حتى بعد الزواج عن مغازلة جوته . بعد ظهر هذا اليوم ظل جوته بالمنزل ، واصطحبت كرستيانا الزوجين الشابين إلى المعرض (الذى ينظمه صديق للأسرة ، مستشار البلاط الملكى " ماير ") ، حيث توجد الصور التى امتدحها جوته . السيدة كرستيانا لا تفهم هذه الصور ، ولكنها تتذكر ما قاله جوته عنها ، وهى لذلك يمكنها أن تردد آراءها الخاصة وهى مطمئة . يسمع أرnm صوت كرسيانا القوى ويرى النظارة على أنف باتينا ، هذه النظارة تقفز كلما حركت باتينا (على طريقة الأرناب) أنفها . وأرnm يعرف جيدا ماذا يعنى ذلك : باتينا فى حالة من الاستفزاز تصل إلى حد العاصفة . انصرف بشكل طبيعى إلى الصالة المجاورة وكأنه توقع عاصفة فى الأفق .

وبمجرد أن انصرف قاطعت باتينا كرستيانا قائلة : لا ، إنها لا تتفق معها ؛ لأن هذه الصورة سخيفة !

فحتى كرستيانا كانت غاضبة وذلك لسببين : أولاً لأن هذه السيدة الشابة الثرية ، ورغم أنها متزوجة وحامل لا تخجل من مغازلة زوجها ، وثانياً لأنها تعترض على آرائه . ماذا تريد ؟ أتريد أن تكون الأولى من بين هؤلاء الذين يتسابقون للتقرب من جوته ، وتكون فى الوقت نفسه الأولى من بين هؤلاء الذين يهاجمونه ؟ إن كرستيانا غاضبة من كلا السببين بشكل خاص ، وأكثر من ذلك أن كلا منهما يتنافى من حيث المنطق مع الآخر . ولذلك فهى تعلن بصوت عال جداً أنه ليس من الممكن الجزم بأن هذه الصور الرائعة سخيفة .

وترد باتينا على ذلك قائلة : يمكن القول ليس فقط إن هذه الصور سخيفة ، ولكن ينبغى القول إن هذه الصور تدعو للضحك ، نعم إنها تدعو للضحك ، وتسوق حججاً أخرى وأخرى لتأييد موقفها .

تستمع كرستيانا لهذا وهى على يقين من أنها لا تفهم مطلقاً ما تقوله هذه السيدة الشابة . وكلما ثارت باتينا أكثر ، زاد استخدامها لكلمات تعلمتها من قرائها الذين تدرسوا فى قاعات المحاضرات بالجامعات . وكرستيانا تعرف أن باتينا تستخدم هذه الكلمات لأن كرستيانا لا تفهمها . تنظر إلى أنفها ، حيث النظارة التى تقفز ، ويخيل إليها أن هذا الكلام غير المفهوم ، وهذه النظارة يتبع بعضهما

البعض . وفى الواقع كان جديراً بالملاحظة أن باتينا تلبس النظارة . فقد كان الجميع يعرفون أن جوته يعتبر ارتداء النظارة أمام الناس نوعاً من قلة الذوق وخروجاً عن المعتاد . وإذا كانت باتينا تلبس رغم ذلك النظارة فى " فايمر " فذلك لأنها تريد أن تعطى بطريقة فظة وصارخة إشارة إلى أنها تنتمى لجيل الشباب ، إلى الجيل الذى يتميز بالرومانسية والنظارات . ونحن نعرف ماذا يريد الإنسان أن يقول عندما يعلن ، بفخر وبشكل صارخ ، أنه ينتمى إلى جيل الشباب : إنه يريد أن يقول أنه سيبقى على قيد الحياة فى الفترة التى سيصبح فيها الآخرون (فى حالة باتينا فإن المقصود هنا كرستيانا وجوته) راقدين فى قبورهم منذ زمن طويل وبشكل يثير الضحك .

مازالت باتينا تتحدث وقد استشاطت غضباً أكثر فأكثر ، وفجأة طارت يد كرستيانا فى الهواء فى اتجاه وجهها ، وفى اللحظة الأخيرة أدركت أنه من غير المناسب أن تصفع شخصاً هو ضيف عندها . تتوقف وتنزلق يدها فقط على جبهة باتينا ، فتسقط نظارتها على الأرض وتتحطم . كان الناس يتحركون من حولهم وقد أصيبوا بالارتباك . وهنا يحضر " أرثم " المسكين من الحجرة المجاورة ، ولأنه لا يعرف ماذا يفعل حتى من هو أكثر منه ذكاء ، فقد جلس القرفصاء ، وأخذ يللمم بقايا النظارة ، كأنه يريد أن يلصقها معا .

ينتظر الجميع بتوتر لعدة ساعات قرار جوته الحاسم . فإلى من سينحاز جوته عندما يعرف كل شئ ؟

أنحاز جوته لكرستيانا وحرّم على كلا الزوجين دخول منزله
إلى الأبد .

عندما ينكسر كوب فإن هذا يجلب الحظ ، وعندما تنكسر
مرآة فإن هذا يعنى أنه ينتظر ك سبع سنوات من سوء الحظ ، ولكن
ماذا عندما تكسر نظارة ؟ إنها الحرب . إن باتينا تعلن فى جميع
صالونات فايمر أن هذه الحمقاء البدينة قد جن جنونها وعضتها .
وقد دارت هذه العبارة من فم إلى فم ، فسقط كل من فى فايمر على
بطنه من الضحك . هذه العبارة الخالدة وهذا الضحك يدوى صدهاء
حتى أيامنا هذه .

(٢)

الخلود . لم يكن جوته يخشى هذه الكلمة . ففي كتابه " من
حياتى " والمعروف بعنوانه الفرعى الشهير " القصيدة والحقيقة "
يكتب عن ستارة المسرح التى يشاهدها بفضول فى مسرح مدينة
" لايبزج " الجديد عندما كان عمره آنذاك تسعة عشر عاما ، كان
مرسوماً عليها عن بعد (أستشهد بجوته) " der Tempel des Ruhmes "
معبد الشهرة ، ومن حوله كتاب مسرحيون عظماء من جميع العصور .
وفى المساحة الفارغة فى المنتصف بينه وبينهم ، وقبل أن ينتبه إليهم يمر
بينهم رجل ما يرتدى معطفاً قصيراً خفيفاً ويتجه مباشرة إلى معبد

الشهرة ، كان يمكن رؤيته من الخلف ولم يكن به شيء غير عادى .
من المفترض أن هذا هو " شكسبير " ، لم يكن هناك من يسبقه ،
ولم يكن يهتم بالأمثلة العليا ، فقد اتجه بإرادته الذاتية مباشرة إلى
الخلود .

إن الخلود الذى يتحدث عنه جوته ليس له علاقة بالعقيدة الدينية
التي ترتبط بخلود الروح . إن الأمر يتعلق بشيء آخر ، بالخلود
الأرضى لهؤلاء الذين سيقون بعد موتهم فى ذاكرة الأجيال القادمة .
إن كل إنسان يمكن أن يحقق خلودًا ، أكبر أو أصغر ، لفترة أقصر
أو أطول ، وهو منذ الصبا يشغل تفكيره بذلك . لقد كان يقول عن
عمدة إحدى قرى " مورافيا " حيث كنت أذهب فى رحلاتى عندما
كنت صبيًا ، إن لديه تابوتا مفتوحًا فى المنزل . وفى لحظات السعادة
عندما يشعر بالرضاء التام عن نفسه بدرجة كبيرة ، فإنه كان يستلقى
فى التابوت ، ويتخيل جنازته . لم يعرف شيئًا فى حياته أجمل
من تلك اللحظات الحاملة التى يقضيها فى التابوت ، لقد أقام لبعض
الوقت فى خلود .

إن الناس ليسوا متساوين فيما يتعلق بالخلود . فلا بد أن نفرق بين
ما يسمى بالخلود الصغير وهو يعنى ذكرى الإنسان فى عقل هؤلاء
الذين لم يكن يعرفهم شخصيًا . إن هؤلاء يشكلون طرقات فى الحياة
تضع الإنسان وجهًا لوجه مع هذا الخلود الكبير ، هذا الخلود غير
المؤكد ، بل المحتمل ، بل المتوقع بما لا يقبل النفى . إن هذه هى
طرقات حياة الفنانين والساسة .

لقد كان " فرانسوا ميتران " هو أكثر الساسة الأوروبيين في عصرنا الذى شغل نفسه بفكرة الخلود : إننى أتذكر مراسم التنصيب التى لا تنسى ، والتى أعقبت اختياره رئيساً فى عام ١٩٨١ . لقد كان ميدان " بانتيون " ممتلئاً بالجمهور المتحمس ، ولكنه انصرف عنه : صابر بمفرده إلى أعلى عبر الدرج الواسع (تماماً كما سار شكسبير إلى معبد الشهرة عند ستارة المسرح التى كتب عنها جوته) ، وكان ممسكاً بيده بثلاثة عيدان من الزهور . ثم اختفى عن أعين الناس وأصبح بمفرده بين مقابر أربعة وستين من الموتى المشهورين . كانت تتابعه فى خلوته التى كان فيها مستغرقاً فى التفكير فقط عدسة الكاميرا ، وفريق التصوير ، وعدة ملايين من الفرنسيين كانت عيونهم مثبتة على شاشات التلفزيون التى تدوى منها السيمفونية التاسعة لـ " بيتهوفن " ، ثم وضع الثلاث زهور بالتدريج على ثلاثة قبور لثلاثة من الموتى اختارهم من بين الآخرين .

كان مثل المختص بقياس طبقات الأرض الذى يخرس ثلاث زهرات كما لو أنها ثلاث دعائم للخلود فى مكان مترامى الأطراف ، وذلك ليحدد المثلث الذى سيقف قصره شامخاً فى منتصفه .

وكان " فاليرى جسكار دستان " وهو الرئيس السابق له قد دعى بعض الزبالين إلى إفطاره الأول فى قصر " الإليزيه " . لقد كانت هذه إشارة من البرجوازي العاطفى ، الذى اشتاق إلى محبة الناس البسطاء ، وأراد أن يصدقوا أنه واحد منهم . لم يكن ميتران ساذجاً

إلى الدرجة التي يريد بها التشبه بالزبالين (فهذا الحلم لا يمكن أن يتحقق لأى رئيس) ، لقد أراد أن يتشبه بالموتى ، وكان هذا أكثر حكمة ، لأن الموت والخلود يشكلان ثنائياً لعاشقين لا يفترقان ، فإن هذا الذى يظهر لنا وجهه مع وجوه الموتى ، هو إنسان خالد ، وهو على قيد الحياة .

لقد كان الرئيس الأمريكى " جيمى كارتر " يبدو لى دائما إنسانا لطيفاً ، ولكننى شعرت تجاهه تقريبا بالحب عندما رأيته على شاشة التلفزيون يعدو مرتديا الملابس الرياضية مع مجموعة من العاملين معه ، والمدرين ، ورجال الحراسة الأقوياء . وفجأة بدأ العرق يتلألأ على جبهته ، وتشنج وجهه ، فانحنى عليه رفاقه فى العدو وأمسكوا به ، وساعدوه على النهوض . كانت أزمة قلبية بسيطة . لقد كان ينبغى أن يكون العدو فرصة لترى الأمة صبا الرئيس الدائم . ولذلك وجهت الدعوة إلى المصورين ، ولم يكن ذنبهم أن يروا بدلا من هذا الرياضى الذى يفور بالصحة رجلاً سىء الحظ على أبواب الشيخوخة .

إن الإنسان يهفو لأن يكون خالدا ، وذات يوم تعرض علينا الكاميرا وجهه المسحوب فى كشرة حزينة ، هى الشئ الوحيد الذى نتذكره منه ، هو ما تبقى لنا منه كرمز لحياته كلها . ثم يدخل إلى الخلود الذى نصفه بالمضحك . لقد كان " تيخو دى براه " عالم فلك كبيراً ، ولكن فقط ما نعرفه عنه اليوم أنه أثناء عشاء احتفالى أقيم فى بلاط القيصر فى براغ خجل أن يذهب لقضاء حاجته مما أدى إلى

انفجار مئنته ، وأصبح فى عداد الخالدين المثيرين للضحك كشهيد للخجل والبول . انضم إليهم مثل " كريستيانا " زوجة جوته التى تحولت ، وإلى الأبد ، إلى حمقاء مسعورة تعض . لم يكن هناك كاتب روايات أعز عندى من " روبرت موسيل " . لقد مات ذات صباح وهو يرفع الدمبل ، وعندما أرفع أنا هذا القضيب الحديدى ، فإننى ألاحظ بقلق إيقاع قلبى وأنا خائف من الموت . لأنه أن يموت الإنسان ممسكا بقضيب حديدى فى يده تماما مثلما حدث مع كاتبى الذى أهتم به ، لكان هذا محاكاة مثيرة ومتحيزة لا يمكن تصديقها ، وقد تؤدى على الفور إلى تأكيد وصولى إلى الخلود المثير للضحك .

(٣)

فلنتخيل أنه كانت توجد كاميرات فى زمن القيصر " ردولف " (هذه التى جعلت كارتر خالدا) وصورت الوليمة التى أقيمت فى بلاط القيصر ، والتى كان خلالها " تيخو دى براه " يتململ على المقعد فى عصبية ، وقد شحب لونه وهو يلوى ساقًا على ساق ، وقد جحظت عيناه . فإذا كان أخذ فى اعتباره أنه يشاهده عدة ملايين من المشاهدين لزادت معاناته ، ولدوى الضحك الذى ينعكس فى طرقات نخلوده أعلى وأعلى . كان بالتأكيد سيطلب الشعب بأن يتم إذاعة هذه الفيلم عن الفلكى الشهير ، الذى يخجل أن يتبول كل عام

:

عند الاحتفال ببداية العام الجديد ، حيث يريد الناس أن يضحكوا ،
وليس لديهم فى الغالب ما يضحكون عليه .

إن هذه التخيل يوقظ فى داخلى سؤالاً : هل تتغير طبيعة الخلود
فى عصر الكاميرات ؟ لن أتردد فى الإجابة : فى الجوهر لا . لأن
عدسات التصوير وجدت قبل ذلك بكثير ، قبل أن تكتشف ؛ كانت
موجودة فى صورتها المجردة . ورغم أنه لم تكن موجهة عليهم أى
عدسة تصوير إلا أن الناس كانوا يتصرفون كما لو أنهم يتصورون .
لم يكن يتسابق حول جوته سرب من المصورين ، ولكن كان يتسابق
من حوله ظلال المصورين المرسله إليه من أعماق المستقبل . لقد حدث
ذلك معه على سبيل المثال أثناء استقباله الشهير عند " نابليون " .
عندئذ وفى قمة مجده جمع قيصر فرنسا فى مؤتمر فى مدينة " إرفرت "
جميع الحكام الأوروبيين ، الذين كان ينبغى عليهم إعلان موافقتهم
على تقسيم السلطة بينه وبين إمبراطور روسيا .

لقد كان نابليون فى هذا الأمر فرنسيًا ، فلم يرضه أن يرسل
مئات آلاف من الناس لختفهم ، ولكنه أراد أيضا أن ينال إعجاب
الأدباء . فقد سأل مستشاره للشئون الثقافية عن أشهر أصحاب سلطة
روحانية فى ألمانيا المعاصرة ، وعرف أن أولهم رجل ما يسمى جوته .
جوته ! ضرب نابليون على جبهته . كاتب رواية " معاناة الجندى
فرتر " فعندما كان فى حملته على مصر تأكد ذات مرة أن ضباطه
غارقين فى قراءة هذه الكتاب . ولأنه يعرف هذا الكتاب فقد غضب

غضباً شديداً ووبخ الضباط بشدة ، لأنهم يقرأون مثل هذه البلاهة العاطفية ، وحرّم عليهم للأبد أن يمسكوا بهذه الرواية فى أيديهم ، أى رواية . فليقرءوا الكتابات التاريخية فإنها أفيد بكثير ! إنه فى هذه المرة بالطبع مسرور ، لأنه يعرف من هو جوته وقرر أن يدعوّه إليه . لقد فعل ذلك وهو سعيد ، لأنّ مستشاره أخبره أن شهرة جوته تنبع قبل كل شىء من كونه كاتباً مسرحياً . كان نابليون يحتقر الرواية ، ولكنه يعترف بالمسرح لأنه يذكره بالمعارك . ولأنّه هو نفسه مؤلف للمعارك ، وأكثر من ذلك فهو مخرجها الفذ ، فلقد كان متأكداً فى قرارة نفسه أنه فى نفس الوقت أعظم شاعر تراجيدى فى كل العصور ، أعظم من " سوفوكليس " وأعظم من شكسبير .

لقد كان المستشار الثقافى رجلاً ذا كفاءة ، ولكنه ، رغم ذلك كان غالباً ما يخطئ . لقد كتب جوته كثيراً للمسرح ، ولكن كان لهذا فضل ضئيل فى شهرته . فبلا شك أن مستشار نابليون قد التبس عليه الأمر مع " شيلر " . فلقد كان شيلر مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بجوته ، لدرجة أنه فى النهاية لم يكن خطأ كبيراً أن نجعل من كلا الصديقين شاعراً واحداً . ومن المحتمل أخيراً أن المستشار تصرف عن عمد مصحوباً بنية محمودة ، ورغبة فى النصيحة عندما كوّن لنابليون توليفة من الكلاسيكية الألمانية فى شخص " فريدرش فولفنج شيللويت " .

وعندما تسلم جوته الدعوة (غير مدرك أنه شيللوت) أدرك على الفور أنه لابد أن يقبلها . بقى له عام بالتمام ويكمل الستين . إن

الموت يقترب ومع الموت الخلود (أو كما قلت إن الموت والخلود يشكلان ثنائياً لا ينفصل ، أجمل من " ماركس " و " إنجلز " ومن " روميو وجوليت " وأجمل من " لوريل وهاردى ") ولم يستطع جوته أن يقابل دعوة هذا الخالد لمقابلته بعدم اهتمام . ورغم أنه كان مشدوداً جداً لعمله " نظرية الألوان " الذى كان يعتبره قمة أعماله ، إلا أنه ترك مكتبه وسافر إلى " أرفرت " حيث تمت فى يوم الثانى من أكتوبر ١٨٠٨ المقابلة التى لا تنسى لقائد خالد بشاعر خالد .

(٤)

يصعد جوته عبر الدرج الواسع محاطاً بظلال المصورين المضطربة . يصطحبه معاون نابليون ، ويقوده عبر درج آخر ودهاليز أخرى إلى صالون كبير حيث يجلس نابليون فى آخره عند طاولة مستديرة . ومن حوله يتحرك هنا وهناك بعشوائية رجال فى زى عسكرى ، يسلمونه بلاغات مختلفة ، يجيب عليها ، وهو يمضغ الطعام . وبعد عدة دقائق فقط يتشجع المعاون ليريه جوته الذى كان يقف عن قرب بلا حراك . يتطلع نابليون إليه ثم يدخل يده اليمنى تحت صدرته حتى تلامس راحة يده آخر ضلع من ناحية اليسار . (كان يفعل ذلك فى فترة ما لأنه كان يعانى من آلام فى المعدة ، ولكن مؤخراً بدأت تروق له هذه الحركة وبدأ يفعلها تلقائياً عندما يرى المصورين من حوله) .

يبتلع بسرعة قطعة من الطعام (فليس من المستحب التصوير عندما يكون الوجه بشع الملامح عند مضغ الطعام ، لأنه فى الصحف ينشرون فى الحقيقة عن سوء قصد مثل هذه الصور) ! ويقول بصوت مرتفع لكى يسمعه الجميع : " انظر ، رجل " .

هذه الجملة القصيرة ، هذا بالضبط ما يقال عنه فى فرنسا اليوم " **une petite phrase** " فالسياسيون يلقون الخطب الطويلة والتى يكررون فيها باستمرار ، وبلا خجل الشئ نفسه ، وهم يعرفون أن الأمر سيّان إذا كانوا يكررون ما قالوه أم لا ، لأن القاعدة العريضة من الناس يعرفون فقط منها بضع كلمات هى التى يقتبسها الصحفيون من خطبهم . وحتى يسهلوا عليهم عملهم ، ويوجهوهم بعض الشئ ، فإن السياسيين يدخلون فى خطبهم ، التى تصبح بمرور الوقت أكثر تشابها ، جملة واحدة قصيرة أو جملتين لم يقولوها قبل الآن ، الأمر الذى يعتبر فى حد ذاته غير متوقع ومدهش لأن هذه الجملة تصبح فجأة شهيرة . إن فن السياسة اليوم لا يكمن فى إدارة دولة المدينة (إن هذه يديرها منطق ميكانيكيّتها الغامضة وغير المتحكم فيها) ، ولكن فى اختلاق " الجملة القصيرة " التى يتم طبّقها لها رؤية سياسى ، وفهمه ، وإجراء الاستفتاء عليه فى مجسّات الرأى العام ، وعمّا إذا كان سيتم انتخابه فى الانتخابات القادمة أم لا . لم يكن جوته يعرف بعد مصطلح : " الجملة القصيرة " ولكن كما نعرف فإن الأشياء توجد فى جوهرها

قبل أن تصير واقعا ملموساً ولها مسميات . إن جوته يدرك أن ما قاله نابليون فى هذه اللحظة كان " جملة قصيرة " رائعة وصلت بكليهما بدرجة كبيرة إلى اللحظة المناسبة . يسعده هذا فيخطو خطوة فى اتجاه طاولة نابليون .

يمكنك أن تقول ما تريده عن خلود الشعراء ، ولكن القادة أكثر خلودا ، ولذلك فلدى نابليون كل الحق فى أن يطرح الأسئلة على جوته ، وليس العكس . يسأله " كم عمرك ؟ " يجيب جوته " ستون عاما " . يقول نابليون معترفا (فهو أصغر منه بعشرين عاما) " إنك تبدو على ما يرام رغم هذه السن " ، فشر جوته بالسعادة من ذلك . فعندما كان عمره خمسين عاما ، كان بدينا جدا ، وله لغد ، وكان الأمر بالنسبة له سيان . وبالطبع كلما تقدم به العمر ترددت على خاطره فكرة الموت ، وأدرك أنه يمكن أن يدخل إلى الخلود بهذا الكرش المثير للاشمئزاز . فقرر أن ينقص من وزنه ، وأصبح بعد فترة قصيرة رجلا نحيفا . ورغم أنه لم يكن جميلا ، إلا أنه يمكنه على الأقل أن يجتر الذكريات عن جماله البائد .

يسأل نابليون وقد امتلأ باهتمام صادق " هل أنت متزوج ؟ " . فيجيب جوته ، وهو ينحنى انحناءة خفيفة " نعم " . " ولديك أطفال ؟ " . ابن واحد " . وفى هذه اللحظة ينحنى على نابليون أحد الجنرالات ويبلغه نبأ مهم . فيسحب يده من سترته . ويطعن بشوكة الطعام قطعة من اللحم ، ويحملها إلى فمه (هذه اللقطة غير مصورة)

ويجيب وهو يمضغ الطعام . وبعد لحظة يتذكر جوته ثم يطرح عليه سؤالاً وقد ملأه الاهتمام : " هل أنت متزوج ؟ " . يجيب جوته ، وهو ينحنى انحناءة خفيفة " نعم " ولديك أطفال ؟ " . يجيب جوته " ابن واحد " . وماذا عن " كارل أوجست " ؟ " . يطلق نابليون فجأة اسم حاكم جوته أمير مقاطعة " فاير " ، وكان واضحاً من نغمة صوته أنه لا يحب هذا الشخص .

إن جوته لا يستطيع التحدث بسوء عن حاكمه ، وكذلك لا يمكنه معارضة هذا الخالد ، ولذلك فإنه يقول فقط بطريقة دبلوماسية إن كارل أوجست فعل الكثير من أجل العلوم والفنون . إن ذكر العلوم والفنون يصبح مناسبة للقائد الخالد لكي يتوقف عن مضغ الطعام وينهض من طاولته ، ويدخل يده تحت سترته ويتقدم بضع خطوات في اتجاه الشاعر ، ويتحدث أمامه عن المسرح . فى هذه اللحظة يهيمهم حشد غير مرئى من المصورين ، ثم تبدأ الكاميرا فى الطقطة . وكان لزاماً على القائد الذى أخذ الشاعر جانباً فى حديث ودى أن يرفع صوته لكي يسمعه الجميع فى الحجرة . يقترح على جوته أن يكتب مسرحية عن مؤتمر " إيرفرت " الذى سيؤمن أخيراً السلام والسعادة للبشرية . ثم يقول بصوت مرتفع جداً " المسرح " يجب أن يصبح مدرسة الشعب ! " (إن هذه " جملة قصيرة " ثانية جميلة والتى ينبغى أن تظهر فى اليوم التالى كعنوان كبير لمقالات صحفية طويلة) . ويضيف بصوت أكثر هدوءاً : وسيكون شيئاً رائعاً إذا أهديت

هذه المسرحية للقيصر " أليكسندر " (لأن الأمر كان متعلقاً به فى مؤتمر ايرفرت ! وقد أراد نابليون أن يكسبه فى جانبه !) . ثم يعفى " شيللويت " من محاضرة قصيرة فى الأدب ، ولكن قوطع خلالها ببلاغ من معاونيه ، وينقطع حبل أفكاره ، وحتى يجده يكرر مرتين ، بدون ترابط ، وبدون اقتناع ، كلمات " المسرح - مدرسة الشعب " ، وبعد ذلك (نعم ، أخيراً ، أخيراً وجد الخيط) يذكر عمل " فولتير " " موت القيصر " . إن هذا يعتبر طبقاً لنابليون مثلاً على كيفية إضاعة الشاعر الدرامى للفرصة ليصبح معلماً للشعب . يجب أن يبين فى المسرحية كيف أن القائد العظيم كان يعمل من أجل سعادة البشرية ، وكيف أن قصر الوقت المحدد لحياته هو الذى منعه من تحقيق رغباته . بدت الكلمات الأخيرة كثيفة ، ثم ينظر القائد فى عينى الشاعر : انتبه " إن هذا موضوع عظيم لك "

ولكن يقاطعونه مرة أخرى . لقد دخل إلى الحجرة. ضباط كبار . يسحب نابليون يده من تحت ستريته ، ويجلس إلى الطاولة . يطعن قطعة من اللحم بشوكة الطعام ويستمع إلى البلاغات وهو يمزج . اختفت ظلال المصورين من الحجرة . ينظر جوته من حوله ، ويتفقد اللوحات المعلقة على الجدران . ثم يذهب إلى المعاون الذى قاده إلى هنا ويسأله عما إذا كان يعتبر المقابلة منتهية . يومئ له المعاون . ينصرف جوته بينما تحمل شوكة طعام نابليون إلى فمه قطعة من اللحم .

(٥)

إن باتينا هي ابنة " ماكسيمليانا لاروش " ، المرأة التي أحبها جوته عندما كان عمره ثلاثة وعشرين عاماً . وإذا لم نحسب بعض القبلات البريئة ، فإن هذا الحب كان حباً روحانيا ووجدانيا خالصا ولم يترك بعده أى أثر ، وذلك لأن والدته ماكسيمليانا زوجت ابنتها فى الوقت المناسب من تاجر إيطالى ثرى يدعى " برنتانو " ، وعندما عرف أن الشاعر الشاب قرر أن يستمر فى غزله لزوجته طرده من منزله ، ومنعه من أن يحضر إليه مرة أخرى . لقد أنجبت ماكسيمليانا بعد ذلك اثنى عشر طفلا (إن هذا الذكر الإيطالى الجهنمى أنجب فى حياته عشرين طفلا !) وأحد هؤلاء الأطفال أسمته " إليزابث " : لقد كانت هذه باتينا .

لقد شد جوته باتينا منذ صباها المبكر . أولاً لأنه فى نظر كل ألمانيا كان يخطو إلى معبد الشهرة ، وثانياً لأنها علمت بالحب الذى كان يشعر به تجاه أمها . بدأت تشغل نفسها بولع بهذا الحب البائد ولكن بشكل أكثر غرابة ، رغم أنها كانت بعيدة عنه (يا إلهى ، لقد حدث هذا قبل مولدها بثلاثة عشر عاماً) ، وبالتدريج بدأ ينمو فى داخلها إحساس بأن لها حقاً ما خفياً فى هذا الشاعر الكبير لأنها (ومن غير الشاعر قد يأخذ المجاز محمل الجد) اعتبرت نفسها على سبيل المجاز ابنته .

من المعروف عموماً أن الرجال لديهم ميل تعس إلى التملص من التزاماتهم الأبوية . لا يدفعون نفقة الأطفال ، ولا يعترفون بانتماء هؤلاء الأطفال إليهم . لا يريدون أن يدركوا أن الطفل هو جوهر الحب . نعم ، إن جوهر أى حب هو الطفل . والأمر لا يتعلق أبداً بما إذا كان هناك حمل أو ولادة . ففي جبر الحب أن الطفل هو رمز للقاء رائع لمخلوقين . فحتى عندما يحب الرجل المرأة ، وحتى إذا لم يلمسها ، فلا بد أن يضع فى اعتباره أنه يمكن أن تنبت ثمرة من هذا الحب ، وأن تخرج للعالم حتى بعد ثلاثة عشر عاماً من آخر لقاء للعاشقين . لقد قالت باتينا لنفسها شيئاً مشابهاً قبل أن تتجراً أخيراً على الحضور إلى فاير والذهاب إليه . كان ذلك فى ربيع عام ١٨٠٧ ، وكان عمرها اثنين وعشرين عاماً (مثلما كان عمر جوته عندما أوقع أمها فى حبه) ، ولكنها كانت تشعر دائماً أنها طفلة . كان هذا الإحساس يحميها بشكل غامض ، كما لو كانت الطفولة درعاً لها .

إن ارتدائها لدرع الطفولة هو حيلتها التى تمارسها طوال حياتها . حيلة ، ولكنها طبيعة ، لأنها حتى عندما كانت طفلة اعتادت أن تمثل أنها طفلة . كانت تحب أخاها الأكبر الشاعر . . كليمنس برنتان " ، وكانت تجلس على حجره فى سعادة بالغة . أمكنها عندئذ (كان عمرها أربعة عشر عاماً) أن تتذوق هذا الموقف ثلاثى الدلائل ، ففيه كانت فى الوقت نفسه طفلة ، وأختاً ، وحتى امرأة مطلوبة للحب . هل يمكن أن تبعد طفلاً عن حجره ؟ حتى جوته لن يستطيع أن يفعل

ذلك . جلست فى حجره فى أول يوم يلتقيان فيه عام ١٨٠٧ ، هل تصدقون ذلك ! ، وذلك كما وصفت هى بنفسها هذا الموقف : جلست أولا على الأريكة فى مواجهة جوته ، كان يتحدث بصوت تقليدى شجى عن الأرملة " إميليا " التى توفيت قبل عدة أيام . قالت باتينا إنها لا تعرف شيئا عن ذلك . فقال جوته مندهشا " كيف هذا ؟ ألا تهتمين بالحياة فى فايمر ؟ فقالت باتينا " أنا أهتم بك أنت فقط ؟ " فابتسم جوته وقال للمرأة الشابة هذه الجملة القاضية : " أنت طفلة رقيقة " . وبمجرد أن سمعت كلمة " طفلة " تخلت عن خجلها ، وقالت إنها ليست مرتاحة فى جلوسها ، وقفزت من على الأريكة . فقال جوته " اجلسى حيث يروق لك " ، وعلى الفور تعلقت باتينا برقبتة ، وجلست فى حجره . لقد شعرت فى جلستها براحة كبيرة ، حتى أنها نامت وهى ملتصقة به .

من الصعب أن نقول ما إذا كان هذا قد حدث بالفعل أم أن باتينا تخدعنا . ولكن إذا كانت تخدعنا فهذا أفضل : فهى تكشف لنا فى أى صورة تريد أن نراها ، وتصف لنا مدخلها إلى الرجال . كانت صديقة إلى درجة الوقاحة مثل الطفل الصغير (أعلنت أن موت الأرملة من فايمر لا يعينها فى شيء ، وأنها غير مرتاحة فى جلوسها على الأريكة ، بينما يجلس العشرات من الضيوف الآخرين وهم شاكرون) ، وكما يفعل الطفل تعلقت برقبتة ، وجلست فى حجره ، وفى نهاية المطاف ، وكما يفعل الطفل نامت فى حجره .

ليس هناك شيء أفضل من لعب دور الطفل . فالطفل يسمح لنفسه بعمل ما يريد لأنه برىء وغير مجرب . غير مضطر للمحافظة على قواعد السلوك الاجتماعى ، لأنه لم يدخل بعد إلى العالم الذى تسود فيه الشكليات . يمكن أن يعبر عن مشاعره بغض النظر عما إذا كان هذا مناسباً أم لا . إن الناس الذين يرفضون أن يروا فى باتينا طفلة ، يقولون عنها إنها طائشة (ذات مرة أخذت ترقص فى سعادة حقيقية حتى سقطت وشقت رأسها فى ركن المنضدة) ، وإنها غير مهذبة (فى الحفلات تشعر بالراحة على الأرض بدلاً من المقعد) والأدهى أنها متصنعة إلى درجة الكارثة . وعلى الجانب الآخر فإن هؤلاء الذين كانوا مستعدين لقبولها كطفل أبدي ، كانوا مفتونين بطبيعتها التلقائية .

كان جوته مشدوداً لهذه الطفلة ، وكان فى نفسه يتذكر أيام صباه ، فأهداها خاتماً جميلاً . لقد دوّن " مامسيل برنتانو " هذه الأمسية فى يومياته باختصار .

(٦)

كم مرة التقى فيها العاشقان الشهيران جوته وباتينا خلال حياتهما ؟ لقد حضرت إليه مرة أخرى فى خريف عام ١٨٠٧ وبقيت فى " فايمر " عشرة أيام : ثم رآته مرة أخرى بعد ثلاثة أعوام : جاءت لثلاثة أيام إلى منتجعات الاستشفاء التشيكية فى مدينة " تبليتسه " ،

حيث لم تتوقع أن جوته كان يعالج هناك فى المياه الصحية . وبعد عام حدثت هذه الزيارة المصرية إلى فايمر حيث أسقطت لها كرسيانا نظارتها على الأرض بعد أربعة عشر يوماً من إقامتها .

فكم مرة بقيا فيها فى الحقيقة منفردين وجها لوجه ؟ ثلاث مرات ، أربع ، من الصعب أن يكون أكثر من ذلك . ورغم أن أحدهما لم يرى الآخر إلا مرات قليلة ، إلا أنهما كتبا لبعضهما البعض عن ذلك أكثر . أو بتعبير أدق هى كتبت له أكثر . كتبت له اثنين وخمسين خطاباً مطولاً ، كانت لا تخاطبه فيها بصيغة الاحترام ، ولم تتحدث عن شيء إلا عن الحب ، وبخلاف هذا السيل من كلمات لم يتطور الأمر فى الواقع إلى شيء آخر . ويمكن هنا أن نسأل لماذا أصبحت قصة حبهما مشهورة إلى هذه الدرجة . الإجابة هى : أصبحت مشهورة لأن الأمر ارتبط من بدايته بشيء آخر غير الحب .

بدأ جوته مبكراً يرتاب فى الأمر . فلأول مرة بدأ يشعر بالقلق عندما كشفت له باتينا أنها قبل أن تبدأ زيارتها الأولى لفايمر تقربت كثيراً إلى والدته العجوز ، التى كانت مثلها تعيش فى " فرانكفورت " . كانت باتينا تستجوبها عن ابنها ، والأم تحكى لها على مدى أيام بكاملها فى سعادة ، وبجملة عشرات الذكريات . لقد ظنت باتينا أن صداقتها مع الأم ستفتح لها بيت جوته وقلبه . إن هذا الحصر للذكريات لم يكن دقيقاً . فحب الأم الذى يصل لحد العبادة كان يبدو لجوته هزلياً (فلم يحضر ولا مرة واحدة من فايمر ليراها) وقد شم

رائحة الخطر فى تحالف هذه الفتاة المغالية فى مشاعرها مع الأم الساذجة .

إننى أتخيل أنه عندما كانت تقص عليه باتينا الأحداث التى عرفتھا من السيدة العجوز والدة جوته فإنه أحس بمشاعر متداخلة جدا .
ففى البداية شعر بالطبع بالإطراء من الاهتمام الذى أظهرته به هذه الفتاة الشابة . إن رواياتھا أيقظت فيه الكثير من الذكريات الكامنة ، التى أسعدته ، ولكنه بعد فترة قصيرة اكتشف بعض الطرف التى لم يكن ممكنا أن تحدث أو التى بدا فيها مثيرا للضحك ، وكان يجب ألا تحدث . والأكثر من ذلك اكتسب الحديث عن طفولته ، وصباه فى فم باتينا مسحة ومغزى معينين جعلاه لا يشعر بالارتياح . ليس لأن باتينا ربما تريد أن تستخدم هذه الذكريات عن طفولته ضده ولكن لأنه غير مقبول للإنسان (أى إنسان ، ليس جوته فقط) أن يسمع سرد قصة حياته فى تفسير آخر غير تفسيره هو . ولذا فقد شعر جوته أنه مهدد ؛ فإن هذه الفتاة التى تنتقل فى أوساط المثقفين الشبان للحركة الرومانسية (والتى لم يكن لدى جوته أدنى تعاطف تجاهھا) طموحة إلى درجة الخطر وتعتقد أنها ستصبح (ببداهة تقترب إلى عدم الحياء) أديبة فى المستقبل . فى أحد الأيام قالت له هذا مباشرة : إنها تريد أن تؤلف من ذكريات أمه كتابا ، كتابا عنه ، عن جوته ! فى هذه اللحظة رأى خلف علامات الحب عدوانية القلم المخيفة ، وبدأ يأخذ حذره .

ولأنه فى الحقيقة بدأ يأخذ حذرہ منها فقد فعل كل شىء حتى لا يبدو متضايقا . كانت خطيرة جدا ، ولكنه فضل قبل أن يتخذها عدوا ، أن يضعها تحت السيطرة المستمرة والرقية . ولكنه عرف فى الوقت نفسه أنه لا ينبغي عليه حتى المبالغة فى الرقة لأنه أى علامة يمكن أن تؤولها على أنها دليل على تودد غرامى (فقد كانت مستعدة أن تؤول حتى عطسته على أنها اعتراف بالحب) قد تجعلها أكثر جرأة .

ذات مرة كتبت إليه : " لا تحرق خطاباتى ، لا تمزقها ، فإن هذا قد يضرک ، فهى مرتبطة بك وبحياتك بقوة وبصدق ، لكن لا تريها لأحد ، حافظ عليها مخبأة كأنها شىء جميل مكنون . " فى البداية ابتسم بتسامح من هذا اليقين فى اعتبار باتينا خطاباتها شىء جميل ، ثم شدت انتباهه هذه الجملة : " ولكن لا تريها لأحد ! " لماذا تقول له ذلك ؟ يا إلهى وهل يوجد لديه أدنى رغبة فى أن يريها لأحد ؟ إنها بصيغة الأمر : لا تريها ، تكشف باتينا عن رغبتها الكامنة فى أن تريها . لم يكن يشك فى أن الخطابات التى يكتبها إليها من وقت لآخر سوف يكون لها قراء آخرون ، وكان يعرف أنه فى وضع المتهم الذى أبلغه القاضى : إن كل ما تقوله منذ الآن يمكن أن يستخدم ضدك .

ولذلك فقد حاول أن يسلك بعناية طريقا وسطا بين الرقة والقسوة : كان يجيب على خطاباتها المثيرة برسائل تعبر عن الود ، ولكن فى

الوقت نفسه بتحفظ . وكان رد فعله على عدم استخدام صيغة الاحترام هو أنه استخدمها لفترة طويلة . وعندما كانا يلتقيان صدفة في إحدى المدن كان يتصرف معها بحنان أبوى ويدعوها إلى منزله ، ولكنه يحاول أن يرى بعضهما الآخر دائما في حضور أناس آخرين .

إذا فماذا كان بينهما بالفعل ؟

في عام ١٨٠٩ تكتب له باتينا : " لدىّ إرادة قوية في أن أحبك إلى الأبد . " اقرأ بعناية هذه الجملة التي تبدو في الظاهر تافهة . إن أهم بكثير من كلمة " أن أحب " هما كلمتا " الأبد " و " إرادة " . لن أثير مشاعركم أكثر من ذلك . هذا الذي كان بينهما لم يكن حبا ولكنه خلود .

(٧)

في عام ١٨١٠ ، وخلال الأيام الثلاثة التي التقيا فيها صدفة في مدينة تبليسه اعترفت له أنها ستزوج بعد فترة قصيرة بالشاعر " أخيم أرني " . من المحتمل أنها قالت له ذلك وهي تساورها شكوك مؤكدة ، لأنها لم تكن واثقة من أن جوته قد يعتبر زواجها خيانة للحب الذي اعترفت له به بشكل مكثف ، لم تكن خبيرة جيدة بالرجال حتى تتوقع كم السعادة الهائلة التي تسببها له بذلك .

يكتب على الفور بعد سفرها خطابا لكرستيانا فى فايمر به جملة
مرحة : " Mit Arnim isist wohl gewiss " إن موضوعها مع أرني
أصبح مؤكدا تماما . وفى الخطاب نفسه يبدى سعادته من أن باتينا
كانت فى هذه المرة " أجمل وألطف من أى وقت مضى " ، ونحن
نستنتج لماذا بدت له هذه المرة هكذا : كان واثقا من أن وجود زوج لها
سوف يحميه من الآن من تهورها ، الذى منعه حتى الآن من أن يثنى
برضاء على مفاتها وهو فى حالة مزاجية طيبة .

وحتى ندرك الموقف فإننا يجب ألا ننسى شيئا مهما : كان
جوته جذابا منذ بداية شبابه المبكر . وفى الفترة التى عرف فيها باتينا
كان عمره أربعون عاما ، وتكونت فى داخله خلال هذه الفترة
ميكانيكية التجاوب وإشارات الجاذبية التى كان يحركها مع أقل نزوة .
وكان لابد من أن يكبح جماحها دائما أمام باتينا . وعندما أدرك أن
" موضوعها مع أرني أصبح مؤكدا " ، قال براحة إن
الاستمرار فى حرصه ليس له داع .

جاءت فى المساء إلى حجرتة وقد رسمت على وجهها علامات
الطفولة . تحدثت بشكل مثير عن شىء غير مهذب ، وبينما يجلس
هو على مقعده ، جلست هى فى مقابله على الأرض . فهى فى حالة
نفسية جيدة (" موضوعها مع أرني أصبح مؤكدا ") ، انحنى إليها
ومسح على خدها ، مثلما نفعل مع الطفل . فى هذه اللحظة توقفت

الطفلة عن حديثها ، ورفعت تجاهه عينيها المملكتين برغبة ولهفة الأنثى ، أمسكها من يديها ، ورفعها من الأرض . لا ننسى هذا المشهد ، كان جالسا وكانت هي واقفة أمامه ، وفي النافذة تغرب الشمس . نظرت في عينيها ، ونظر في عينيها . دارت ماكينة الجاذبية ولم يمنعها . وبصوت أعمق من أى وقت آخر وهو مازال ينظر في عينيها ، دعاها لأن تكشف عن ثديها . لم تقل شيئا ، ولم تفعل شيئا ، احمر وجهها ، وقف من مقعده ، وفك الثوب عن ثديها . كانت تنظر باستمرار في عينيها وقد تشابكت أشعة الشمس الحمراء في وقت الغروب على بشرتها بحمرة غمرتها من وجهها حتى معدتها . وضع يده على ثديها وسألها : " لم يلمس أحد ثديك من قبل ؟ " فأجابت : " لا " " إنه شيء غير عادى أن تلمسنى " ونظرت باستمرار في عينيها . لم يرفع يده عن ثديها وكان ينظر أيضا في عينيها ، وأخذ يتأمل في قاعهما طويلا وبشغف خجل الفتاة التى لم يلمس أحد ثديها بعد .

تقريباً هكذا دونت باتينا بنفسها هذا المشهد ، الذى من المحتمل جدا أنه لم يكن له أى تكملة أخرى ، وبرق فى منتصف قصتهم ، بشكل أقرب إلى الخطابة منه إلى الجنس ، كجوهرة فريدة ورائعة للإثارة الجنسية .

(٨)

وعندما سافرت بقيت فى داخلهما طويلا آثار هذه الليلة الساحرة . وفى الخطاب الذى أعقب لقاءهما لقبها جوته بـ *allerliebste* أعز الناس . لأجل هذا لم ينس جوته ما حدث ، وعلى الفور أخبرها فى الخطاب التالى أنه بدأ يكتب مذكراته ، من حياتى ، *Dichtung und Wahrheit* ، وأنه يريد مساعدتها : فإن والدته لم تعد على قيد الحياة ، ولا أحد غيرها يستطيع استعادة ذكريات صباه ، وقد قضت باتينا معها بالطبع وقتا طويلا : فلتكتب ما قصته عليها هذه السيدة العجوز وترسله إليه .

ألم يكن يعرف أن باتينا كانت تريد أن تصدر هذا الكتاب عن ذكريات طفولة جوته بنفسها ؟ وأنها بحثت هذا الأمر حتى مع دار النشر ؟ بالطبع كان يعرف ! أراهن أنه طلب منها هذه الخدمة ليس لأنه يحتاجها ، ولكن حتى لا تستطيع أن تصدر شيئا عنه . وتحت تأثير لقاءهما الأخير ، وخوفاً من أن يسلبها جوته زواجها من أرئم أطاعته . لقد نجح فى أن يبطل مفعولها كما يبطل مفعول القنبلة الزمنية .

ثم جاءت بعد ذلك فى سبتمبر من عام ١٨١١ إلى فايمر ، جاءت بصباحة زوجها الشاب وكانت حاملاً . لا يوجد شيء أكثر مرحاً من اللقاء مع امرأة كنا نخافها ، والتى لم تعد تخيف ؛ لأنها

أصبحت منزوعة السلاح . ولكن رغم أنها حامل ، ومتزوجة ،
وليس لديها المقدرة لتكتب كتابا عن صباه ، إلا أن باتينا لم تشعر أنها
بدون سلاح ولم تعتزم أن تتراجع عن معركتها . افهموا جيدا ،
ليست معركة من أجل الحب ، ولكن معركة من أجل الخلود .

أن يفكر جوته فى الخلود فهذا شيء يمكن افتراضه بالنظر
إلى موقفه ، ولكن هل من الممكن أن تكون فكرت فيه هذه الفتاة
المغمورة ، وفى مرحلة الصبا هذه ؟ بالطبع نعم . إن التفكير
فى الخلود يكون منذ الطفولة . كانت باتينا بخلاف ذلك تنتمى
إلى جيل الرومانسيين ، وكان هؤلاء مبهورين بالموت منذ اللحظة
التي رأوا فيها الدنيا للمرة الأولى . لم يبلغ " نوفالس " الثلاثين عاما
ورغم ذلك ، ورغم شبابه لم يكن يلهمه شيء أكثر من الموت ، جنية
الموت ، الموت الذى يتحول مغزاه إلى خمر للشعر . عاشوا
فى غموض ، تخطوا أنفسهم ، ومدوا أيديهم بعيدا ، حتى وصلوا
إلى نهاية حياتهم ، وإلى أبعد من حياتهم ، إلى عدم الوجود .
وكما قلت بالفعل حيث يكون الموت ، يكون الخلود ، فهو قرينه .
فالرومانسيون كانوا يسمحون لأنفسهم بعدم مخاطبته بصيغة الاحترام
تماما كما فعلت باتينا مع جوته .

إن السنوات ما بين عامى ١٨٠٧ و ١٨١١ كانت أجمل مرحلة
فى حياتها . وفى عام ١٨١٠ قامت بزيارة بيتهوفن فى فينا بدون أن
تستأذن . تعرفت دفعة واحدة على أكثر اثنين من الألمان خلودا ، ليس

فقط على الشاعر الجميل ، ولكن على المؤلف الموسيقى الدميم ،
وغازلت الاثنين : فقد سحرتها ثنائية الخلود هذه . أصبح جوته
عجوزا (فى هذه الفترة كان من يبلغ الستين يعتبر عجوزا) وقد أصبح
مؤهلا جدا للموت . ورغم أن يتهوفن كان عمره فقط أربعين عاما
إلا أنه لم يتوقع أنه أقرب بخمس سنوات للموت من جوته .
كانت باتينا تقف بينهما كالملاك الرقيق بين حجرى ضريحين هائلين
أسودى اللون . لقد كان جميلا أنه لم يشغل بالها أبدا فم جوته الذى
لم يوجد به تقريبا ولا سنة واحدة . بل على العكس من ذلك فكلما
تقدم به السن أصبح أكثر جاذبية ، لأنه كلما صار أقرب للموت صار
أقرب للخلود . فإن جوته الميت سوف يمسكها بقوة من يدها ويأخذها
إلى معبد الشهرة . فكلما كان أقرب للموت كانت أقل استعدادا لأن
تبتعد عنه .

ولذلك ففى شهر سبتمبر التعس من عام ١٨١١ ورغم أنها
متزوجة وحامل فقد لعبت دور الطفلة أكثر من أى وقت مضى ،
كانت تتحدث بصوت مرتفع ، تجلس على الأرض ، على المنضدة ،
على حافة خزانة البياضات ، على النجفة ، تتسلق فوق الأشجار ،
تمشى وهى ترقص ، تغنى عندما يتكلم الجميع كلاما جادا ، تنطق
بجمال جادة عندما يريد الجميع أن تغنى ، وكانت تحاول أن تنفرد
بجوته وليحدث ما يحدث . لقد نجحت فى ذلك مرة واحدة طوال
الأسبوعين ، وطبقا لما يحكى فإن الأمور جرت هكذا تقريبا .

كان هذا فى المساء ، جلسا فى حجرته بجوار النافذة . بدأت تتحدث عن الروح ، عن النجوم . وفى هذه اللحظة نظر جوته عبر النافذة إلى أعلى ، وأشار لباتينا على نجم كبير . ولكن باتينا كانت تعاني من قصر النظر ولم تر شيئا . فأعطى لها جوته منظارا : " نحن سعداء الحظ ، إنه عطاردا فى هذا الخريف يمكن رؤيته بوضوح . " إن باتينا أرادت بالطبع أن تتحدث عن نجوم العشاق وليس عن نجوم الفلكيين ، ولذلك فعندما وضعت المنظار على عينها لم تر عن عمد شيئا ، وقالت إن هذا المنظار ضعيف جدا بالنسبة لها . فذهب جوته ليحضر لها منظارا بعدسات أقوى . اضطرها مرة أخرى لتضعه على عينيها ومرة أخرى قالت إنها لا ترى شيئا . فكان هذا سببا لأن يتحدث باستفاضة عن عطاردا والمريخ وعن الكواكب والشمس ودرب اللبانة . تحدث طويلا ، وعندما أنهى حديثه ، اعتذرت ، ثم ذهبت لتنام من تلقاء نفسها وبارادتها . وبعد عدة أيام أعلنت فى المعرض أن جميع اللوحات المعروضة لا تحمل ، وأوقعت لها كريستيانا نظارتها على الأرض .

(٩)

عايشت باتينا يوم النظارة المكسورة ، يوم الثالث عشر من سبتمبر كأنه هزيمة كبرى . كان رد فعلها شرسا معلنة فى كل فاير أنه عضها شخص أحرق مسعور ، ولكنها أدركت مبكرا أن غضبها هذا قد يؤدي

إلى أنها لن ترى جوته للأبد . الأمر الذى أدى إلى تحول حبها الكبير لهذا الخالد إلى حادث عارض محكوم عليه بالنسيان . ولذلك فقد أجبرت أرتم الطيب على أن يكتب خطابا لجوته ويحاول أن يعتذر نيابة عنها ، ولكن الخطاب ظل بلا إجابة . ترك الزوجان فاير وفى يناير من عام ١٨١٢ توقفا بها مرة أخرى ، ولم يستقبلهما جوته . وفى عام ١٨١٦ ماتت كرستيانا ، وبعد ذلك بقليل أرسلت باتينا لجوته خطابا طويلا كله خنوع . ولكن جوته لم يجب . وفى عام ١٨٢١ ، أى بعد عشرة أعوام من آخر لقاء بينهما ، جاءت إلى فاير ، وأرادت مقابلة جوته الذى كان فى هذا المساء يستقبل ضيوفا ؛ ولذلك لم يستطع أن يمنعها من دخول المنزل . لم يتفوه معها بكلمة واحدة . كتبت له مرة أخرى فى ديسمبر من نفس العام ولم تلق أى رد .

وفى عام ١٨٢٣ اعتزم أعضاء مجلس مدينة فرانكفورت أن يقيموا تمثالا لجوته ، وطلبوه من نحاس معين اسمه " روخ " . وعندما رأت التصميم لم يعجبها ، أدركت أن القدر أتاح لها الفرصة التى لا يجب أن تضيعها . ورغم أنها كانت لا تعرف الرسم ، إلا أنها أخذت فى العمل فى الليلة نفسها ، ووضعت خطوطا تمهيدية للتمثال بناءً على إيحاءها الشخصى : كان جوته يجلس فى وضع بطل من العصور القديمة ، يمسك فى يده قيثارة ، وتقف بين قدميه فتاة صغيرة تمثل " بسيشه " ، وكان شعره يشبه ألسنة اللهب . أرسلت هذا الرسم إلى جوته ، فحدث شئ مثير للدهشة تماما : ظهرت دمة

فى عىن جوتة ! وهكذا بعد ثلاثة عشر عامًا (كان هذا فى يوليو من عام ١٨٢٤ ، كان عمره خمسة وسبعون عاما وهى تسعة وثلاثون) استقبلها عنده ، ورغم أنه تصرف بفتور ، إلا أنه أظهر لها أنه قد غفر كل شئ وأن فترة الازدراء الصامت قد ولت .

يبدو لى أن البطلين فى هذه المرحلة من القصة وصلا بهدوء إلى إدراك بعيد النظر للموقف : عرف الاثنان إلام يهدف كل منهما ، وكل منهما يعرف أن الآخر يعرف . فقد أوضحت باتينا برسمها للتمثال ولأول مرة بشكل مباشر هذا الذى كان منذ بداية اللعبة : الخلود . لم تنطق باتينا بهذا الكلمة ولكنها فقط لمستها بصمت كما نلمس الوتر الذى يطن بعد ذلك بصوت خافت لفترة طويلة . أرهف جوته السمع .

فى البداية كان مأخوذا بغباء بهذا التملق ، ولكن بالتدريج (عندما مسح دموعه) بدأ يدرك الغرض الحقيقى (والأقل تملقا) من رسالة باتينا : التى تجعله يعرف أن اللعبة القديمة مازالت مستمرة ، وأنها لم تستسلم ، فهى التى ستخطط له الكفن المهيّب ، وسترى فيه ذريته ، أنه لم يمنعها شئ من ذلك ولا حتى صمته العابس . تذكر من جديد ما كان يعرفه منذ زمن : إن باتينا خطر ، وأنه من الأفضل وضعها تحت السيطرة الناعمة .

كانت باتينا تعرف أن جوته يعرف . يظهر هذا من لقائهما الأخير فى خريف العام نفسه ، تصف هذا بنفسها فى خطاب أرسلته إلى ابن .

أختها : بعد الترحاب مباشرة ، تقول باتينا فى خطابها : " بدأ جوته أولاً يتشاجر ، ثم بدأ بعد ذلك يلاطفنى بالكلمات لكى يكسب ودى من جديد " .

كيف لا يمكن أن نفهمه ! لقد كان يشعر بالحاح عنيف أنها تثير أعصابه وأنه غضب من نفسه لأنه خرق ثلاثة عشر عاما من السكون الرائع . بدأ يتشاجر معها كما لو أنه أراد أن يعدد لها مرة واحدة كل ما كان يجيش فى صدره تجاهها ، ولكنه استدرك على الفور : لماذا يكون صادقا ؟ لماذا يخبرها بما يفكر فيه ؟ المهم هو ما تعهد به لنفسه : أن يحيدها ، أن يطمئنها ، أن يضعها تحت السيطرة .

وتستمر باتينا فى حديثها : على الأقل ست مرات خلال حوارهما ذهب جوته تحت ذرائع مختلفة إلى الحجرة المجاورة ، حيث كان يشرب النبيذ خلصة ، عرفت هذا من نفسها . وفى النهاية سألتها ضاحكة لماذا يذهب خلصة ليشرب ، مما أشعره بالإهانة .

يبدو لى أن باتينا لم تتصرف مثلكم أو مثلى ، وهذا هو الشيء الأكثر إثارة من جوته الذى ينصرف ليشرب ، كنا سننبه جوته بمداعبة ، وبعد ذلك نصمت بتعقل واحترام . ولكن أن تقول له ما لن يتفوه به الآخرون (" أشم من فمك رائحة الكحول ! لماذا تشرب ؟ ولماذا خلصة ؟ ") ، كان هذا بالنسبة لها طريقة لأن تغتصب جزءاً من خصوصيته بالقوة ، وأن تجد نفسها قريبة منه جسدياً . وفى عدوانية طيشها ، التى دائماً ما اغتصبت بها الحق فى الوصول إلى

قناع الطفلة ، رأى جوته فجأة باتينا التى قرر منذ ثلاثة عشر عاما ألا يراها أبدا فى حياته . وقف بدون أن يتفوه بكلمة واحدة وأمسك بسراج فى يده . كانت هذه علامة على أن الزيارة أوشكت على الانتهاء ، وهنا يصطحب الزائرين إلى الباب عبر الممر المظلم .

وفى هذه اللحظة - تستمر باتينا فى خطابها - ولكى تمنعه من الخروج جثت على العتبة ووجهها تجاه الحجرة وقالت : " أريد أن أرى إذا كنت استطعت أن أحافظ عليك ، وهل أنت روح خيرة أم روح شريرة مثل فأر " فاوست " ، إننى أقبل وأبارك العتبة التى يخطو عليها أعظم الناس وأعظم صديق لى " .

وماذا فعل جوته ؟ أستشهد مرة أخرى حرفيا بباتينا . قال كما يذكر : لن أدوس عليك ولا على حبك لأخرج ، فحبك غال عندى كثيرا ، ولكن فيما يخص روحك سوف أتسلل من حولها " ، (وحقيقة تفادى جسدها الجائى بحرص) " لأنك مأكرة جدا ومن الأفضل البقاء معك فى توافق تام ! " .

إن الجملة التى اضطرت به باتينا لقولها تحوى ، كما يبدو لى ، كل شىء كان جوته قد قاله لنفسه خلال لقاءهما : أعرف يا باتينا أن تصميم التمثال كان حيلة عبقرية منك . ففى شيخوختى التعسة تأثرت برؤية شعري الذى تحول إلى لهب (آه شعري الردىء الناحل) ، ولكن على الفور أدركت أن ما أردت أن ترينى إياه

لم يكن رسمًا ، ولكنه مسدس تمسك به بيدك لكي تطلق الرصاص في أعماق خلودي . لا ، لم أستطع أن أجردك من السلاح ، ولذلك فأنا لا أريد الحرب ، أريد السلام . لا شيء غير السلام . سوف أتفاداك بحرص ولن ألمسك ، لن أحضنك ، ولن أقبلك . فمن ناحية ليس لدى رغبة ، ومن ناحية أخرى إن كل ما سأفعله سوف تحولينه إلى ذخيرة لمسدسك .

(١٠)

جاءت باتينا بعد ذلك بعامين مرة أخرى إلى فايمر ؛ كانت ترى جوته تقريبا كل يوم (كان عمره في ذلك الوقت سبعة وسبعين عاما) وفي نهاية إقامتها ، عندما حاولت أن تصل إلى بلاط " كارل أوجست " ، ارتكبت بعضا من حماقاتها المحببة ، وهنا حدث شيء غير متوقع . انفجر جوته . كتب للأمير " ذبابة الماشية المزعجة هذه **Bremse** (**diese leidige**) التي أوصت لى بها أمى ، مضنية جدا منذ عدة سنوات . فالآن قد عادت مرة أخرى إلى اللعبة القديمة التي كانت تناسبها عندما كانت شابة ؛ تتحدث عن العنادل ، وهى تزقزق كالكناريا . فإذا فوضنى فخامته ، سوف أحظر عليها أى مضايقات أخرى فى المستقبل . وفيما عدا ذلك فإن فخامته لن يكون فى مأمن من تطفلها " .

ثم جاءت بعد ست سنوات مرة أخرى إلى فاير ، ولكن جوته لم يستقبلها ، فقد ظلت مقارنته لها بذبابة الماشية المزعجة هي كلمة النهاية لكل القصة .

والشيء الغريب أنه منذ الفترة التي تسلم فيها تصميم التمثال ، نصح نفسه أن يقيم سلاماً بينه وبينها . ورغم أنه كان شديد الحساسية حتى لمجرد حضورها ، إلا أنه حاول أن يفعل كل شيء (حتى في مقابل أن فاح الخمر من فمه) لكي يقضى معها المساء إلى نهايته " فى تفاهم تام " . ولكن كيف أنه مستعد فجأة أن يحيل كل مجهوداته إلى دخان ؟ كم كان حريصاً لكي لا يذهب للخلود بقميص مجعد ، فكيف إذا كتب فجأة هذه الجملة المرعبة عن ذبابة الماشية المزعجة ، التى سيأخذونها عليه حتى بعد مائة أو ثلثمائة عام ، عندما لا يكون هناك من يقرأ لا فاوست ولا طبيعة الحياة . ولا آلام الشاب فتر ؟ من الضرورى فهم طبيعة الحياة .

إن الموت يبدو لنا بعيداً جداً إلى لحظة معينة قبل أن نتصوره . فهو غير مرئى ومستتر . إنها الفترة الأولى السعيدة فى الحياة .

وفجأة بعد ذلك نبدأ فى رؤية موتنا ، ولا يمكن التخلص من التفكير به ، فهو معنا . ولأن الخلود يمسك بالموت كما يمسك هاردى بلوريل ، فإنه يمكننا أن نقول إن خلودنا يلازمنا كذلك ، فمنذ اللحظة التى نعرف أنه معنا ، نبدأ فى رعايته بشكل محموم ، نخطط له بذلة للسهرة ، ونشتري له رابطة عنق وذلك خوفاً من أن يختار له آخرون

هذه الملابس ورابطة العنق ويختاروها على نحو ردىء . إنها اللحظة التي قرر فيها جوته أن يكتب مذكراته الشهيرة القصيدة والحقيقة ، حيث استدعى إليه " إتسكرمن " المخلص (التوافق الغير عادى للتواريخ : يحدث هذا فى نفس عام ١٨٢٣ حيث ترسل له باتينا اقتراحها للتمثال) ويدعه يكتب " حوارات مع جوته " ، هذه اللوحة الجميلة المرسومة تحت الإشراف الكريم من صاحبها .

بعد ذلك تأتى المرحلة الثانية من الحياة حيث لا يستطيع الإنسان أن يحيل عينيه عن الموت . ثم تأتى المرحلة الثالثة الأقصر والأكثر هدوءاً والتي نعرف عنها القليل ونتحدث عنها قليلا . تخور القوى ، ويسيطر على الإنسان الإرهاق الذى ينزع كل أسلحته . الإرهاق : هذا الجسر الهادئ الذى يقود الإنسان من شاطئ الحياة إلى شاطئ الموت . إن الموت قريب إلى درجة أن النظر إليه أصبح مملا . ويصبح من جديد غير مرئى ومستتر ، كما تكون الأشياء المستترة معروفة ، ومألوفة تماما . إن الرجل المرهق ينظر من النافذة ، يرى أكاليل الأشجار ويهمس فى داخله بأسمائها : الكستناء ، الحور ، القيقب . إن هذه الأسماء جميلة مثل الوجود نفسه . إن الكستناء فارغ يشبه الرياضى الذى مد يده إلى السماء . أو مثل لسان اللهب الذى اندلع بقوة ثم تحجر .

الكستناء ، آه الكستناء . الخلود هو وهم مضحك ، هو كلمة خرقاء ، هو هواء وقع فى شبكة لصيد الفراشات . إذا قارناه بشجرة

الكستناء الجميلة التى يشاهدها الرجل المرهق من النافذة . فإن الخلود لا يهم مطلقا هذا الرجل العجوز المرهق .

وماذا عساه أن يفعل رجل عجوز مرهق ينظر إلى شجرة الكستناء ، عندما تعلن عن نفسها امرأة تريد أن تجلس على المنضدة ، وتجتو على العتبة ، وتلفظ بجمل سوفسطائية ؟ سيطلق عليها ذبابة الماشية المزعجة بإحساس غير منطوق بالسعادة ، وبطوفان مفاجئ من الحيوية .

إننى أفكر فى اللحظة التى كتب فيها جوته هذه الكلمات " ذبابة الماشية المزعجة " . إننى أفكر فى الرضا الذى استشعره أثناء ذلك . وأتصور أنه أدرك فجأة : أنه لم يتصرف أبدا فى حياته كما أراد . إنه يعتبر نفسه مديراً لخلوده ، وهذه المسئولية قيده ، وجعلت منه إنسانا صلبا . كان يخاف الأشياء المخالفة رغم أنها كانت تشده إليها بقوة . وعندما كان يرتكب إحداها ، كان يحاول أن يصححها بالتدريج بالطريقة التى لا تنحرف معها عن هذا الاعتدال المبهج ، الذى كان يربطه أحيانا بالجمال . فكللمات " ذبابة الماشية المزعجة " لم تكن تناسب كتاباته ، ولا حياته ، ولا حتى خلوده . هذه الكلمات كانت حرية خالصة . يستطيع أن يكتبها فقط من وجد نفسه فى المرحلة الثالثة من العمر ، حيث يتوقف الإنسان عن إدارة خلوده وعن اعتباره شيئا ذا أهمية . لا يمكن لكل إنسان أن يصل إلى هذا الحد من التطرف الشديد ، ولكن من يصل إليه يعرف أن هناك ،

وهناك فقط ، توجد الحرية الحقيقية . هذه الأفكار دارت بعقل جوته ، ولكنه نسيها فى التو ؛ لأنه صار عجوزا ومتعبا وأصبحت ذاكرته ضعيفة .

(١١)

فلنتذكر : أول مرة حضرت إليه كانت فى صورة طفلة . وبعد خمسة وعشرين عاما ، وفى مارس من عام ١٨٣٢ ، عندما علمت أن جوته مرض مرضا خطيرا ، أرسلت له على الفور ابنها : " سيجمند " الذى يبلغ من العمر ثمانية عشر عاما . هذا الغلام الأبله بقى فى فايمر ستة أيام بناء على تعليمات أمه وهو لا يعرف على الإطلاق ما الأمر . ولكن جوته كان يعرف : أرسلت له مندوبها الذى يجب عليه أن يخبره فقط بحضوره ، وأن الموت يتقدم خلف الأبواب ، وأن باتينا ستولى من هذه اللحظة أمر خلوده .

ثم دخل الموت من الباب فى يوم ٢٢ مارس بعد صراع معه استمر أسبوعا . يموت جوته ، وبعد بضعة أيام من موته تكتب باتينا للمستول عن وصية جوته المستشار " ميلر " : " إن موت جوته بلا شك أثر على تأثيرا لا يحصى ، ولكنه ليس تأثير الحزن . لا أستطيع أن أجد الكلمات التى تعبر بدقة عن حقيقة شعورى ، ولكن يبدو لى أننى أستطيع تقريب المعنى بقدر المستطاع إذا قلت إنه تأثير الشهرة " .

فلنسجل بعناية تحديد باتينا هذا : ليس الحزن ولكن الشهرة .

ثم تطلب بعد فترة قصيرة من نفس المستشار ميلر أن يرسل لها جميع الخطابات التى كتبتها لجوته فى وقت ما . وعندما قرأتها شعرت بخيبة أمل : فكل حكايتها مع جوته بدت كأنها مجرد إسكتش ، إسكتش لرائعة أدبية ، ولكنه رغم ذلك اسكتش ، وغير متقن تماما . كان من الضرورى البدء فى العمل . قضت ثلاث سنوات من التنقيح ، وإعادة الكتابة ، والإضافة . فإذا كانت غير راضية عن خطاباتها فإن خطابات جوته لم ترضها أكثر . فعندما قرأتها الآن من جديد ، شعرت بالاستياء من الاقتضاب والتحفظ بل وأحيانا من الصفاقة الموجودة بها . كأنه أخذ تظاهرها بالطفولة مأخذ الجد ، كان يكتب لها أحيانا كأنه يعطى بحنان درسًا فى الاعتدال لتلميذ فى مدرسة . ولذلك كان لزامًا عليها أن تغير أسلوبها . فحيث يلقبها بـ " صديقتى الغالية " جعلتها " قلبى الغالى " ، وخففت من توبيخه لها بعبارات إضافية إطرائية ، وأضافت جُملًا تشهد على أنه كان لها على هذا الشاعر الولهان سيطرة الملهمه وعروس الشعر .

والشئ الأكثر تطرفا أنها أعادت بالطبع كتابة خطاباتها هى . لا ، لم تغير أسلوبها ، فالأسلوب كان سليما ولكن غيرت على سبيل المثال تواريخها (حتى تختفى فترات التوقف الطويلة فى مراسلاتهم ، التى قد تناقض استمرارية عشقهما) . حذفت الكثير من الفقرات غير المرغوب فيها (على سبيل المثال هذه الفقرة

التي ترجو فيها جوته ألا يرى خطاباتها لأحد) ، وأضافت بعض الفقرات ، صورت المواقف المكتوبة بطريقة مسرحية ، طورت بعض آرائها في السياسة ، والفن وخاصة في الموسيقى ، وفي بيتهوفن لتصبح أكثر عمقا .

أتمت كتابة الكتاب في عام ١٨٣٥ وأصدرته تحت عنوان " **Goethes Briefwechsel mit einem Kinde** " مراسلات جوته مع طفلة " . لم يشك أحد في صحة الرسائل حتى عام ١٩٢١ عندما اكتشفت الخطابات الحقيقية ونشرت .

أخ ، ولماذا لم تحرقها في الوقت المناسب ؟

تخيل أنك في مكانها : فلن يكون من السهل إحراق وثائق خاصة عزيزة عليك ؛ إن هذا يبدو كما لو أنك تعترف أنك لن تظل هنا طويلا ، أنك ستموت غدا . وهكذا تظل تؤجل عملية التخلص منها من يوم لآخر ، وفي أحد الأيام يكون قد فات الأوان .

إن الإنسان يحسب حساب الخلود وينسى أن يحسب حساب الموت .

(١٢)

الآن من المحتمل نظرا للمسافة التي أتاحتها لنا نهاية القرن الحالي ، أن نجرؤ على القول : إن جوته هو الشخصية التي تقع بالضبط في

منتصف التاريخ الأوروبي . جوته : نقطة الارتكاز العظيمة . ليس نقطة الارتكاز ، النقطة المزعزعة ، التى تتحاشى الأطراف فى حذر . لا ، إنه نقطة الارتكاز القوية ، التى تمسك بكلا الطرفين فى توازن يثير الإعجاب ، الذى لن تعرفه أوروبا بعد ذلك أبدا . عندما كان جوته شابا ، كان يدرس الكيمياء ، ويصبح بعد ذلك واحدا من أوائل العلماء المعاصرين . إن جوته هو الأعظم بين جميع الألمان وفى الوقت نفسه ضد القوميات وأوروبي . جوته عالمى وفى نفس الوقت لم يترك تقريبا محافظته ، مدينته الصغيرة فايمر . إن جوته هو رجل الطبيعة ، ولكنه أيضا رجل التاريخ : فى الحب هو فاجر وأيضا رومانسى : ومازال هناك شىء آخر :

فلتذكر أجنس عندما كانت فى المصعد والذى كان يهتز كأنه يرقص رقصة القديس " فيتوس " . ورغم أنها كانت خبيرة فى علم التحكم الأوتوماتيكى ، فإنها لم تعرف أن تفسر على الإطلاق ماذا يدور فى الرأس التقنى لهذه الآلة ، والتى كانت بالنسبة لها غريبة ، وغير واضحة مثل تقنية جميع الأشياء التى تحتك بها يوميا ، من الكمبيوتر الصغير القائم بجوار الهاتف إلى غسالة الأوانى .

وعلى العكس من ذلك عاصر جوته فترة قصيرة جدا من التاريخ كان قد بدأت فيها المهارة التقنية تعطى للحياة راحة مؤكدة ، ولكن متى استطاع الإنسان المثقف أن يفهم جميع الأدوات التى كان يستخدمها . كان جوته يعرف من أى شىء بنى ، وكيف بنى البيت

الذى يسكن فيه ويعرف لماذا تضيء لمبة الغاز ، وكان يعرف مبدأ تشغيل التلسكوب ، الذى كان يشاهد به عطارده هو وباتينا ؛ لم يكن يعرف كيف يجرى عملية جراحية بنفسه ، لكنه ساعد فى كثير من العمليات . وعندما كان يمرض ، كان يتفاهم مع الطبيب بلغة الخبير . كان عالم الأشياء الفنية مفهوماً بالنسبة له ، ومكشوفاً تماماً لعينه . كانت هذه لحظة جوته العظيمة فى منتصف التاريخ الأوروبى ، لحظة سيظل بعدها ندب الشكوى فى قلب الإنسان المحبوس فى مصعد يتلوى ويرقص .

إن صنيع بيتهوفن يبدأ من حيث تنتهى نقطة الوسط عند جوته . إنه موجود فى اللحظة التى يبدأ فيها العالم يفقد بالتدريج شفافيته ، ويظلم ، ويصبح بمرور الوقت أكثر غموضاً ، ثم يهوى إلى المجهول ، بينما يفر الإنسان الذى خذله العالم إلى نفسه ، إلى شكواه ، إلى أحلامه ، إلى ثورته ، ويترك نفسه ليصبح أصم من صوت أحشائه الموجوعة إلى درجة أنه لا يسمع الأصوات التى تأتى إليه من الخارج . بدت لجوته صرخة الأحشاء هذه كجلبة لا تحتل . كان جوته يكره الضوضاء . هذا شئ معروف . لم يكن يحتمل حتى نباح الكلب من الحديقة البعيدة . يقال إنه لم يكن يحب الموسيقى . هذا غير صحيح . ما لم يكن يحبه هو الأوركسترا . كان يحب " باخ " ، لأن باخ كان مازال يتصور الموسيقى على أنها التناغم الشفاف للأصوات الموجهة كل على أفراد ، والتى يمكن أن تميز بين كل منها . ولكن فى سيمفونيات

بيتهوفن تتبدد الأصوات المنفردة للآلات ، وتتحول إلى خليط صوتي من الصراخ والنحيب . إن جوته لم يحتمل زمجرة الآلات الموسيقية ، مثلما لم يحتمل بكاء النفس الصاخب . إن الجيل الشاب من رفقاء باتينا رأوا كيف أن جوته المقدس ينظر إليهم باشمئزاز ويصم أذنيه . لم يستطيعوا أن يغفروا له ذلك ، وهاجموه كعدو للنفس والثورة والمشاعر .

كانت باتينا أختا للشاعر " برنتان " وزوجة للشاعر أرنم ومغربة بيتهوفن . كانت منتمية لجيل الرومانسيين ، ولكنها كانت في الوقت نفسه صديقة لجوته . هذا الوضع لم يتمتع به أحد غيرها : كانت كالمملكة التي تحكم في مملكتين .

كان كتابها عبارة عن مديح رائع في جوته . ولم تكن جميع خطاباتها سوى أنشودة حب واحدة له . نعم ، ولكن لأن الجميع عرف بالنظارة التي أسقطتها لها زوجة جوته على الأرض ، وأن جوته حينئذ قد خذل على نحو رديء الطفلة المحبة لصالح هذه الحمقاء المسعورة ، فإن هذا الكتاب جاء في الوقت نفسه (وأكثر بكثير) كدرس في الحب مهدي للشاعر الراحل ، الذي تصرف وهو يقف وجهها لوجه مع هذا الإحساس العظيم كرجعي جبان ، وضحي بلهيب الحب من أجل الاستقرار التافه للزواج . كان كتاب باتينا تقديراً وجلداً في الوقت نفسه .

(١٣)

وفى العام نفسه الذى رحل فيه جوته قصت باتينا فى خطاب أرسلته إلى صديقها الكونت " هيرمن فون بتسكلير - مسكاو " ما حدث فى فصل الصيف منذ عشرين عاما . عرفت ذلك كما يقال مباشرة من " بيتهوفن " . فقد جاء فى عام ١٨١٢ (بعد عشرة أشهر من الأيام السوداء للنظارة المكسورة) لقضاء عدة أيام فى مدينة " تيلتسه " التشيكية ، حيث التقى حينئذ للمرة الأولى مع جوته . وفى أحد الأيام خرج معه لـلتمشية . سارا معا عبر طريق المنتجعات الصحية المحاط بالأشجار ، وفجأة ظهرت فى الاتجاه المقابل زوجة القيصر مع أسرتها وعمدة المدينة ، وعندما لمحهم جوته توقف عن سماع ما يقوله له بيتهوفن ، وتراجع إلى حافة الطريق ورفع القبعة . بينما أدخل بيتهوفن قبعته أكثر إلى جبهته ، واكفهر وجهه حتى زادت حواجبه الكثيفة كثافة بخمسة ستمترات . استمر فى طريقة ولم يبطئ الخطى . لذلك فإن النبلاء هم الذين توقفوا ، وتراجعوا ، وبادروا بالتحية . وفقط بعد أن أصبح بعيدا قليلا عنهم ، استدار وانتظر جوته وقال له ما ظنه عن تصرفه الوضع كالخادم . سبه كأنه طفل صغير يتدلى المخاط من أنفه .

هل حدث حقيقة هذا المشهد ؟ هل لفته بيتهوفن بكل تفاصيله ؟ أم أنه زخرفه فقط ؟ أم أن باتينا هى التى زخرفته ؟ أم أنها هى التى

لفقته بكل تفاصيله ؟ هذا ما لن يعرفه أحد أبدا . الشيء المؤكد أنها عندما كتبت الخطاب إلى بتسكلر - مسكاو كانت تدرك أن هذه الحكاية ليس لها قيمة . إنها قادرة فقط على أن تكشف المغزى الحقيقي لقصة حبها مع جوته . ولكن كيف تصبح معروفة ؟ تسأل في خطابها هيرمن فون بتسكلر " هل تعجبك هذه القصة ؟ هل تستطيع أن تستخدمها ؟ " ولكن الكونت لم يعتزم استخدامها ، ولذلك فقد شغلت نفسها بفكرة أن تنشر مراسلاتها مع الكونت ؛ ولكن بعد ذلك خطرت لها فكرة أفضل بكثير : نشرت في عام ١٨٣٩ في مجلة : " آتينوم " خطاباً يحكى لها فيه بيتهوفن بنفسه القصة نفسها . لم يمكن أبدا الحصول على أصل هذا الخطاب المؤرخ عام ١٨١٢ . بقيت فقط النسخة المكتوبة بخط يد باتينا . يوجد بعض التفاصيل (على سبيل المثال تاريخ كتابة الخطاب) التى تشهد على أن بيتهوفن لم يكتب قط هذا الخطاب ، أو أنه على أقل تقدير لم يكتبه بالشكل الذى نقلته به باتينا . ولكن مهما كان الخطاب مختلفا أو نصف مختلف ، فإن هذه الفكاهة جذبت الجميع وصارت مشهورة . وفجأة أصبح كل شيء واضحا : فإذا كان جوته قد فضل السيدة الحمقاء على الحب الكبير ، فإن هذا ليس مجرد صدفة : فينما يبدو بيتهوفن شخصا مشاغبا يسير فى الأمام وقبعته مضغوطة على رأسه حتى جبهته ، ويداه متشابكتان على ظهره ، يبدو جوته كالخادم ينحنى بوضاعة على حافة الطريق .

درست باتينا نفسها الموسيقى ، وفوق ذلك كتبت بعض الألحان ، ولذا كان لديها مقدمات منطقية لتدرك ما هو الجديد والجميل فى موسيقى بيتهوفن . ولكن رغم ذلك أطرح تساؤلا : هل استهوتها موسيقى بيتهوفن بذاتها ، وبنوتاتها الموسيقية ، أم استهواها فقط ما تمثله . بمعنى آخر لتحالفها الغامض مع الأفكار ، والمواقف التى تشترك فيها مع رفقاء جيلها ؟ هل يوجد على الإطلاق حب للفن ومتى وجد ؟ أليس هذا خداعا ؟ فعندما صرح " لينين " أنه يحب أكثر من أى شىء لحن بيتهوفن المبنى على وصف الإنجيل لآلام المسيح ، ماذا أحب بالضبط ؟ ما سمعه ؟ الموسيقى ؟ أم هذا الضجيج الكبير ، الذى كان يذكره بهذه الحركة المهيبة ، التى تشاق روحها للدم ، للآخرة ، للإعدام ، للعدالة ، والكمال ؟ هل كان مسرورا من النغمات ، أم سعيدا بالحلم الذى قاده إليه هذه النغمات ، والذى لم يكن له أية علاقة لا بالفن ، ولا بالجمال ؟ فلنرجع إلى باتينا : هل كان يشدها بيتهوفن الموسيقار ، أم بيتهوفن المناوئ الكبير لجوته ؟ هل كانت تحب موسيقاه حبًا صامتا ، كما تشدنا استعارة رائعة أو لونان متجاوران فى لوحة فنية ؟ أم أنه انفعال عدوانى كالذى يقودنا إلى الانضمام إلى حزب سياسى ؟ أيا كان الأمر (فنحن لن نعرف أبدا ما حدث فى الحقيقة) ، فقد أرسلت باتينا إلى العالم

صورة بيتهوفن الذى يسير للأمام وقبعته مضغوطة على رأسه حتى جبهته ، وبعد ذلك سارت هذه الصورة بمفردها مئات السنين .

وفى عام ١٩٢٧ ، وبعد مائة عام من موت بيتهوفن احتكمت مجلة Die literarische Welt الألمانية الشهيرة إلى أشهر الموسيقيين المعاصرين ، ليقولوا ماذا يعنى بيتهوفن بالنسبة لهم . لم تتوقع إدارة تحرير المجلة كيف ستكون عملية الإعدام التى تجرى بعد الموت لهذا الرجل العاثر ذى القبعة المضغوطة على رأسه حتى جبهته . أعلن " أورك " عضو مجموعة الستة الباريسية باسم كل جيله : أن بيتهوفن كان بالنسبة لهم بلا قيمة إلى درجة أنه لا يستحق حتى الاعتراض عليه . هل يمكن فى يوم ما أن يعاد اكتشاف وتقييم باخ كما حدث منذ مائة عام ؟ هذا شىء يدعو إلى الضحك ! كذلك أكد " ياناتشك " أن أعمال بيتهوفن لم تشده أبدا . أما " رافيل " فلخص ذلك قائلا : إنه لا يحب بيتهوفن ، لأن شهرته ليست قائمة على موسيقاه غير المتقنة بصورة واضحة ، ولكنها قائمة على الأسطورة الأدبية المنسوجة حول حياته .

إن هذه الأسطورة الأدبية تكمن فى حالتنا هذه فى قبعتين : إحداهما مضغوطة لأسفل حتى الجبهة ، وتبرز من تحتها حواجب ضخمة ؛ والأخرى فى يد رجل منحني لأسفل . إن السحرة يحبون التعامل مع القبعة . يجعلون الأشياء تختفى بداخلها أو يطلقون منها لأعلى سرباً من الحمام . لقد أطلقت باتينا من قبعة جوته طيوراً قيحة

تدل على خنوعه ، وجعلت موسيقاه تختفى فى قبعة بيتهوفن (من المؤكد أنها لم تكن ترغب فى ذلك !) لقد أعدت لجوته هذا الذى حدث " لتيخو دى براه " ولـ " كارتر " : الخلود المضحك . ولكن الخلود المضحك يقف للجميع بالمرصاد ، كان بيتهوفن الذى يرتدى القبعة المضغوطة حتى حاجبيه أكثر إضحাকা لـ " رافائيل " من جوته الذى كان ينحنى لأسفل .

وينتج من ذلك أنه رغم إمكانية الابتكار والمعالجة والإعداد المسبق للخلود ، فإنه أحيانا لا يتحقق كما هو مخطط له . فقط أصبحت قبعة بيتهوفن خالدة . هنا نجحت الخطة ، ولكن كيف سيكون أثر القبعة الخالدة ، لم يستطع أحد تحديد ذلك .

(١٥)

قال هيمنجواى " أتعرف يا جون ، إنهم دائما يتهموننى كذلك ، وبدلا من أن يقرأوا كتبى ، يكتبون كتباً عني . يكتبون أننى لم أكن أحب زوجاتى ، ولم أكن أهتم كثيراً بأولادى ، وأننى ضربت أحد النقاد ، وأننى كنت أكذب ، ولم أكن صادقا ، وكنت مغرورا ، وذا قدرة جنسية كبيرة ، وأننى أعلنت أن بى مائتين وثلاثين جرحا ، وأنها مائتان وعشرة فقط ، وأننى كنت أمارس العادة السرية ، وكنت أغضب أُمى " .

قال جوته " إنه الخلود . إن الخلود هو المحاكمة الأبدية " .

" عندما تكون هذه محاكمة أبدية ، فيجب أن يكون هناك قاض كفاء . وليس مدرسة ضيقة الأفق في مدرسة قومية تمسك بعصا في يدها " .

" عصا في يد مدرسة ضيقة الأفق هو محاكمة أبدية . فماذا كنت تتخيل خلاف ذلك يا : أرنست ؟ " .

" لم أتصور شيئاً . تمنيت أن يكون في استطاعتي على الأقل أن أعيش في هدوء بعد الموت " .

" لقد فعلت كل شيء لتكون من الخالدين " .

" غير حقيقى ، ألفت كتباً ، هذا كل شيء " .

قال جوته ضاحكاً " طبعاً بالفعل " .

" ليس لدى أى اعتراض فى أن تكون كتيبى خالدة . لقد كتبتها بشكل لا يستطيع معه أحد أن يحذف منها حتى كلمة واحدة ، لكى تقاوم كل شيء فى جميع المحن . ولكن أنا نفسى كإنسان ، كإرنست هيمنجواى لا أهتم مطلقاً بالخلود " ا .

" إننى أفهمك جيداً يا إرنست . ولكن كان ينبغي أن تكون أكثر حرصاً عندما كنت على قيد الحياة ، أما الآن فقد فات الأوان " .

" أكثر حرصاً ؟ هل هذا تلميح إلى تفاخري ؟ أعرف هذا ،
فعندما كنت شاباً ، كنت أحب كثيراً أن أتفاخر . وكنت أفعل ذلك
فى الأوساط الاجتماعية . كنت سعيداً بالحكايات الكوميدية التى كانوا
يحكونها عني . ولكن صدقنى لم أكن وحشاً إلى درجة أن أفكر أثناء
ذلك فى الخلود ! وعندما أدركت فى يوم ما أن الأمر يتعلق به ،
سيطرت علىّ حالة من الذعر . ومنذ هذه الفترة أعلنت ألف مرة أنه
على الجميع أن يتركوا حياتى فى هدوء . ولكن كلما أعلنت أكثر صار
الوضع أسوأ . رحلت إلى كوبا حتى أختفى عن عيونهم . وعندما
حصلت على جائزة نوبل رفضت الذهاب إلى " استكهولم " . أقول
لك إننى لم أهتم بالخلود . وأقول لك الآن إننى لا أهتم به أكثر .
فعندما أدركت ذات يوم أنه يأخذنى فى أحضانه ، شعرت بخوف
رهيب منه أكثر من الموت . إن الإنسان يمكن أن ينهى حياته ، ولكنه
لا يستطيع أن ينهى خلوده . وبمجرد أن يصعد لك الخلود على سطح
المركب ، لا تستطيع أن تنزل ، وعندما تطلق الرصاص ، ستظل على
سطح المركب مع انتحارك ، وهذا شيء مرعب يا جون ، شيء
مرعب . استلقيت ميتاً على سطح المركب ، ورأيت من حولى
زوجاتى الأربع . جلسن على مقعداتهم وأخذن يكتبن كل شيء عرفنه
عني ، ومن خلفهن ابنى ، كان هو الآخر يكتب والعجوز الشمطاء
" جيرترودا شتين " كانت هناك كذلك وكانت تكتب . كان هناك كذلك
جميع أصدقائى وكانوا يقصون بصوت مرتفع جميع حماقاتى والأقوال

التي سمعوها عنى فى وقت ما ، ومائة من الصحفيين يتزاحمون
خلفهم ممسكين بميكروفونات وجيش من أساتذة الجامعات فى كل
أمريكا يقوم بتصنيف وتحليل ونقل وتجميع كل هذا فى مقالات وكتب .

(١١)

ارتجف هيمنجواى ، فضغط جوته على يده قائلا : " اهدأ
يا إرنست ! اهدأ يا صديقى . إنى أشعر بك . إن ما تحكيه الآن
يذكرنى بحلم لى . كان هذا حلمى الأخير ، وبعد ذلك لم أر أية
أحلام ، أو كانت متداخلة ولم أستطع أن أميز بينها وبين الواقع .
تصور صلاة عرض صغيرة فى مسرح للعرائس . وأنا خلف المسرح
أحرك العرائس وأتلو بنفسى النص . إنه عرض فاوست ، فاوست
الذى كتبه أنا . هل تعرف أن " فاوست " أجمل ما يكون عندما يتم
تمثيله كمسرح عرائس ؟ ولذلك كنت سعيداً لأنه لم يكن معى أى
ممثلين ، وكنت أنا فقط ألقى بنفسى أبيات الشعر ، التى جلجلت فى
هذا اليوم أجمل من أى وقت مضى ، وبعد ذلك نظرت فجأة إلى
الصلاة ، فرأيتها خاوية ، فأصبت بالارتباك . أين الجمهور ؟ هل
فاوست الذى كتبه ممل إلى درجة أن جميع الناس عادوا إلى بيوتهم ؟
هل أننى لم أستحق منهم حتى الصغير ؟ نظرت إلى الخلف بارتباك ،
فصعقت : لقد توقعت أنهم فى الصلاة ، فإذا بهم فى الكواليس .
كانوا ينظرون إلى بعيون جاحظة يملؤها الفضول . وما أن التقت عيناى

بعيونهم حتى بدأوا يصفقون . فأدركت أن روايتى فاوست لا تعنيهم مطلقا فى شىء ، وأن المسرح الذى كانوا يريدون رؤيته لم يكن العرائس التى كنت أحركها على المسرح ، ولكن أنا بنفسى ! ليس فاوست ولكن جوته ! وعندئذ تملكنى رعب يشبه كثيرا ما تحدثت عنه منذ قليل . شعرت أنهم يريدون أن أقول شيئا ولكنى لم أستطع . كانت حنجرتى مختنقة ، فوضعت العرائس ، فظلت ملقاة على المسرح المضاء ، الذى لم يكن ينظر إليه أحد . حاولت أن أحافظ على هدوئى الوقور ، ذهبت فى صمت إلى العلاقة التى كانت قبعتى معلقة عليها . وضعتها على رأسى ، وقبل أن أنظر إلى كل هؤلاء المتطفلين ، خرجت من المسرح ، ثم ذهبت إلى المنزل وبسرعة ، صفقت خلفى الباب الثقيل . وجدت سراج الكيوسين فأضاءته . أمسكت بالسراج فى يدي المرتعشة ، وذهبت إلى حجرة المكتب حتى أنسى عند مجموعة الأحجار هذا الحادث المزعج . ولكن وقبل أن أتمكن من وضع السراج على المنضدة ، وقع نظرى على النافذة . كانت وجوههم ملتصقة عليها . وهنا أدركت أنه لا يمكننى التخلص منهم أبدا ، أبدا ، أبدا . أدركت أن السراج يلقي بضوئه على وجهى ، رأيت هذا فى عيونهم الواسعة التى تتفحصنى . أطفأت السراج ، وعرفت فى الوقت نفسه أنه ما كان ينبغى على أن أفعل ذلك ؛ الآن أدركوا أننى أختبئ منهم ، أننى خائف منهم ، وسيصبحون أكثر وحشية . ولكن الخوف كان أقوى من تفكيرى ففررت إلى غرفة نومى ،

وشددت الغطاء وألقيته على رأسى ، ثم انزويت إلى ركن الحجرة والتصقت بالجدار .

(١٧)

يفترق هيمنجواى وجوته عبر طرقات العالم الآخر ، وأنتم تسألوننى ما الفكرة فى أن تجمع معا هذين الرجلين رغم أنه لا يتبع أحدهما الآخر على الإطلاق ؛ ولا يوجد بينهما شىء مشترك ! وماذا يمكن أن يكون ؟ مع من تعتقدون أن جوته أراد أن يقضى وقته فى العالم الآخر ؟ مع " هيردر " ؟ مع " هولدرلين " ؟ مع باتينا ؟ مع " اسكرمن " ؟ تذكروا أجنس وأى رعب أصابها من هاجسها بأنه قد يكون لزاما عليها أن تسمع من جديد فى العالم الآخر جمعة أصوات النساء التى تسمعها كل يوم سبت فى حمام البخار ! لم ترغب أن تكون بعد الموت مع بول أو بريجيتا . إذا لماذا يجب أن يرغب جوته فى هيردر ؟ أقول لكم فى النهاية ، رغم أن هذا يعتبر جحوداً ، أنه لن يرغب حتى فى " شيلر " . من المحتمل أنه ما كان يعترف بذلك أبداً فى حياته ، لأنه قد يصبح ذلك معادلة محزنة أن لا يكون له حتى صديق واحد عظيم فى حياته . كان شيلر بلا شك بالنسبة له أعز من الجميع . ولكن كلمة أعز تعنى فقط أنه كان أعز عنده من جميع الآخرين ، الذين لم يكونوا ، بكل الصدق ،

أعزاء إلى هذه الدرجة . كانوا من معاصريه ، ولم يخترهم .
لم يختر حتى شيلر . وعندما أدرك ذات يوم أنهم سيبقون من حوله
طيلة حياته ، شعر بالضيق . ماذا يفعل ، لابد أن يرضخ لذلك .
ولكن هل هناك سبب ما يجعله يظل معهم حتى بعد الموت ؟

إنه فقط بدافع الحب شديد الصدق تجاهه حلمت أن يكون بجواره
شخص يثير اهتمامه كثيرا (إذا كنتم نسيتم ، سأذكركم أن جوته كان
في حياته مفتونا بأميركا !) ولم تكن تذكره بجماعة الرومانسيين
ذوى الوجوه الشاحبة الذين سيطروا كلية على ألمانيا فى الفترة الأخيرة
من حياته .

قال هيمنجواى " أتعرف يا " جون " ، إنها لسعادة بالغة
لى أن أكون معك . إن الناس يرتجفون أمامك احتراما ، ولذلك
فإن جميع زوجاتى ومعهن حتى العجوز " جيرترودا شتين " يتجنبننى
من بعيد " ثم بدأ يضحك : " ليس ذلك بالطبع لأنك تشبه خيال
الحقل فى مظهرك إلى درجة لا تصدق .

ولكى تكون كلمات هيمنجواى مفهومة لابد وأن أوضح أن
الخالدين يستطيعون فى العالم الآخر أن يتشكلوا فى نزواتهم بالشكل
الذى يريدونه من حياتهم . واختار جوته الشكل الذى كان عليه
فى أيامه الأخيرة فى حياته الخاصة ؛ ولذلك فلن يعرفه أحد فيما عدا
أقرب الناس إليه : كانت على جبهته لوحة شفافة خضراء اللون
مربوطة بشريطة حول رأسه ، لأن عينيه كانتا تؤلمانه ، وفى قدميه

خف ، وحول رقبتة شال سميك من الصوف مزركش اللون ، لأنه كان يخشى الإصابة بالبرد .

وعندما سمع عبارة " تشبه خيال الحقل فى مظهرك لدرجة لا تصدق " انفجر بسعادة فى الضحك كما لو أن هيمنجواى أثنى عليه ثناء كبيراً . ثم مال عليه ، وقال له بصوت خافت : " كنت أسئ مظهرى هكذا أساساً بسبب باتينا . ففى كل مكان تذهب إليه تتحدث عن حبها لى . ولذلك أردت أن يرى الناس موضوع هذا الحب . وعندما تلمحنى عن بعد تفر هاربة . وأنا أعرف أنها تنصرف متثاقلة من الغضب فى أننى أتحول إلى هذه الصورة : بلا أسنان ، أصلع وأضع هذا الشئ المضحك على عينى " .

الجزء الثالث

الصراع

الأخوات

إن محطة الإذاعة التي أستمع إليها محطة حكومية ، ولذلك لا يوجد بها أية إعلانات ويعتبرون أخبارها قبلة الموسم . أما المحطة المجاورة فهي محطة خاصة ؛ ولذلك استبدلت الموسيقى بالإعلانات ، ولكن هذه الإعلانات تشبه قبلة الموسم إلى درجة أنني لا أعرف إلى أى المحطات أستمع ، لا أعرف ، حتى إننى أدخل إلى النعاس من جديد ومن جديد باستمرار . وفى حالة ما بين اليقظة والنعاس علمت أن عدد الموتى على الطرق السريعة فى أوروبا منذ نهاية الحرب بلغ ٢ مليون شخص ، وفى فرنسا بلغ متوسط الذين يلقون حتفهم كل عام عشرة آلاف و ٣٠٠٠٠٠ جريح ، جيش كامل من أفراد فقدوا أرجلهم ، وأيديهم وآذانهم وأعينهم . انزعج النائب " برتراند ، برتراند " (اسم جميل مثل الأرجوحة) لهذه الإحصائية المرعبة ، ثم دخلت فى سبات عميق ، أما الشئ المهم الذى قام به فقد علمت به بعد حوالى نصف ساعة ، عندما كرروا الخبر نفسه . لقد قدم النائب برتراند برتراند صاحب الاسم الجميل كالأرجوحة اقتراحاً فى البرلمان لمنع الإعلانات عن البيرة . أحدث هذا عاصفة كبيرة فى مجلس النواب ، وعارض العديد من النواب الاقتراح ، ويؤيدهم فى هذا نواب الراديو والتلفزيون الذين قد يخسرون الأموال نتيجة لمنع

الإعلانات . ثم أسمع صوت برتراند برتراند نفسه : يتحدث عن الصراع ضد الموت ، عن الصراع من أجل الحياة . وقد تكررت كلمة صراع أثناء الخطاب القصير حوالى خمس مرات ، ذكرنى هذا على الفور بوطنى القديم ، ببراغ والأعلام واللافتات ، الصراع من أجل السلام ، الصراع من أجل السعادة ، الصراع من أجل العدالة ، الصراع من أجل المستقبل ، الصراع من أجل السلام ، ويضيف إليها الشعب التشيكي الحكيم : الصراع من أجل السلام ، حتى تدمير كل شىء وكل إنسان . ولكنى أسلم نفسى للنعاس (فكل مرة ينطق فيها شخص ما اسم برتراند برتراند أروح فى سبات عميق) ، وعندما أستيقظ ، أسمع تعليقاً حول البساتين ، وهنا أدير المؤشر بسرعة إلى المحطة المجاورة . وهناك يدور الحديث عن برتراند برتراند ومنع الإعلانات عن البيرة . أبدأ بالتدريج فى فهم الملابس المنطقية . فالناس يقتلون فى السيارات كما لو كانوا فى ساحة المعركة ، ولكن لا يمكن منع السيارات ، فهى فخر للإنسان المعاصر ، نسبة كبيرة من الحوادث سببها أن السائقين يكونون سكارى ، ولكن لا يمكن منع الخمر أيضاً ؛ لأن هذا قد يتعارض مع كل الاتفاقيات الدولية حول حرية التجارة ، كما أن نسبة ما من هؤلاء الذين يشربون البيرة تتأثر بالإعلانات ، وهنا تكمن نقطة ضعف العدو ، هنا قرر النائب الشجاع أن يضرب ضربه ! أقول لنفسي : يحيا برتراند برتراند ، ولأن هذه الكلمة توحى لى بالأرجوحة ، أسلم نفسى من جديد على الفور

للنعاس ، ثم يوقظنى صوت فاتن وناعم . نعم ، هذا الصوت أعرفه ،
إنه برنارد المذيع ، وكأن كل أحداث اليوم تدور فقط حول حوادث
المرور ، يعلن هذا الخبر : فتاة ما جلست على الطريق السريع وظهرها
فى اتجاه سير السيارات . وتمكنت ثلاثة سيارات الواحدة بعد الأخرى
من تفادى الفتاة فى آخر لحظة ولكنها سقطت فى قناة على جانبي
الطريق بها أموات وجرحى . وعندما أدركت الفتاة التى حاولت
الانتحار أنها فشلت ، فرت من مكان الحادث دون أن تترك أثراً ،
باستثناء الشهادة المتطابقة للجرحى التى أشارت إلى وجودها . أصابنى
هذا الخبر بالذعر ، ولم أستطع بعدها النوم ، ولم يكن أمامى إلا أن
أستيقظ وأتناول طعام الإفطار وأذهب إلى طاولة الكتابة . ولكن هذا
سيستغرق فترة طويلة حتى أستطيع التركيز ، فكأنى أرى هذه الفتاة
تجلس على الطريق السريع ليلاً تحنى جسمها وجبهتها ملتصقة بركبتها ،
وأسمع صراخاً صادراً من الفتاة . إن على أن أطرده هذه الفكرة بالقوة ،
حتى أستطيع أن أواصل العمل فى الرواية ، التى بدأت ، إن كنتم
مازلتم تتذكرون ، بأننى كنت أنتظر الأستاذ " أفيناريوس " عند حمام
السباحة ثم رأيت حينئذ امرأة مجهولة تلوح لحارس الحمام ومودعة إياه
رأيت هذه الإيماءة من جديد عندما كانت " أجنس " تودع زميلها
المتخاذل عند المنزل . ثم استخدمت نفس هذه الإيماءة فى كل مرة
كانت ترافق فيها أى فتى بعد اللقاء إلى بوابة الحديقة . أما أختها
الصغيرة " لاورا " فقد اختبأت خلف الشجيرة ، وانتظرت " أجنس "

حتى تعود ، فقد أرادت أن ترى القبلة ، وتراقب أختها وهي تذهب وحدها تجاه باب الفيلا . انتظرت حتى ترى " أجنس " وهي تلقى بذراعها فى الهواء . كانت هذه الحركة بالنسبة لها تمثل صورة غامضة وضبابية للحب ، الذى لم تكن تعرف عنه شيئاً ولكنه سيظل مرتبطاً عندها دائماً بصورة أختها الساحرة الرقيقة .

ولكن عندما ضبطت " أجنس " أختها الصغيرة " لاورا " تستعير إيماءتها كى تلوح بها لصديقاتها ، لم يعجبها هذا وكما نعرف فإنها أخذت تودع محبيها منذ هذه اللحظة بتحفظ وبدون أى مظاهر خارجية . فى هذه القصة القصيرة للإيماءة يمكننا التفريق بين الآلية التى خضعت لها العلاقات بين الأختين . فالأخت الصغرى كانت تحاكي الأخت الكبرى ، كانت تلقى بذراعها عليها ولكن " أجنس " كانت تهرب دائماً فى آخر لحظة .

بعد امتحان الشهادة الثانوية التحقت " أجنس " بالجامعة فى باريس . ولكن " لاورا " غضبت منها لأنها تركت المكان الذى أحبه ، ولكنها هى الأخرى ذهبت إلى باريس للدراسة . انصرفت " أجنس " إلى دراسة الرياضيات . وعندما أنهت دراستها توقع الجميع أن فى انتظارها مستقبلاً علمياً كبيراً ، ولكن أجنس وبدلاً من أن تواصل البحث ، اختارت بول زوجها لها ، وعملت بأجر جيد ولكنه كان عملاً سخيلاً ، حيث لم تستطع تحقيق أى مجد فيه .

أسفت لاورا لهذا فأخذت على نفسها عهداً وهى تدرس بمعهد الموسيقى بباريس بأن تصلح فشل أختها وأن تصير بدلاً منها ذات مجد .

وذات يوم قدمت أجنس لها بول . وهنا وفى هذه اللحظة الأولى عندما رآته لاورا سمعت أن شخصاً خفياً يقول لها : " انظرى ، إنه رجل ، رجل حقيقى . الرجل الوحيد . لا يوجد سواه " . من كان هذا الرجل الخفى . من قال لها هذا ؟ ربما كانت أجنس نفسها ! نعم ، كانت هى التى أشارت لأختها الصغرى إلى الطريق ، ثم فى الوقت نفسه أخذته لنفسها .

كانت أجنس وبول يتعاملان مع لاورا بلطف ، اهتمام بها لدرجة أنها شعرت فى باريس الشعور بنفسه الذى عرفته يوماً ما فى مدينتها الأم . إن سعادتها بأنها دائماً فى أحضان أسرتها كان يفسدها هاجس حزين بأنه الرجل الوحيد الذى يمكنها أن تحبه ، ولكنه فى الوقت نفسه الرجل الوحيد الذى لا يمكنها على الإطلاق أن تسعى وراءه . وكانت تتأبها حالات من السعادة الممزجة بنوبات الحزن وهى تقضى معهما لحظات مشتركة . أصابها الصمت وذابت ملامحها ، كانت أجنس فى هذا الوقت تأخذها من يدها وتقول لها : ماذا بك يا لاورا ؟ ماذا أبك يا أختى الصغيرة ؟ وأحياناً وهى فى مثل هذه الحالات كان بول وينفس الدوافع يأخذها من ذراعها ويغوصون ثلاثتهم فى حمام ساحر ممزوج بمختلف المشاعر : مشاعر الأخوة والحب والمواساة والمشاعر المثيرة .

ثم تزوجت لاورا . وعندما بلغت ابنة أجنس " بريجيتا " العاشرة قررت لاورا أن تهديها بمناسبة عيد ميلادها ابن أو ابنة خالة . سألت زوجها أن يحمل منه ، الأمر الذى تحقق لها بسهولة على الرغم من أن النتيجة كانت مفاجئة : فقد تعرضت لاورا للإجهاض ، وأخبرها الأطباء أنها إذا أرادت أن تحمل فى طفل آخر فلن يتم ذلك بدون تدخل جراحى كبير .

النظارة السوداء

كانت أجنس مغرمة بالنظارة السوداء منذ أن كانت في المدرسة الثانوية . لم تكن ترتديها لكى تحمى عينيها من الشمس ولكن لكى تبدو جميلة وغامضة . وصارت النظارة هوايتها المفضلة . فقد كان لديها مجموعة من النظارات ، تماما كما يمتلك بعض الرجال صوان صغير من رابطات العنق ، وكما تشتري بعض السيدات عشرات الخواتم .

وبعد حادثة الإجهاض بدأت النظارة السوداء تلعب دورا كبيرا في حياة لاورا . فقد كانت ترتديها حيثئذ باستمرار وكانت تعتذر عن ذلك للأصدقاء قائلة : " لا تغضبوا منى من أجل هذه النظارات ، فأنا أدمع كثيرا ولا يمكننى أن أظهر بدونها " . وصارت النظارة السوداء بالنسبة لها منذ ذلك الوقت رمزا للحزن . كانت ترتديها لا لكى تخفى دموعها ولكن لكى تخبر الآخرين أنها تبكى . وصارت النظارة بديلا عن الدموع ، كانت تتميز عن الدموع الحقيقية بأنها لا تؤذى الجفون ولا تجعلها منتفخة ومحمرة ، كما أنها فى النهاية تناسبها .

وإذا كانت لاورا أحبت النظارة السوداء ، فقد كانت تقلد أختها كما فعلت قبل ذلك مرات عديدة . ولكن حكاية النظارة تشير إلى أنه

لا يمكن اختزال علاقة الأختين بالقول إن الأخت الصغرى كانت تحاكي الأخت الكبرى ، نعم ، كانت تقلدها ، ولكن كانت تعدّل منها فى الوقت نفسه : فقد أعطت للنظارة السوداء بعداً أعمق وقيمة أكثر أهمية ، ويمكننى القول إن نظارة أجنس السوداء كان عليها أن تتوارى خجلاً أمام نظارة لاورا لبساطتها . وفى كل مرة تظهر لاورا وهى ترتديها كان هذا يعنى أنها تعاني ، وشعرت أجنس أنه من الأفضل أن تخلع نظارتها البسيطة المتواضعة من على عينيها .

وتظهر حكاية النظارة شيئاً آخر : فأجنس تبدو وهى ترتديها كمن يرعاه القدر ، أما لاورا فتبدو كمن هو منبوذ من القدر . كانت كلتاهما تؤمنان أنهما غير متساويتين أمام القدر ، عانت أجنس كثيراً من هذا أكثر من لاورا . كانت تقول لنفسها " لى أخت صغيرة ، تحبنى ولكنها بائسة فى حياتها " . لهذا استقبلتها بسعادة فى باريس وعرفتها على بول وطلبت منه أن يحبها ، لهذا بحثت لها عن شقة صغيرة وكانت تستقبلها فى بيتها كلما شعرت أنها تعاني من شيء . ولكنها بقيت دائماً الأخت التى يرعاها القدر وظلت لاورا الأخت التى لا حظ لها . كانت للاورا موهبة موسيقية كبيرة . وكانت تعزف على البيانو بمهارة ، ومع ذلك قررت رغماً عنها دراسة الغناء فى معهد الموسيقى . كانت تقول : " عندما أعزف على البيانو أشعر وكأننى أجلس أمام شيء غريب عنى وعدو لى . أنا لست أهلاً للموسيقى ، فالموسيقى تناسب هذه الآلة السوداء التى

أمامى . على الرغم من أننى عندما أغنى فإن جسدى يتحول إلى آلات موسيقية وأصبح أنا والموسيقى شيئاً واحداً " لم يكن ذنبها أن صوتها كان ضعيفاً وانهار بسببه كل شيء ، ولم تكن تؤدي الغناء المنفرد ولم يبق أمامها فى حياتها من مهنة الموسيقى سوى العمل فى فرقة المغنيين الهواة التى كانت تتردد عليها مرتين فى الأسبوع للتدريب وشاركت معهم الحفلات الموسيقية عدة مرات فى السنة .

وانهارت كذلك بعد ستة أعوام حياتها الزوجية التى كرس لها راضية كل شيء . ومع ذلك فقد اضطرت زوجها شديداً الشراء إلى أن يترك لها شقة جميلة وإلى دفع نفقة كبيرة لها مكنتها من فتح متجر كبير كانت تباع فيه منتجات الفرو بموهبة تجارية أدهشت الجميع . ولكن هذا النجاح الدنىء شديد المادية لم يكن ليرفع الظلم الذى عانت منه على المستوى الروحى والعاطفى الأعلى .

بعد الطلاق رافقت لاورا العشيق تلو الآخر وذاع صيتها كفتاة شهوانية ، وتظاهرت بأن هذه الغراميات ما هى إلا صليب يزود الإنسان بالحياة . وكانت تقول كثيراً بئس وبطريقة مؤثرة كما لو كانت تشكو من قدرها : " لقد عرفت الكثير من الرجال " .

أجابتها أجنس : " أنا أحسدك على هذا " أما لاورا وكعلامة على الحزن ارتدت النظارة السوداء .

إن الإعجاب الذى سيطر على لاورا فى طفولتها وهى ترى
أجنس تودع فتاها عند البوابة لم يفارقها على الإطلاق ، وعندما
أدركت أن أختها لا تحتل أى مركز علمى مرموق لم تستطع أن تخفى
خيبة أملها .

دافعت أجنس عن نفسها قائلة : " على ماذا تلومينى ؟ ،
بدلاً من أن تغنين فى الأوبرا تبعين معاطف الفرو ، وأنا بدلاً من أن
أسافر إلى المؤتمرات الدولية حصلت على عمل تافه وبسيط فى
شركة لإنتاج الحاسب الآلى " .

ولكنى فعلت كل ما استطعت لكى أغنى . فى حين أنك تركت
المسار العلمى بإرادتك . لقد هزمت أما أنت فقد استسلمت " .
لماذا على أن أحتل مكانة مرموقة ؟ " .

إننا نعيش الحياة مرة واحدة يا أجنس وعلينا أن نحياها ، نريد
أن نترك أثراً من بعدنا " ! .

تعجبت أجنس وقالت مستنكرة : " نترك أثراً من بعدنا " ! .
ردت عليها لاورا بصوت يملؤه الرفض المؤلم : " أنت سلبية
يا أجنس " ! .

كانت لاورا توجه هذا اللوم إلى أختها كثيراً ولكن فى نفسها .
قالته لها بصوت عال مرتين أو ثلاث مرات . آخر مرة كانت عندما

رأت أباها بعد وفاة أمها يجلس عند الطاولة ويقطع الصور الفوتوغرافية . إن ما فعله أبوها لم يكن مقبولا بالنسبة لها : فقد دمر الحياة ، جزءاً من الحياة المشتركة بينها وبين أمها ، نزع الصور والذكريات التي لا تخصه هو فقط ولكن تخص كل الأسرة وبخاصة الابنتين . فعل ما لم يكن من حقه . صرخت فيه لاورا ووقفت أجنس إلى جانبه . وعندما انفردتا ببعضهما لأول مرة في حياتهما ، تشاجرتا بعنف وعلى نحو سيء " أنت سلبية ! أنت سلبية ! " هكذا صرخت لاورا في أجنس ثم ارتدت النظارة السوداء وانصرفت باكية مستاءة .

الجسد

عندما تقدم الرسام الشهير " سلفادور دالى " وزوجته " جالا " فى السن كان عندهما أرنب أليف يعيش معهما ، لم يفارقهما خطوة واحدة وكانا يحبانه حباً شديداً . وذات مرة كان عليهما أن يسافرا بعيداً وناقشا طوال الليل وضع الأرنب . كان صعباً أن يأخذهما معهما كما كان أيضاً صعباً أن يعهدا به إلى أحد ، وذلك لأن الأرنب لم يكن يثق بالناس . وفى اليوم التالى قامت " جالا " بطهو طعام الغداء وتوقع " دالى " وجبة لذيذة إلى أن علم أنه لحم أرانب . فقام من على الطاولة وأسرع إلى الحمام حيث تقيأ فى إناء الطائر المحبوب ، الصديق الوفى له فى آخر عمره . أما " جالا " فقد كانت سعيدة أن من أحبوه قد دخل إلى أحشائهم يلاطفها ، وأصبح جزءاً من جسد سيده . لم تجد وسيلة متكاملة لإشباع الغرام أفضل من التهام المحبوب . على العكس من هذا الاتحاد الجسدى هذا كانت ترى أن اللقاء الجنسى ما هو إلا دغدغة هزلية .

كنت لاورا مثل " جالا " وأجنس مثل " دالى " ، أحببت العديد من الرجال والنساء ولكن إذا ما تقرر فى اتفاقية شاذة كشرط للصداقة أن عليها أن تعتنى بأنوفهم وتخرج منها المخاط بانتظام لفضلت أن تعيش بدون أصدقاء . لاورا التى كانت تعرف قرف أختها

سألته : " ماذا يعنى التعاطف الذى تشعرين به مع شخص ما ؟
كيف يمكنك استثناء الجسد من هذا التعاطف ؟ وهل الإنسان الذى
تقتطعين منه جسده لا يزال إنساناً ؟ "

نعم ، لقد كانت لاورا مثل " جالا " متطابقة مع جسدها تماما ،
جسدها الذى تشعر فيه بأنها فى منزل مؤثث بصورة رائعة . لم يكن
الجسد يتمثل فيما هو مرئى فقط فى المرأة ، فما هو أكبر قيمة كان
بالداخل . ولهذا أصبحت أسماء أعضاء الجسد الداخلية وعملياتها
جزءاً محبباً فى قاموسها . فعندما أرادت أن تعبر عن حالة الإحباط
التي سببها لها عشيقها تقول : " كان لابد أن أتقياً بمجرد خروجه " .
وعلى الرغم من أنها كثيراً ما تحدثت عن التقيؤ ، فلم تكن أجنس
واثقة من أن أختها تقيأت يوماً ما . فلم يكن التقيؤ حقيقة فى حياة
لاورا ، بل هو شعر ومجاز ، صورة من قصيدة شعرية عن الألم
ونخبة الأمل .

ذهبت الأختان ذات مرة للشراء من أحد متاجر الملابس النسائية ،
ورأت أجنس لاورا وهي تلمس ييدها برقة على حمالة الصدر التي
أحضرتها لها البائعة . كانت واحدة من الأوقات التي أدركت فيها
أجنس الأسباب التي تفصلها عن أختها : فحمالة الصدر بالنسبة
لأجنس تندرج تحت نوعية الأشياء التي تصلح من عيب ما فى الجسد
مثلها مثل الضمادة والغيار أو النظارة أو الطوق الذى يحمله المريض
بعد إصابة فى فقرات الرقبة . فحمالة الصدر عليها أن تقوى شيئاً

أثقل مما ينبغي حدث نتيجة لحسابات خاطئة ويجب نتيجة لذلك أن يقوى بصورة كافية ، تقريباً مثل الدعامات التي توضع أسفل الشرفة في مبنى تم بناؤه بصورة غير متخصصة حتى لا ينهار . بعبارة أخرى : حمالة الصدر تقوى المغزى التقنى لجسم النساء .

كانت أجنس تحسد " بول " على أنه يحيا من دون حاجة إلى أن يشغل باله باستمرار بأن له جسداً . يتنفس شهيقاً وزفيراً ، كما أن رثيته تعملان ككيس كبير معد لعمل آليا ، وهو بهذه الطريقة يشعر بجسده : ينسأ وهو سعيد . كما أنه لا يتحدث مطلقاً عن مشاكله الصحية ، لا يفعل هذا تواضعاً بل ينطلق هذا على الأحرى من رغبة ما لا معنى لها في الأناقة ، فالمرض نقص يخجل منه الإنسان . فقد عانى لأعوام طويلة من قرحة المعدة . ولكن أجنس لم تعلم بهذا إلا عندما أخذته سيارة الإسعاف إلى المستشفى وقد ألت به نوبة شديدة وذلك بعد ثانية واحدة من انتهائه من مرافعة درامية في قاعة المحكمة . كان هذا الغرور بالطبع يبدو مضحكاً . غير أن أجنس تأثرت به بعض الشيء وكانت على ما يبدو تحسد بول عليه .

وعلى الرغم من أن بول كان إلى حد ما مغروراً أكثر من اللارم ، فقد كانت أجنس تقول لنفسها إن سلوكه هذا يكشف الفرق بين حصاة الرجل والمرأة : فالمرأة تقضى وقتاً أكبر في الحديث عن مشاكل جسمها ، فطبيعتها هي ألا تنسى جسدها وتهمله . يبدأ هذا من

صدمة أول جرح . وفجأة تدرك جسدها وهي تقف أمامه كخبير
ماكينات عهد إليه أن يتولى إدارة مصنع صغير : يغير كل شهر
الصمامات ، يبتلع الأقراص ، يشد حمالة الصدر ، يعد الإنتاج .
كانت أجنس تنظر إلى الرجال المسنين نظرة حسد ، فقد كانت تعتقد
أنهم يتقدمون في السن بطريقة أخرى : فقد بدأ جسد والدها يتحول
بالتدريج إلى ظل وبدأ وزنه يقل . وظل يحيا مجرد روح في جسد
مهمل . على العكس من هذا فإن جسد المرأة كلما صار غير مرغوب
فيه صار جسداً ثقيلاً وشاقاً ، يشبه الصناعة القديمة التي يهددها الدمار
ويقف عندها الأنا النسائية كحارس حتى النهاية .

ما الذي يمكن أن يغير علاقة أجنس بجسدها . إنها فقط لحظة
تأثر . التأثير : تحرير مؤقت للجسد .

وفى هذا قد لا توافقها لاورا . كيف هذا ، لحظة تحرير ؟
إن الجسد عند لاورا هو للجنس منذ البداية وفي الأساس وعلى
الدوام ، هو للجنس بأكمله وفي جوهره . كان حب إنسان ما يعنى
لها أن تعطيه جسدها ، بكل ما فيه وكما هو خارجياً وداخلياً ، تعطيه
جسدها ووقته الذي يلتهمه بالتدريج .

لم يكن الجسد بالنسبة لأجنس كذلك . وإن كان كذلك في
لحظات نادرة وقصيرة عندما يبهره شعاع لحظة إثارة غير حقيقية
ومصطنعة وتجعل منه جسداً جميلاً ومرغوباً فيه . ولهذا كانت أجنس
منشغلة على ما يبدو بجمال جسمها على الرغم من أن أحداً لم يكن

يعرف ذلك . تمسكت به ، فبدونه قد لا يوجد أى مخرج من همّ
الجسد وقد يضيع كل شيء . وعندما وقعت فى الحب كانت دائماً
متيقظة ، وكانت إن وجدت امرأة بجوارها تنظر فيها إلى نفسها ،
وكان جسدها يبدو لها فى تلك اللحظة مشبعاً بالضياء .

غير أن النظر إلى الجسد المشبع بالضياء لهو لعبة خادعة . وذات
مرة عندما كانت أجنس تلتقى مع حبيبها رأت أثناء لقائهما الجنسى
بعض عيوب جسدها التى لم تلاحظها عند اللقاء الأخير (كانت
تلتقى بحبيبها أكثر من مرة أو مرتين فى العام فى فندق كبير ومجهول
بباريس) ، لم تستطع أن تجنب وجهها بعيداً : لم تكن ترى عشيقها
ولا جسديهما المتصلين جنسياً ، كانت ترى فقط عمرها الذى بدأ فى
التآكل . ذهبت الإثارة بسرعة من الغرفة وأغلقت عينيها وأسرعت
كما لو كانت تريد أن تتمكن شريكها من أن يقرأ أفكارها . وفى هذه
اللحظة قررت أنها ستكون آخر مرة تلتقى به . شعرت بالضعف
واشتاقت إلى فراش الزوجية ، الذى يظل المصباح عنده مطفأ ،
اشتاقت إلى فراش الزوجية كما لو كانت تشتاق إلى الهدوء ،
إلى مرسى الظلام الهادئ .

جمع وطرح

فى عالمنا الذى تتعدد فيه صور الأيام التى تتشابه باستمرار ،
تصعب حياة الإنسان عندما يريد أن يؤكد تفرد كينونته ويقنع نفسه
بتفرده الذى لا مثيل له . هناك طريقتان لتنمية تفرد الذات : طريقة
الجمع وطريقة الطرح . فأجنس تطرح من ذاتها كل ما هو خارجى
ومستعار لكى تقترب من جوهرها الواضح (مع وجود مخاطرة أنه
فى نهاية الطرح لن يبقى سوى العدم) . أما طريقة لاورا هى الطريقة
العكسية : فلكى تبقى ذاتها أكثر وضوحاً وملموسة أكثر ويمكن
الإمساك بها وتحديد أبعادها ، تضيف إليها صفات أخرى
وتحاول أن تتكيف معها (مع وجود مخاطرة أن تختفى الذات خلف
الصفات المضافة) .

ونذكر كمثال قطتها : فعندما انفصلت لاورا عن زوجها ، بقيت
فى البيت وحيدة فى شقة كبيرة ، كانت تشعر بالحزن . تمت أن
يشاركها وحدتها حيوان ما على الأقل . فكرت فى بادئ الأمر فى
كلب ، ولكن سرعان ما أدركت أن الكلب يتطلب عناية لا يمكنها أن
تمنحه إياها . فجلبت قطة . كانت قطة سيامى كبيرة وجميلة ولكنها
كانت شريرة . وما أن عاشت معها وحكت عنها لأصدقائها حتى
صار للحيوان الذى اختارته مصادفة وبدون قناعة كبيرة (فقد أرادت

فى بادئ الأمر كلبًا) أهمية متزايدة : بدأت فى تعليم القطة وأجبرت الجميع أن يعجب بها . رأت فىها اكتفاء ذاتيًا جميلًا واستقلالاً وكبرياء وحرية فى السلوك وجاذبية لا تنتهى (تختلف عن جاذبية البشر التى تفسدها دائماً لحظات الغباء والدمامة) ، رأت فىها مثلاً لها ، رأت نفسها فيه .

ليس من المهم على الإطلاق إن كانت لاورا تشبه فى طبيعتها القطة أم لا ، ولكن المهم هو أنها اتخذتها شعاراً لها وأن القطة (حب القطة ، مذهب القطة) أصبحت أحد صفات هويتها . ولأن العديد من عشاقها كان يستفزهم منذ البداية هذا الحيوان الأنانى الشرير الذى كان يموء من لا شىء ويقطع هذا الشىء بمخالبه ، فقد صارت القطة نقطة اختبار لقوة لاورا ، فكأنها أرادت أن تقول للجميع : سأكون ملكك هكذا كما أنا ، أى مع قطتى . وصارت القطة صورة لروحها وكان على صاحبها أن يقبل أولاً روحها إذا أراد أن يظفر بجسدها .

وتعتبر طريقة الجمع طريقة جذابة إذا ما أضاف الإنسان إلى ذاته قطة وكلباً ولحم خنزير مشوى وحباً للبحر أو للحمام البارد . وتصبح الأشياء أقل سعادة إذا ما قرر أن يضيف إلى ذاته حب البشرية ، وحب الوطن وحب " موسولينى " وحب الكنيسة الكاثوليكية أو حب الإلحاد والفاشية أو مناهضة الفاشية . فالطريقة تبقى فى كلتا الحالتين واحدة تماماً . فمن يدافع بكبرياء عن أفضلية القطة على سائر الحيوانات الأخرى هو تماماً كمن يؤكد أن

"موسولينى" هو المخلص الوحيد لإيطاليا ، يتفاخر بصفة ذاته ويحاول جاهداً أن يعترف كل من حوله بها ويحبها (سواء كانت القطعة أو موسولينى) .

وهنا تكمن المفارقة الغريبة التى يروح ضحيتها كل من ينمى ذاته بطريقة الجمع : يحاولون أن يجمعوا لكى يصنعوا ذاتاً متفردة لا يمكن محاكاتها ، ولكنهم وقد أصبحوا على الفور دعاء لصفات الجمع يفعلون كل ما فى وسعهم لكى يجعلوا أكبر عدد من الناس الآخرين يقلدونهم ، وتكون النتيجة أن تفردهم (الذى حصلوا عليه بالجهد) سرعان ما يختفى من جديد .

وعلى هذا يمكننا أن نتساءل ، لماذا لا يرضى الإنسان الذى يحب القطعة (أو موسولينى) بحبه ، بل يريد أن يجبر الآخرين على هذا . فلنحاول الإجابة بالرجوع بالذاكرة إلى المرأة الشابة فى حمام الساونا التى أكدت بشدة أنها تحب الحمام البارد . وبهذا تمكنت فوراً من أن تتميز عن أحد نصفى الجنس البشرى ، ذلك النصف الذى يفضل الحمام الساخن . ولكن سوء الحظ تمثل فى أن النصف الآخر من البشرية كان مثلها إلى حد كبير . واأسفاه ! كم هذا محزن ! البشر كثير والأفكار قليلة وكيف يتميز أحدنا عن الآخر ؟ لقد عرفت المرأة الشابة طريقة واحدة فقط لكى تتغلب على العيب المتمثل فى تشابهها مع تلك الجموع الغفيرة التى تؤمن بالحمام الساخن : فقد كان عليها أن تلقى جملتها " أعبد الحمام البارد " وهى عند الساونا بحماس

يجعل ملايين السيدات الأخريات اللاتي يسعدن مثلها بالحمام البارد
يبدون على الفور مجرد محاكيات لها . بصورة أخرى : إذا أردنا أن
يصبح حبنا البريء والتافه للحمام صفة لذاتنا فعلينا أن نخبر العالم أننا
سنقاتل من أجل هذا الحب .

فكل من جعل حبه لـ " موسوليني " صفة لذاته ، وكل من
نادى بالقطة والموسيقى والأثاث القديم ، وكل من يوزع الهدايا على
جيرانه يصبح منافلاً سياسياً .

تخلوا أن لديكم صديقاً يحب " شومان " ويكره " شوبرت " ،
فى الوقت الذى تحبون أنتم فيه " شوبرت " ويصيبكم " شومان "
بالملل المميت . فلن تكون الإسطوانة التى تقدمونها لصديقكم
فى عيد ميلاده ؟ ألـ " شومان " الذى يحبه هو أم لـ " شوبرت "
الذى تعبدونه أنتم ؟ بالطبع ستكون اسطوانة لـ شوبرت " . فإذا
قدمتم له اسطوانة " شومان " ، سيصيبكم شعور سىء بأن هذه
الهدية قد لا تكون حسنة النية وتشبه الرشوة التى تحاولون أن تتوددوا
بها إليه عن عمد . إنكم عندما تقدمون الهدية ترغبون فى تقديمها عن
حب ، تريدون أن تعطوا صديقكم جزءاً منكم ، قطعة من قلبكم !
ولهذا تقدمون له معزوفة شوبرت " لم تكتمل " ، أما هو فسيصق عليها
بعد رحيلكم ثم يأخذها بين إصبعيه على الفور وهو مرتدياً جوربه
ويلقى بها فى صندوق القمامة أمام المنزل .

وعلى مدى عدة سنوات قامت لاورا بإهداء أختها وزوجها طاقمًا من الأطباق وأواني الحساء وطاقم شاي وسلّة فواكه ومصباحًا وكرسی هزاز وما يقرب من خمس طفايات سجائر ومفرش سفرة ، ولكن الأهم هو البيانو الذى أحضره يوما ما كمفاجئة رجلان قويان وسألا أين يضعانه ، ابتسمت لاورا قائلة : " أردت أن أقدم لكم شيئًا يجعلكم تذكروننى وأنا لست معكم " .

وبعد طلاقها قضت لاورا عند أختها كل أوقات فراغها . قامت برعاية " بريجيتا " كرعائتها لابنتها . وعندما اشترت لأختها البيانو كان فى الأساس من أجل أن ابنة أختها أرادت أن تتعلم عليه . ولكن بريجيتا كانت تكره البيانو ، وقد خافت أجنس من أن تشعر لاورا بالحزن ، ولهذا طلبت من ابنتها أن تسيطر على مشاعرها وتحاول أن ترى شيئًا يدعو إلى الإعجاب فى تلك الأضرار البيضاء والسوداء . اعترضت بريجيتا وقالت : " هل علىّ أن أتعلم البيانو لأسعدّها ؟ " وعليه فقد انتهت القصة بأكملها نهاية سيئة وصار البيانو بعد عدة أشهر مجرد شيء للزينة أو على الأحرى أصبح عائقًا ، ولم يتبق سوى ذكرى حزينة بالفشل ، ومجرد شيء كبير أبيض لم يرغب فيه أى إنسان (نعم ، كان البيانو أبيض ا) . وحقيقة القول أن أجنس لم تكن تحب لا طاقم الشاي ولا الكرسي الهزاز ولا حتى البيانو . لا لأنها كانت أشياء نافهة ولكن لأنه كان بها شيء غريب ، شيء لا يناسب طبيعة أجنس ولا ذوقها . ولذلك استقبلت لاورا بسعادة

حقيقية وبارتياح أنانى وذلك عندما أخبرتها يوما ما (وقد مضى ستة أعوام ولم تقترب من البيانو الكائن فى شقتها) أنها وقعت فى غرام برنارد الشاب ، صديق بول . توقعت أن من هى متيعة وسعيدة سيكون لديها أشياء أفضل من حمل الهدايا التى تحضرها لأختها ورعاية ابنة أختها .

سيدة عجوز ورجل شباب

" هذا خبر عظيم " قالها بول عندما أفضت إليه لاورا بحبها ،
ثم دعا الأختان إلى العشاء . كانت سعادته كبيرة لأن الشخصين
الذين يحبهما يتبادلان الحب ، وطلب مع طعام العشاء زجاجتين من
الويسكى الغالى الممتاز .

قال للاورا : " ستعاملين مع واحدة من أشهر الأسر الفرنسية .
ألا تعرفين من هو والد برنارد ؟ " .

قالت لاورا : " بالطبع أعرف ، هو نائب فى البرلمان " ، وقال
بول : " أنت لا تعرفين شيئاً عنه . فالنائب برتراند برتراند هو ابن
النائب آرثر برتراند . كان هذا الأخير معترّاً جداً باسمه وأراد أن
يصبح هذا الاسم أكثر شهرة مع ابنه . وقد فكر طويلاً فى الاسم
الذى سيختاره له ، ثم خطرت له فكرة عبقرية وهى أن يسميه برتراند .
فاسم مكرر كهذا سيلفت أنظار الجميع ولن ينسوه . يكفى أن يقول
الشخص برتراند برتراند وسيبدو هذا كالهتاف ، كالدعوة بالمجد :
برتراند ! برتراند ! برتراند ! برتراند ! برتراند ! برتراند ! .

ورفع بول الكأس أثناء هذه الكلمات كما لو كان يهتف باسم
القائد المحبوب ويشرب نخبه . ثم أكثر بعد ذلك من الشرب : " إنه
لويسكى رائع " واستطرد قائلاً : " كم منا يقع أسيراً لاسمته فى

الخفاء وبرتراند برتراند الذى سمعه يتردد عدة مرات فى اليوم عاش حياته كلها أسير مجد خيالى لتلك المقاطع الأربعة الشجية . وعندما رسب فى امتحان الشهادة الثانوية حزن بصورة كبيرة بالمقارنة بزملائه الآخرين . فكان الاسم المكرر كما لو أنه ضاعف بصورة تلقائية شعوره بالمسئولية . كان فى تواضعه الذى يعد مثلاً يحتذى قادراً على أن يتحمل مصيبة تصيبه هو نفسه . ولكنه لم يستطع أن يتأقلم مع المصيبة التى أصابت اسمه . فقد أقسم باسمه وهو فى العشرينات أن يهب حياته للنضال من أجل الخير . ولكن سرعان ما تأكد أنه ليس من السهولة بمكان التفريق بين ما هو خير وما هو شر . فقد صوت والده مثلاً فى البرلمان مع أغلبية النواب لصالح معاهدة " ميونخ " . أراد أن يحمى السلام لأن السلام يعتبر الخير الذى لا جدال فيه . ولكنهم ألقوا عليه باللائمة بعدها لأن معاهدة ميونخ فتحت الطريق للحرب التى كانت شرّاً مسلماً به . وقد أراد الابن أن يتجنب مساوئ أبيه ، ولذلك التزم بالثوابت الأساسية . فلم يدل برأيه على الإطلاق فى الفلسطينيين ولا فى الإسرائيليين ولا فى ثورة أكتوبر ولا فى " كاسترو " ولا حتى فى الإرهابيين . لأنه كان يعلم أنه يوجد حد لا تكون جريمة القتل بعده جريمة ولكن بطولة ، وأنه لن يستطيع على الإطلاق أن يعرف هذا الحد . فتحدث بانفعال ضد النازية وغرف الغاز وأسف بصورة ما أن " هتلر " اختفى تحت حطام المستشارية لأن الخير والشر أصبحا منذ هذه الفترة شيئاً نسبياً بصورة لا تحتمل .

وقد دفعه هذا إلى أن يحصر جهوده على الخير فى صورته المجردة التى لم تشوهها السياسة . وكان شعاره هو : " الحياة تعنى الخير " ومن هنا صار هدف حياته هو محاربة الإجهاض وقتل الأجنة والانتحار .

اعترضت لاورا وهى تضحك قائلة : " إنك تجعل منه شخصاً غيباً ! " فقال بول لأجنس : " أترين ! لقد بدأت لاورا تدافع عن أسرة حبيبها . هذا شيء جدير بالثناء مثل هذا الويسكى الذى يجب أن تصفقوا لى من أجله ! لقد ظهر برتراند برتراند فى برنامج لمحاربة قتل الأجنة عند سرير أحد المرضى الذى لم يكن يستطيع الحركة وقد استأصلوا له لسانه ، كان ضريراً ويعانى من آلام متواصلة . انحنى عليه والكاميرا تصوره وهو يعطيه الأمل فى حياة قادمة . وفى اللحظة التى نطق فيها للمرة الثالثة كلمة الأمل هاج المريض فجأة وبدأ يصدر صوتاً ما مخيفاً يشبه صوت الحيوان أو الثور أو الحصان أو الفيل أو يشبههم جميعاً . وانتاب برتراند برتراند الخوف ولم يستطع مواصلة كلامه ، فقط حاول بصعوبة كبيرة أن يحافظ على ابتسامته والكاميرا تصور فقط تلك الابتسامة المتحجرة من الخوف للنائب المرتجف وبجواره فى الكادر نفسه وجه المريض الذى يزمجر . ولكنى لم أكن أريد أن أتحدث عن هذا ، أردت فقط أن أقول إنه أفسد هذا بابنه عندما اختار له اسمه . ففى البداية أراد أن يعطيه اسمه ثم اعترف بعد ذلك أنه من الغريب أن يكون فى العالم اثنان لبرتراند برتراند ، لأن الناس قد لا يعرفون ما إذا كانوا شخصين أو أربعة أشخاص . ولكنه

لم يرد أن تفوته سعادة أن يسمع فى اسم ابنه صدى لاسمه هو ،
ولذلك فكر فى أن يسمى ابنه برتراند ، غير أن برتراند برتراند
لا يبدو كالهتاف والدعوة بالمجد ولكن كزلة لسان أو على الأحرى
كتدريب صوتى للممثل أو لمذيع الإذاعة لكى يتعلموا الحديث السريع
ولكى لا تزل ألسنتهم . وكما قلت فإن ألسنتنا تؤثر فىنا دون أن نعلم
واسم برتراند قد حتم عليه منذ المهد أن يتحدث على موجات الأثير .

لقد أثر بول بهذا الهراء فقط لأنه لم يجرؤ أن يقول بصوت عال
الشيء الرئيسى الذى كان يدور بخلده : فقد ألهب حماسه الثمانى
سنوات التى تكبر بها لاورا برنارد . لأن لبول ذكرى رائعة لسيدة
كانت تكبره بخمسة عشر عاما كان يعرفها عن قرب عندما كان عمره
يناهز الخامسة والعشرين . كان يريد أن يتحدث عن هذا ، أراد أن
يخبر لاورا أن حب امرأة أكبر سناً هو من طبيعة حياة كل رجل وأنا
نحتفظ منه أجمل الذكريات . " المرأة الأكبر سناً كالحجر الكريم فى
حياة الرجل " . أراد أن يصرخ ويرفع كأسه من جديد . ولكنه
تراجع عن هذه الإيماءة العنيفة وأخذ يتذكر بهدوء حبيبته القديمة التى
أعطته مفتاح شقتها وكان فى استطاعته أن يذهب إلى هناك وقتما شاء
ويفعل ما يريد ، الأمر الذى أعجبه ، لأنه غضب من والده وتمنى أن
يكون تواجهه بالبيت قليلا بقدر المستطاع . لم تدع على الإطلاق أى
حق فى أمسياته ، فقد كان يحضر عندها مادام غير مشغول ، وعندما
لم يكن لديه وقت لم يضطر إلى أن يشرح لها أى شيء . لم تجبره

مطلقا أن يذهب معها إلى مكان ما ، وإذا رآهم أحد بين الناس ادعى أنها قريبة عزيزة عليه ومستعدة أن تفعل كل ما بوسعها من أجل ابن أخيها الجميل . وعندما تزوج أرسلت له هدية قيمة ظلت دائما لغزا بالنسبة لأجنس .

ولم يمكنه أن يقول للاورا بصراحة : أنا سعيد أن صديقي يحب امرأة تكبره سنا وذات خبرة وسوف تعامله كالعمة المغرمة بابن أخيها الجميل . لم يستطع أن يقول هذا لأن لاورا تكلمت بنفسها :

" أجمل ما فى الموضوع هو شعورى وأنا بجواره أننى أصغره بعشرة أعوام . فبفضله محوت عشرة أعوام أو خمسة عشر عاما من الأعوام السيئة وأشعر وكأننى أتيت بالأمس فقط من سويسرا إلى باريس ثم قابلته " .

هذا الاعتراف جعل بول غير قادر على أن يفكر بصوت عال فى جوهرة حياته . وهكذا أخذ يتذكر بهدوء وهو يتذوق الويسكى ولم يعد يعنى ما تقوله لاورا إلا فى وقت لاحق ، قال لكى يشارك فى الحديث : " ماذا يقول لك برنارد عن أبيه ؟ "

قالت لاورا : " لا شيء ، أريد أن أؤكد لك أن أباه ليس موضوعا لحوارنا . أنا أعرف أنها أسرة كبيرة ، ولكنك تعرف ماذا تعنى الأسر الكبيرة بالنسبة لى " .

" أليس لديك فضول لهذا ؟ "

ابتسمت لاورا بسعادة وقالت : " لا "

" يجب أن تكونى كذلك ، فبرتراند برتراند هو أكبر مشاكل برنارد برتراند " .

أما لاورا التى كانت مقتنعة أن أكبر مشاكل برنارد أصبحت هى قالت : " أنا لا أعتقد "

سأل بول لاورا قائلاً : " أتعرفين أن برتراند الكبير أراد لبرنارد مجال السياسة ؟ " .

هزت لاورا كتفها وقالت : " لا "

" إن مجال السياسة يتم توارثه فى هذه الأسرة كالتركة . فقد أخذ برتراند برتراند فى اعتباره أن ابنه سيرشح نفسه يوما ما كنائب بدلاً منه . ولكن برنارد لم يكن تجاوز العشرين من عمره عندما سمع فى أخبار الإذاعة هذه الجملة : " لقي ١٣٩ مسافرا حتفهم فى كارثة الطائرة فوق المحيط الأطلنطى ، بينهم سبعة أطفال وأربعة صحفيين " . لقد تعودنا منذ فترة أن الأطفال يذكرون فى مثل هذه الأخبار كنوع من البشر ذى قيمة عالية . ولكن المذبة أضافت إليهم هذه المرة الصحفيين أيضاً ، وسطع على برنارد فجأة شعاع المعرفة . فقد أدرك أن السياسى أصبح دمية هزلية فى الوقت الحالى وقرر أن يصبح صحفياً . وتصادف أننى كنت وقتها أعقد ندوة فى كلية الحقوق وكان يحضرها

وهناك اكتملت خيانتة لمهنة السياسة وخيانتة لوالده . قد يكون برنارد
حكى لك عن هذا ! " .

قالت لاورا ؛ " نعم ، أنا أحبك " .

فى هذه اللحظة دخل زنجى بسلة من الزهور . أشارت له لاورا .
كشف الزنجى عن أسنانه البيضاء الناصعة وأخذت لاورا من سلته
حزمة بها خمس زهور من القرنفل شبه ذابلة وقدمتها لبول : " أنا
مدينة لك بكل ما أنا به من سعادة . " مد بول يده إلى السلة وسحب
حزمة أخرى من زهور القرنفل وأعطائها للاورا قائلا : أنت من نحتفل
به اليوم وليس أنا " .

" نعم ، اليوم نحتفل بلاورا " قالتها أجنس وأخذت من السلة
حزمة ثالثة من القرنفل .

رقرقت عينا لاورا بالدموع وقالت : " كم أنا سعيدة ، كم أنا
سعيدة معكما " ، ثم همت بالانصراف . ضمت حزمى الزهور إلى
صدرها وهى تقف بجوار الزنجى الذى انتصب كالملك . إن جميع
الزنوج يشبهون الملوك : هذا الزنجى كان يشبه " أوثيلو " قبل أن يبدأ
فى الغيرة على " ديدمونه " وبدأت لاورا كـ " ديدمونه " المستيمة
بملكها ، كان بول يعرف ما سوف يحدث الآن . فلاورا كانت دائما
تغنى عندما تكون سكرانة . تصاعدت رغبيتها فى الغناء من مكان ما

فى أعماق جسدها وارتفعت إلى حنجرتها بقوة جعلت بعض رجال
الخدمة يلتفتون إليها بدافع الفضول .

همس بول قائلاً : " لاورا ! قد لا يقدر أحد فى هذا المطعم "
ماهير " الذى تحببته "

ووضعت لاورا على كل ثدى حزمة زهور أمسكت كل واحدة
بأحدى يديها وخيل إليها أنها تقف على المسرح . أحست تحت
أصابعها بثدييها وخيل إليها أن غددهما اللبنة ممثلة بالموسيقى .
كانت رغبات بول بالنسبة لها دائما أوامر . أطاعته ونهدت وقالت :
" كم أود بشدة أن أفعل شيئاً ما " .

فى هذه اللحظة أخذ الزنجى من السلة مدفوعا بغريزة رقيقة من
غرائز الملوك آخر حزمتين منجعدتين من زهور القرنفل وبإيماء نبيلة
وقدمهما لها . قالت لاورا لأجنس : " أجنس ، حببتي أجنس ،
بدونك ما كنت عشت فى باريس مطلقا ، وبدونك ما كنت عرفت
بول وبدون بول ما تعرفت على برنارد " ، ثم وضعت باقات الزهور
الأربعة أمامها على الطاولة .

الوصية الحادية عشرة

فى وقت من الأوقات كان يرمز إلى مجد الصحفى باسم كبير وهو " هيمنجواى " . فكل أعماله وأسلوبه المختصر والموضوعى كانت مستمدة من التحقيقات التى أرسلها وهو شاب إلى جريدة فى مدينة " كان " . كونك صحفياً كان يعنى وقتها أن تقترب من الحقيقة أكثر من أى شخص آخر ، وأن تتسلى جميع جوانبها الخفية وتلوث يدك بها . كان " هيمنجواى " فخورا بأن كتبه بقدر ما كانت قريبة من الأرض كانت عالية فى سماء الفن .

وعندما يردد برنارد فى نفسه كلمة " صحفى " (وهذه الكلمة تطلق اليوم فى فرنسا على المحررين فى الإذاعة والتلفزيون وتطلق حتى على مصورى الصحافة) لا يدور بخلده هيمنجواى ، ولكن الصيغة الأدبية التى يحلم بأن يبرع فيها ليست التحقيق الصحفى . بل هو بالأحرى يحلم بأن ينشر فى جريدة كبيرة المقالات الافتتاحية أو المقابلات الصحفية التى تهز جميع زملاء أبيه . لكن من جهة أخرى من هو رائد الصحافة الحديثة ؟ بالطبع ليس هيمنجواى الذى كتب عن خبراته فى الخنادق على الجبهة ، وليس " أرويل " الذى قضى عاما من حياته بين الطبقة الفقيرة فى باريس ، وليس " إيجون إيروين كيش " " خبير فى فتيات الدعارة ببراغ " ، وليست " أوريانا فلاشى " التى

نشرت بين العامين ١٩٦٩ ، ١٩٧٢ فى الجريدة الأسبوعية "أورويو " مجموعة حوارات مع أشهر رجال السياسة فى ذلك الوقت . لقد كانت تلك الحوارات أكثر من مجرد حوارات . كانت مواجهات . فقد انزلق السياسيون الكبار على أرضية حلقة " الـ K.O. قبل أن يدركوا أنهم يتقاتلون فى ظروف غير متكافئة - لأنها وحدها هى التى يمكنها أن توجه الأسئلة وليس هم .

كانت هذه المواجهات سمة من سمات العصر . لقد تغيرت الظروف . وأدرك الصحفيون أن توجيه الأسئلة ليس مجرد طريقة عمل للصحفى الذى يقوم بمعالجته لأمرٍ ما بتواضع وهو يحمل فكرة وقلمًا فى يده ، ولكنه أسلوب تنفيذ السلطة . ليس الصحفى من يسأل ولكن الصحفى من له الحق المقدس فى توجيه الأسئلة لمن شاء وعن أى شىء . ولكن ألا يملك كل منا هذا الحق ؟ ألا توجد مسألة جسر التفاهم الذى ينتقل من شخص إلى آخر ؟ ربما . لهذا سأعيد صياغة ما أؤكدده : لا تكمن قوة الصحفى فى حقه فى توجيه الأسئلة ولكن فى حقه فى طلب الإجابة .

لاحظوا ، من فضلكم ، جيدا أن موسى لم يدرج فى الوصايا العشر الإلهية وصية " لا تكذب " ، وليس هذا من قبيل المصادفة ! لأن من يقول لا تكذب عليه أن يقول قبل ذلك " أجب ! " ولم يعط الله الحق لأحد أن يطلب من غيره الإجابة . " لا تكذب " ، " قل الحقيقة " هذه كلمات لا يجب أن يقولها إنسان لإنسان آخر ، مادام

يعتبره مساوياً له . الله فقط هو الذى له الحق فى أن يقولها ، ولكن لا يوجد داع لقولها مادام أنه يعرف كل شيء ولا يحتاج إجابتنا .

لا يوجد تفاوت جذرى بين من يأمر ومن عليه الطاعة ، كما هو الحال بين من له الحق فى طلب الإجابة ومن عليه الرد . لأن حق طلب الإجابة لم يعترف به من الأزل إلا نادرا ، كالاعتراف به للقاضى الذى يحقق فى جريمة . وفى هذا القرن استباححت لنفسها الدول الفاشية والشيوعية هذا الحق وبصورة مطلقة وليس فى حالات محددة . كان مواطنو هذه البلاد على علم بأنه ستأتى لحظة فى أى وقت استدعون فيها للرد على هذه الأسئلة : ماذا فعل بالأمس ، ماذا يعتقد فى أعماق نفسه ، عن ماذا يدور الحديث عندما يلتقى مع " أ " من الناس وهل تربطه علاقة قوية بـ " ب " فى الواقع إن أسلوب الأمر البغيض هذا " قل الحقيقة ا " ، هذه الوصية الحادية عشرة التى لم يستطيعوا مقاومة قوتها ، جعلت منها حشوداً من البؤساء القُصَّر . وبالطبع أحياناً كان هناك (ج) لم يرغب بأى ثمن أن يبوح بما تحدث به مع " أ " ولكى يعلن عن تمرده (غالباً ما كانت هذه هى حركة التمرد الوحيدة الممكنة) قال الكذب بدلا من الحقيقة . ولكن الشرطة كانت تعلم هذا وقامت سرا بتركيب أجهزة تصنت فى شقته . لم تكن تفعل ذلك نتيجة لإدانته بشيء ما ، ولكن لكى تعلم الحقيقة التى أخفاها (ج) الكاذب . وأصرت على حقها المقدس فى طلب الإجابة .

فى الدول الديموقراطية يخرج أى إنسان لسانه لرجل الشرطة الذى تجرأ وسأله عما تحدث به مع " س " من الناس وعما إذا كانت تربطه صلة قوية بـ " ص " . على أنه توجد هنا حكومة الوصية الحادية عشرة يكامل قوتها . ففى هذا القرن يجب أن توجد وصية ما تتحكم فى البشر ، عندما تكاد الوصايا العشر الإلهية تنسى ! فالتركيبة الأخلاقية لهذا العصر تتوقف كلها على الوصية الحادية عشرة ، وأدرك الصحفي أنه نتيجة لسرية القرار التاريخى عليه أن يصبح الحارس له الذى يكتسب منه قوته التى لم يحلم بها أى من " هيمنجواى " أو " أوريل " .

وقد ظهر هذا جليا لأول مرة عندما كشف الصحفيان الأمريكان " كارل برنشتاين " و"بوب وود ورد " بأستلتهما التصرفات الخبيثة للرئيس " نيكسون " أثناء الانتخابات وأرغموا أقوى رجل على وجه الأرض أن يقوم بالكذب علنا ثم يعترف على الملأ أنه يكذب وأن يغادر فى النهاية البيت الأبيض خافض الرأس . وقد صفقنا جميعا وقتها لأن ما حدث كان عادلا . وصفق بول أكثر لأنه توقع فى هذه الحلقة تغييرا تاريخيا كبيرا ، محطة ، لحظة لا تنسى يتغير فيها الحرس ، ظهرت القوة الجديدة والوحيدة القادرة على إزاحة محترف السلطة المخضرم عن العرش والذى يعتبر حتى هذا الوقت رجل سياسة . أنزلته من على العرش ليس بالسلاح ولا المكائد ولكن بمجرد قوة السؤال .

" قل الحقيقة ا " يقولها الصحفي ونحن يمكننا بالطبع أن نتساءل عن مفهوم كلمة الحقيقة بالنسبة لمن يدير مؤسسة الوصية الحادية عشرة . ولنؤكد حتى لا يحدث سوء فهم أن الأمر لا يتعلق بالحقيقة الإلهية التي مات من أجلها على الحدود. " يان هوس " ولا الحقيقة العلمية وحقيقة التفكير الحر التي أحرقوا بسببها " جيوردان برون " . فالحقيقة التي تتناسب مع الوصية الحادية عشرة لا تتعلق بالعقيدة ولا التفكير ، إنها حقيقة الطابق الأسفل للوجود ، الحقيقة الوضعية الخاصة بالوقائع : ماذا فعل " ج " بالأمس ، ماذا يعتقد في أعماق ذاته ، عن ماذا يتحدثون عندما يلتقى مع (أ) ، وإذا ما كانت تربطه علاقة وطيدة بـ (ب) . لكن وعلى الرغم أنها في الطابق الأسفل للوجود ، فهي حقيقة عصرنا وتحوى في داخلها على نفس قوة الانفجار مثل حقيقة " يان هوس " أو " جيوردان برون " في وقت من الأوقات . " سأل الصحفي " هل كان لك علاقات وطيدة مع (ب) ؟ . ويكذب " (ج) ويؤكد أنه لا يعرف (ب) . ولكن الصحفي يتسم في هدوء لأن مصور صحيفته قد صور (ب) عاريا منذ زمن بعيد وسرا وهو في أحضان (ج) وهو وحده الذي يحدد متى ستنشر الفضيحة مع أقوال (ج) الكذاب والذي أكد بخسبة ووجهها لوجه أنه لا يعرف (ج) .

إنها الحملة الانتخابية ، رجل السياسة يقفز من طائرة إلى الطائرة المروحية ومن المروحية إلى السيارة ، يسعى جاهدا ، يتصبب منه

العرق ، ويلتهم طعام الغداء وهو يجرى ويصرخ فى مكبر الصوت ويلقى بالأحاديث لمدة ساعتين ولكن الأمر فى النهاية سيكون فى يد " برنشتاين " أو " وود ورد " أية جملة من الجمل الخمسين ألف التى ألقاها ستظهر على صفحات الجريدة أو سيتم الاستشهاد بها فى الإذاعة . ولذلك سيرغب رجل السياسة أن يتحدث مباشرة فى التلفزيون أو الإذاعة ، غير أن هذا لا يتحقق إلا عن طريق " أريانا فلاشى " التى تعتبر صاحبة الأمر فى البرنامج والتى سوف توجه له الأسئلة . سيرغب السياسى أن يستغل اللحظة التى يراه فيها أخيرا كل الشعب وعلى الفور يتحدث عن كل ما فى جعبته ولكن " وود ورد " سيسأله فقط عما لا يدور بخاطره وما لا يريد الحديث عنه . وسيجد نفسه فى موقف تقليدى للاعب رياضى مخضرم عند الطاولة يحاول اللجوء إلى حيلة قديمة : سيتظاهر أنه يجيب عن السؤال ولكن فى الواقع ستيحدث عما أعده للبرنامج فى البيت . إلا أنه إذا كانت هذه الحيلة قد انطلت على الأستاذ فى وقت ما فلن تنطلى على " برنشتاين " الذى سيذكره بلا هوادة : " أنت لم تجب عن سؤالى ! " .

من يرغب اليوم بأداء وظيفة السياسى ؟ من يريد أن يجعل حياته كلها تنظر عند الطاولة ؟ بالتأكيد لن يكون ابن النائب برتراند برتراند .

الإيميجولوجيا

إن مصير السياسى مرهون بالصحفى ، ولكن على من يتوقف مصير الصحفى ؟ على من يدفعوا له . ومن يدفع هم وكالات الإعلانات التى تشتري من الصحف مساحة لإعلاناتهم ومن التلفزيون وقتًا لتلك الإعلانات . ويمكن القول من النظرة الأولى أنهم يذهبون بلا تردد إلى كل صحيفة توزع جيدا ، وبهذا يمكنهم زيادة بيع منتجهم المعلن عنه . غير أن هذه تعتبر نظرة ساذجة للأمر . فالأمر لا يتعلق بالبيع بالقدر الذى نعتقده . فتكفى نظرة إلى الدول الشيوعية : فلا يمكن لأحد أن يجزم بأن ملايين الصور المعلقة فى كل مكان تسرون فيه قد تستطيع أن تزيد من الحب لـ " لينين " . لقد نسيت منذ زمن بعيد وكالة الإعلانات التابعة للحزب الشيوعى (التى تسمى بقسم الدعاية والإعلان) الهدف من نشاطها (بأن تجعل النظام الشيوعى نظاما محبوبا) وأصبحت هدفا لنفسها : فقد كونت لغة لها وصيغة وقيمة جمالية (فقد كان لرؤساء تلك الوكالات فى وقت من الأوقات سلطة مطلقة تعلو فوق سلطة الفن فى بلادهم) ورؤيتهم لأسلوب الحياة الذى يدعمونه وينشرونه ويجبرون الشعب المسكين عليه .

أتعترضون بأن الدعاية والإعلان ليسا متساويين ، لأن أحدهما يخدم السياسة والآخر يخدم الأيديولوجية ؟ إذن أنتم لا تفهمون شيئا .

فقبل حوالي مائة عام وفي روسيا ، بدأ الماركسيون الطاردون الاجتماع سرّاً في جماعات يتدارسون فيها البيان الماركسي وقاموا بتبسيط محتوى تلك الأيديولوجية البسيطة لكي ينشروها في جماعات أخرى ، قام أعضاؤها بنشرها وتوزيعها بعد أن قاموا بمزيد من التبسيط لذلك الشيء البسيط المبسط . وهكذا عندما صارت الماركسية قوية وذائعة الصيت في كل أنحاء الأرض لم يتبق منها غير مجموعة تضم ستة أو سبعة رؤوس موضوعات مرتبطة ببعضها ارتباطاً ضعيف البنية ويصعب أن نطلق عليها أيديولوجيا ؛ ولأن ما تبقى من ماركس لا يشكل منذ بدايته أي نظام منطقي للمعتقدات ، بل مجرد ترتيب إيحائي لصور وشعارات (ذلك العامل الذي يحمل مطرقة وهو يتسم ، الزنجي والأبيض والرجل الأصفر يد كل منهم في يد الآخر في إحاء ، وحمالة السلام التي تصعد إلى السماء ، وهكذا وهكذا) يمكننا بلا شك أن نتحدث عن أيديولوجية تدريجية عامة وشاملة إلى حد ما في الإيميجولوجية .

الإيميجولوجية ! من فكر في هذه الكلمة المستحدثة الرائعة قبل الآخر ؟ أنا أم بول ؟ ليس هذا على أية حال هو المهم . المهم هو أن هذه الكلمة ستمكننا أخيراً أن نربط معاً تحت سقف واحد كل ما له أكثر من مسمى : مكاتب الإعلانات ومستشارو رجال الدولة لشئون ما يسمى بالإعلام ، والمصممون الذين يصممون شكل السيارات وعدة التدريب ، ومصممو أزياء الموضة ، والحلاقون ونجوم صناعة

العروض الذين يفرضون معيار الجمال البدنى ، وتتبعهم كل فروع الإيميجولوجية .

وقد ظهر خبراء الإيميجولوجية بالطبع قبل أن يكونوا مؤسساتهم كما نعرفها اليوم . فقد كان يعمل لدى " هتلر " أحد متخصصى الإيميجولوجية الخاص به ، والذي عرض أمامه بمثابرة وهو يقف أمامه الإيماءات التى عليه أن يقوم بها لكى يأخذ بمجامع قلوب الجماهير . إلا أن هذا الأخصائى لو قال وقتها فى حديث للصحفيين يرفه فيه عن المواطن الألمانى : إن " هتلر " لم يكن يجيد تحريك يديه ، قد لا يبقى على قيد الحياة لمدة أكثر من نصف يوم لطيشه هذا . إلا أن خبير الإيميجولوجية اليوم لا يعلن نشاطه فحسب ولكنه غالباً ما يتحدث باسم رجال دولته ، ويشرح للعامة ما علمهم إياه وما جعلهم يقلعون عنه ، وكيف سيتصرفون بناء على تعليماته وما هى الصيغ التى سيستخدمونها ، ونوع رابطة العنق التى سيرتدونها . وعلينا ألا نتعجب من ثقته هذه : فالإيميجولوجية انتصرت على الأيديولوجية فى السنوات العشر الأخيرة انتصاراً تاريخياً .

لقد منيت كل الأيدلوجيات بالخسارة . فقد ظهرت تعاليمها على أنه وهم ولم يعد يأخذها الناس مأخذ الجد . كان الشيوعيون على سبيل المثال يؤمنون بأن طبقة العمال ستصبح أكثر فقراً مع ازدياد النمو الرأسمالى ، وعندما اتضح يوماً ما أن العمال فى كل أنحاء أوروبا يذهبون إلى العمل بسياراتهم ، أرادوا أن يصرخوا قائلين إن الحقيقة

تزييف . فالواقع كان أقوى من الأيديولوجية ، إلا أن الإيميجولوجية تفوقت عليه في هذا الاتجاه : فالإيميجولوجية أقوى من الواقع الذي لم يعد منذ زمن بالنسبة للإنسان كما كان بالنسبة لجدتي التي عاشت في قرية بمورافيا وعرفت كل شيء من واقع خبرتها : كيف تخبز الخبز وتبنى المنزل وتذبح الخنزير وتصنع منه اللحم المدخن ، وماذا تضع في اللحاف ، وماذا يقول السيد القس والمدرس في أمور الحياة ، كانت تلتقى كل يوم بالقرية كلها وتعرف كم عدد جرائم القتل التي ارتكبت في المنطقة في العشر سنوات الأخيرة . كانت - كما يقال - تتحكم شخصياً في الواقع ، وعليه لم يكن في استطاعة أحد أن يوهمها أن الزراعة مزدهرة في مورافيا بينما ليس في بيتها ما تأكله . يقضى جارى في باريس كل وقته في المكتب ، يجلس ثماني ساعات في مواجهة موظف آخر ، ثم يستقل سيارته عائداً إلى المنزل ، يفتح التلفزيون وعندما يخبره المذيع عن استطلاع للرأى العام أسفر عن أن غالبية الفرنسيين قرروا أن أكثر البلاد أمناً في أوروبا هي وطنهم (فقد قرأت شخصياً استطلاعاً كهذا من وقت قريب) فيفتح من سعادته زجاجة شمبانيا ، ولن يخبره أحد أن في هذه اليوم وقعت في الشارع الذي يقطنه ثلاث حوادث سرقة وجريمتا قتل .

إن استطلاعات الرأى العام تعتبر وسيلة فعالة لسلطة الإيميجولوجية التي تعيش متناغمة مع البشر تناغماً كاملاً بفضل هذه الاستطلاعات . فخبير الإيميجولوجية يطر الناس بالأسئلة : كيف يزدهر الاقتصاد

الفرنسى ؟ هل ستنشب الحرب ؟ هل توجد فى فرنسا عنصرية ؟ وهل العنصرية شىء جيد أم سيىء ؟ من هو أعظم أديب على الإطلاق ؟ وهل المجر تقع فى أوروبا أم فى بولونيا ؟ من هو أكثر رجال الدولة فى العالم إثارة للشهوة الجنسية ؟ ولأن الحقيقة صارت بالنسبة للإنسان المعاصر منطقة تندر زيارتها باستمرار وغير محببة فى الواقع ، صارت أقوال استطلاعات الرأى ما يشبه الحقيقة المطلقة ، أو يمكننا قول ذلك بطريقة أخرى : صارت حقيقة واقعة . إن استطلاعات الرأى العام تعتبر برلماناً منعقدًا بشكل دائم ومهمته تشكيل الحقيقة ، الحقيقة الأكثر ديمقراطية فى أحسن صورها .

وستظل دائما سلطة الإيميجيلوجيين تعيش فى الواقع ، وذلك لأنها لن تتعارض على الإطلاق مع برلمان الحقيقة ، ورغم علمى أن كل ما هو بشرى زائل ، لا يمكننى أن أتصور ما الذى يستطيع أن يكسر هذه القوة .

أريد أن أضيف إلى المقارنة بين الأيديولوجية والإيميجولوجية شيئاً آخر : كانت الأيديولوجيات تشبه العجلات الضخمة فى الكواليس ، دارت هذه العجلات وأدارت الحروب والثورات والإصلاحات . ولكن العجلات الإيميجولوجية تدور وليس لها أى تأثير فى التاريخ . تحاربت الأيديولوجيات مع بعضها وكانت كل واحدة منها قادرة على أن تملأ بفكرها عصرها . أما الإيميجولوجية فتتنظم بنفسها التبادل السلمى لأنظمتها بإيقاع رشيق للمواسم . وكما يقول بول : إن

الأيدولوجية تنتمى إلى التاريخ ، فى حين أن سيطرة الإيميجولوجية تبدأ من حيث ينتهى التاريخ .

لقد اكتسبت كلمة تغيير بالنسبة لقارتنا الحبيبة أوروبا معنى جديداً :
فهى لا تعنى مرحلة جديدة من النمو المتواصل (تماماً كما عرفه " فيكو " و " هيجل " أو " ماركس ") بل التنقل من مكان إلى آخر ومن جهة إلى أخرى ، إلى الخلف وإلى اليسار وإلى الأمام (تماماً مثل مصمم الأزياء الذى يبتكر موضة جديدة فى الموسم الجديد) .

إذا كان الإيميجولوجيون قرروا أنه سوف تتم تغطية جميع جدران نادى الرياضة البدنية الذى تذهب إليه أجنس بمرآة هائلة فلا يرجع هذا إلى أن المتدربين يرغبون فى أن يراقبوا أنفسهم أثناء التدريب ، ولكن لأن المرأة أصبحت فى لعبة الروليت الإيميجولوجية الرقم السعيد لهذا الوقت . وإذا قرر الجميع فى الوقت الذى أكتب فيه هذه الصفحات أن " مارتن هايديجر " يجب أن يعد مخبولا وخروفا أجرب ، ليس لأن أفكاره تم تخطيها من قبل فلاسفة آخرين ، ولكن لأنه صار فى لعبة الروليت الإيميجولوجية ، ولهذه اللحظة ، رقما لا يجلب الحظ ومثلاً سيئاً ، فالإيميجولوجيون يصنعون نظاماً للمثل والمثل المضادة ، يصنعون أنظمة قصيرة الأجل يستبدل فيها نظام بالآخر وبسرعة ، ولكنها أنظمة تؤثر فى سلوكنا وآراءنا السياسية وذوقنا الجمالى ، ولون السجاجيد واختيار كتب لها نفس السلطة ،

تماماً كما استطاعت النظم الأيديولوجية أن تتحكم فينا في وقت من الأوقات .

أستطيع بعد هذه الملاحظات أن أعود إلى بداية الفكرة . مصير السياسى مرهون بالصحفى . ولكن على من يتوقف مصير الصحفى ؟ يتوقف على الأيميجولوجيين . فخبير الإيميجولوجيا إنسان ذو عقيدة ومبادئ : يطالب الصحفى بأن تكون جريدته (المحطة التلفزيونية ومحطة الإذاعة) متوافقة مع النظام الإيميجيلوجى لتلك الفترة ، وهذا هو ما يشرف عليه الإيميجولوجيون من وقت لآخر وذلك عندما يقررون إذا ما كانوا سيدعمون تلك الصحيفة أم غيرها . وبهذه الطريقة وفى يوم من الأيام ، انكبوا على محطة الإذاعة التى يعمل بها برنارد محررا ، يقدم بول فى كل سبت تعليقا قصيرا يسمى " الحق والقانون " . وعدوهم بأن يوفروا للمحطة العديد من اتفاقيات الإعلانات ، وفوق ذلك أن ينظموا لها حملة عن طريق النشرات المعلقة فى كل أنحاء فرنسا . غير أنهم وضعوا شروطا لم يستطع مدير البرنامج المسمى بـ "مادفياد" إلا أن يذعن لها : وبدأ تدريجيا فى تقصير وقت مختلف التعليقات بحجة أن لا يمل المستمع من الأفكار الطويلة . جعلهم يقطعون الأحاديث الفردية للمحررين والتى تستغرق خمس دقائق بأسئلة لمحرر آخر ليعطى انطباعا أنه حوار ، أدخل العديد من الوقفات الموسيقية وغالبا ما ترك الموسيقى تدق خلف الكلمات . وأوصى جميع من يتحدث إلى الميكرفون أن يصبغوا على

أحاديثهم الخفة المرسلة والبساطة الشبابية ، والتي بفضلها تحسنت
أحلامى الصباحية وتحولت أخبار الصباح اللطيفة إلى أوبرا هزلية .
ولأنه كان مهتمًا بأن يرى فيه مستخدموه الدب القوى ، فقد حاول
بكل ما أوتى من قوة أن يبقى كل معاونيه فى أماكنهم . ولكنه تراجع
فى نقطة واحدة . فقد اعتبر الإيميجيلوجيون أن البرنامج المعتاد " الحق
والقانون " برنامجا مملا بصورة واضحة ، ورفضوا المناقشة فيه
وما كان منهم إلا أن ضحكوا بأسنانهم ناصعة البياض ، وعدهم
" مادفياد " أن التعليق سيلغى فى وقت قريب ثم خجل من تراجعهم هذا
ومما زاد خجله هو أن بول كان صديقا له .

حليف متعهدي دفنه البارع

كان مدير محطة الإذاعة يدعى " الدب " ولم يكن ممكناً مناداته باسم آخر : كان طويل القامة وبطيئاً ، وقد تمكن الإيميجولوجيون ، الذين جاءتهم الجرأة لكي يعلموه كيف يؤدي عمله ، من أن يستنفدوا منه تقريباً كل ما لديه من طيبة الديبة . وكان " مادفياد " ذات مرة يجلس في بوفيه الإذاعة محاطاً بعدد من معاونيه فقال : " هؤلاء المحتالون الذين يعملون في الدعاية مثلهم مثل سكان كوكب المريخ . لا يتصرفون كالبشر الطبيعيين ، فعندما يقولون لكم مباشرة أسوأ الأشياء تعلو وجوههم ابتسامة سعادة عريضة ، ولا يستعملون أكثر من ستين كلمة ويعبرون بجمل لا تتعدى على الإطلاق أكثر من أربع كلمات . إن حديثهم عبارة عن ارتباط ثلاثة مصطلحات فنية لا أفهمها ، بفكرة أو على أكثر تقدير بفكرتين شديدتى البدائية . ولا يخجلون من أنفسهم مطلقاً ولا يعانون من أدنى إحساس بعقدة النقص . وهكذا ، كما تعلمون ، يعرف أصحاب السلطة " .

في تلك اللحظة تقريباً ظهر بول في البوفيه . وعندما رآوه ارتبكوا ، وزاد من هذا الارتباك أن بول كان في حالة مزاجية ممتازة . أحضر فنجان قهوة من البار ثم انضم إلى الآخرين .

لم يكن " مادفياد " يشعر بالارتياح أثناء وجود بول . فقد خجل مما فعله بأنه كان سببا في طرد بول ، ولن يجد الآن في نفسه الشجاعة أن يقول له هذا في وجهه . وهنا أصابته موجة جديدة من الكراهية للإيميجولوجيين فقال : " يمكننى فى نهاية الأمر أن أستجيب لهؤلاء القماء وأقوم بتحويل أخبار الصباح إلى حوار بين مهرجين ، ولكن الأسوأ من هذا هو عندما يتحدث برنارد بعدهم على الفور عن كارثة لطائرة لقي فيها مائة من المسافرين حتفهم . وعلى الرغم من أننى مستعد أن أضحي بحياتى فى سبيل الترفيه عن المواطن الفرنسى ، إلا أن الأخبار ليست مجالا للتفاهات " .

أبدى الجميع موافقتهم باستثناء بول الذى ابتسم ابتسامة المستفز السعيد وقال : " أيها الدب ! إن الإيميجولوجيون على حق ! وأنت تخلط بين الأخبار والتعليم المدرسى ! " .

تذكر " الدب " أنه على الرغم من أن تعليقات بول تكون أحيانا خفيفة الظل ولكنها دائما معقدة جدا وملية بالكلمات الغامضة ، التى تقوم كل هيئة التحرير بعد ذلك بالبحث عن معناها فى المعاجم . غير أنه لم يرغب فى الحديث عن هذا الآن ، ولكنه قال بكل كبرياء : " لقد كنت دائما أومن إلى درجة كسيرة بالصحافة ولا أريد أن أفقدها " .

قال بول : " الناس تستمع إلى الأخبار كما يدخنون السيجارة ثم يدكونها فى المنفضة .

قال " مادفياد " : هذا هو ما يصعب على تقبله "

ابتسم بول وقال : " ولكنك مازلت مدخناً شرهاً ! فلماذا تعارض أن تكون الأخبار كالسجائر ؟ وفي حين أن السجائر تؤذيك فالأخبار لا يمكنها أن تضررك ، وهي علاوة على ذلك تسرى عنك بطريقة لطيفة في يوم سيكون مليئاً بالإرهاق " .

" أعتبر الحرب بين إيران والعراق تسلية ؟ " تساءل " مادفياد " وقد بدأ تعاطفه مع بول يختلط بالسخط وأضاف : " كل حوادث العصر ، تلك المذبحة في السكة الحديد ، أهذا تسلية كبيرة ؟ "

" أنت ترتكب الخطأ الشائع الذي يعتبر الموت مأساة " . قال بول وقد بدا منذ الصباح أنه في حالة مزاجية رائعة .

قال " مادفياد " بنغمة باردة : " يجب أن أعترف أنني أعتبر الموت فعلاً مأساة " .

قال بول : " لقد أخطأت ، فحادثة السكة الحديد تمثل مأساة لمن في القطار أو لمن له ابن فيه . ولكنها تعنى في الأخبار الموت تماماً كما هو في روايات " أجاثا كريستي " التي تعتبر بالمناسبة أكبر ساحة في التاريخ لأنها استطاعت أن تجعل من جريمة ما تسلية ، لا جريمة واحدة ، لكن عشرات الجرائم ، بل مئات الجرائم ، سلسلة لا تنتهى من الجرائم التي ارتكبت من أجل إمتاعنا برواياتها في معسكر الفناء . لقد أصبحت المآسى التي حدثت في مدينة " اسفيتم " في طى النسيان

ولكن الدخان دائما يتصاعد من محرقة روايات " أجاثا " إلى السماء ،
غير أن الإنسان شديد السذاجة قد يعتقد أنه دخان المأساة " .

تذكر " مادفياد " أن بول يثير كل هيئة التحرير على مدى أعوام
بمثل هذا النوع من المفارقات . وعندما تفحص الإيميجولوجيون هيئة
التحرير لم يكن حالها ليقدّم سوى دعم هزيل جداً لرئيسها واعتبروا
فى أعماق أنفسهم أن موقفه رجعى . خجل " مادفياد " من أنه
تراجع فى النهاية ، ولكنه كان فى الوقت نفسه يعلم أنه لم يكن أمامه
غير هذا . إن مثل هذا النوع من الحلول الوسط الإجبارية للتمشى مع
روح العصر يعتبر شيئاً مبتذلاً ولكنه رغم ذلك ضرورى ، إلا إذا أردنا
أن ندعو كل من لا يعجبه هذا القرن إلى إضراب عام . غير أنه لم
يكن ممكناً الحديث مع بول عن الحل الوسط الإجبارى . لقد سارع فى
منح هذا القرن مزاحه وعقله طواعية ورد على أسلوب " مادفياد "
بصورة لاذعة . ولهذا أجابه بصوت أكثر برودة : " هكذا أيضاً أقرأ
روايات " أجاثا كريستى " ! عندما أكون مرهقا أو عندما أريد أن
أصبح طفلاً للحظة ما . ولكن إذا تحولت كل حياتنا إلى لعبة طفولية
فسيفنى العالم يوماً ما على ثرثرتنا وضحكاتنا السعيدة " .

قال بول : " أفضل أن ألقى حتفى على صوت ثرثرة الأطفال
عن أن أموت على صوت المسيرة الجنائزية لـ " شوبان " . وأريد أن
أخبرك بشيء : إن كل الشر يكمن فى هذه المسيرة الجنائزية التى تمجد
الموت . وقد تتناقص حالات الموت إذا قلت المسيرات الجنائزية .

أتفهم ما أريد أن أقوله : إن تمجيد المأساة أكثر خطورة من ثرثرة الأطفال غير المبالية . أفهمت شرط المأساة الأبدى ؟ إنه وجود المثل التى تعتبر أكثر قيمة من حياة البشر . ما هو شرط الحروب ؟ مثله مثل المأساة . كلاهما يجرك إلى الموت لأنه يوجد كما يقال شىء أكبر من حياتك . إن الحرب يمكن أن توجد فقط فى عالم المأساة ، لم يعزف الإنسان منذ الأزل سوى عالم التراجيديا ولا يستطيع الخروج منه ، ولا يمكن إنهاء عصر التراجيديا سوى بانتفاضة اللهو . لم يعد الناس الآن يعرفون السيمفونية التاسعة لـ " بيتهوفن " عن طريق الحفلات الموسيقية ولكن من خلال المقاطع الأربعة لنشيد السعادة الذى يسمعون كل يوم فى الإعلان عن عطر " بيللا " . ولا يضايقنى هذا ؛ فسوف تطرد المأساة من العالم كالمطربة العجوز الرديئة التى تأخذ القلوب وتشدق بصوت أجش . إن الانتفاضة مثل القشرة الراديكالية المزيلة للدسم ، ستفقد الأشياء تسعين فى المائة من معناها وتصير أخف وزناً ، فى هذا الجو المخفف يختفى التعصب . وتصير الحرب غير ممكنة " .

قال " مادفياد " : " أنا سعيد أنك وجدت أخيراً طريقة للتخلص من الحروب " .

" أيمكنك أن تتخيل الشباب الفرنسى وهو يذهب متحمساً للحرب من أجل الوطن ؟ يا " مادفياد " ، لقد صارت الحرب فى أوروبا غير ممكنة ، ليس على المستوى السياسى ولكن غير

ممكنة من الناحية الأنثروبولوجية . فالناس في أوروبا لا يرغبون في الحرب " .

لا تقل لى إن الرجلين اللذين يختلفان كثيراً فى رأى يمكن أن يحب أحدهما الآخر ، إن هذا ما هو إلا حكايات تروى للأطفال . يمكن لأحدهما أن يحب الآخر بشرط أن يمتنع عن الحديث عن آرائه ، أو يتحدث عنها بلهجة ساخرة وبذلك يضعف من معناها (هكذا كانا يتحدثان معا حتى الآن كل من بول و " مادفياد. ") . وسرعان ما ينتهى كل شىء بمجرد أن ينشأ أى خلاف . لا لأنهما يؤمنان إيماناً عميقاً بآرائهما التى يدافعان عنها ، ولكن لأنهما لا يطيقان أن لا يكونا على صواب . انظروا إلى هذين الرجلين ، لن يغير تحالفهما أى شىء فى أى شىء ، ولن يؤدى إلى أى قرار ، ولن يؤثر بأى صورة فى مجرى الأحداث . إنه خلاف غير مثمر ولا طائل من ورائه وليس أهلاً إلا لهذا البوفيه وهوائه الملوث الذى سيطرد إلى الخارج معه عما قريب عندما تفتح عاملات النظافة النوافذ . ورغم هذا ، انظروا إلى تركيز الجمهور الصغير حول الطاولة ! لقد التزم الجميع الصمت وأخذوا يستمعون إليهما وقد نسوا حتى أن يرشفوا القهوة . ولا هم لكلا المتصارعين إلا من منهما سيفوز باعتراف هذا الرأى العام الصغير له بملكية الحقيقة ، فعدم الاعتراف بامتلاك الحقيقة يعنى لكل منهما تماماً ما يعنيه فقدانه لشرفه أو فقدانه لجزء من ذاته . فى الوقت نفسه فإن الرأى الذى يدافعان عنه هو نفسه لا يروق لهما إلى هذه الدرجة .

ولكن لأنهما جعلاً من هذا الرأي صفة لذاتهما ؛ فمن مسه هو كمن
وخز جسدهم .

كلما شعر مادفياد في أعماقه بالارتياح لأن بول لن يقوم بعد الآن
في الإذاعة بإلقاء تعليقاته السفسطائية أصبح صوته الملىء بكبرياء الدب
أكثر هدوءاً وبرودة . في حين أن صوت بول صار أكثر ارتفاعاً
وتواردت عليه الأفكار أكثر واستفزته . قال بول : " إن الحضارة
الكبيرة ما هي إلا وليد لهذا الانحلال الأوروبي المسمى التاريخ ، أو وليد
لهاجس التقدم إلى الأمام واعتبار تتابع الأجيال كسباق عدو ، حيث
يتغلب كل فرد على سلفه لكي يتغلب عليه خلفه . بدون سباق العدو
هذا والمسمى بالتاريخ قد لا يكون هناك أي نوع من الفن الأوروبي
ولا ما يصوره : الرغبة في الأصالة والتغيير . إن " رويسير " و " بيتهوفن .
" و " ستالين " و " بيكاسو " ما هم إلا متسابقون في سباق العدو
ويتمون لنفس الملعب " .

سأل مادفياد بسخرية باردة : " أينتمي " بيتهوفن " وستالين "
إلى بعضهما البعض ؟ " .

" بالطبع ، رغم أن هذا يروعك . إن الحرب والثقافة هما قطبا
أوروبا ، سماؤها ونارها ، مجدها وذلها ، ولكن لا يمكن فصلهما
عن بعض ، بانتهاء أحدهما ينتهي الآخر ولا ينتهي أحدهما بدون
أن ينتهي الآخر . أما عدم وجود حروب بأوروبا على مدى خمسين

عاما ، فمرجعه الخفى إلى أنه لم يظهر على مدى خمسين عاما بيكاسو آخر .

قال مادفياد بصوت شديد البطء كأنه رفع قبضته الثقيلة إلى أعلى وسيخبط بها فى اللحظة القادمة " سأقول لك شيئا يا بول ، إذا كانت هذه هى نهاية الحضارة الكبيرة فهى أيضا نهاية لأفكارك المفارقة ، حيث إن مفارقة كهذه تنتمى إلى حضارة كبيرة لا إلى ثرثرة أطفال . أنت تذكرنى بالشباب الذين انضموا فى وقت من الأوقات إلى النازيين أو الشيوعيين لا عن جبن أو مطمع فى سلطة ولكن من فيض الذكاء . فلا شىء يتطلب أداء أقوى للتفكير أكثر من جدال يجد العذر لسيطرة اللا تفكير . لقد أمكننى معاشة هذا شخصيا بعد الحرب عندما أخذ المثقفون والفنانون فى الانضمام كالماشية إلى الحزب الشيوعى الذى قام بعد ذلك وبصورة منظمة بتصفية الجميع بسعادة كبيرة . . أنت تفعل الشىء نفسه . فأنت حليف بارع لتعهدى دفنك .

الحمار الكبير

صدر صوت برنارد المعروف لهم من جهاز الراديو الترانزيستور الموجود بين رأسيهما ، كان يتحدث مع ممثل سيكون العرض الأول لفيلمه فى الأيام القادمة . وقد أيقظهم صوت الممثل العالى من حالة نصف النعاس :

" لقد جئت لأتحدث معك عن الفيلم لا عن ابنى " .

قال برنارد " لا تخف ، سيأتى الدور للحديث عن الفيلم ، إن هذه هى متطلبات الواقع . توجد أصوات تقول إنك شخصيا لعبت دوراً ما فى فضيحة ابنك " .

" عندما دعوتنى إلى هنا قلت لى تحديداً إنك تريد أن تتحدث معى عن الفيلم . والآن ستتحدث معى عن الفيلم لا عن حياتى الشخصية " .

" أنت شخصية عامة وأنا أسألك عما يهم الرأى العام . ولا أفعل إلا ما تمليه على مهنة الصحافة " .

" أنا على استعداد أن أستمع إلى أسئلتك المتعلقة بالفيلم " .

" كما تريد ، ولكن المستمعين سيتساءلون لماذا ترفض الإجابة " .

نهضت أجنس من الفراش . استيقظ بول بعد أن ذهبت أجنس إلى العمل بربع ساعة ، ارتدى ملابسه ثم نزل إلى البواب لإحضار البريد ، إحدى الرسائل كانت من " مادفياد " . أبلغه في عبارات مسهبة اختلطت فيها السخرية بالاعتذار : لقد انتهى عمل بول بالإذاعة .

قرأ بول الرسالة أربع مرات ثم هز يده وذهب إلى المكتب . ولكنه لم يفعل شيئاً ، فلم يستطع التركيز ، كان يفكر فقط في تلك الرسالة . أعتبر هذه الواقعة هزيمة كبيرة له ؟ من الناحية العملية ليست هزيمة على الإطلاق . ولكنه تألم لذلك . لقد هرب طيلة حياته من مجتمع المحامين ، كان سعيداً وهو يعقد ندوته في الجامعة ، كان سعيداً وهو يتحدث في الإذاعة . لا لأن مهنة المحاماة لم تكن تعجبه ، بل كان على العكس يحب موكليه ، حاول فهم جرميتهم وإيجاد منطق لها ، فكان يقول ساخرًا ، ؛ لست محامياً ولكني شاعر المرافعة ؛ ، كان يقف متعمداً إلى جانب الأشخاص الخارجين على القانون ويعتبر نفسه (بدون غرور يذكر) خائناً ، من الطابور الخامس ، أحد أفراد المقاومة الشعبية من أجل الإنسانية في عالم القوانين غير الآدمية التي تملأ حواشيها الكتب الضخمة والتي حملها بين يديه بنفور العالم المحنك . كان يهمله أن يظل على علاقة مع الناس خارج ساحة القضاء ، مع الطلبة والأدباء والصحفيين حتى يظل على قناعة (وليس مجرد وهم) أنه ينتمي إليهم . تمسك بهم ، وتألم من خطاب «مادفياد» الذي سيجبره على العودة إلى مكتبه وإلى ساحات القضاء .

شيء آخر أثر فيه . فعندما لقبه « مادفياد » أمس بحليف متعهدى دفنه اعتبر هذا مجرد إهانة ظريفة ليس لها أى مضمون محدد . ولم يستطع أن يتخيل أى شيء تحت مسمى « متعهدى الدفن » . لم يكن يعرف أى شيء حيثئذ عن « متعهدى دفنه » . ولكن اليوم عندما تسلم خطاب « مادفياد » بدا واضحاً أن متعهدى الدفن موجودون ، وأنهم قد نالوا منه ويتظرون .

أدرك فجأة أن الآخرين يرونه بصورة تختلف عن تلك التى يراها هو أو يعتقد أن الآخرين يرونه بها . فالوحيد من بين العاملين بمحطة الإذاعة الذى كان عليه مغادرتها كان هو ، على الرغم (ولم يكن يشك فى ذلك) من أن « مادفياد » دافع عنه قدر استطاعته . ما الذى أثار حفيظة رجال الإعلانات تجاهه ؟ قد يكون ساذجا إذا اعتقد أنهم وحدهم الذين وجدوه غير مقبول . فمن الضرورى أن أشخاصاً آخرين يرونه كذلك غير مقبول . شيء ما كان يجب أن يحدث لصورته ولم يكن يعرفه . شيء ما كان لابد أن يحدث ولا يعرف ما هو ولن يعرفه مدى الحياة . لأن هكذا هو الحال ويسرى على الجميع ، فلن نعرف ما حيننا لماذا وبماذا نستثير الآخرين ، ما الذى يجعلهم يحبوننا وما الذى يجعلهم يضحكون علينا . إن صورتنا تعتبر بالنسبة لنا واحدة من أكبر الأسرار .

كان بول يعرف أنه لن يكون قادراً على التفكير فى شيء آخر ، ولهذا رفع سماعة الهاتف ، ودعا برنارد إلى طعام الغداء فى المطعم .

جلسا متقابلين وبول يحترق شوقا إلى أن يتحدث عن الخطاب الذى تسلمه من « مادفياد » ، ولكن لأنه كان قد تربى تربية جيدة قال له فى بادئ الأمر ، « لقد استمعت إليك صباح أمس . لقد طاردت ذلك الممثل مثل الأرنب » .

قال برنارد : « أعرف ذلك ، قد أكون بالغت فى ذلك . ولكن كان مزاجى سيئا ، فقد جاءتنى زيارة لن أنساها . جاءنى رجل مجهول . رأسه أكبر من رأسى ، منتفخ البطن ، قدم لى نفسه ثم ابتسم ابتسامة خطيرة ولطيفة وقال : « يشرفنى أن أسلمك هذه الشهادة » ثم وضع فى يدي أنبوبة من الورق المقوى وأصر أن أفتحها أمامه . كان بها شهادة مكتوب فيها بالألوان ويخط رائع : لقد تم تعيين برنارد برتراند حمارا كبيرا » .

انفجر بول فى الضحك قائلاً : « ماذا ؟ » ولكنه سرعان ما تمالك نفسه عندما رأى وجه برنارد وقد بدا جامداً وجاداً ولم يظهر عليه أية علامة للمزاح .

"نعم" كرر برنارد بصوت صارم " لقد تم تعيينى حمارا كبيرا .

" ومن عينك ؟ هل يوجد اسم مؤسسة ما ؟ "

" لا يوجد ، مجرد توقيع غير مقروء " .

قام برنارد بوصف ما حدث عدة مرات ثم أضاف : " فى البداية لم أصدق عينى . شعرت أننى ضحية محاولة اغتيال وأردت أن

أصرخ وأن أستدعى الشرطة . ولكن سرعان ما أدركت أنني لا يمكنني فعل أي شيء . كان هذا الشاب يتسم ومد لي يده قائلاً : اسمح لي أن أهنتك " وكنت مرتبكاً لدرجة أنني صافحت يده الممدودة " .

قال بول وقد حبس الضحك بصعوبة " أنت صافحت يده ؟ أشكرته فعلاً ؟

" عندما أيقنت أنني لا أستطيع وضع هذا الشاب في السجن ، أردت أن أثبت أنني لا أبالي بالأمر وتصرفت كما لو أن كل ما يحدث شيء عادي جداً ولا يعني في شيء " .

قال بول : " هذا أمر بديهي ، فعندما يعين الإنسان حماراً يبدأ في التصرف كالحمار " .

قال برنارد " هو كذلك للأسف " .

" ألا تعرف من هو هذا الشاب ؟ ألم يقدم لك نفسه ! " .

" كنت في شدة الانفعال ونسيت على الفور هذا الاسم " .

لم يتمكن بول من أن يمنع نفسه من الضحك مرة أخرى .

قال برنارد : " نعم ، أعرف أنك تقول إن هذه مزحة ، بالطبع معك حق ، فهذه مزحة ، ولكني ، لا أعرف ماذا أفعل ، وأنا أفكر في الأمر منذ ذلك الحين ولا أستطيع أن أفكر في شيء آخر " .

توقف بول عن الضحك لأنه أدرك أن برنارد يقول الحقيقة : بلا شك لم يفكر منذ أمس فى شئ آخر . كيف كان سيتصرف بول إذا تسلم شهادة كهذه ؟ كان سيتصرف تمامًا كما فعل برنارد . فعندما تعين حمارًا كبيرًا فهذا يعنى أن شخصًا واحدًا على الأقل يراك كالحمار ويهمه أن تعرف هذا . هذا الأمر فى حد ذاته سيئ جدًا . ولكن من المحتمل أن هذا ليس فردًا واحدًا بل يقف وراء هذه الشهادة مبادرة من عشرات الأشخاص . ومن الممكن أيضا أن هؤلاء الناس يعدون لشئ آخر ، بأن يرسلوا مثلاً الخبر إلى الصحافة وسيظهر غداً فى جريدة "ليموند" خبر فى صفحة الوفيات والزواج والمجاملات إعلان يقول أنه تم تعيين برنارد حمارًا كبيرًا .

ثم أخبره برنارد (ولم يدر بول إن كان عليه أن يضحك أم يبكى من أجله) أنه فى نفس اليوم الذى سلمه الرجل المجهول الشهادة قام بعرضها على كل من قابله . يرد أن يكون وحيداً فى معابته . حاول أن يضم إليها الآخرين ولذلك شرح للجميع أنه ليس هو المقصود وحده بالهجوم بصفة شخصية : " لو كنت أنا وحدى المقصود به لكانوا أحضروها إلى بيتى أو أرسلوها على عنوانى . ولكنهم أحضروها إلى الإذاعة ! إنه هجوم على كصحفى ! هجوم علينا جميعا ! " .

قطع بول اللحم فى الطبق وشرب الويسكى ثم قال لنفسه : " هنا إذن يجلس صديقان : أحدهما يسمى حمار كبير والثانى حليف

بارع لمتعهدى دفنه . ثم أدرك (وقد ثما فيه نتيجة لذلك شعور كبير
بمناصرة صديقه الأصغر منه) أنه لن يدعوه بينه وبين نفسه بـرنارد بعد
الآن ، ولكن سيلقبه فقط بالحمار الكبير . وليس هذا عن سوء نية ،
ولكن لأنه لا يستطيع أى شخص مقاومة مثل هذا اللقب الجميل ،
وكل من عرض عليهم بـرنارد الشهادة وهو منفعل بلا وعى لن يلعبه
بغير ذلك . وخطر له أيضا أن ما فعله " مادفياد " كان فى غاية
اللطف بأن لقبه بحليف متعهدى دفنه البارع فقط أثناء الحديث
عند الطاولة .

لو كان كتب هذا فى شهادة تعيين لكان الأمر أكثر سوءا .
وهكذا جعلته مصيبة بـرنارد ينسى همه . وعندما قال له بـرنارد :
" لقد حدث لك أنت أيضا شىء مزعج " لوح فقط بيده وقال " إنه
حادث طارئ " ، أكد بـرنارد على كلامه قائلاً : " لقد قلت على
الفور إن هذا لا يمكنه أن يؤذيك بأية حال . فيمكنك أن تفعل آلاف
الأشياء الأخرى الأفضل " .

قال بول بيأس كبير بينما بـرنارد يرافقه إلى السيارة : " أخطأ
مادفياد الإيميجولوجيون على حق . ليس الإنسان إلا صورة .
فالفلاسفة يمكنهم أن يقولوا لنا أنه لا يهم ما يقوله العالم عنا
ولا يسرى سوى ما نحن عليه . ولكن الفلاسفة لا يفهمون شيئا .
ومادما نعيش بين الناس ، فلسنا سوى ما يراه الناس فينا . إن التفكير
فى الصورة التى يراها فينا الآخرون ومحاولة أن تكون صورتنا أكثر

عاطفية يعتبر نوعاً من التكلف أو اللعبة المزيفة . ولكن هل توجد علاقة مباشرة بين ذاتى وذات الآخرين من دون الحاجة إلى العين ؟ وهل الحب ممكن بدون أن نتابع بقلق صورتنا فى خيال من نحبه ؟ إن اللحظة التى نتوقف فيها عن الاهتمام بالصورة التى يرانا بها من نحبه تعنى أننا لم نعد نحبه " .

أجاب برنارد بصوت صارم : " تلك هى الحقيقة " .

" إنه لوهم ساذج أن نعتقد أن صورتنا مجرد هيئة تختفى وراءها ذاتنا كجوهر حقيقى وحيد مستقل عن عيون العالم . لقد كشف الإيميجولوجيون بكل ما تحتويه طريقتهم الراديكالية الساخرة أن الأمر على العكس من ذلك : إن ذاتنا مجرد هيئة لا يمكن الإمساك بها ولا يمكن وصفها ، هيئة غامضة ، بينما الحقيقة الوحيدة الملموسة والتى يمكن وصفها بسهولة وبدرجة كبيرة هى صورتنا فى عيون الآخرين . وأسوأ ما فى الأمر أنك لست سيد هذه الصورة . إنك تحاول فى بداية الأمر أن ترسمها بنفسك ترغب بعد ذلك على الأقل أن تؤثر فيها وتسيطر عليها ، ولكن هباء : فىكفى تشكيل خيىث وتتغير إلى مجرد رسم ساخر محزن إلى الأبد " .

توقفا عند السيارة ورأى بول أمامه وجه برنارد وقد صار أكثر قلقا وشحوبا . منذ لحظة كان عنده الإرادة أن يسرى عن صديقته ولكنه يرى الآن أنه قد أصابه بكلماته . أسف بول لهذا ، لقد ترك نفسه

تجره إلى تأملاته فقط بسبب أنه فكر في نفسه وفي حاله لا في حال برنارد . ولكنه لم يكن ليصلح في الأمر شيئاً .

ودع كل منهما الآخر وقال له برنارد في تردد واضح : " من فضلك لا تقل هذا لا للورا ولا لأجنس " .

صافح بول يده بحرارة وقال : " يمكنك الاعتماد على " .

عاد إلى مكتبه وشرع في العمل . أسره اللقاء ببرنارد بصورة غريبة وأحس بتحسن عما كان قبل الظهيرة . في المساء التقى في البيت بأجنس . حكى لها عن الرسالة وأكد لها على الفور أن الأمر برمته لا يعنيه في شيء . حاول أن يقول هذا وهو يضحك ، غير أن أجنس لاحظت أن بول بين الكلمات والضحك يسعل . كانت تعرف هذا السعال . كان يجيد التحكم في نفسه عندما يحدث له مكروه ، إلا إنه كان يتتبع هذا السعال القصير المتذبذب الذي لم يكن هو نفسه يلاحظه قالت أجنس : " أرادوا أن يجعلوا البث الإذاعي أكثر تسلية وشباباً " . كانت تحمل كلماتها سخرية موجهة إلى من أوقفوا برنامج برنارد . ثم ملسست على شعره . لكن لم يكن عليها أن تفعل كل هذا . لقد رأى بول في عينيها صورتها : صورة إنسان ذليل حكم عليه أنه لم يعد شاباً ولا مسلياً .

القطة

يتطلع كل منا إلى تخطي التقاليد والمحرمات الغرامية ، وإلى أن يدخل مغشياً عليه إلى مملكة الممنوع . وليس لدى كل فرد الشجاعة الكافية لهذا . . . فمن الممكن النصح بوجود عشيقة أكبر في السن أو عشيق صغير كأحد الأساليب الأكثر سهولة والمتاحة للجميع لتخطي التحريم . كان لاورا عشيقاً لأول مرة في حياتها يصغرها سنّاً برنارد ، كانت أول عشيقة له تكبره سنّاً ، وقد مارس كلاهما هذا كمعصية مشتركة مثيرة .

عندما أعلنت لاورا يوماً ما أمام بول أنها مع برنارد قد صغرت عشرة أعوام كان هذا حقيقياً : فقد سرت فيها موجة من الطاقة الجديدة . ولكنها لم تشعر لذلك أنها أصغر منه ! على العكس ، لقد تذوقت سعادة لم تعرفها من قبل وهى لديها حبيب أصغر منها سنّاً يعتبر أضعف منها ، أصيب برهبة حيث يعتقد أن حبسيته المجربة سوف تقارن بينه وبين من سبقوه . إن الأمور فى الغرام مثلها مثل الرقص : دائماً ما يقود أحدهما الآخر . لاورا تقود لأول مرة فى حياتها رجلاً ، والقيادة كانت بالنسبة لها خلافة شأنها شأن الانصياع بالنسبة لبرنارد .

إن ما تعطيه المرأة الأكبر سناً للرجل الذى يصغرها هو الثقة فى أن حبهم يجرى بعيداً عن فخ الزوجية ، لأنه لا يمكن لأحد أن يعتقد جاداً أن الرجل الشاب الذى تمتد أمامه على المدى حياة ناجحة قد تزوج من امرأة تكبره بثمانية أعوام . فى هذا الاتجاه لم ير برنارد لاورا كما رأى بول السيدة التى رفعها بعد ذلك إلى منزلة الحجر الكريم لحياته ؛ فقد توقع أن عشيقته تضع فى اعتبارها أنها ستتنازل ذات يوم طواعية للمرأة الأصغر منها سناً ، المرأة التى سيكون فى استطاعة برنارد أن يقدمها لوالديه بدون أن يضعهما فى أى مأزق . حتى إنه كان يحلم ثقة منه فى حكمتها كأم أنها ستذهب يوماً ما للشهادة على زواجه ، وتخفى عن العروس أنها كانت عشيقته (ويمكن أن تظل بعد ذلك ، لم لا ؟) فى وقت من الأوقات .

استمرت علاقتهما سعيدة لمدة سنتين . ثم تم تعيين برنارد حماراً كبيراً ، وأصبح لا يتكلم . لم تكن لاورا تعلم بأمر الشهادة (فقد حافظ بول على كلمته) ، ولأنها لم تتعود أن تسأله عن عمله لم تكن تعرف شيئاً عن متاعبه الأخرى التى قابلته فى الإذاعة (فكما هو معروف فالتعجب لا تسير أبداً وحدها) ، ولذلك فقد فسرت صمته بأنه لم يعد يحبها ، وقد أصابه الصمت عدة مرات ولم تكن تعرف ماذا تقول له ، كانت على ثقة أنه يفكر فى هذه الأوقات فى سيدة أخرى . عجباً ، ففى الحب يكفى القليل لكى يصاب الإنسان باليأس ! .

جاءها يوماً ما غارقاً من جديد فى أفكاره السوداء . انطلقت إلى الغرفة المجاورة لتغيير ملابسها ، أما هو فظل فى غرفة الصالون بمفرده مع القطة " السيامى " الكبيرة . لم يظهر تجاهها أى تعاطف ولكنه كان يعرف أن حبيته لا تسمح بأن يؤذيها أحد . جلس إذن فى المقعد واستسلم للأفكار السوداء ثم وضع يده على القطة معتقداً أن عليه أن يمسد عليها ، لكن القطة انتفضت ونهشت يده . وصارت العضة على الفور واحدة من سلسلة المصائب التى كانت تلاحقه فى الأسابيع الأخيرة وتحط من قدره ، ولذلك انتابه غضب شديد وقفز من على المقعد وانحنى عليها . قفزت القطة إلى أحد الأركان وأحنت ظهرها وأخذت تموء بصوت شديد .

استدار فرأى لاورا . كانت تقف على عتبة الباب ، كان واضحاً أنها تابعت المشهد كله . قالت لاورا : " لا ، لا يحق لك أن تعاقبها . لقد كانت محقة تماماً " .

نظر إليها فى ذهول ؛ لقد سببت له العضة ألماً وكان ينتظر من حبيته إن لم يكن تحالفاً مع حبيبها ضد القطة فعلى الأقل بدافع الشعور الأساسى للعدل . كانت عنده رغبة عارمة أن يذهب إلى القطة ويضربها ضرباً مبرحاً حتى تقع من كثرة الصفعات على أرض الصالون . إلا أنه تمالك نفسه بصعوبة كبيرة .

أضافت لاورا مؤكدة على كل كلمة : " إنها تريد أن يركز من يربت عليها جيداً . أنا أيضا لا أحب أن يكون معى شخص ما وفى الوقت نفسه يفكر فى شىء آخر " .

عندما كانت تراقب برنارد منذ لحظة وهو يربت على القطة التى ردت بصورة عدائية على انشغاله وتشتته ، شعرت بتضامن شديد معها . منذ عدة أسابيع وبرنارد يتعامل معها بالطريقة نفسها . يضع يده عليها وهو يفكر فى شىء آخر ، يتظاهر بأنه معها وهى تعرف أنه لا يسمع ما تقوله .

بدا للاورا أن ذاتها الثانية المبهمة والرمزية والمتمثلة فى قطتها تريد أن تثيرها ، وتشير عليها بما يجب فعله وأن تصير قدوة لها . قالت لاورا لنفسها إنه توجد أوقات من الضرورى فيها إظهار الأظافر ، وقررت أن تجدد أخيراً الشجاعة لعمل حاسم ، وذلك أثناء العشاء الودى فى المطعم الذى سيذهبان إليه بعد قليل .

سأسبق الأحداث وأقول هذا صراحة : من الصعب تصور قرار أكثر غباء من قرارها . إن ما أرادت عمله كان ضد كل رغباتها تماماً . ويجب أنؤكد أن العامين اللذين قضياهما معاً كان برنارد سعيداً معها ، وربما أسعد مما تتوقع لاورا . كانت بالنسبة له مهرباً من الحياة التى أعدها والده له منذ الطفولة ، صاحب الاسم الشجى برتراند برتراند . استطاع أخيراً أن يعيش حراً ، وكما يتمنى ،

استطاع أن يكون له ركنه الخفى الذى لا يدخل فيه أحد من أفراد أسرته أنفه المتطفل . الركن الذى يعيش فيه بصورة مختلفة تمامًا عما اعتاد عليه . أحب بوهيمية لاورا والبيانو الذى كانت أحيانًا تعزف عليه ، والحفلات الموسيقية التى أخذته إليها ، أحب حالاتها المزاجية وأحب تطرفها . وجد نفسه معها بعيدًا عن المترفين والمملين الذين كان والده يتعامل معهم . وبالطبع كانت سعادتهما مشروطة بشيء واحد : أن يظلا فى حياة العريضة . فلو كانا زوجين لتغير كل شيء على الفور : ولكانت علاقتهما معرضة لتدخلات أسرته ، ولكان حبهما قد فقد ليس فقط سحره ولكن أيضا معناه . ولكانت لاورا فقدت سلطتها كاملة والتى تمارسها على برنارد حتى الآن .

كيف أمكنها أن تتخذ رغم كل ذلك قرارًا غيبًا كهذا ، قرارًا ضد كل رغباتها ؟ هل وجدت عشيقها بهذا السوء ؟ ألم تفهمه إلى هذه الدرجة ؟ .

نعم ، رغم أن هذا يبدو غريبًا ، لم تعرفه ولم تفهمه . إنها كانت فى آخر الأمر فخورة بأنها لا يعجبها فى برنارد سوء علاقتهما الغرامية . فلم تسأله على الإطلاق عن والده . ولم تعرف شيئًا عن أسرته . وحتى عندما كان أحيانًا يتحدث عنها كان يصيبها الملل بصورة غريبة ، وتعلن أنها لا تريد أن تضيع الوقت الذى تهتم فيه ببرنارد فى كلام فارغ . ولكن الأغرب من ذلك أنه حتى فى أسابيع الشهادة التى التزم فيها الصمت واعتذر لها أن عنده مشاكل ، كانت

دائماً تقول له : " نعم ، فأنا أعرف كما هو صعب أن يكون لديك مشاكل " ، ولم تطرح عليه مطلقاً أبسط الأسئلة المنطقية : من أى المشاكل تعاني ؟ ماذا يحدث بالضبط ؟ قل لى مم تعاني ! " .

إنه لأمر غريب : لقد كانت تحبه كالمجنونة ومع ذلك لم تهتم بشئونه . يمكننى القول : كانت تحبه بجنون ولذلك لم تهتم بشئونه . فلو لمناها على إهمالها واتهمناها أنها لا تعرف حبيبها فلن تفهمنا . فلم تكن لاورا تعرف ما هو المقصود بأن تعرف شخصاً ما . لقد كانت فى هذه النقطة كالعذراء التى تعتقد أنها ستلد طفلاً لو بادلت حبيبها الكثير من القبلات . لقد كانت تفكر فى برنارد فى الفترة الأخيرة بلا انقطاع تقريباً . كانت تتخيل جسده ووجهه ، كانت تشعر أنها معه باستمرار وأنه متغلغل فيها ، ولذلك كانت واثقة أنها تعرفه عن ظهر قلب وأنه لم يعرفه أحد على الإطلاق قبلها كما تعرفه هى . إن شعور الحب يمنحنا جميعاً وهماً كاذباً بالمعرفة .

بعد هذا الإيضاح قد يمكننا أخيراً أن نصدق أنها قالت له وهما يتناولان قالب الحلوى (ويمكننى أن أقول معتذراً أنهما قد شربا زجاجة من الكحول وكأسين من الكونياك ، ولكنى على ثقة أنها كانت ستقول هذا حتى إن لم تكن سكرانة) : " تزوجنى يا برنارد ! " .

إيماءة اعتراض على انتهاك حقوق الإنسان

غادرت بريجيتا درس اللغة الألمانية وقد قررت نهائيا أن تترك الدراسة . أولاً لأنها لم تكن ترى أية جدوى قد تعود عليها من دراسة لغة " جوته " (فقد دفعتها أمها لدراستها) ، ثانياً لأنها شعرت بنفور كبير من اللغة الألمانية . فهذه اللغة أثارت حفيظتها لأنها لغة غير منطقية . فاليوم استفزت بالفعل ؛ فحرف الجر ohne (بدون) تأتي معه حالة النصب ، وحرف الجر mit (مع) تأتي معه حالة المفعول به غير المباشرة . لماذا ؟ فكلا الحرفين يعبران عن المعنى السلبي والمعنى الإيجابي لنفس العلاقة ، ولذلك من المفروض أن تأتي معهما نفس الحالة الإعرابية . أعربت عن اعتراضها هذا لأستاذها الألماني الشاب الذي أسقط في يده وانتابه على الفور شعور بالذنب ، كان رجلاً لطيفاً ورقيقاً ، وكان يعاني من أنه من مواطني الشعب الذي حكمه " هتلر " . وبرغبة منه في أن يرى في وطنه كل العيوب من على الفور أنه لا يوجد سبب وجيه لأن يرتبط حرفا الجر mit و ohne بحالتين إعرابيتين مختلفتين .

" أعرف أن هذا غير منطقي ، ولكن العرف اللغوي قد تكون بهذه الصورة على مدى قرون " ، قال وكأنه أراد أن يطلب الرحمة من الشابة الفرنسية للغة لعنها التاريخ .

قالت بريجيتا : " أنا سعيدة أنك اعترفت بهذا . فهذا ليس منطقيا . واللغة لابد أن تكون منطقية " .

قال الشاب الألماني : " ليس عندنا للأسف : " ديكارت " . وهذا يعتبر فجوة كبيرة في تاريخنا ، وليس لألمانيا موروث من العقل والوضوح ؛ فهي بلد ملئ بغشاوة الميتافيزيقا وموسيقى " فاجنر " وكلنا يعرف أن " هتلر " كان من أكبر المعجبين بـ " فاجنر " .

لم تكن " بريجيتا " تهتم لأمر " هتلر " ولا " فاجنر " فواصلت فكرتها : " إن اللغة غير المنطقية يمكن أن يتعلمها الطفل لأنه لا يفكر . ولكن الشخص الأجنبي البالغ لا يمكنه أن يتعلمها على الإطلاق ، ولذلك فاللغة الألمانية لا تعتبر بالنسبة لى لغة عالمية " .

" معك كل الحق في ذلك " قال الشاب الألماني ثم أضاف بصوت منخفض " فعلى الأقل أنت تعرفين أنه كان من العبث الرغبة الألمانية في السيطرة على العالم ! " .

استقلت بريجيتا سيارتها وهي راضية عن نفسها ثم ذهبت لشراء زجاجة من الكحول من " فوشون " . أرادت أن توقف سيارتها في الموقف ولكن هذا لم يكن ممكنا ، فصفوف السيارات التي لا يوجد بينها أية مساحة فارغة قد طوقت الأرصفة على محيط كيلو متر ، ولما مرت ربع ساعة وهي تدور في المكان نفسه ، ملأتها دهشة مريرة من

عدم وجود مكان خال فى المنطقة ، فصعدت بالسيارة على الرصيف وأوقفتها هناك . غادرت السيارة واتجهت صوب المتجر . ومن بعيد رأت أن شيئا غريبا يحدث . أدركت الأمر عندما اقتربت .

كان مئات من الأشخاص العاطلين الذين يرتدون ملابس سيئة يتزاحمون حول وداخل متجر المواد الغذائية الشهير والمسمى " فوشن " حيث تباع فيه كل سلعة بسعر أعلى عشر مرات من نظيرتها من أى مكان آخر ، ولذلك يذهب إلى هناك للشراء كل من يسعد بدفع الأموال أكثر من الأكل . كانت هذه مظاهرة ذات طابع خاص ؛ لم يأت العاطلون عن العمل لتدمير أى شىء ولا لتهديد شخص ما ولا لترديد هتافات ما ، أرادوا فقط أن يربكوا الأغنياء وأن يحرموهم بحضورهم من تلوذهم بالمشروبات الكحولية والعزف على البيانو ، وبالفعل انتابت كل البائعين والزبائن ابتسامات مفاجئة وخفية ولم يتمكنوا من البيع ولا الشراء .

اندست " بريجيتا " إلى الداخل ، لم تكن البطالة تروق لبريجيتا ولم تكن كذلك تحمل أى ضغينة للسيدات اللاتى ترتدين الفراء ، طلبت بصوت مسموع رجاجة خمر " بوردو " . أدهش حزمها البائعة التى أدركت على الفور أن وجود العاطلين الذين لا يهددونهم بشىء ولن يمنعها من خدمة الزبونة بأية حال . دفعت بريجيتا ثمن الزجاجة ثم عادت إلى السيارة حيث انتظرها اثنان من رجال الشرطة وطلبا منها دفع غرامة .

بدأت تسبهما ، وعندما قالا إن السيارة كانت واقفة بطريقة غير صحيحة وأعاقت طريق الناس على الرصيف ، أشارت إلى صفوف السيارات الواقفة خلف بعضها متلاصقة وصرخت فيهما : " يمكن أن تخبرانى أين كان يمكننى أن أوقف السيارة ؟ مادام أن شراء السيارات مصرح به فلا بد تؤمنوا للناس مكانا لركن سياراتهم فيه ، أليس كذلك ؟ يجب أن تكونوا منطقيين ! " .

أنا أحكى هذا الموقف من أجل الوصول إلى هذا الموضوع : فى اللحظة التى صرخت فيها فى رجال الشرطة كانت بريجيتا تذكر المتظاهرين العاطلين عند متجر " فوشن " وأحست بتعاطف كبير معهم ، شعرت بأنها ترتبط بهم فى معركة مشتركة . زاد هذا من شجاعتها وجعلها ترفع صوتها ، ولم يعرف رجال الشرطة (الذين هم فى حيرة من أمرهم مثلهم مثل السيدات اللاتى يرتدين الفراء أمام أعين العاطلين) سوى تكرار على غير اقتناع وأبله لكلمات ممنوع ، غير مسموح ، النظام ، الانضباط ثم تركوها فى النهاية تمشى بدون غرامة .

أثناء المشاجرة حركت بريجيتا رأسها بحركات قصيرة وسريعة ورفعت ذراعيها وحاجبيها ، وعندما قصت الحكاية لوالديها فى البيت حركت أثناء ذلك رأسها بالحركة نفسها . لقد رأينا من قبل مثل هذه الإيماءة : فهى تعبر عن الدهشة المريرة من أن شخصا ما يريد أن

يرفض أبسط حقوقنا . فلنطلق على هذه الإيماءة اعتراض على انتهاك حقوق الإنسان .

إن مفهوم حقوق الإنسان يرجع إلى مائتي عام ولكن ذاعت سمعته ابتداء من النصف الثاني من خمسينات القرن العشرين . فقد تم طرد " اليكسندر سلوجانيتسين " فى ذلك الوقت من بلده وصار المثقفون الغرييون المصابون بالطموح إلى المصير الكبير الذى لم يبلغهم ، صاروا متيمين بشخصيته غير التقليدية التى ريتها لحيته والأغلال . بفضلله فقط صدقوا بعد خمسين عاما من التأخير أن فى روسيا الشيوعية توجد معسكرات اعتقال ، وحتى الأفراد التقدميون ظهر عندهم فجأة رغبة فى تقبل أن إلقاء القبض على شخص ما بسبب اعتقاده ليس عدلا . ووجدوا لموقفهم الجديد سبباً وجيهاً : لقد انتهك الروس الشيوعيون حقوق الإنسان ، على الرغم من إعلان الثورة الفرنسية لها فى صورة احتفالية ! .

وهكذا وبفضل " سلوجانيتسين " استقرت حقوق الإنسان من جديد فى قاموس عصرنا ، وأنا لا أعرف سياسياً واحداً لا يتحدث عشر مرات يومياً عن " الدفاع عن حقوق الإنسان " أو عن " إنكار حقوق الإنسان " إن الناس فى الغرب لا تهددهم معسكرات الاعتقال ويمكنهم أن يقولوا ويكتبوا ما يشاءون ، وهكذا كلما اكتسب الدفاع عن حقوق الإنسان مزيداً من الشعبية أفرغ من معناه الحقيقى

حتى صار موقفاً عاماً للجميع ضد الجميع ، صار قوة تحول جميع رغبات البشر إلى حقوق . صار العالم حقاً للإنسان وصار كل شيء حقاً : صارت الرغبة فى الحب حقاً فى الحب والرغبة ، فى الراحة حقاً فى الراحة ، والرغبة فى الصداقة حقاً فى الصداقة ، والرغبة فى تجاوز السرعة المقررة حقاً فى تجاوز السرعة المقررة ، والرغبة فى السعادة حقاً فى السعادة ، والرغبة فى إصدار كتاب حقاً فى إصدار كتاب والرغبة فى الصراخ فى الميدان ليلاً حقاً فى الصراخ فى الميدان . فالعاطلون لهم الحق فى احتلال متجر المواد الغذائية الغالية ، السيدات اللاتى يرتدين الفراء لهن الحق فى شراء البيانو . بريجيتا لها الحق فى أن توقف سيارتها على الرصيف ، وينتمى الجميع ، العطالون والسيدات المرتديات الفراء وبريجيتا إلى نفس الجيش من المدافعين عن حقوق الإنسان .

جلس بول فى المقعد المواجه لابنته وأخذ ينظر فى إعجاب إلى رأسها التى تهزها أفقياً فى إيقاع سريع ، كان يعرف أن ابنته معجبة به ، وكان هذا بالنسبة له أهم من إعجاب أجنس به . لقد أعطته عيون ابنته المعجبة ما لم تستطع أجنس أن تعطيه له : شهادة بأنه لم يتخط مرحلة الشباب وأنه مازال يعد من الشباب . لم تمر ساعتان على اللحظة التى ملست فيها أجنس على شعره وهى متأثرة بسعاله . كم كان محبباً إلى قلبه النظر إلى حركة رأس ابنته أكثر من المغازلة المهينة ! لقد كان وجود ابنته بمثابة حاشدة الطاقة التى استمد منها قوته .

عصرى بمعنى الكلمة

آه يا صديقى بول ، ، يا من أراد أن يتحرش بـ " مادفياد " ويزعجه ، يا من أراد أن يشطب التاريخ و " بيتهوفن " و " بيكاسو " . . . إن هذا يذكرنى بشخصية " يارومير " فى الرواية التى كتبها منذ عشرين عاما كاملة والتى سأتركها للأستاذ " أفيناريوس " فى حانة صغيرة بشارع " مونت بارناس " فى أحد الفصول القادمة .

نحن الآن فى براغ فى عام ١٩٤٨ و " يارومير " البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً مولع حتى الموت بالشعر الحديث وبـ " بریتون " و " إلوار " و " ديسنوس " و " نيرفال " ويؤمن على طريقتهم بالجملة التى كتبها " ريمبو " فى مجموعة " موسم فى الجحيم " : " من الضروري أن تكون عصريا تماما " . إلا أن ما أعلن فى براغ فجأة فى عام ١٩٤٨ أنه عصرى تماما لم يكن سوى ثورة اشتراكية ضربت على الفور وبوحشية بالفن الحديث عرض الحائط ، الفن الذى كان " يارومير " متيمًا به حتى الموت . عندما تخلى ساخرا بطل قصتى فى المجتمع الذى يكونه عدة أصدقاء (كانوا تماما مثله متيمين بالفن الحديث حتى الموت) عن كل ما أحبه (كل ما أحبه من كل قلبه بكل معنى الكلمة) ، لأنه لم يرغب فى أن يخون مبدأه الأعلى

بأن يكون " عصريا تماما " . ضمن رفضه كل غضبه ، وتلهف الولد صغير السن ، الذى يشتاق من خلال عمل وحشى إلى أن يدخل فى سن البلوغ ، وعندما رآه أصدقاؤه يرفض بعناد كبير كل ما هو غال عنده وكل ما عاش له وأراد أن يحيا من أجله ، رأوه يرفض مذهب التكميلية والسريالية و " بيكاسو " و " دالى " وبريتون " و " ريمباود " رأوه يرفض كل هذا باسم " لينين " والجيش الأحمر (الذين شكلوا فى هذا الفترة قمة الحداثة الممكنة) انقبض صدرهم وانتابتهم فى بادئ الأمر الدهشة ثم الاشمئزاز والرعب . فالنظرة إلى هذا الغلام الصغير المستعد للتأقلم مع ما أعلن عنه أنه الحداثة وأن يعد نفسه لا عن خوف (باسم المصلحة الشخصية أو الوظيفة) ولكن عن شجاعة لكى يكون ذلك الإنسان الذى يضحى وقت الصعاب بما يحب ، نعم ، هذه النظرة احتوت فى داخلها حقيقة على الرعب (الذى كان مقدمة لرعب الإرهاب الذى تلى بعد ذلك ، الرعب من الاضطهاد والسجن) . من الممكن أن يكون قد دار فى رأس أحد هؤلاء الذين كانوا يراقبونه فكرة أن " يارومير هو حليف متعهدي دفته " .

بالطبع لا يوجد وجه شبه على الإطلاق بين " بول " و " يارومير " . إن الشيء الوحيد الذى يربطهما معاً هو فى الواقع قناعتهم الشديدة أنه " من الضروري أن تكون عصرياً " . إن مفهوم " عصري بمعنى الكلمة " يعتبر مفهوماً خالياً من أى محتوى

محدد أو معروف بشكل واضح . لقد كان " ريمباود " فى عام ١٨٧٢ بالكاد يتصور ، بناء على هذه الكلمات ، ملايين التماثيل النصفية لـ " لينين " و " ستالين " و قليلاً من الأفلام الدعائية والصور الملونة فى المجلات أو وجهاً شرساً لمغنى موسيقى الروك .

ولكن الأمر لا يكمن فى هذا ، فكونك عصرياً بمعنى الكلمة يعنى : أن لا تأخذ محتوى الحداثة فى الاعتبار وتقوم على خدمته كخدمتك للمطلق ، أى بدون أى جدال .

كان بول يعرف تماماً مثل يارومير أن الحداثة ستكون غدا مختلفة عن الحداثة اليوم ، وأنه سيكون من الضرورى بالنسبة لصيغة الأمر المخلدة للحداثة أن يتعلم خيانة محتواها المتغير ، وبالنسبة لشعار " ريمبو " أن يخون مقطعة الشعرى . ففى باريس عام ١٩٦٨ وفى مفردات كانت أكثر تطرفاً من تلك التى استعملها يارومير فى براغ عام ١٩٤٨ ، قام الطلبة بالتنكر للعالم بصورته التى هو عليها ، عالم السيطرة والرفاهية والتجارة ، عالم التجارة والثقافة الشمولية الغبية التى تجلس الناس على رؤوسهم بالميلودراما ، عالم التقاليد ، عالم الأب . لقد قضى بول وقتها عدة ليال عند الحواجز ، وكان لديه نفس الصوت الحاسم نفسه مثل يارومير الذى سبقه بعشرين عاماً ، ولم يدع أى شىء يلين من موقفه ، فخرج من عالم الآباء معتمداً على ساعده الذى قدمته له انتفاضة الطلبة ، خرج لكى يصير أخيراً شاباً ناضجاً وهو فى الثلاثين أو الخامسة والثلاثين من عمره .

ومضت الحياة بعدها وكبرت ابنته ، كانت سعيدة جدا فى العالم بصورته التى هو عليها ، عالم التلفزيون وموسيقى الروك والإعلانات والثقافة الشمولية وما بها من ميلودراما ، عالم المغنين والسيارات والموضة والمتاجر الغنية بالمواد الغذائية ورجال الأعمال المتأنقين الذين صاروا نجوماً فى التلفزيون . فإذا كان بول قادرا فى وقت من الأوقات على الدفاع عن آرائه بثبات أمام القضاة ورجال الشرطة والولاة والوزراء ، فهو غير قادر على الدفاع عنها أمام ابنته التى كانت تجلس على حجره ولم تكن تتعجل أن تترك عالم الأب وتصبح شابة ناضجة . على العكس أرادت أن تظل أطول وقت ممكن فى البيت مع أبيها المتسامح الذى كان يسمح لها (مع ملاطفتها) بأن تقضى الليل مع صديقها فى غرفتها المجاورة لغرفة نوم والديها .

ما هو المقصود بأن تكون عصرياً بمعنى الكلمة والإنسان لم يعد شاباً وابنته مختلفة تماماً عما كان هو فى شبابه ؟ لقد وجد بول الإجابة بسهولة : أن تكون عصرياً بمعنى الكلمة تعنى ، فى هذه الحالة ، أن يتفق تماماً مع ابنته .

أتخيل " بول " وهو يجلس فى المنزل مع " أجنس " و " بريجيتا " على العشاء . بريجيتا تجلس وهى مستديرة قليلا فى المقعد تمضغ اللبان وهى تنظر إلى شاشة التلفزيون . الثلاثة يجلسون صامتين لأن صوت التلفزيون عال جداً . تدور فى رأس بول باستمرار الجملة المشؤمة لـ " مادفياد " والذى لقبه بحليف متعهدى

دفنه . ثم قطعت أفكاره ضحكات ابنته : ظهر على الشاشة إعلان : طفل عار لم يكد يبلغ العام الأول من عمره يستيقظ من مخدعه ويجر خلفه منديل حمام ينسل من على الماسورة ويلف جسد الطفل وهو يمشى برداء أبيض كنطاق عروس رائع ، وهنا يتذكر بول أنه تأكد مؤخراً واندھش لأن بريجيتا لم تقرأ مطلقاً أية قصيدة لـ " ريمبولد " . ونظراً لأنه هو نفسه أحب وهو فى مثل سنها " ريمبولد " فيمكن أن يعتبرها إذن وله الحق فى هذا متعهدة دفنه .

إنه لمن المحزن له أن يرى فى هذا أن ابنته تضحك من قلبها على الأشياء التافهة بالتلفزيون ولم تقرأ فى حياتها لشاعره المفضل ، ولكن بول يطرح تساؤلاً : لماذا أحب " ريمبولد " إلى هذه الدرجة ؟ وكيف وصل إلى هذه الحب ؟ أكانت البداية هى الافتتان بأبياته ؟ كلا . لقد كون " ريمبولد " و " تروتسكى " و " بریتون " و " السريالين " و " ماو " و " كاسترو " بالنسبة له ثورياً واحداً . فأول ما عرفه من " ريمبولد " كان شعاره الذى قتله الجميع بحثاً : *Change la vie* : تغير الحياة . (كما لو كان من الضرورى لهذه الصيغة السخيفة شاعر نابغة . .) نعم ، فالحقيقة هى أنه قرأ بعد ذلك أشعاره وحفظ بعضها عن ظهر قلب وأحبها . ولكنه لم يقرأ أبداً كل قصائده وأحب منها فقط ما تحدث عنه معارفه الذين نوهوا عنها فقط لكى يوصوا بها معارفهم . لم يكن ريمبولد إذن يمثل له الحب الجمالى وربما لم يكن يملك أى حب جمالى على الإطلاق ، لقد أيده

كما تؤيد كتيبة عسكرية أو حزباً سياسياً أو فريق كرة القدم الذى نشجعه . ما الذى أضافته أشعار " ريمبولد " لـ " بول " إذن ؟ مجرد شعور بالفخر بأنه ينتمى إلى من يحبون أشعار " ريمبولد " .

وكان باستمرار يرجع إلى مناقشته الأخيرة مع " مادفياد " نعم ، لقد بالغ فى الأمر ، استهوته المفارقة ، تحرش بـ " مادفياد " والآخرين جميعاً ، ولكن مادام الأمر كذلك ، ألم يكن كل مقال حقيقة ؟ أليس كل ما يطلق عليه مادفياد " ثقافة " بكل هذا التبجيل يعتبر وهماً نخضع به أنفسنا ، شيئاً رغم جماله وقيمه الأكيدة إلا أنه يمثل لنا شيئاً أقل بكثير مما نستطيع الاعتراف به ؟

لقد حكى منذ عدة أيام لـ " بريجيتا " عن آرائه التى أدهشت مادفياد وحاول أثناء ذلك استعمال العبارات نفسها . أراد أن يعرف رد فعلها . لم تروعها الصياغة المستفزة وفضلاً عن ذلك كانت مستعدة للذهاب إلى أكثر من ذلك . كان هذا يعتبر أمراً مهماً بالنسبة لـ " بول " . ازداد ارتباطه بابتته أكثر فأكثر ، وأراد فى الأعوام الأخيرة أن يعرف رأيها فى كل مشاكله . فى بداية الأمر كان يفعل هذا لأسباب تربوية ، لكى يجعلها تفكر فى أمور مهمة ، ولكن سرعان ما تبدلت الأدوار بصورة غير ملحوظة : لم يكن كالمدرس الذى يشجع بأسئلته الطالب البليد ، ولكن كان يشبه الرجل المتشكك فى أمره وجاء لزيارة العرافة .

إن المرء لا يطلب من العرافة أن تكون حكيمة (فبول لا يبالغ في حكمه على موهبة ابنته ولا على ثقافتها) ولكن أن تكون مرتبطة بمصادر خفية بها ينبوع الحكمة بعيداً عنها . وعندما كان يستمع إلى بريجيتا وهى تعرض آراءها لم يكن يرجع هذه الآراء إلى شخصها ولكن إلى حكمة الشباب الجماعية التى تتحدث على لسانها ، ولذلك كان يتقبلها بمزيد من الثقة .

نهضت أجنس من على الطاولة وأخذت تجمع الأطباق وتحملها إلى المطبخ ، استدارت بريجيتا بالمقعد صوب شاشة التلفزيون ، أما بول فظل بمفرده عند الطاولة . أخذ يتخيل لعبة جماعية كان والداه يلعبانها ، فيها يمشى عشرة أشخاص فى شكل دائرى حول عشرة مقاعد وعليهم أن يجلسوا جميعاً بناء على إشارة معينة ، وعلى كل مقعد توجد لافتة ، كان مكتوب على المقعد الذى صار له : الحليف البارع لمعهدى دفنه ، وهو على علم بأن اللعبة قد انتهت وأنه سيظل جالساً إلى الأبد .

ما العمل ؟ لا شيء . لماذا لا يكون الإنسان حليفاً لمعهدى دفنه ؟ هل عليه أن يتشاجر معهم ؟ حتى يبصقوا بعد ذلك على تابوته ؟
سمع من جديد ضحكات بريجيتا وهنا خطر له تعريف جديد ، تعريف أكثر مفارقة وأكثر راديكالية . أعجبه هذا التعريف إلى درجة أنه تقريبا قد نسى حسنه . وكان هذا التعريف : أن تكون معاصراً بمعنى الكلمة يعنى أن تكون حليفاً لمعهدى دفنك .

ضحية الشهرة

لقد كان خطأ بكل المقاييس أن تقول لبرنارد " تزوجنى ! ؛ وبعد أن حصل على شهادة حمار كبير ، كان خطأ كخطأ " مونت بلانك " . علينا أن ندرك إذن أن ما يبدو من أول وهلة غير وارد تماماً وبدونه لا يمكننا أن نفهم برنارد : فلم يعان برنارد فى طفولته من أى مرض باستثناء الحصبة ، ولم يوجعه أى حادث وفاة باستثناء موت كلب صيد لأبيه ، ولم يعرف أى فشل فى حياته باستثناء بعض الدرجات السيئة فى الامتحانات ، لقد عاش على قناعة بديهية : أن السعادة من نصيبه ولا يعرف الجميع عنه سوى كل ما هو طيب . وكان تلقيبه بلقب حمار أول ضربة كبيرة أصابته . حدثت أثناء ذلك ظروف متشابهة بشكل غريب . ففى الوقت نفسه تقريباً بدأ الإيميجولوجيون حملة دعائية لمحطة الإذاعة التى يعمل بها وظهرت صورة ضوئية لفريق التحدى على لافتات كبيرة علقت فى جميع أنحاء فرنسا ؛ وقفوا جميعهم مرتدين القمصان البيضاء وقد طووا أكمامها ، ومن خلفهم سماء زرقاء وأفواههم مفتوحة : كانوا يتسمون . جابوا فى بادئ الأمر شوارع باريس منفعلين متفاخرين ، ثم بعد أسبوع أو أسبوعين من الاحتفال الذى لا غبار عليه جاءه نفس الرجل العملاق الأكرش وقدم له بابتسامة علبة من الورق المقوى وفيها شهادة .

فلو كان فى الإمكان أن يحدث هذا قبل أن تعرض صورته الفوتوغرافية على العالم كله لكان فى إمكانه أن يتحمل هذا بصورة أفضل . ولكن شهرة الصورة أعطت لفضيحة الشهادة نوعاً من الصدى ، لقد ضاعفت من الفضيحة .

إن ظهور إعلان فى جريدة " ليموند " يقول إن برنارد برتراند المغمور حصل على لقب حمار كبير شىء مختلف تماماً عن ارتباط الخبىر بشخص توجد صورته فى كل مكان . إن الشهرة تضيف إلى ما يحدث لنا صدى أكبر مائة مرة ، وإنه لأمر شاق أن تمشى بين الناس وترافقك الأصداء . لقد أدرك برنارد فجأة مكن مهاجمته وقال لنفسه إن الشهرة هى الشىء الأكيد الذى لم يسع إليه . إنه بالتأكيد سعى للنجاح ولكن النجاح والشهرة شيئان مختلفان تماماً . إن الشهرة تعنى أن يعرفكم العديد من الناس الذين لا تعرفونهم ، وهؤلاء يطالبونكم بحقوق ويريدون أن يعرفوا كل شىء عنكم ويتعاملون معكم كما لو كنتم ملكاً لهم . وبالطبع فإن الممثلين والمغنيين والسياسيين يشعرون بالنشوة كلما استطاعوا أن يعطوا الآخرين ما يريدون . ولكن برنارد لم يتمن هذه النشوة . فعندما أجرى لقاءه الأخير مع الممثل الذى تورط ابنه فى فضيحة مفرجة ، رأى وبسعادة كيف أن الشهرة تصير موطن ضعف للممثل ولبدء استطاع برنارد أن يمسه منها ويجره ولا يتركه . لقد تمنى برنارد دائماً أن يكون الشخص الذى يسأل وليس الشخص

الذى عليه أن يجيب . إن الشهرة هى للشخص الذى يجيب وليس الذى يسأل ، فوجه من يجيب يكون مضاء بالمصباح فى حين أن من يسأل يتم تصويره من الخلف ، فقد كان " نيكسون " تحت الأضواء وليس " وود ورد " فبرنارد لايسعى إلى شهرة من تحت الأضواء ولكن إلى قوة من فى الظل . فهو يسعى إلى قوة القناص الذى يصيب النمر ، وليس إلى شهرة النمر الذى يعجب به كل من سيستعمله كسجادة عند السرير .

إلا أن الشهرة ليست ملكاً فقط للمشاهير . فكل إنسان يمارس فى حياته نوعاً من الشهرة الصغيرة والقصيرة ويشعر للحظة على الأقل بما تشعر به " جريتا جاربو " و " نيكسون " والنمر المنسلخ من جلده . كان فم برنارد المفتوح يبتسم على جدران باريس ، وأحس أنه معروض فى سوق النخاسة : الجميع يراه ويتفحصه ويصدر عليه أحكاماً . عندما قالت له لاورا تزوجنى يا برنارد ! تخيلها تقف معه فى سوق النخاسة . وعندها وعلى الفور (لم يحدث له هذا من قبل على الإطلاق) رآها عجوزاً ومتهورة نوعاً ما بصورة غير مقبولة ومثيرة للضحك .

والغريب فى الأمر أنه لم يرغب فيها قبل الآن كرجبته هذه المرة ، فمن كل الغراميات الممكنة يظل غرامه بسيدة أكبر منه سناً الأكثر ضرورة له على الدوام بشرط أن يظل هذا الحب فى طي الكتمان ، وأن تكون هذه المرأة أكثر حكمة وتحفظاً ، فلو كانت لاورا قررت بدلاً من

دعوتها الغيبة للزواج أن تبنى من حبهما قلعة جميلة مترفة بعيداً عن العالم ، ولو خافت على برنارد . ولكنها رأت صورته الكبيرة فى كل مكان وعندما ربطتها بالتغير فى سلوكه وبوجهه الصامت وشروده قررت على الفور أن نجاحه قد ساق إليه بالمرأة الأخرى التى يفكر فيها باستمرار . ولأنها لم ترد أن تستسلم بدون مقاومة قامت بالهجوم .

تعرفون الآن لماذا تراجع برنارد ، فعندما يهاجم أحدهم فعلى الآخر أن يتراجع ، هذا هو القانون ، إن التراجع ، كما يعرف الجميع ، من أصعب المناورات العسكرية ، لقد قام برنارد بهذه المناورة بدقة عالم الرياضيات ؛ فإذا كان قد تعود حتى الآن أن يقضى عند لاورا أربع ليال فى الأسبوع فقد قام بتقليصها الآن إلى ليلتين ، وإذا كان قد اعتاد أن يقضى معها كل عطلات الأسبوع ، فهو الآن يقضى معها العطلة كل أسبوعين ، كان ينوى أن يواصل فى المستقبل مزيداً من التقليص . ويدا كقائد صاروخ فضائى يعود إلى محطة الإقلاع وعليه إذن أن يفرمل بشدة ، أخذ برنارد يفرمل بحذر وبعزم ثابت ، فى الوقت نفسه بدأت صديقته الحنون الفتاة تتلاشى من أمام عينيه ، وحلت محلها امرأة تتشاجر معه على الدوام ، امرأة فقدت الحكمة والنضج وصارت نشيطة بصورة مزعجة .

قال له مادفياد ذات مرة : « لقد تعرفت على خطيبتك » .

احمر وجه برنارد من الخجل .

واصل مادفياد حديثه : « تحدثت عن سوء تفاهم بينكما ،
إنها امرأة لطيفة ، كن ودودا معها أكثر من ذلك » .

ثارت ثائرة برنارد . كان يعرف أن مادفياد لن يتحدث إلا فيما
يعرفه ، ولم يكن يشك في أن كل الإذاعة قد علمت بأمر حبيبته .
إن مرافقته لامرأة تكبره سنا كان بالنسبة له ، حتى ذلك الوقت أمرا
محبباً ونوعاً من الشذوذ الجريء . ولكنه الآن على يقين أن زملاءه
لا يرون في اختياره سوى تأكيد جديد على غبائه .

" لماذا تشكينى للغرباء ؟ "

" من هم هؤلاء الغرباء ؟ "

" مادفياد "

" كنت أعتقد أنه صديقك . "

" وحتى لو كان صديقي ، لماذا تفشين له بأسرار حياتنا ؟ "

قالت بحزن : " أنا لا أخجل من حبي لك ، أم أن على ألا

أتكلم عن هذا ؟ أتخجل مني ؟ "

لم ينبس برنارد بكلمة . نعم ، كان يخجل منها . كان يخجل
منها رغم سعادته معها . ولكنه كان معها سعيداً في الأوقات التي كان
ينسى فيها أنه يخجل منها .

الصراع

استقبلت لاورا بصورة سيئة للغاية شعورها بأن سفينة الحب
الفضائية تبطئ من سرعتها .

" قل لى ماذا دهاك ا "

" لم يحدث لى أى شىء " .

" لقد تغيرت " .

" أريد الانفراد بنفسى "

" هل أصابك شىء ؟ "

" أعانى من مشاكل " .

" إذا كنت تعانى من مشاكل فهذا أدعى أن لاتكون بمفردك ،
فعندما يعانى الإنسان من مشاكل فهو فى حاجة إلى شريكه بجواره . "

ذهب يوم الجمعة إلى منزله فى الريف ولم يدعها . لحقت به يوم
السبت ولم تكن مدعوة ، كانت تعرف أنها لم يكن عليها أن تفعل ذلك ،
ولكنها اعتادت منذ زمن أن تفعل ما لايجب فعله وكانت فخورة بذلك ،
فمن أجل هذا كان الرجال يعجبون بها ، ويرنارد كان أكثرهم . كانت

أحياناً تنصرف فى منتصف الحفلة الموسيقية أو العرض المسرحى الذى لا يعجبها كنوع من الاعتراض وهى تحدث ضوضاء متفاخرة لدرجة أن الحضور كانوا ينظرون إليها باستنكار . وذات مرة عندما أرسل برنارد إليها فى المتجر خطاباً مع ابنة البوابة ، الخطاب الذى انتظرت به بشوق كبير ، أخذت من على الرف قبعة من الجلد تساوى على الأقل ألفى فرانك وأعطتها لفتاة السادسة عشرة كرد فعل لسعادتها . وفى مرة أخرى ذهبت معه إلى فيلا مستأجرة عند البحر لقضاء يومين عطلة ، ولأنها أرادت أن تعاقبه على فعلة فعلها فقد أخذت تلعب طوال اليوم مع صبي فى الثانية عشرة من عمره ، ابن جارهم صياد السمك ، وهى تتظاهر بأنها قد أغفلت وجود حبيبها . ومن المثير للدهشة أنه على الرغم من إحساسه بالإهانة فقد رأى فى تصرفها عفوية خلابة (قالت : لقد نسيت مع هذا الصبي العالم كله) ترتبط بغريزة نسائية لا دخل لها فيها (ألم تكن متأثرة بالطفل مدفوعة بغريزة الأمومة ؟) وتوقف غضبه فجأة عندما اهتمت به فى اليوم التالى بدلاً من ابن صياد السمك . إن آراءها المتقلبة قد ازدهرت بسعادة على نظراته المتيمة والمعجبة ، ويمكن القول أنها ترعرعت كالزهرة ، لقد وجدت شخصيتها وفتنة ذاتها فى أفعالها غير الملائمة وكلماتها العفوية ، فكانت سعيدة .

على الرغم من أن سلوكها المتطرف قد تغير فى الوقت الذى بدأ فيه برنارد يهرب منها إلا أنها فقدت فجأة الطابع المرح والتلقائية .

كانت على يقين أنها فى اليوم الذى قررت فيه المجيء وراءه بدون دعوة لن تثير أية دهشة ، فدخلت إلى منزله وهى تشعر بحزن سببه أن تصرفها الوقح هذا والذى كان فى وقت ما يعتبر سليم النية بل وفاتناً ، قد أصبح عدوانياً ومتشنجاً . أدركت هذا ، صرخت فيه واتهمته بأنه سلبها السعادة التى كانت تنعم بها حتى وقت قريب ، السعادة التى ظهر الآن أنها كانت هشة جداً وواهية ، سعادة ارتبطت به تماماً وبحبه لها وإعجابه بها . وشيء ما دفعها إلى المزيد من التصرفات الشاذة والغريبة وإلى استفزازه لكى يكون سيئاً معها ، لقد أرادت أن تحدث انفجاراً مع قناعة دفيئة وغامضة أنه بعد العاصفة ستلاشى الغيوم وسيعود كل شيء كما كان من قبل .

قالت ضاحكة : " لقد جئت . أتمنى أن تكون سعيداً لمجيئى " .

" نعم ، سعيد . لكنى جئت لأعمل " .

" لن أزعجك فى عملك هذا . فأنا لا أريد منك شيئاً . لا أريد إلا أن أكون بجوارك . أم تعتقد أننى قد أعقتك عن العمل فى وقت ما ؟ "

لم يرد .

" غالباً كنا نساfer وكنت تقوم بإعداد برنامجك . هل منعتك عن العمل يوماً ما ؟ "

لم يرد .

" أمنتك عن العمل ؟ "

لم يكن أمامه اختيار ، كان عليه أن يجيب : " لم تمنعيني "

" فلماذا إذن أمنتك الآن ؟ "

" أنت لا تمنعيني "

" لا تكذب ! كن رجلاً وتشجع لتقل على الأقل أنك غاضب
بشدة لأنني حضرت بدون دعوة . أنا أكره الرجال الجبناء . أفضل
لو قلت لي أن أجمع حاجاتي وأنصرف فوراً . فلتقل هذا ! "

أسقط في يده وهز كتفه .

" لماذا أنت جبان ؟ "

هز كتفه من جديد .

" كف عن هز كتفيك ! "

أراد أن يهز كتفيه للمرة الثالثة ولم يفعل .

" قل ماذا دهاك "

" لا شيء "

" لقد تغيرت "

رفع صوته قائلاً : " يالاورا ، أنا عندى مشاكل ! "

رفعت هى أيضاً صوتها : " أنا أيضاً عندى مشاكل ! "

كان يعرف أنه يتصرف بغباء مثل الطفل الذى عنتفه أمه وهو لذلك يكرهها ، لم يعرف ماذا يفعل . لقد تعلم أن يكون لطيفاً وخفيف الدم مع النساء ومغرمراً بهن فى بعض الأحيان ، ولكنه لم يتعلم أن يكون شريراً معهن ، لم يعلمه أحد هذا ، بل على العكس من ذلك غرس فيه الجميع أنه لا يجب أن يسىء معاملتهم . ماذا يفعل الرجل مع المرأة التى تأتى وراءه غير مدعوة ؟ أين هى تلك الجامعة التى يدرس فيها هذه القضية ؟

توقف عن الرد عليها وذهب إلى الغرفة المجاورة . استلقى على الكنبه وأخذ أول كتاب ملقى بجواره ، كان عبارة عن طبعة جيب لقصة بوليسية ، استلقى على ظهره ووضع الكتاب مفتوحاً على صدره ، تظاهر بأنه يقرأ . مرت حوالى دقيقة ثم جاءت إليه . جلست على المقعد المواجه له ، وركزت نظرها على صورة ملونة تزين غلاف الكتاب ، وقالت : " كيف تقرأ شيئاً كهذا ؟ "

نظر إليها فى دهشة .

قالت : " أنا أنظر إلى هذا الغلاف " .

مازال لا يفهم ماذا تعنى .

" كيف يمكنك أن تعرض على غلافاً بائخاً كهذا ؟ " مادمت أنت مصرّاً على قراءة هذا الكتب فى وجودى ، فسأكون سعيدة لو قطعت هذا الغلاف " .

لم ينطق برنارد بكلمة ، قطع الغلاف وأعطاه لها ثم واصل القراءة .

أرادت أن تصرخ . قالت لنفسها إنها يجب أن تنهض الآن وتنصرف وتتركه إلى الأبد ، أو أن تسحب الكتاب قليلاً وتبصق فى وجهه . ولكن لم يكن لديها الشجاعة لتفعل هذا ولاذاك ، وبدلاً من هذا اندفعت نحوه (سقط الكتاب من يده على السجادة) وأخذت قبله بشدة وتلمس كل جسده .

لم يكن لدى برنارد أدنى رغبة فى ممارسة الجنس . ولكنه إذا كان قد استطاع أن يرفض الدخول معها فى نقاش ، فإنه لم يقدر على رفض دعوتها الغرامية . فكان شأنه فى هذا ككل رجال العالم ، فمن منهم يجرو أن يقول لامرأة تتحسس له بين فخديه بحركة غزلية : " ابعدى يدك هذه " ؟ وهكذا استجاب طواعية للمساتها ، وهو من قطع قبل قليل غلاف الكتاب بتجاهل متعمد وأعطاه لحبيته المستذلة ، أخذ يقبلها وهو يخلع سرواله .

وحتى هى لم تكن ترغب فى ممارسة الجنس . إن ما جعلها تندفع نحوه هو اليأس من أنها لاتعرف ماذا تفعل وضرورة أن تفعل

شيئًا . إن لمساتها الشهوانية المتهلفة عبرت عن رغبتها العمياء فى فعل شيء ، وتعطشها الأبكم إلى الحديث . عندما بدءا فى ممارسة الجنس حاولت أن يكون عناقهما أكثر شراسة من ذى قبل وأن يكون جامحًا كاللهب . ولكن كيف السبيل إلى هذا أثناء ممارسة صامتة للجنس (فقد كانت لقاءاتهما الجنسية صامتة دائمًا باستثناء الكلمات الغنائية الصادرة عند التنفس) ؟ نعم ، كيف ؟ أبحركات عنيفة ؟ أم بصراخ عال ؟ أم بتغيير أوضاع جسديهما ؟ لم تكن تعرف طريقة أخرى وقد جربت الآن بجميع الوسائل الثلاث . قامت فى كل لحظة بتغيير وضع جسدها ، من نفسها وبمبادرة منها ، مرة تقع على يديها وركبتيها ومرة تجلس عليه منفردة الساقين ، وفكرت فى أوضاع جانبية صعبة لم يجرباها من قبل .

فسر برنارد نشاطها الجسدى المفاجئ بأنه دعوة لا يمكنه سماعها . ساوره قلق شاب صغير يخاف أن يقلل الآخرون من قدراته الجنسية ونضجه فى ممارسة الجنس . هذا القلق بث فى لاورا القوة التى فقدتها فى الفترة الأخيرة والتى بنيت عليها علاقتها فى وقت من الأوقات : سلطة المرأة التى تكبر شريكها فى السن . ومن جديد سيطر عليه انطباع مزعج بأن لاورا أكثر منه خبرة ، تعرف ما لايعرفه ، ويمكنها أن تقارنه بالآخرين وتصدر حكمًا عليه . لذلك قام بإداء كل الحركات المطلوبة بحماس شديد واستجاب لأى إشارة منها بأنها تريد تغيير الوضع بخفة وانصياع كالجندي أثناء أداء التدريبات

اليومية . لقد شغله تماما المجهود الحركي المفاجئ في لقاءهم الغرامى لدرجة أنه لم يتمكن من أن يعى إذا ما كان قد استشير أم لا ، إنه يمارس شيئا يمكن أن يسميه باللذة .

وحتى لاورا لم تكن تفكر فى لذة أو استشارة . قالت لنفسها : لن أتركك ، لن تتخلص منى ، سوف أحارب من أجلك . وتحول جسدها الذى يتحرك إلى أعلى وإلى أسفل تحول إلى آلة حرية أطلقتها وتقوم بتوجيهها . قالت لنفسها إن هذا هو آخر سلاح فى يدها وكل ما تبقى لها ولكنه جبار ، وأخذت تردد فى نفسها وعلى إيقاع حركاتها كلازمة بالكمان تصاحب المقطوعات الموسيقية : سوف أحارب ، سوف أحارب وكانت على ثقة من أنها ستتصر .

نظرة واحدة فى أى معجم تكفى . إن كلمة يحارب تعنى أن تضع إرادتك مقابل إرادة شخص آخر بهدف النيل منه وإخضاعه أو قتله إذا لزم الأمر . " إن الحياة صراع " تلك الجملة كان يجب أن تعنى أنين الاستسلام والوجوم عندما نطقت لأول مرة ، لقد جعل هذا القرن ، قرن التفاؤل والمذابح هذه الجملة البشعة تبدو وكأنها أغنية عذبة . تقولون إن محاربة شخص ما قد تكون شيئا فظيحا ، ولكن الدفاع عن شيء ما أو من أجل شيء ما يعتبر أمرا نبيلًا وجميلًا . نعم ، إنه لأمر جميل أن نطلب السعادة (والحب والعدل الخ) ولكن إذا كان قد أعجبكم أن تطلقوا على هذا السعى كلمة صراع فهذا يعنى أنه تختفى خلف مساعيكم النبيلة رغبة فى أن تطرحوا شخصا أرضًا . إن

الصراع يرتبط دائماً بصراع مع ، وأثناء الصراع يتم دائماً نسيان حرف الجر من أجل .

كان جسد لاورا يتجرك بشدة إلى أعلى وإلى أسفل . كانت لاورا تناضل . كانت تحب وتصارع ، . تصارع من أجل برنارد . ولكن تصارع من ؟ من كانت تضمه إليها ثم تدفعه بعيدا لتجعله يأخذ وضعاً جديداً لجسمه . إن هذه الرياضة البدنية المرهقة على الكنية وعلى السجاد حيث تصيب العرق منهما وحيث أصيب الاثنان بالإرهاق كانت تشبه فن الإيماء الذى يصور صراعاً قاسياً تقوم فيه بالهجوم وهو بالدفاع ، تعطى هى الأوامر وهو يطيع .

البروفيسور أفيناريوس

نزل البروفيسور "أفيناريوس" إلى شارع "مين" و مر بمحطة "منت بارناس" ، ولأنه لم يكن فى عجلة من أمره فقد قرر أن يتجول فى سوق "لافاييت" التجارى . كانت تنظر إليه من الجانب تماثيل مع الشمع لفتيات يرتدين فساتين لآخر صبحه فى قسم السيدات . كان "أفيناريوس" يحب مجتمع السيدات ، أنثر ما كان يجذبه هو الأجساد الساكنة لنساء متصلبات على هيئة حركة جنونية . لم تكن نعبر أفواههن المفتوحة على آخرها عن الضحك (فلم يكن الفم مفتوحاً على اتساعه) بل عن الرعب . كان البروفيسور "أفيناريوس" يتخيل أن كل هؤلاء السيدات المتحجرات قد رأين بصورة رائعة ، العضو الذى لم يكن فقط كبيراً بل مختلفاً عن الأعضاء العادية بأنه ينتهى برأس شيطان أقرن صغير . وفضلاً عن أولئك اللاتي أبدين رعباً عجبياً ، كانت هناك تماثيل لم تكن أفواههن مفتوحة بل تبدو ساخطة ، كانت تشبه دائرة سميكة حمراء فى منتصفها فتحة ، كما لو كن سيخرجن لسانهن فى أى وقت يدعين البروفيسور "أفيناريوس" إلى قبة شهوانية . ثم كانت المجموعة الثالثة من التماثيل التى رسمت شفاهها على الوجه الشمعى ابتسامة حاملة . كان يبدو من أعينهن المسدلة أنهن يتلذذن بمتعة جماع طويل هادئ .

إن الشهوانية الرائعة التى أشاعتها التماثيل فى المكان كموجات الأشعة الذرية لم تجد صدى عند أحد ، فقد تجول بين البضائع المعروضة أناس من المتعبين وكبار السن ومن أصابهم الملل والغيب ، كان البروفيسور " أفيناريوس " الوحيد الذى يتجول فى المكان وهو سعيد يملؤه شعور بأنه زعيم هجمات المنحليين .

بيد أن كل شىء جميل ينتهى : خرج البروفيسور " أفيناريوس " من السوق التجارى ونزل على سلم أدى به إلى أسفل حيث المترو ، أراد بذلك أن يتجنب اندفاع السيارات التى تسير أعلى فى الشارع . غالباً ما كان يسير من هنا ولم يكن يدهشه شىء مما يراه . كانت توجد فى الممر السفلى تركيبة معتادة . كان يترنح فى المكان اثنان من المتسكعين ، أحدهما يمسك فى يده بزجاجة نبيذ أحمر ، وكل ما يفعله هو أن يتوجه من وقت لآخر بتكاسل إلى أحد المارة يسأله بابتسامة مستضعفة المعونة لشراء الشراب . وعند الحائط جلس على الأرض شاب صغير ووجهه مسند على راحتيه وقد كتب أمامه على الأرض أنه خرج لتوه من السجن ولا يمكنه الحصول على عمل ويعانى من الجوع . فى النوع الثالث (عند الحائط المقابل للشاب العائد من السجن) يقف عازف موسيقى متعب ، ويضع عند إحدىرجليه قبعة ، تتلأأ فى قاعها عدة قطع من النقود المعدنية وعند قدمه الأخرى يوجد بوق .

كان كل هذا يبدو طبيعياً تماماً ، إلا أن ما جذب البروفيسور " أفيناريوس " لغرابته كان شيئاً واحداً . كانت تقف بين الرجل الشاب

العائد من السجن وبين الرجلين المتسكعين السكارى فى منتصف الممر وليس عند الحائط ، امرأة جميلة جداً تقارب الأربعين من عمرها وتحمل فى يدها صندوقاً أحمر وقد مدت الصندوق بابتسامة عريضة بها فتنة نسائية صوب المارة ، على الصندوق كتبت عبارة : " ساعدوا الضعفاء " ، كانت تتناقض بزيها الأنيق مع ما حولها وقد أضاء حماسها كالمصباح بهتان الممر . كان من الواضح أن وجودها قد أفسد على الشحاذين مزاجهم ، هؤلاء الذين اعتادوا أن يقضوا وقت العمل فى هذا المكان يومياً . كما كان البوق الموجود عند قدم عازف الموسيقى بلا شك تعبيراً عن الاستسلام فى المنافسة غير الشريفة .

كانت عندما تلتقى عيناها بعين شخص ما ، تحدث بصوت غير مسموع حتى يقرأ الشخص المار هذه الكلمات من شفيتها بدلا من أن يسمعها : " الضعفاء ! " أراد البروفيسور " أفيناريوس " أن يقرأ هذه الكلمات من على شفيتها ، إلا أن المرأة عندما رآته ، لم تقل سوى " الضعفاء " . . . ولم تكمل لأنها كانت تعرفه . وقد كان " أفيناريوس " يعرفها هو الآخر ، ولم يستطع أن يفسر كيف جاءت إلى هنا . صعد درجات السلم مسرعاً فوجد نفسه على الجانب الآخر من الشارع ، هنا أدرك أنه حاول عبثاً أن يتخطى سيل السيارات ، لأن حركة المرور كانت متوقفة " فقد امتدت على الطريق المؤدى إلى " رو دى رينيه " جموع من البشر . كان جميعهم من ذوى البشرة السمراء ، لذلك اعتقد البروفيسور " أفيناريوس " أنهم شباب عرب يحتجون

على العنصرية . سار عدة أمتار أخرى غير مبال ثم فتح باب المقهى ،
نادى عليه المدير قائلاً : " السيد "كونديرا" يعتذر بأنه سوف يتأخر ،
وقد ترك لك هنا كتابا لكى تتسلى به حتى يأتى " ، وقدم له روايتى
الحياة فى مكان آخر فى طبعة رخيصة تسمى " فوليو " .

دس أفيناريوس الكتاب فى جيبيه دون أن يعيره أى اهتمام ،
فقد دارت فى خاطره فى تلك اللحظة المرأة ذات الصندوق الأحمر
ورغب فى رؤيتها مرة أخرى .

قال له : " سأعود بعد لحظات " ثم خرج .

أدرك أخيراً من اللافتات المعلقة على رؤوس المتظاهرين أن الذين
يغلقون الشارع ليسوا عربا بل أتراكا ، وأنهم لا يحتجون على العنصرية
فى فرنسا بل على تحويل الأقلية التركية فى بلغاريا إلى بلغاريين . رفع
المتظاهرون أيديهم المنقبضة ولكن بنوع من الملل ، لأن التجاهل
المتناهى من أهالى باريس الذين يمرون بهم قد أوصلهم إلى حافة
اليأس . ولكنهم الآن رأوا كرشاً ضخماً وهائلاً لرجل يسير على حافة
الرصيف فى اتجاههم نفسه ، رفع معصمه وصاح : " A bas les Russ-
es! A bas les Bulgares! فليسقط الروس ، وليسقط البلغار " . فدبت
فيهم الحيوية من جديد وارتفع دوى الهتافات من جديد فى الشارع .

ورأى عند سلم المترو الذى صعد عليه منذ لحظات إلى أعلى
سيدتين قبيحتين مستتين توزعان المنشرات . أراد أن يعرف شيئاً عن

صراع الأتراك فسأل إحداهما : " هل أنت تركية ؟ " - " ربي ، كلا ، ماذا تقول ! " دافعت عن نفسها كما لو كان قد نعتها بشيء فظيع " نحن لا علاقة لنا بهذه المظاهرة ! نحن هنا للتظاهر ضد العنصرية " . أخذ البروفيسور أفيناريوس من كل منهما نشرة ثم اصطدم بابتسامة شاب يتكئ بغير اكتراث على درايزين المترو . وبابتسامة مستفزة أعطاه هو الآخر نشرة .

سأله أفيناريوس : " هذا موجه ضد ماذا ؟ "

" هذا من أجل حرية " الكنكيين " فى " كاليدونيا الجديدة "

وهكذا نزل البروفيسور أفيناريوس إلى أسفل وهو يحمل النشرات الثلاث ، وقد لاحظ من بعيد أن الأجواء فى المقابر قد تغيرت ، فقد اختفى الملل السخيف ، شيء ما قد حدث : وصل إلى سمعه صوت مرح للبوق وتصفيق بالأيدى وضحك . وسرعان ما شاهد كل شيء : كانت مازالت هناك تلك السيدة الشابة ولكنها محاطة بالمتسكعين ، أحدهما يمسكها من يدها الطليقة والآخر يتأبط بخفة ذراعها التى كانت تمسك بها الصندوق . قام هذا الذى يمسك يدها بخطوات راقصة ، ثلاث إلى الخلف وثلاث إلى الأمام . أما من كان يتأبط ذراعها فقد كان يمد قبعة عازف الموسيقى إلى المارين ويصرخ : " pour le lépreux " من أجل الضعفاء " Pour l'Afrique " ويقف بجانبه عازف البوق وهو ينفخ فيه وينفخ ، آه ، لقد نفخ ما لم ينفخه فى حياته من قبل ، وتجمع من حولهم الناس الذين أمتعهم هذا ، كانوا يضحكون ويلقون

بعملات معدنية وورقية للمتسكع فى القبعة وهو يشكرهم : Merci ! Ah,

Que la France est généreuse! بدون فرنسا لنفق الضعفاء كالحیوانات! "

Ah, que la France est généreuse!

لم تعرف السيدة ماذا تفعل ، حاولت للحظة أن تخلص نفسها وعندما سمعت تصفيق المشاهدين يتكرر ، قامت بخطوات بسيطة إلى الأمام وإلى الخلف وفى لحظة واحدة حاول المتسكع أن يديرها ناحيته ويرقص معها وجسداهما متقابلان ، صدمتها رائحة الخمر فى فمه فبدأت فى المقاومة بطريقة مرتبكة وقد اكتسى وجهها بالحنق والخوف .

نهض الشاب الذى خرج من السجن فجأة وبدأ يحرك ذراعه وكأنه يحذر المتسكعين من شىء ما ، اقترب من المكان اثنان من رجال الشرطة . وعندما رآهم البروفيسور أفيناريوس أخذ يرقص ويتحرك من جانب إلى آخر ببطئه الكبير ، قام بحركات وذراعاة فى خصره وهو يتسم فى كل اتجاه وأشاع حوله جواً لا يوصف من السلم واللامبالاة . عندما كان رجال الشرطة يمرون بهم أخذ يتسم للسيدة ذات الصندوق وكأنها شريكته ويصفق على إيقاع البوق وعلى ضربات قدميه . نظر رجال الشرطة إليهم بفتور ثم واصلا التجول .

ومن فرط سعادته بالنجاح أوسع البروفيسور من خطواته وأخذ يلف فى مكانه بخفة غير معهودة ويتحرك إلى الخلف وإلى الأمام ، ويرفع قدميه إلى أعلى ويعمل بيديه حركات تشبه راقصة باليه الكانكان التى ترفع تنورتها إلى أعلى . أوحى هذا للمتسكع الذى

كان يتأبط ذراع السيدة ، فانحنى وأخذ بطرف التنورة بين إصبعيه .
أرادت أن تقاوم ولكنها لم تستطع أن تصرف ناظرها عن الرجل
السمين الذى كان يبتسم لها مشجعاً ، وعندها حاولت أن تبادله
الابتسامة كان المتسكع قد رفع التنورة حتى خصرها : فظهرت ساقها
العاريتان وسروالها القصير الأخضر (تم اختياره بطريقة رائعة تناسب
لون التنورة الوردى) . حاولت من جديد أن تقاوم ولكنها لم تستطع :
فقد كانت تحمل فى إحدى يديها الصندوق (الذى لم يضع به أى
شخص سستا واحدا ، ولكنها كانت تمسكه بقوة وكأنها تحفظ به كل ما
لها من شرف ومعنى للحياة وربما روحها أيضاً) ، وفى نفس الوقت
لم تكن تستطيع تحريك يدها الأخرى التى كان المتشرد ممسكاً بها . فلو
كانوا أوثقوا كلتا يديها واغتصبوها لما كان الأمر أسوأ من هذا . رفع
المتشرد طرف التنورة عالياً وصاح : " من أجل الضعفاء! من أجل
أفريقيا ! " وتدلت على وجهها دموع المهانة . غير أنها لم تكن تريد
أن تظهر هذه المهانة (فالاعتراف بالمهانة هو مهانة مضاعفة) ، وهكذا
حاولت أن تبتسم وكأن ما حدث كان بموافقتها ومن أجل أفريقيا
ورفعت إلى أعلى بنفسها وطواعية ساقها الجميلة القصيرة نوعاً ما .

بعدها تصاعدت إلى أنفها رائحة المتسكع الكريهة ، رائحة فمه
وملابسه التى لم يخلعها منذ عدة سنوات فغرزت فى جلدته (فإذا
أصيب بأية حادثة فسيكون على فريق الجراحين أولاً أن يقضوا ساعة
لينزعوا الملابس عن جسده قبل أن يضعوه على طاولة العمليات) ،

وهنا لم تتحمل فدفعته وهى تضم الصندوق الأحمر إلى صدرها
وجرت صوب البروفيسور أفيناريوس الذى جذبها من ذراعها وضمها
إلى صدره . كانت ترتجف وهى ملتصقة بجسده وأخذت تجهش
بالبكاء . هداً من روعها على الفور وأخذها من يدها وانصرف من
محطة المترو .

الجسد

" لاورا اقد صرت نحيفة " قالت أجنس وهى مهمومة بينما هى تتناول طعام الغداء فى المطعم مع أختها .

: " أنا لا أذوق شيئاً ، وأتقيأ كل ما أكله " قالت لاورا ثم شربت المياه المعدنية التى طلبتها على الطعام بدلاً من النبيذ المعتاد ثم أضافت " إنها قوية جداً "

" المياه المعدنية ؟ "

" أريد أن أمزجها بالماء "

" لاورا . . . " أرادت أجنس أن تعاتب أختها ، ولكنها بدلا من هذا قالت : " لا يجب أن تحملى نفسك كل هذا "

" كل شىء ضاع يا أجنس "

" ما الذى تغير بينكما ؟ "

" كل شىء ورغم ذلك نمارس الجنس أكثر من أى وقت مضى ، كمن مسهما الجنون "

" أهذا هو التغير وأنتما تمارسان الجنس كالمختلين عقلياً ؟ "

" إنها اللحظات الوحيدة التى أكون فيها على يقين بأنه معى ، ولكن ما إن ينتهى اللقاء يغرق بعيداً فى أفكاره من جديد ؛ لأن لقاءنا

الجنسى ليس الأساس ، فليس الموضوع مجرد لقاء جنسى . قالمقصود هو أن يفكر بى ، لقد عرفت العديد من الرجال ، واليوم لا يعرف أحدهم عنى شيئاً ولا أعرف عنهم شيئاً وأقول لنفسى ، لماذا عشت كل هذه السنوات ياترى ولم أترك فيهم أى أثر ؟ ماذا تبقى لى بعد من حياتى ؟ لا شىء يا أجنس ، لا شىء ! ولكنى كنت فى العامين الأخيرين سعيدة فعلاً لأننى كنت على يقين أن برنارد يفكر فى وأنى أسكن فى عقله وأعيش فى وجدانه . ولأن هذا بالنسبة لى هو فقط الحياة الحقيقية : بأن أعيش فى أفكار شريكى . ما عدا ذلك فأنا أعيش كالميتة " .

" ألا يكفى على الأقل وأنت فى المنزل وتستمعين إلى اسطوانات " ماهلير " لتحقيق سعادة ما بسيطة وأساسية تستحق أن تعيش من أجلها ؟ .

" أجنس ، لابد أن تعرفى أن ما تقولينه هراء ف " ماهلير " لايعنى بالنسبة لى أى شىء ، أى شىء على الإطلاق وأنا وحدى ، ف " ماهلير " يسعدنى فقط عندما أكون مع برنارد أو عندما أعرف أنه يفكر بى ، وعندما أكون بدونه لا أقدر حتى على الذهاب للنوم . ولا أرغب حتى فى الاغتسال ولا فى تغيير ملابسى " .

" يا لاورا ! إن برنارد ليس الرجل الوحيد فى العالم ! "

قالت لاورا : " بل هو كذلك ! ، لماذا تريدنى أن أضحك على نفسى ؟ إن برنارد هو فرصتى الأخيرة . أنا لست فى العشرين ولا فى الثلاثين . إن ما دون برنارد ما هو إلا صحراء " .

تناولت المياه المعدنية وقالت من جديد : " إنها قوية جداً " ثم نادت على النادل لكى يحضر لهما ماء .

أضافت : " سيذهب بعد شهر إلى " مارتينك " ، لقد ذهبت معه إلى هناك مرتين . وفى هذه المرة أخبرنى مسبقاً أنه سيذهب إلى هناك بدونى . عندما قال لى هذا لم أستطع تناول الطعام لمدة يومين . ولكنى أعرف ما سأفعله " .

أحضر النادل الإبريق وقامت لاورا بصب الماء على المياه المعدنية أمام دهشة النادل ، ثم كررت من جديد : نعم ، أنا أعرف ما سأفعله " .

لازمت الصمت وكأنها بهذا تحث أختها على توجيه الأسئلة . أدركت أجنس هذا ولم تسألها متعمدة . ولكن عندما استمر السكون طويلاً استسلمت أجنس وقالت : " وماذا ستفعلين ؟ " .

أجابتها لاورا أنها فى الأسابيع الأخيرة ترددت على خمسة أطباء تشكو من عدم النوم وكتب لها كل منهم حبوباً مهدئة . أصاب أجنس الهم والتعب منذ أن بدأت لاورا تلحق بشكواها المعتادة تلميحات بالانتحار . أخذت تشنى أختها عن غرضها مرات عديدة بالحجج المنطقية والعاطفية ، أخذت تؤكد لها حبها (لا يمكنك أن تفعلى بى شيئاً كهذا) ، إلا أن هذا لم يكن له أى تأثير : عاودت لاورا الحديث عن الانتحار وكأنها لم تسمع ما قالته أجنس .

واصلت لاورا حديثها قائلة : " سأذهب إلى " مارتينك " قبله بأسبوع . معى المفتاح . ولا يوجد أحد بالفيلا . سأفعل هذا حتى يجدنى هناك ، وحتى لا يمكنه أن ينسانى إلى الأبد " .

كانت أجنس تعرف أن لاورا قادرة على أن تفعل أشياء غير معقولة ، وهالتها الجملة التى قالتها لاورا " سأفعل هذا حتى يجدنى هناك " : لقد تخيلت لاورا تقف ساكنة فى منتصف غرفة صالون الفيلا بالمنطقة شبه الاستوائية . خافت من أن تخيلها هذا محتمل حدوثه إلى درجة كبيرة ويمكن وهو جدير بلاورا .

فأن تحب شخصاً ما كان يعنى للاورا أن تقدم له جسدها هدية ، تقدمه له تماماً كما قدمت لابتتها البيانو الأبيض ، وتضعه له فى منتصف بيته : ها أنا هنا ، سبعة وخمسون كيلو جراما من وزننى ، لحمى وعظمى ، هم لك ، أضعهم تحت تصرفك . كان هذا الإهداء بالنسبة لها بمثابة إيماء جنسية ، لأن جسدها لم يكن للجنس فى أوقات معينة فقط من الإثارة ، بل كما قلت من قبل ، كان للجنس منذ البداية وبديها وعلى الدوام ، وبكل ما به ، شكله وجوهره ، فى النوم واليقظة وحتى فى الموت .

كان الجنس بالنسبة لأجنس مقصورياً على وقت الشهوة ، حيث يصير فيها الجسد مرغوباً وجميلاً . كانت هذه اللحظة وحدها تخلصه وتعيد له اعتباره ، وعندما ينطفىء هذا الضوء المصطنع ، يصير الجسد مرة أخرى مجرد آلة ملوثة عليها أن تصونها . ولهذا لم تكن أجنس

تستطيع أن تقول " سأفعل هذا حتى يجدنى هناك " . إنها ليصيبها
الفرع لو رآها من يحبها مجرد جسد خال من الأنوثة والسحر مع
تكشيرة متشنجة على الوجه والهيئة التي قد لا تستطيع السيطرة عليها .
قد تخجل من هذا . والخجل قد يمنعها من أن تصبح جثة بمحض
إرادتها .

ولكن أجنس كانت تعرف أن لاورا امرأة مختلفة : فكونها تترك
جسدها هامداً في صالون شقة حبيبها ينبع من علاقتها بجسدها ومن
طريقتها في الحب . ولهذا انتابها الخوف . انحنت على الطاولة
وأخذت أختها من يدها .

هنا قالت لاورا : " أنت تفهمينى جيداً ، فلديك بول ، أفضل
ما تتمنيه من الرجال . وأنا لدى برنارد . وإذا تركنى برنارد ، فليس
عندى شيء ولن يكون في حياتى رجل آخر . وأنت تعرفين أننى
لا أَرْضَى بالقليل . ولن أنظر إلى حياتى البائسة . فأنا عندى تصور
كبير جداً عن الحياة . إما أن آخذ من الحياة كل شيء وإما أن أرحل .
أنت بالتأكيد تفهمينى . فأنت أختى " .

سادت لحظة صمت ، حاولت خلالها أجنس أن تجد كلمات ترد
بها وهى فى حيرة من أمرها . كانت متعبة ، فعلى مدى عدة أسابيع
يتكرر نفس الحوار الثابت ويتبين دائماً من جديد عدم جدوى ما تقوله
أجنس . وفى لحظة الإرهاق والعجز هذه سمعت فجأة كلمات غير
متوقعة تماماً :

قالت لاورا وهى تضحك : " لقد ثار برتراند فى البرلمان من جديد ضد انتشار حالات الانتحار . والفيللا الموجودة فى "مارتينك" ملك له . تصورى ما هى السعادة التى سأسببها له ! "

ورغم أن الضحك كان عصبيًا واضطراريًا إلا أنه جاء لمساندة أجنس كحليف غير متوقع . بدأت تضحك هى الأخرى ثم تحول الضحك المصطنع إلى ضحك حقيقى فجأة . ضحك استرخاء ، وامتلات أعين الأختين بالدموع وشعرتا أن كلا منهما تحب الأخرى وأن لاورا لن تتحر . تحدثتا عن الاضراب ويدهما متماسكتان وكل ما قالتاه كان عبارة عن كلمات حب لأختها ومن خلفهما تضىء فيلا فى الحديقة السويسرية وإيماءة يد مرفوعة إلى أعلى ككرة ملونة ، وكدعوة إلى الطريق ، وكعهد يتحدث عن المستقبل الغامض ، العهد الذى رغم عدم الوفاء به إلا أنه ظل معهم كصدى جميل .

وبعد أن مرت لحظة الدوار ، قالت أجنس : " لاورا ، لا يجب أن ترتكبي أية حماقات . لا أحد يستحق أن تعانى من أجله . فكرى بى وبحبى لك " .

قالت لاورا : " ولكنى أريد أن أفعل شيئًا ما . شىء ما على أن أفعل " .

" شىء ما ؟ ما هو هذا الشىء ؟ "

أخذت لاورا تنظر بعمق فى عيني أختها ، ثم هزت كتفها وكأنها كانت تعترف أن المعنى الواضح لكلمة " شىء " قد هرب منها

ثم أمالت رأسها إلى الخلف قليلا وقد كست وجهها ابتسامة غامضة وحزينة بعض الشيء ، ثم وضعت أطراف أصابعها في مكان بين نهديها مرددة من جديد كلمة " شيء " ودفعت ذراعيها إلى الأمام .

هدأت أجنس : على الرغم من أنها لم تستطع تصور معنى محدد من كلمة " شيء " ، ولكن إيماءة لاورا لم تترك أية شكوك : هذا الـ " شيء " يشير إلى آفاق بعيدة وجميلة ، ولم يكن له علاقة بجثة هامدة تقع على الأرض ، على أرضية صالون في منطقة شبه استوائية .

بعد ذلك بعدة أيام زارت لاورا جمعية فرنسا إفريقيا التي كان يرأسها والد برنارد ، وقامت بالتسجيل فيها كمتطوعة لجمع الأموال في الشارع من أجل الضعفاء .

إيماءة رغبة فى الخلود

أول حب فى حياة " بيتى " كان أخوها " كليمنتر " الذى صار بعد ذلك شاعراً رومانسياً كبيراً ، ثم وقعت بعد ذلك كما نعرف فى حب " جوته " ، أعجبت بـ " بيتهوفن " ، أحببت زوجها " أخن فون أرمن " الذى كان هو الآخر شاعراً كبيراً ، ثم هامت حبا فى الأميرة " هيرمان فون بوكلىر موسكاو " الذى لم يكن شاعراً كبيراً ، ولكنه كان يلف الكتب (كان هو من أهديت إليه " مراسلات جوته مع طفلة ") بعد ذلك وبعد أن بلغت الخمسين من عمرها انتابتها مشاعر أمومة جنسية تجاه الشابين " فيليب نات هاروسيزور " و " يوليوس دورينج " الذين لم يؤلفا كتباً لكن كانا يتبادلان معها الرسائل (كانت أيضاً تنشر أجزاء من هذه المراسلات) ، أعجبت بـ " كارل ماركس " الذى أجبرته ذات مرة على أن يذهب معها فى نزهة ليلية طويلة وهى فى زيارة لخطيبته " جينى " (لم يكن ماركس يرغب فى النزهة ، فقد كان يفضل أن يكون مع " جينى " لا مع " بيتى " ، ولكن الرجل الذى كان قادراً على أن يقلب العالم رأساً على عقب لم يكن فى استطاعته أن يواجه امرأة تخاطب جوته بدون ألقاب) ، كانت ضعيفة أمام " فرانز ليست " ولكن بطريقة لا تخلو من المراوغة ، لأنها كانت مستاءة من أن " ليست " لا يعرف سوى الاهتمام بمجده الشخصى ، حاولت

بشدة أن تساعد الرسام المريض نفسيًا " كارل بيلخر " (الذى كانت تستهين بزواجه أقل من استهانتها فى وقت ما بزوجة جوته) ، تبادلت الرسائل مع ولى عهد " ساكسونيا " و " وليم كارل ألكسندر " ، وكتبت كتاب الملك من أجل ملك بروسيا " فريدريك وليام " شرحت فيه واجبات الملك تجاه رعاياه ، ثم أتبعته بمؤلف " كتاب الفقراء " الذى شرحت فيه الفقر المدقع الذى يعيش فيه الشعب وطلبت من الملك من جديد أن يطلق سراح " ويليام شلوفل " المتهم بالتآمر مع الشيوعيين ، ثم توسطت عنده لصالح " لودفيك ميروسلافسكى " أحد قادة الثورة البولندية الذى كان ينتظر تنفيذ حكم الإعدام فى سجن ببروسيا . وكان آخر من أحببتهم ولم تعرفه شخصيًا " ساندو بيتوفى " الشاعر المجرى الذى مات فى السادسة والعشرين من عمره فى صفوف جيش المتمردين عام ثمانية وأربعين . لقد قدمت للعالم ليس فقط شاعرًا كبيرًا (كانت تسميه سونسن جوت . إله الشمس) ولكن شعبًا لم تكن أوروبا تعرف عنه شيئًا تقريبًا . عندما نقول إن المثقفين المجرين الذين ثاروا عام ١٩٥٦ ضد الإمبراطورية الروسية ونادوا بأول ثورة كبيرة ضد حكم " ستالين " كانوا يطلقون على أنفسهم اسم الشاعر " تجمع بيتوفى " فستبادر إلى أذهاننا أن " بيتينا " بغرامياتها كانت حاضرة فى جزء كبير من التاريخ الأوروبى الذى يمتد من القرن الثامن عشر حتى منتصف هذا القرن . " بيتينا " الشجاعة العنيدة : فيلا التاريخ . قس التاريخ . أقوال قس لأن التاريخ بالنسبة لـ " بيتينا " هو " تجسيد إلهى " (هكذا كان يستخدم كل أصدقائها هذا التعبير المجازى) .

كان أصدقائها أحياناً يأخذون عليها أنها لا تفكر فى أسرتها
بالقدر الكافى ولا فى أوضاعها المالية ، وأنها تضحى كثيراً من أجل
الآخرين كما أنها لا تجيد الحساب .

" لا يعنينى ماتقولونه ، فأنا لست محاسبة ! انظروا من أكون ! "
وهنا وضعت أصابع كلتا يديها على صدرها بحيث لمس إصبعها
الوسطى تماماً النقطة بين صدرها . ثم رفعت رأسها إلى الخلف قليلاً
وقد اكتسى وجهها بابتسامة ، ودفعت ذراعيها بشدة وانسيابية إلى
الأمام . التقيا أثناء الحركة مرفقى ذراعيها معا وفى النهاية تباعد
الذراعان ، أشارت راحتا اليد إلى الأمام .

كلا ، أنتم على صواب . إنها نفس الحركة التى قامت بها لاورا
عند نهاية الفصل السابق عندما أعلنت أنها تريد أن تفعل " شيئاً " .
فلنسترجع ذلك الموقف :

عندما قالت أجنس " لاورا ! لا يجب أن ترتكبي أية حماقات .
لا يوجد رجل فى العالم يستحق أن تعاني من أجله . يجب أن تفكرى
بى وبحبى لك " أجابتها لاورا : " ولكن على أن أفعل شيئاً ما . شيئاً ما
يجب أن أفعل " .

كانت تتصور شيئاً ما غامضاً وهى تقول هذه الكلمات هو أنها
سوف تنام مع شخص آخر . كانت تفكر فى هذا كثيراً ولم يتعارض
هذا بأية حال من الأحوال مع رغبتها فى أن تتحرر . كان هذا رد فعل
مشروع ومتطرف من سيدتين مهانتين . لقد أحبطت بعنف محاولة

أجنس السيئة فى استجلاء الأمر ، أمر حلمها غير محدد المعالم بالخيانة :
شئ ما ؟ ما هو هذا الشئ ؟ "

كانت لاورا تعرف أنه قد يكون من المضحك أن تعترف برغبتها
فى الخيانة بعد أن تحدثت عن الانتحار مباشرة . ارتبكت لاورا ولم
تفعل سوى أن أخذت تكرر كلمة " شئ ما " ، ولا أن نظرة أجنس
كانت تطلب إجابة محددة ، فقد حاولت أن تعطى لهذه الكلمة
الغامضة معنى ما بإيماءة على الأقل : ضمت يديها على ندييها ثم
ألقت بهما إلى الأمام .

كيف خطرت لها هذه الإيماءة ؟ يصعب التكهن بهذا . فهى لم
تفعلها من قبل على الإطلاق . شخص ما مجهول قد يكون أشار عليها
بها تماما مثل الممثل الذى يلقنونه نصا لا يعرفه . وعلى الرغم أن هذه
الإيماءة لم تعن شيئا محددًا إلا أنها أشارت إلى أن تفعل شيئًا ما " تعنى
أن تباعد عن العالم وتضحى بنفسها وترسل روحها صوب الفضاء
الأزرق كالحمامة البيضاء .

لابد أن فكرة أن تذهب إلى محطة المترو لتقف وهى تحمل
صندوقا كانت وحتى وقت قريب ، فكرة بعيدة عنها تمامًا ولم تخطر
لها بالطبع على الإطلاق لو لم تضع أصابعها على ندييها ولو لم
تدفع ذراعيها إلى الأمام . كأن هذه الإيماءة لها تأثير خاص : قادتها
وتبعته لاورا .

إن إيماءة كل من لاورا وباتينا متشابهتان ، كما أن هناك ارتباطًا أكيدًا بين رغبة لاورا في مساعدة السود في أفريقيا ومحاولة باتينا حماية الرجل البولندي المحكوم عليه بالموت . وعلى الرغم من ذلك فإن المقارنة تبدو في غير محالها . لا يمكنني أن أصور أن باتين فون أرمين : قد تقف في محطة المترو وهي تحمل صندوقًا وتستجدي ! فـ "باتين" لم تكن تهتم بالأعمال الخيرية ! فلم تكن " باتين " من السيدات الثريات الاتى يقمن بجمع الأموال للفقراء نتيجة لعدم قدرتهن على القيام بنشاط أفضل . كانت تسيء معاملة الخدم حتى اضطر زوجها أن ينم إلى أن يلفت نظرها إلى هذا (كتب لها في إحدى رسائله " إن الخادمة بشر مثلنا ولا يجب أن تعاملها كالألة ") . إن ما دفعها لمساعدة الآخرين لم يكن رغبتهما في الأعمال الخيرية بل سعيها إلى علاقة شخصية مع الله ، فقد كانت تؤمن بأن الله يتجسد في التاريخ . فكل علاقاتها الغرامية مع المشاهير (لم تكن تهتم بغيرهم !) لم تكن سوى نقطة انطلاق أقبلت عليها بكل كيانهما لكي تقفز إلى أعلى مدى حيث يسكن الله المتجسد في التاريخ .

كلا ، كل هذا حقيقى . لكن انتبه ! حتى لاورا لم تكن تنتمى إلى السيدات المرفهات في مقار رئاسة الجمعيات الخيرية . فلم تعتد أن تعطى المتسولين . وعندما كانت تعاني من عيب بعد النظر النفسى . لذلك كانت تهتم أكثر لأمر السود الذين يعدون عنها أربعة آلاف كيلو متر والذين تتساقط منهم أجسادهم قطعة وراء الأخرى . كانوا

يتواجدون تماما فى مكان خلف الأفق أرسلت إليه روحها المتألمة بحركة بليغة من ذراعيها .

إن الحد الفاصل بين الرجل البولندى الموقوف والسود المرضى ما هو إلا مجرد اختلاف ! فما هو بالنسبة لـ " باتين " رغبة فى دخول التاريخ ، صار عند لاورا مجرد عمل خيرى ، وليس هذا ذنب لاورا . فقد هجر أوروبا تاريخ العالم بثوراته ومثله وآماله ويأسه ولم يترك سوى الحنين . ولهذا جعل المواطن الفرنسى الأعمال الخيرية ذات طابع عالمى . لم يدفعه إلى هذا (مثل الأمريكان مثلاً) الحب المسيحى لإخوان العقيدة بل الحنين إلى التاريخ الضائع والرغبة فى استدعائه من جديد أو أن يكون حاضرا فيه ولو على الأقل كصندوق أحمر به عملات معدنية لمساعدة السود الضعفاء . لنطلق على إيماءة " باتين " و " لاورا " إيماءة الرغبة فى الخلود . فباتين التى تصبو إلى الخلود الأعظم تريد أن تقول : أنا أرفض أن أموت ومعى حاضرى وما به من مشاكل ، أريد أن أتجاوز نفسى وأن أصبح جزءا من التاريخ ، فالتاريخ ما هو إلا ذاكرة خالدة . لاورا حتى وهى تتطلع إلى الخلود الصغيرة تريد نفسى الشئ : تريد أن تتجاوز ذاتها والمرحلة التى تعيشها وتفعل " شيئا " لكى يتذكرها كل من يعرفونها .

التباس

كانت بريجيتا تحب الجلوس فى حجر أبيها ولكن يبدو لى أنها أحببت ذلك أكثر عندما بلغت الثامنة عشرة . لم يستوقف هذا أجنس : كانت بريجيتا فى أغلب الأحيان تذهب إلى فراش أبويها (فى آخر الليل مثلا بعد مشاهدتهم للتلفزيون) وكانت هناك ألفة بين الثلاثة أكثر من تلك التى كانت بين أجنس وأبويها . ورغم ذلك استوقفتها ازدواجية ذلك المشهد : فتاة شابة ذات ثدين كبيرين وردف كبير تجلس فى حجر رجل وسينم مازال مفعما بالقوة ، وتلامس بهذين الثدين كتفيه ووجهه ، وتناديه " بابا " .

ذات مرة كانت فى بيتهم صعبة مرحة دعت أجنس إليها أختها . وعندما صاروا جميعهم فى حالة مزاجية عالية جلست بريجيتا فى حجر أبيها وقالت لاورا : " أريد أنا كذلك ! " أوسعت لها بريجيتا إحدى ركبتيه بحيث جلستا كلتاهما فى حجره .

هذا الموقف يذكرنا مرة أخرى بـ " باتينا " لأنها دون غيرها كانت تعظم من شأن الجلوس فى الحجر بالطريقة التقليدية من بين الطرق متعددة الدلالات . قلت إنها قد اجتازت ساحة المعركة الجنسية فى حياتها وهى محمية بدرع الطفولة . حملت أمامها هذا الدرع حتى بلغت الخمسين من عمرها لكى تبدله بدرع الأم ، ثم حملت بنفسها

رجلاً شاباً فى حجرها . ومرة اخرى يظهر موقف رائع ذو دلالات متعددة : فيحرم اتهام الأم بنوايا جنسية تجاه ابنها ، ولهذا فإن وضع الرجل الشاب الجالس فى حجر امرأة ناضجة (حتى لو بالمعنى الرمزي) يعتبر وضعاً مليئاً بالمعاني الجنسية التى بقدر ما تكون غامضة تكون أكثر تأثيراً .

ويمكننى أن أؤكد أنه بدون فن التعددية لا توجد إثارة جنسية ، وكلما كانت هذه التعددية قوية كانت الإثارة أشد . من منا لا يتذكر من طفولته لعبة الطبيب ! البنت تنام على الأرض والولد يخلع ملابسها تحت ذريعة أنه طبيب . البنت مطيعة لأن من يراها ليس صبيّاً فضولياً ولكنه رجل جاد يهتم بأمر صحتها . إن المضمون الجنسي لهذا الموقف عظيم بقدر ما هو غامض وسال له لعاب كل منهما . وسال أكثر لأن الولد لم يتوقف عن كونه طبيباً ، وحتى عندما يرفع عن البنت سروالها القصير سيظل خلالها يناديها بصيغة الاحترام .

إن تذكر هذه الفترة السعيدة من فترة الطفولة تؤدى بى إلى ذكرى أجمل لمدينة تشيكية إقليمية عادت إليها من باريس فى عام ١٩٦٩ امرأة تشيكية شابة . كانت قد ذهبت إلى فرنسا فى عام ١٩٦٧ فوجدت بعد عامين وطناً محتلاً من قبل الجيش الروسى وشعباً يخاف من كل شىء ، ويتمنى أن يكون بروحه فى مكان آخر حيث الحرية ، حيث أوروبا . أما الفتاة التشيكية الشابة كان عليها أن تزور وبعد عامين الندوات نفسها التى كان على كل من يرغب أن يكون فى

منتصف الأحداث الثقافية أن يحضرها ، فقد علمت أننا قبل فترة " أوديب " نمر جميعا فى طفولتنا المبكرة بما أطلق عليه المحلل النفسى الشهير بمرحلة المرأة ، بمعنى أنه قبل أن يدرك كل منا جسد الأم أو الأب فإنه يعى جسده الخاص . لقد قدرت المرأة التشيكية الشابة أن العديد من بنات بلدها قد تخطوا فى نموهم هذه المرحلة . جمعت حولها حلقة من السيدات الشابات وهى محاطة بهالة باريس وندواتها الشهرية ، أخذت تشرح لهم النظرية التى لم تفهمها إحداهن ، وقامت بتمارين عملية كانت بسيطة ولكنها معقدة كنظرية : تجردن جميعهن من ملابسهن وأخذت كل منهن تنظر إلى نفسها فى مرآة كبيرة ثم أخذت تنظر كل منهن إلى الأخرى طويلاً ويامعان ، وفى النهاية وضعت كل منهن للأخرى مرآة صغيرة لكى ترى مالم تراه على جسدها من قبل . لم تنس رئيسة الحلقة للحظة أن تتحدث أثناء ذلك بلغتها النظرية ، أخذهن غموضها الساحر جميعاً بعيداً عن الاحتلال الروسى ، بعيداً عن مقاطعتهم بالإضافة إلى هذا قدمت لهن أيضاً نوعاً من الإثارة الخفية التى لا يمكن وصفها والتى كن يمتنعن عن الخوض فيها . من المحتمل أن رئيسة الحلقة فضلاً عن أنها كانت تلميذة لـ " لاكان " العظيم ، كانت امرأة سحاقية كذلك ، ولكنى لا أعتقد أن الحلقة كان بها مزيد من السيدات المساحقات عن قناعة . أعترف أن أكثر من راودتنى فى الحلم من كل هؤلاء السيدات كانت فتاة ساذجة تماماً كل مايعنيها فى الأمر من الجلسات هو الخطاب الغامض لـ « لاكان » والمترجم إلى اللغة التشيكية بطريقة سيئة . آه ،

جلسة علمية لسيدات عاريات فى شقة إحدى المدن الشيكية الإقليمية
تجوب فى شوارعها دورية عسكرية روسية ، آه هذه المناقشات العلمية
التي كانت أكثر إثارة من الدعارة حيث يحاول الجميع إنجاز ما يلزم
وما تم الاتفاق عليه وله غرض واحد ولا شىء سواه ! لترك وبسرعة
المدينة الشيكية الصغيرة ونعود إلى حجر بول : على إحدى رجله
تجلس لاورا ، ولنتخيل أن على الأخرى هذه المرة لأسباب تجريبية
لا تجلس بريجيتا بل أمها :

لاورا تعيش شعورا جميلا بأنها تلامس بمقعدتها مابض الرجل
الذى رغبت فيه سرًا ، إن هذا الشعور ملئ بالإثارة وخاصة أنها
جلست على حجره لا كعشيقة له بل كشقيقة لزوجته بموافقة كاملة من
زوجته . إن لاورا مدمنة للتعددية . إن الموقف الذى تعيشه أجنس
ليس مشيرًا فى شىء ، ولكن لا يمكنها أن تصمت عن جملة مضحكة
تدور برأسها على الدوام : " على كل ركبة من ركبتى بول توجد
فتحة لمقعدة امرأة ! إن أجنس مراقب بديهي للتعددية .

وماذا عن بول ؟ إنه يعج ويمزح وهو يرفع ركبتيه واحدة
بعد الأخرى حتى لا تعتقد ولو للحظة أية واحدة من الأختين أنه خال
طيب ومرح ومستعد أن يصبح فى أى وقت حصان سابق لبنات أخته .
إن بول مغفل فى مسألة التعددية . فى فترة أزمتها العاطفية كانت
لاورا فى أوقات كثيرة تسأله النصيحة وتلتقى به فى العديد من المقاهى
ولنسجل هنا إنها لم تقل كلمة واحدة عن الانتحار . طلبت لاورا من

أختها أن لا تتكلم مطلقا عن خططها المرضية ولم تبج هى نفسها لبول بها . إن التصور الوحشى للموت لم يفسد النسيج الرقيق للحزن الجميل الذى كان يلفها ، جلسا متقابلين وتلامسا للحظة . ضغط بول على يدها أو كتفها تماما كما نفعل عندما نريد أن نمنح شخصا ما الثقة والقوة ، لأن لاورا كانت تحب برنارد والمحبون يستحقون المساعدة .

كنت أحب أن أقول أنه فى هذه اللحظات كان ينظر فى عينيها ، ولكن هذا لن يكون دقيقا حيث إن لاورا كانت قد بدأت ترتدى من جديد النظارة السوداء ، كان بول يعرف أنها تفعل ذلك حتى لا يرى عينيها الدامعتين ، اكتسبت من جديد النظارة السوداء العديد من المعانى : أضفت على لاورا الكثير من الأناقة الشديدة والقوة ؛ ولكنها كانت تشير فى الوقت نفسه إلى شىء جسمانى وحسى إلى درجة كبيرة : إلى عين أصبحت فجأة نافذة إلى الجسد ، وواحدة من بوابات جسد المرأة الجميلة التى يتحدث عنها " أبولينير " فى قصيدته الخالدة ، نافذة لها زجاج أسود مبللة ومغطاة بورقة من التين . حدث عدة مرات أن صورة الدمعة خلف النظارة كانت قوية ، كما كانت الدمعة المتصورة حارة إلى درجة أنها تحولت إلى بخار أحاط بهما وأتت على البصر ، البصيرة .

لقد رأى بول هذا البخار . ولكن هل فهم مغزى هذا ؟ أعتقد أنه لم يفهم . تخيلوا هذا الموقف : فتاة تأتى إلى فتى تبدأ فى خلع ملابسها وتقول : " سيدى الطيب ، يجب أن تعالجنى . " أما الفتى فيقول : " ولكن يا صغيرتى ! أنا لست طبيبا ! " هكذا فعل بول .

العرافة

إذا كان بول أراد فى حوارهِ مع مادفياد أن يبدو وكأنه عالم فذ فى الفجور ، فكيف يكون ممكناً أنه كان أقل فسقاً مع الأختين اللتين تجلسان فى حجره ؟ التفسير كالتالى : لقد كانت الخلاعة فى منطقة ما هى إلا حقنة شرجية حميدة أراد أن يداوى بها الثقافة والحياة العامة والفن والسياسة ، حقنة شرجية لـ "جوته" ونابليون ، ولكن انتبه : لم تكن حقنة شرجية للاورا ولا لبرنارد ! فقد خلصه إيمانه الكبير بالحب من كفره بـ "بيتهوفن" و "ريمبولد" .

لقد ارتبط مفهوم الحب عنده بصورة البحر ، أكثر العناصر جميعاً صخباً . عندما كان يقضى مع أجنس إجازة كان يترك نافذة الغرفة بالفندق مفتوحة على مصراعيها حتى يصل إليهما من الخارج صوت البحر فيمتزجان مع هديره الهائل . كان يحب زوجته وسعيداً معها ، ورغم ذلك أصابته فى أعماقه خيبة أمل ضعيفة وكلية من أن حبهما لم يعبرا عنه يوماً ما بطريقة أكثر درامية . لم يكن يتمنى للاورا العثرات التى وقفت فى سبيلها ، لأنهما هما وحدهما وكما كان بول يقول قادران على أن يحولا الحب إلى قصة حب . كان يشعر تجاه أخت زوجته بالتضامن الجياش وآلمته محتتها العاطفية كما لو أنها أصابته هو نفسه .

اتصلت به لاورا يوما ما تلفونيا لكي تخبره أن برنارد سيذهب بالطائرة بعد عدة أيام إلى فيلا الأسرة في "مارتينيك" وأنها أعدت نفسها لتذهب وراءه إلى هناك ضد إرادته . وسيكون الأمر أسوأ إذا وجدته هناك مع امرأة أخرى . فعلى الأقل سيتضح الأمر .

ولكي يجنبها نزاعات لاطائل منها حاول أن يثنيها عن قرارها . ولكن الحديث بدا وكأنه لانهائية له : أخذت تكرر نفس الحجج باستمرار وصار بول على قناعة أنه سيقول لها رغم اعتراضه : مادمت مقتنعة هكذا أن قرارك سليم ، فلا تترددى واذهبي ! " ولكن قبل أن ينطق بهذه الجملة مباشرة قالت لاورا : الشيء الوحيد الذى يمكنه أن يثني عن هذه الرحلة هو لو أنك منعتنى عنها " .

هكذا أشارت على بول بجلاء شديد ما يجب أن يفعله لكي يثنيها عن خططها ، أما هي فاستطاعت أمام نفسها وأمامه أن تحافظ على كرامة امرأة عقدت النية أن تذهب حتى النهاية فى يأسها وحربها . لتتذكر أن لاورا عندما رأت بول لأول مرة سمعت فى نفسها نفس العبارات التى قالها نابليون عن جوته : " انظر ، رجل ! " . لو كان بول رجلا بمعنى الكلمة لمنعها وبلا تردد من السفر . إلا أنه للأسف لم يكن رجلاً ، لكنه كان رجل المبادئ الثابتة : فقد محى من قاموسه منذ بعيد كلمة " يمنع " وكان فخورا بهذا . احتج عليها قائلاً : " أنت تعرفين أننى لا أمانع أحدا من شيء " .

أصبرت لاورا على موقفها وقالت : " أنا أريدك أن تمنعني وتأمرنى . أنت تعرف أن هذا الحق لا يملكه أحد سواك . سأفعل ما ستقوله .

ارتبك بول : فعلى مدى ساعة وهو يقنعها أن لا تسافر إلى برنارد . لماذا تطلب منه أن يمنعها بدلا من أن يحاول إقناعها ؟ لزم بول الصمت .

سألته : أتخاف ؟

" أخاف من ماذا ؟ "

" أن تفرض على إرادتك " .

" بما أننى لم أتمكن من إقناعك فليس لى الحق فى أن أمنعك من شيء " .

" هذا ما أقوله : أنت خائف "

" أردت أن أقنعك بالمنطق "

ابتسمت قائلة : " إنك تختبئ وراء المنطق لأنك تخاف أن تفرض على إرادتك . أنت تخاف منى ! " .

أوقعه ضحكها فى ارتباك أشد ، ولكى ينتهى الحوار قال : سوف أفكر فى الأمر .

ثم سأل أجنس عن رأيها .

قالت : " لا يجب أن تذهب إليه . إنه لغيباء شديد . إذا تكلمت معها فافعل كل ما فى وسعك كي لا تسافر إليه ! " غير أن رأى أجنس لم يكن يعنى الكثير وذلك لأن بريجيتا كانت مستشار بول الرئيسى .

عندما شرح لها موقف خالتها ، ردت على الفور . " ولماذا لاتذهب ؟ فالإنسان يجب أن يفعل ما يروق له " .

ولكن بول عارضها قائلاً : ولكن تخيلى أنها ستجد هناك عشيقة بول ! وستصنع له فضيحة بشعة هناك ! " " ولكن هل قال لها أنها قد تجده هناك مع امرأة أخرى ؟ " " كلا " .

" كان عليه إذن أن يقول . وبما أنه لم يقل لها هذا فهو جبان وليس من المنطق البقاء عليه . ماذا يمكن أن تخسر لاورا ؟ لاشيء " .

يمكننا أن نتساءل ، لماذا أعطت بريجيتا لبول هذه الإجابة وليس غيرها . أهو تضامن مع لاورا ؟ كلا . كانت لاورا تتصرف غالباً وكأنها ابنة بول ، وكان هذا الأمر مضحكاً ومكروهاً من بريجيتا . لم يكن عندها أدنى رغبة للتضامن مع خالتها ، كل ما كان يهملها فى الأمر شيء واحد وهو أن تحظى بإعجاب والدها . كانت تتوقع أن بول سيلجأ إليها كالعرافة ولهذا أرادت أن تدعم سلطتها السحرية . قررت وهى تعتقد صواباً أن أمها ضد سفر لاورا أن تتخذ موقفاً مغايراً وتحدث بلسان الشباب وأن تفتن أباهما بإيماة الشجاعة الطائشة .

هزت رأسها بحركات أفقية وهى ترفع ذراعسيها وحاجبيها بينما بول كان يتذوق هذا الشعور الجميل بأن ابنته تمثل له حاشدة كهربائية يستمد منها طاقته . كان يتوقع أن يكون أكثر سعادة لو كانت أجنس استقلت الطائرة ولاحقته لتبحث عن عشيقاته فى الجزر البعيدة . لقد تمنى طيلة حياته أن تضرب المرأة التى أحبها رأسها من أجله فى الحائط وأن تصرخ من اليأس أو تقفز فى الحجرة من السعادة . قال لنفسه إن لاورا وبريجيتا على حافة الجراءة والجنون وإن الحياة بدون بذرة جنون لاتستحق أن نعيشها . فلتستمع لاورا لصوت قلبها ! يجب أن تقلب كل أفعالنا فى وعاء العقل مثل الفطيرة ؟

أعترضها من جديد قائلاً : " ولكن يجب أن تعرفى أن لاورا امرأة حساسة وهذا السفر قد يجعلها تتعذب " .

أنهت بريجيتا الحديث قائلة : " لو كنت مكانها لسافرت ولن يمنعنى أحد " .

عاودت لاورا الاتصال به تليفونياً . ولكى يتجنب حواراً طويلاً قال لها على الفور بمجرد أن سمع صوتها : " لقد فكرت فى الأمر من جديد أريد أن أقول إن عليك أن تفعلى ما تريدينه تمام . وبما أنك تودين الذهاب إلى هناك ، فلتذهبي ! " لقد كنت قررت أن لا أذهب لأنك كنت هيّاباً من هذه الرحلة . مادام أنك توافقنى عليها فسوف أذهب غداً " .

صمت بول . أدرك أن لاورا لم تكن لتذهب إلى " مارتينك " بدون تشجيع قاطع منه . ولكنه لم يكن في استطاعته أن يقول شيئاً ، فالحديث قد انتهى . وغداً ستأخذها الطائرة عبر المحيط الأطلنطي وكان بول يعرف أنه مسئول شخصياً عن سفرها هذا ، الذي كان كأجنس يعتبره في قرارة نفسه هراء لا شك فيه .

الانتحار

مر يومان منذ أن استقلت لاورا الطائرة . فى الساعة السادسة صباحًا رن جرس الهاتف . كان المتحدث لاورا ، أخبرت أختها وزوجها أن الوقت هو منتصف الليل فى " مارتينك " . كان صوتها مرحًا بصورة غير طبيعية ، استتجت منه أجنس على الفور أن الأمور تسير بصورة سيئة .

كانت محقة : عندما رأى برنارد لاورا بين صفوف أشجار النخيل المؤدية إلى الفيلا ، استشاط غضبًا ثم قال لها بحدة : " لقد طلبت منك ألا تأتى " بدأت تشرح له شيئًا ما ولكنه لم يتفوه بكلمة ، وضع بعض حاجياته فى الحقيبة واستقل سيارته وانطلق بها . بقيت بمفردها ، تجولت فى المنزل ثم وجدت فى خزانة الملابس مايوه أحمر كانت تركته أثناء إقامتها السابقة .

" لم ينتظرني هنا غيره ، هذا مايوه وحده " قالت وتحولت من الضحك إلى البكاء . واصلت الحديث وهى تبكى : " إن ما فعله كان شيئًا فظيئًا ، رجعت ثم قررت أن أبقى ، كل شيء سيتم تسويته فى هذه الفيلا ، عندما يعود برنارد سيجدنى مرتدية مايوه " .

دوى صوت لاورا فى الحجرة ، كان يسمعه كلاهما ، ولكن كان لدهما سماعه واحدة وأخذتا يتبادلانها معا بأيدهما .

قالت أجنس : " أرجوك ! اهدئي ، يجب أن تهدئي . حاولي أن تكوني متماسكة وعاقلة " .

ضحكت لاورا من جديد قائلة : " تخيلي أنني اشتريت قبل السفر عشرين علبة حبوب مهدئة ولكنني نسيتها جميعا في باريس . لهذا أنا ثائرة " .

" يا إلهي ، كل شيء على ما يرام ، كل شيء على ما يرام " ردت أجنس وقد شعرت في هذه اللحظة بنوع من الراحة الحقيقة .

" ولكنني وجدت في الدرج هنا مسدسا " واصلت لاورا حديثها وضحكت من جديد وقالت : " من الواضح أن برنارد يخشى على حياته ! يخاف أن يهجم عليه السود ! وأرى أن هذا يشير إلى شيء ما " .

" إلى ماذا "

" إلى أنه ترك المسدس هنا من أجلتي " .

" لا تكوني مجنونة ! لم يترك من أجلك شيئا هناك وإنه لم يضع في اعتباره أنك ستأتين ! " .

" بالطبع لم يتركه هنا متعمداً . ولكنه اشترى المسدس الذي لن يستخدمه شخص آخر غيري . لذلك هو تركه هنا من أجلتي : " .

انتاب أجنس من جديد شعور بالعجز اليائس . قالت :
" أرجوكِ ضعى المسدس فى مكانه " .

" أنا لا أعرف التعامل معه ولكن يابول ، هل تسمعنى ؟ "
التقط بول السماعه : " نعم " .

" أنا سعيدة يا بول أننى أسمع صوتك " .

" وأنا كذلك يا لاورا ولكن أرجوكِ . . . "

" أنا أعرف يا بول ، ولكنى لا أستطيع الاستمرار " . . .
أجهشت بالبكاء .

سادت لحظة صمت .

ثم تحدثت لاورا قائلة : " إن هذا المسدس أمامى ولا أستطيع أن
أصرف عينى عنه " .

قال بول : " فلتعيديه إلى مكانه إذن " .

" أنت يابول كنت فى الخدمة العسكرية . .

" أجل "

" كنت ضابطاً "

" ملازم أول "

" معنى هذا أنك تعرف أن تطلق النار من المسدس " .

ارتبك بول ولكن لابد أن يرد : " نعم "

" كيف تعرف أن المسدس محشو ؟ "

" عندما تخرج الطلقة يكون محشوا "

" عندما أضغط على الزناد تخرج الطلقة ؟ "

" يمكن أن تخرج "

" ماذا تعنى بـ : يمكن ؟ "

" إذا كان زر الأمان مفتوحًا ، ستخرج الطلقة . "

" وكيف تعرف أن زر الأمان مفتوح ؟ "

صرخت أجنس وهى تجذب السماعة من يد بول : " أتشرح لها كيف تطلق على نفسها النار ! "

استمرت لاورا فى الحديث : " أريد فقط أن أعرف كيف أتعامل معه . يجب أن أعرف كيف أتعامل مع المسدس . ما هو المقصود بأن زر الأمان مفتوح ؟ وكيف يتم هذا ؟ "

قالت أجنس " كفى ، لا أريد كلمة واحدة عن المسدس . أعيدته إلى مكانه . يكفى هذا ، ودعك من اللهو . "

تغير صوت لاورا فجأة وصار جادًا : " أنا ألهو يا أجنس ! "

وأخذت تبكى من جديد .

كان حواراً لا نهاية له ، أجنس وبول يكرران نفس العبارات ويؤكدان للآورا حبهما لها ، ويرجوانها أن تبقى معهما وألا تتركهما ، إلى أن وعدتهما بأنها ستعيد المسدس إلى الدرج وتذهب لتنام . عندما وضعوا السماعة كانا قد أصابهما الإرهاق لدرجة أنهما لم يستطيعا أن يقولوا كلمة واحدة .

ثم قالت أجنس : " لماذا تفعل هذا ! لماذا تفعل هذا ! " أما بول فقال : " إنها غلطتى ، أنا أرسلتها إلى هناك " .
" كانت ستذهب على أية حال " .

هز بول رأسه : " كلا ، كانت مستعدة أن تبقى ، لقد ارتكبت أكبر حماقة فى حياتى " .

لم تكن أجنس تريد أن يتعذب لشعوره بالذنب . ليس إشفافاً عليه ، بل على الأخرى غيره عليه ، لم تكن تريده أن يشعر بالمسئولية عنها إلى هذا الحد حتى لا ترتبط أفكاره بها كثيراً . لهذا قالت :

" وكيف يمكنك أن تثق هكذا بأنها وجدت المسدس هناك ؟ "

لم يفهم بول أى شىء على الإطلاق : " ماذا تريد أن تقولى ؟ "

" إنه لا يوجد هناك مثلاً أى مسدس " .

" أجنس ! إنها لا تقوم بعمل كوميدى ! وهذا واضح ! "

حاولت أجنس أن تصوغ ظنها بحذر : " من الممكن أن يكون هناك مسدس ، ولكن من الممكن أيضاً أن تكون الحبوب المهدئة معها وتحدث عن عمد عن المسدس لكي تربكنا . وليس من المستبعد أنه لا يوجد هناك لا مسدس ولا حبوب منومة وتريد أن تعذبنا " .

قال بول " أجنس ! ، أنت قاسية عليها " .

إن تعنيف بول لها آثار حذرهما من جديد : فلاورا صارت في الفترة الأخيرة وبدون أن يدري بول أقرب إليه من أجنس ، يفكر فيها ويهتم بها ومشغول بأمورها ، ومتأثر بها ، وصارت أجنس مضطرة إلى التفكير بأن بول يقارنها بأختها وأنها شخصياً ستخرج من هذه المقارنة كامرأة تملك القليل من المشاعر .

حاولت أن تدافع عن نفسها : " لست قاسية أردت أن أقول لك إن لاورا تفعل كل ما في وسعها لكي تلفت الأنظار إليها " .

وهذا أمر طبيعي لأنها تعاني ، فالجميع يملكهم السخرية من غرامها الفاشل ويهزون أكتافهم ، وبما أنها تملك مسدساً في يدها فلن يستطيع أحد أن يسخر منها " .

" ولكن كيف هو الحال عندما تؤدي هذه الرغبة في لفت الأنظار إليها إلى الانتحار ؟ أليس هذا ممكناً ؟

" بل ممكن " قالت أجنس وساد بينهما من جديد صمت طويل مليء بالهم .

بعدها قالت أجنس : " يمكننى أن أتصور أن الإنسان يرغب فى الانتحار ، وأنه لم يعد يتحمل الألم ولا ضغائن البشر ، وأنه يريد أن يختفى من أمام أعين الناس وسيختفى ، له الحق فى أن يقتل نفسه . هذا هو اختياره ، لست ضد الانتحار الذى هو وسيلة من وسائل الاختفاء " .

أرادت أن تصمت ولكن الرفض العنيف لما تفعله أختها جعلها تكمل : " ولكن هذا ليس حال لاورا ، فهى لا تريد أن تختفى ، إنها تفكر فى الانتحار لأنها ترى فيه وسيلة للبقاء ، للبقاء معه ، للبقاء معنا ، لأن تحفر إلى الأبد فى ذاكرتنا ، لأن توضع بكامل جسدها فى حياتنا ، لأن تسحقنا " .

قال بول : " لست عادلة ، إنها تتعذب " .

قالت أجنس : " أنا أعرف " ثم انخرطت فى البكاء . تخيلت جثة أختها وبدا لها كل ما قالته الآن صغيراً ووضيعاً ولا يغتفر .

" ألا يمكن أن تكون أرادت فقط أن تستعطفنا ؟ " قالت أجنس ، بدأت تطلب رقم الفيلا فى " مارتينيك " . . رن جرس الهاتف ولم يرد أحد . بدأت قطرات العرق تتصبب من جبينهما من جديد ، كانا يعرفان أنهما لن يمكنهما أن يضععا السماعاة وسيظلان يستمغان إلى رنين الجرس الذى يعنى موت لاورا . وأخيراً سمعا صوتها وبدا غير ودود ، سألاها أين كانت . أجابت " فى الغرفة المجاورة " تحدثا معاً فى السماعاة ، تحدثا عن همهما وأنهما كان يجب أن يسمعا صوتها مرة أخرى لكن يهدأ ، كررا عليها أنهما يحبانها وأنهما ينتظران عودتها بشوق .

ذهب كل منهما إلى عمله متأخراً ولم يفكر طوال اليوم فى شىء إلا فيها . فى المساء عاودا الاتصال بها تليفونياً واستمر الحوار حوالى الساعة ، ومن جديد أكدا لها حبهما وأنهما يشتاقان لرؤيتها .

بعد ذلك بعدة أيام رن جرس الباب . كان بول وحده بالمنزل ، وقفت عند عتبة الباب وهى ترتدى على عينيها نظارة سوداء ، ارتمت فى أحضانها ، ذهباً إلى غرفة الصالون وجلسا فى المقاعد متقابلين ، ولكنها كانت قلقة إلى درجة أنها نهضت بعد لحظة وبدأت تمشى فى الغرفة . تحدثت بحرقة ، ثم نهض هو الآخر من المقعد وبدأ يمشى فى الغرفة مثلها وهو يتكلم أيضاً .

تحدث بازدرء عن تلميذه السابق وحاميه وصديقه . كان يمكن تفسير هذا بالطبع بأنه أراد أن يخفف عن لاورا فى انفصالها عن برنارد . ولكنه شخصياً كان مندهشاً من أن كل ما قاله كان يعنيه جيداً وبصراحة : إن برنارد طفل من أطفال الأسرة الغنية المدللة ، إنسان مغرور ومتكبر .

كانت لاورا تنظر إلى بول وهى متكئة على المدفأة . لاحظ بول فجأة أنها لم تعد ترتدى النظارة . كانت تمسك بها وتحملق فيه بعينيها المنتفختين والمبللتين من البكاء . أدرك بول أن لاورا منذ لحظات لم تكن تنصت إلى ما يقوله .

سكت بول . وساد فى الغرفة الصمت الذى دفعه بقوة ما غامضة إلى أن يتقدم منها . قالت : " لماذا لم نتقابل نحن الاثنان معا من قبل ؟ قبل كل الآخرين .. " .

انطلقت هذه الكلمات بينهما كالضباب . دخل بول إلى هذا الضباب مبرزا يده كمن لا يرى ويخبط ، لمست يده لاورا . تنهدت لاورا وتركت يد بول تلامس بشرتها . ثم خطت خطوة إلى الجانب ووضعت النظارة على وجهها من جديد . هذه الإيماءة جعلت الضباب ينقشع ووقف مرة أخرى وجهًا لوجه كزوج لأختها وكأخت لزوجته بعد ذلك بوقت قصير دخلت إلى الغرفة أجنس التي عادت لتوها من العمل .

· النظارة السوداء ·

عندما رأت أختها أول مرة بعد عودتها من " مارتنيك " وبدلاً من أن تأخذها في أحضانها كمن هى على قيد الحياة وقد نجت من الموت وقفت أجنس جامدة بصورة مثيرة للدهشة . لم تكن ترى أختها بل النظارة السوداء ، ذلك القناع التراجيدى الذى سيرغب فى فرض شكل المشهد التالى . قالت وكأنها لا ترى هذا القناع : " لاورا ! لقد صرت نحيفة بدرجة كبيرة " ثم تقدمت منها بعد ذلك ثم قبلتها قبله خفيفة على وجنتيها تماماً كما يحدث فى فرنسا بين المعارف . إذا اعتبرنا أن هذه كانت أولى الكلمات بعد تلك الأيام الدرامية ، فلا بد أن نعرف أنها لم تكن مناسبة . لم تكن لها علاقة لا بالحياة ولا بالموت ولا بالحب بل بالهضم . ولكن هذا فى نهاية الأمر لم يكن شيئاً فى حد ذاته إلى هذه الدرجة حيث إن لاورا كانت تتحدث عن جسدها بسعادة واعتبرته مجازاً فى التعبير عن أحاسيسها . الأمر الأكثر سوءاً هو أنها لم تقل هذه الجملة بقلق ولا بدهشة حزينة من الهم الذى سببته النحافة ولكن قالتها بجفاء واضح وسأم .

لا شك أن لاورا قد سجلت بدقة نغمة صوت أختها وأدركت مغزاها . ولكنها تظاهرت بأنها لم تفهم ما يعنى الطرف الآخر وقالت بصوت ملئ بالهم : " نعم لقد فقدت من وزنى سبعة كيلو جرامات " .

أرادت أجنس أن تقول : " كفى ! كفى لقد استمر هذا طويلاً !
كفى عن هذا ! " ولكنها تماسكت ولم تقل شيئاً .

رفعت لاورا ذراعها قائلة : " انظر ! إن هذه ليست ذراعى ، بل
هى عصا . أنا لا أستطيع أنا أرتدى تنورة واحدة " .

كلها تسقط على جسمى . كذلك أنزف دمًا من أنفى . وكما لو
أنها أرادت أن تبرهن على ما قالت ، رفعت رأسها إلى أعلى وأخذت
تتنفس بعمق من أنفها بصوت عال شهيقاً وزفيراً .

أخذت أجنس تنظر إلى هذا الجسد الذابل بنفور لا يقاوم
وسيطرت عليها هذه الفكرة : أين ذهبت السبعة كيلو جرامات التى
فقدتهم لاورا ؟ هل اختفت فى الفضاء كطاقة مستهلكة ؟ أم أنها
ذهبت إلى المجارى مع الغائط ؟ أين اختفت السبعة كيلو جرامات التى
لا تعوض من جسد لاورا ؟

أثناء ذلك نزع لاورا النظارة السوداء من على عينيها ثم
وضعتها على إفريز المدفأة التى كانت تتكى عليها . التفتت نحو أختها
بعينيها المنتفختين تماماً كما استدارت من لحظات نحو بول .

عندما نزع النظارة بدت وكأنها كشفت وجهها . وكأنها تعرت
من ملابسها . ولكن ليس كالمرأة التى تخلع ملابسها أمام عشيقها بل
على الأحرى كمن يتجرد من ملابسه أمام الطبيب وهو يوكل إليه كل
مسئولية عن جسده .

لم تتمكن أجنس من أن تسكت عن الجملة التى شغلت بالها
فقالت بصوت عال : " كفى ! توقفى عن هذا . لقد استنفدت كل
قوانا . ستفصلين عن برنارد مثل ملايين السيدات اللاتى انفصلن عن
ملايين الرجال دون أن يهددن بالانتحار " .

قد نعتقد أنه بعد عدة أسابيع من المحادثات التى لا تنتهى ، حيث
استحلفتها أجنس بحبها الأخوى لها ، كان يجب أن تندهش لاورا
من هذا الانفجار ، ولكن الغريب أنه لم يدهشها ، لقد تلقت لاورا
كلمات أجنس وكأنها قد استعدت لها منذ فترة . قالت بمنتهى الهدوء :
" سأخبرك بما أعتقد . أنت لا تعرفين ما هو الحب ، إنك لم تعرفيه
مطلقاً ولن تعرفيه . إن الحب لم يكن يوماً جانباً من جوانبك
القوية " .

عرفت لاورا أن أختها بجريئة ، خافت أجنس من هذا ، أدركت
أن لاورا تتحدث الآن بالذات لأن بول يسمعها . واتضح فجأة أن
ما حدث لم يكن علاقة ببرنارد ، وأن كل دراما الانتحار لم تكن من
أجله ، وأغلب الظن أنه لن يعرف عنها شيئاً على الإطلاق . هذه
الدراما كانت من أجل بول وأجنس . خطر لها أيضاً أن الإنسان عندما
يبدأ فى الحرب ، يحرك القوة التى لا تقف عند أول هدف ، وأنه بعد
الهدف الأول ، وهو برنارد بالنسبة للاورا ، توجد أهداف أخرى .

لم يعد ممكنا تجنب الصراع . قالت أجنس : " بما أنك فقدت من أجله سبعة كيلو جرامات ، فإن هذا يعتبر دليلاً مادياً على الحب الذى لا يقاوم . لكن مازال هناك شيء لأفهمه . عندما أحب شخصاً ما ، فأنا أريد أن أفعل من أجله كل ما هو طيب . وعندما أكره شخصاً ما ، أتمنى له كل ما هو خبيث . أنت فى الأشهر الأخيرة أسأت معاملة برنارد ومعاملتنا . ماعلاقة هذا بالحب ؟ لا شيء " .

لنتخيل الآن غرفة الصالون وكأنها خشبة المسرح : أسفل على اليمين توجد المدفأة ، وفى الجهة المقابلة يوجد مشهد تغطيه مكتبة . فى المنتصف من الخلف توجد أريكة ومنضدة قصيرة وكريسيان . بول يقف فى منتصف الغرفة ، لاورا تقف عند المدفأة وتحقق النظر فى أجنس التى تبعد عنها خطوتين ، عينا لاورا المنتفختان تتهمان أجنس بالقسوة وعدم الفهم والبرود ، وبينما أجنس تتكلم ، تتراجع لاورا إلى الخلف تجاه منتصف الغرفة حيث يقف بول ، كأنها بهذا التراجع تكشف عن خوفها المثير للدهشة من الهجوم الظالم من أختها وعندما لم يكن بينها وبين بول سوى مجرد خطوتين ، توقفت وأخذت تكرر : " أنت لاتعرفين ما هو الحب " .

تقدمت أجنس إلى الأمام وأخذت مكان أختها عند المدفأة ، قالت : " أنا أفهم ما هو الحب . فى الحب يكون الطرف الآخر ، من نجهه ، هو الأهم ، هذا هو المقصود ولا أحد غيره . وأنا أسأل ،

ماذا يعنى الحب بالنسبة لمن لايمكنه أن يرى سوى نفسه . بمعنى آخر ،
ماذا تعنى كلمة الحب بالنسبة لامرأة مشغولة بنفسها تماما " .

قالت لاورا : " يا أختى العزيزة ! إن السؤال عن ما هو الحب
أمر ليس له منطق ، إما أن تمارسى الحب أو لا تمارسيه . الحب
هو الحب ، ولا يمكن أن نقول عنه أكثر من هذا ، إنها أجنحة ترفرف
فى صدرى وتحثنى على أشياء تبدو لك غامضة ، وهذا هو بالفعل
ما لم يحدث لك مطلقا . لقد قلت أننى لا أستطيع أن أرى سوى
نفسى ، ولكنى أراك ، أراك فى أعماقك ، عندما أخذت تؤكدين لى
فى الفترة الأخيرة حبك لى ، كنت أعرف جيدا أن هذه الكلمة فى
فمك لا تحمل أى معنى . لم تكن سوى خديعة ، ذريعة تطيب
خاطرى وتمنعنى من أن أعكر من صفو حياتك . أنا أعرفك يا أختى :
أنت تعيشين حياتك كلها فى الجانب الآخر من الحب فى الجانب
الآخر تماما . خلف حدود الحب " .

تحدث الأختان عن الحب وهما ممثلتان بالكراهية . أما الرجل
الذى كان معهما هنا فقد أصابه اليأس مما يرى . أراد أن يقول شيئا ما
يهدئ من التوتر الشديد : " نحن الثلاثة متعبون ومنفعلون . وفى
حاجة إلى أن نذهب جميعا إلى مكان ما وننسى برنارد " .

ولكن برنارد كان فى طى النسيان منذ زمن بعيد ، ولم يؤثر تدخل بول فى أى شىء أكثر من أن المشاحنة الكلامية بين الأختين تحولت إلى صمت لم يكن به جرام من الشفقة ولا ذكرى واحدة تدعو للتصالح ، ولا حتى شعور ضعيف برباط الدوام ولا التضامن العائلى .

لنجعل عيننا لا تتحول عن المشهد بأكمله : على اليمين تقف أجنس متكئة على المدفأة . فى منتصف الحجرة تقف لاورا متجهة نحو أختها وعلى بعد خطوتين منها يقف بول على يسارها . بول يحرك الآن يده يائساً من أنه لا يمكنه أن يمنع الحقد الذى انفجر بطريقة لا معنى لها بين الأختين اللتين يحبهما . استدار وذهب صوب المكتبة وكأنه يريد أن يتعد عنهما بقدر الإمكان ثم اتكأ بظهره عليها . وجه رأسه صوب النافذة وحاول أن لا يراها .

رأت أجنس النظارة السوداء على إفريز المدفأة فالتقطتها بيدها لاشعوريا ، نظرت إليها ببغضاء وكأنها تمسك فى يدها دمعتين مسودتين للأختين . شعرت بنفور من كل ما يأتى من جهة أختها ، واعتبرت أن هاتين الدمعتين الزجاجائيتين أحد إفرازات هذا الجسد .

نظرت لاورا إلى أجنس ورأت نظارتها فى يدها . شعرت فجأة بحاجة إلى النظارة . كانت تحتاج إلى درع أو غطاء تحجب به وجهها عن كراهية أختها . وفى الوقت نفسه لم تستطع أن تتخذ قراراً . تتقدم أربع خطوات نحو أختها - العدو وتأخذ من يدها النظارة .

كانت خائفة منها . فاستسلمت وتعتريها رغبة ماسوشية جريئة
فى تعرية وجهها الذى انطبعت عليه كل آثار معاناتها . كانت تعرف
جيداً أن أجنس تكره جسدها وحديثها عنه وعن السبع كيلو جرامات
التي فقدتها ، عرفت هذا بحدسها وشعورها ، ربما لأنها أرادت ، من
منطق التحدى ، أن تكون فى هذه اللحظة بقدر الإمكان جسداً مهجوراً
ومطروحاً . أرادت أن تضع لهما جسدها هذا فى منتصف غرفة
الصالون وتتركه هنا . تتركه هنا يرقد ثقيل لا يتحرك ، وإن كانا
لا يرغبان فى أن يتركا هنا . فلتجبرهما على أن يحملا هذا الجسد ،
جسدها ، أحدهما من يديه والآخر من رجليه ويضعاه أمام المنزل كما
يلقيان فى الليل سرّاً بمرتبة قديمة مهملة .

كانت أجنس تقف عند المدفأة وتمسك فى يدها بالنظارة السوداء .
وكانت لاورا فى منتصف غرفة الصالون ومازالت تخطو خطوات
قصيرة إلى الخلف بعيداً عن أختها . خطأ بول آخر خطوة إلى الخلف
حيث التصق ظهرها بشدة وعن كذب بيول ، ولأن المكتبة كانت خلف
بول لم يستطع أن يتراجع أكثر من ذلك . مدت لاورا ذراعها إلى
الخلف وأمسكت بشدة مابض بول ، ثم رفعت رأسها إلى الخلف
وضغطت بها على صدر بول .

أجنس تقف فى ناحية من الغرفة وهى تمسك بيدها النظارة
السوداء ، وفى الناحية الأخرى المقابلة لها وبعيداً عنها تقف لاورا

الملتصقة بيول كالصنم لا حراك فيها ، كلاهما يقف بلا حراك ،
كالجماد . الجميع صامت ، وبعد لحظة تباعد أجنس إصبع السبابة عن
الإبهام ، وتسقط النظارة السوداء ؛ رمز الحزن عند أختها ، هذه
الدمعة المجازية على البلاط الحجري أمام المدفأة وتنكسر .

الجزء الرابع

الإنسان العاطفي

(١)

ألقى أمام المحكمة الأبدية المنعقدة لجوته عدد لا يحصى من كلمات الاتهام ، والشهادات التي تتعلق بقضية باتينا . ولكي لا أجهد القارئ بإحصاء الأشياء التافهة ، سأقدم فقط ثلاث شهادات أعتقد أنها الأهم .

أولاً : شهادة " رينر ماريا ريلكه " ، أكبر شاعر ألماني بعد جوته .
ثانياً : شهادة " رومان رولاند " الذي كان في العشرينيات ، والثلاثينيات واحداً من أكثر كتاب الروايات الذين تقرأ أعمالهم بين الأورال ، والأطلسي ، والذي يستخدم فوق ذلك الصلاحيات الكبيرة للإنسان التقدمي ، المناوئ للفاشية ، الإنساني ، المسالم ، صديق الثورة .

ثالثاً : شهادة الشاعر " بول إيلوار " ، العضو الرائع في جماعة الرواد ، شادي الحب ، أو نقول كما يقول هو شادي الحب - الشعر .
لأن هذين المفهومين (كما تشهد بذلك واحدة من أجمل مجموعاته الشعرية التي تسمى *l'Amour de la Poésie* تمتزجان في مفهوم واحد .

(٢)

وكشاهد تم استدعاءه للمحكمة الأبدية يستخدم " رلكه " الكلمات بعينها التي كتبها في أشهر كتاب نثرى له ، ملاحظات مالت

لوريس بريج ، والصادر فى عام ١٩١٠ ، والذي يتوجه فيه لباتينا
بهذه المناجاة الطويلة :

" كيف يمكن أن الجميع حتى الآن لا يتحدث عن حبك ؟ ربما
حدث منذ هذه الفترة شىء أكثر ذيوعا ؟ بماذا سينشغلون إذا ؟ أنت
نفسك كنت تعرفين ثمن حبك ، لقد ألححت به على الشاعر الكبير
لكى يجعله حبا جسديا " لأن هذا الحب كان مازال فى بدايته ، ولكنه
جعل الناس ينصرفون عنه عندما كتب إليك ، فالجميع قرأوا ردوده ،
وصدقوها أكثر ، لأنهم يفهمون الشاعر أكثر من الطبيعة . ولكن قد
يثبت ذات مرة أنه كان هناك حدود لجبروته وأن هذه العاشقة كانت
مقدمة له (auferlegt) ولكنه لم يحتملها er hat sie nicht bestanden ،
والضمير sie هنا يعود على العاشقة ، على باتينا : لم يجتز
الامتحان ، الذى كان بالنسبة له باتينا) . ماذا يعنى أنه لم يكن يعرف
التضحية (erwidern) ؟ مثل هذا الحب لا يحتاج لأية تضحية ، فهو
يتضمن فى داخله (Lockruf) الالتماس ، وتلبيته ؛ يجيب على نفسه
بنفسه . ولكن كان عليه أن ينحنى أمامه بكل جلاله ، وذلك بأن
يكتب ما تمليه عليه مثلا بتركيز شديد ، جاثيا على ركبتيه ويديه . لم
يكن هناك اختيار آخر متاح فى وجود هذا الصوت الذى يتصرف
بتفويض من الملائكة (verrichtet die , das Amt) الذى جاء له
ليحجبه ، وبأخذه إلى الأبدية . كان هذا هو العربة التى تأخذه فى
طريقها المبهرج عبر السماوات . كان هذا عبارة عن أسطورة غامضة
معدة لموته وتركها غير مكتملة " .

(٣)

أما شهادة رومان رلاندر فهي تخص العلاقة بين جوته وبيتهوفن وباتينا . فقد شرح هذا الروائي تلك العلاقة بالتفصيل في مؤلفه " جوته وبيتهوفن " الذي صدر في باريس في عام ١٩٣٠ . ورغم أنه يحاول التخفيف من رأيه إلى حد ما ، لكنه على كل حال لا يخفى أن تعاطفه الأكبر كان تجاه باتينا : فهو يشرح الأحداث تقريبا مثلها . لا ينكر على جوته عظمته ، ولكنه يشعر بالحسرة تجاه حذره من السياسة ومن الجمال ، والذي لا يناسب العباقرة . وماذا عن كرستيانا ؟ أخ ، من الأفضل ألا نتحدث في هذا الأمر ، إنها من وجهة نظره " nullité d'esprit " فارغة من الداخل .

لقد عبر عن هذا الرأي ، أكرر مرة أخرى ، بلطف وبرغبة في السلام . فالأتباع دائماً أكثر تطرفاً من ملهميهم . إنني أقرأ على سبيل المثال السيرة الذاتية شديدة الدقة لبيتهوفن بالفرنسية والصادرة في الستينيات . وفيها يتحدثون بشكل مباشر عن " جين " جوته ، وعن " خنوعه " وعن " خوفه بشكل مرضي من كل ما هو جديد في الأدب ، وفي علم الجمال " إلخ إلخ . ، وفي مقابل ذلك فإن باتينا تتمتع " بسرعة البديهة والقدرة على التنبؤ والتي تنزلها منزلة العباقرة " . أما كرستيانا فكالعادة ليست أكثر من زوجة بائسة "volumineuse épouse" وبدينة .

(٤)

ورغم أن رلكه وحتى رولاند يقفان فى صف باتينا ، فإنهما يتحدثان عن جوته بإجلال . ففى نص " دروب وطرق الشعر " (والذى كتبه ، فلنكن منصفين له ، فى أسوأ فترة من حياته ، فى عام ١٩٤٩ ، عندما كان تابعاً مخلصاً لـ " ستالين ") يختار " بول إيلوار " لـ Saint-just الحقيقى للحب والشعر كلمات أكثر صرامة :

" إن جوته ينوه فى جريدته اليومية عن لقائه الأول مع باتينا برثنانو فقط بهذه الكلمات : "Mamsel Brentano" . إن الشاعر المعروف ، مؤلف " فرتر " ، فضل الوثام المنزلى على جنون الهوى المقنع بالحسوية (délirs actives de la passion) . لا ينبغي أن تعكر جميع التخيلات ، وموهبة باتينا عليه صفو حلمه الكبير ، فإذا ترك جوته نفسه للحب ليأخذه ، لكان من الممكن أن يهبط شعره إلى الأرض ، غير أن هذا ما كان لينقص من قدر حبنا له ، لأنه فى مثل هذه الظروف لم يكن من المحتمل أن يصبر على دوره كمحظية ، ولم يكن ليعادى شعبه ، ويقنعه أنه من الضرورى تفضيل الظلم على الفوضى " .

(٥)

كتب ريلكه " هذه العاشقة قُدمت له " ونحن يمكن أن نسأل : ماذا تعنى صيغة المجهول هذه ؟ أو بمعنى آخر : من الذى قدمها إليه ؟

السؤال نفسه يخطر ببالنا إذا قرأنا هذه الجملة من خطاب باتينا لجوته فى الخامس عشر من يونيو عام ١٨٠٧ : " لا يجب أن أخاف من إدمان هذا الشعور ، فلست أنا الذى غرسته فى قلبى " .

من الذى غرسه إذا ؟ جوته ؟ بالتأكيد لم ترد باتينا قول ذلك . إن الذى غرسه فى قلبها كان شخصاً ما أقوى منها ومن جوته ، فإذا لم يكن الله ، فعلى الأقل أحد الملائكة ، الذين يتحدث عنهم ريلكه فى الفقرة التى تم الاستشهاد بها .

وفى هذا المكان يمكننا أن نقف إلى جانب جوته : فإذا كان أحد (الله أو أحد الملائكة) غرس هذا الإحساس فى قلب باتينا ، فإنه من الطبيعى أن باتينا ستستجيب لهذا الإحساس : إنه إحساس فى قلبها ، إنه إحساسها هى . ولكن على ما يبدو أن أحداً لم يغرّس أى إحساس فى قلب جوته . كانت باتينا " مُقدّمة " له ، مقدمة له كواجب . **Auferlegt** . فكيف إذاً يمكن أن يعتبر رلكه جوته شخصاً شريراً ، لأنه يمتنع عن الواجبات التى كلف بها رغم أنه ، قائلاً هذا بدون أدنى تحذير ؟ لماذا يجب أن يجثو على ركبتيه ، ويكتب " بكلتا يديه " ما يمليه عليه الصوت القادم من أعلى ؟

لا نجد أى إجابة منطقية على ذلك ، ويمكننا أن نساعد فقط باستخدام المقارنة : فلتتخيل " شيمون " يصطاد السمك عند بحيرة الجليل . ثم يأتى إليه " يسوع " ويطلب منه أن يترك شبابه ويتبعه .

فيقول شيمون : " دعنى وشأنى . إن شباكى وأسماكى أحب إلىّ .
" فيصبح شيمون هذا فى التو شخصية كوميدية ، " فالستف " الإنجيل ، مثلما أصبح جوته " فالستف " الحب فى عينى رلكه .

(١)

ويقول ريلكه عن حب باتينا " إنه لا يحتاج لأى توضحية ، لأنه يتضمن فى نفسه الالتماس وتلبيته ، يجيب نفسه بنفسه " . إن الحب الذى يخرسه بستانى الملائكة فى قلوب الناس لا يحتاج لأى موضوع ، لأى قبول ، لأى - كما تقول باتينا - **Gegen-Liebe** (حب متبادل) . فالمحبوب (جوته مثلا) ليس سبب الحب ولا غايته .

وفى فترة مراسلاتها مع جوته تكتب باتينا كذلك خطابات غرامية لأرنم . تقول فى أحدها : " إن الحب الحقيقى (**wahre Liebe die**) غير قادر على الخيانة " . فمثل هذا الحب لا يهتم بالقبول ("**die Liebe ohne Gegen-Liebe**") ، إنه يبحث عن المحبوب فى أى صورة من الصور " .

فإذا كان الذى غرس الحب فى قلب باتينا هو جوته أو أرنم وليس البستانى الملائكى ، لكان قد ترعرع فى قلبها حب جوته أو حب أرنم . حب لا مثيل له ولا يستبدل ، موجه للشخص الذى غرسه ، للمحبوب ، أى لا يتغير . فمثل هذا الحب يمكن تعريفه على أنه علاقة : علاقة مميزة بين شخصين .

إن ما تسميه باتينا *Wahre Liebe* (الحب الحقيقى) ليس الحب -
العلاقة ، ولكن الحب - الإحساس . النار التى تشعلها يد علوية فى
نفس الإنسان . المشعل الذى على ضوءه " يبحث المحب عن المحبوب
فى أى صورة من الصور " . مثل هذا الحب (الحب - الإحساس)
لا يعرف ما هى الخيانة ، لأنه رغم أن موضوع الحب يتغير ، فإن الحب
نفسه يبقى دائماً بنفس اللهب المشتعل بواسطة تلك اليد العلوية .

ومادام أننا وصلنا فى مداولاتنا إلى هذا الحب ، فإننا مستعدون
لأن نبدأ فى إدراك ، لماذا طرحت باتينا على جوته فى مراسلاتها
المستفيضة هذا الكم القليل من الأسئلة . يا إلهى ، فإذا تخيلتم أنكم
تتراسلون مع جوته ! كنتم ستسألون عن كل شئ : عن مؤلفاته ،
عن مؤلفات معاصريه . عن الشعر . عن النثر . عن الصور . عن
ألمانيا ، . عن أوروبا . عن العلم والتكنولوجيا ، وتلحون عليه بالأسئلة
حتى يضطر لتحديد مواقفه . وتتشاجرون معه حتى تجبروه على قول
ما لم يقله حتى الآن .

ولكن باتينا لا تتبادل الآراء مع جوته . ولا تتحاور معه حتى عن
الفن . باستثناء واحد : تكتب له عن الموسيقى . ولكنها هى التى
تقوم بالتفسير ، وجوته يؤمن بوضوح بشئ آخر . ولكن كيف أن
باتينا لا تسأله بالتفصيل عن أسباب عدم موافقته ؟ فإذا كانت تعرف
كيف توجه له الأسئلة ، لوجدنا فى إجابات جوته أول نقد لموسيقى
الرومانسية .

آخ ، لا لم نجد فى هذه المراسلات المستفيضة شيئاً من هذا القبيل ،
نقرأ فيها القليل جداً عن جوته ، وذلك ببساطة لأن باتينا كانت تهتم
بجوته بدرجة أقل جداً مما كنا نتوقع . فلم يكن السبب والغرض من
حبها هو جوته ولكن الحب نفسه .

(٧)

إن لأوروبا سمعة الحضارة القائمة على العقل . ولكن يمكن القول
عنها كذلك وبنفس الدرجة أنها حضارة الوجدان ، والتي كونت نمطاً
من البشر نسميه بالإنسان العاطفى .

فالديانة اليهودية تعلم المؤمنين القانون . فهذا القانون يريد أن
يكون متاحاً للعقل (فالتلمود ليس إلا تفسيراً عقلانياً متواصلاً
للأحكام التى أقرها الإنجيل) ، ولا يتطلب أى تفسير خاص للظواهر
غير الطبيعية ، أو اندفاع استثنائى أو حتى لهيب مجهول المصدر فى
النفوس . إن معيار الخير والشر ، موضوعى : فالأمر يتعلق بفهم
القانون المكتوب والالتزام به ، ولكن المسيحية قلبت هذا المعيار رأساً
على عقب : فقد قال "أوجستن" المقدس : أحب الله ، وافعل
ما تريد ! فإن معيار الخير والشر تم وضعه فى النفس المستقلة وأصبح
ذاتياً وإذا كانت نفس هذا أو ذاك ممثلة بالحب فكل شيء على ما يرام :
فهذا الإنسان خير وكل ما يفعله خير .

وباتينا تفكر مثل أوجستين المقدس عندما تكتب لأرنم : " لقد وجدت قولاً جميلاً يقول : الحب الحقيقي دائماً على صواب حتى وإن لم يكن على صواب . ولكن "لوثر" يقول فى أحد خطاباتة : الحب الحقيقي ليس غالباً على صواب . وإننى لا أجد أن هذا القول مناسب مثل قولى . وفى موضوع آخر يقول لوثر مجدداً : الحب له الأسبقية على كل شىء حتى على التضحية وحتى على الصلاة . أستنتج من ذلك أن الحب هو أعظم فضيلة . إن الحب يجعلنا فاقدين الوعى (bweustlos macht) فى الدنيا ، ويملؤنا بالإحساس السماوى ، وهكذا يخلصنا الحب من الذنوب (macht unschuldig) " . وفى شهادة إن الحب يجعلنا أبرياء ، تكمن أصالة القانون الأوروبى ونظريته فى الإدانة التى تأخذ فى الاعتبار أحاسيس المتهم : فعندما تقتل أحداً ببرودة أعصاب من أجل المال ، فليس لك أية أعذار ؛ فإذا قتلته لأنه أساء إليك ، فإن غضبك يصبح بالنسبة لك من العوامل المخففة ، وتأخذ حكماً أقل ؛ فإذا قتلته بسبب تعاسة فى الحب أو الغيرة ، فسوف تتعاطف معك هيئة المحكمة . وسوف يطالب بول بصفته محامياً عنك بتطبيق أقصى العقوبة على القتل .

(٨)

إن الإنسان العاطفى لا يمكن تعريفه على أنه الإنسان الذى يحس (لأننا جميعاً نحس) ، ولكن كإنسان رفع الإحساس إلى قيمة ، وفى

الوقت الذى يعتبر الإحساس فيه قيمة ، فإن كل إنسان يريد أن يحس ؛ ولأننا جميعاً نحب التفاخر بقيمتنا ، فلدينا ميل لأن نستعرض إحساسنا .

إن تغير الإحساس إلى قيمة برز فى أوروبا فى فترة ما من القرن الثانى عشر : فالشعراء الغنائيون فى العصور الوسطى الذين ينشدون ولعهم الشديد بالمرأة الأرستقراطية صنعة المنال كانوا فى أعين من يسمعونهم محل إعجاب وغاية فى الجمال إلى درجة أن كل فرد أراد أن يصبح على غمطهم ، فريسة لحركة جامحة من حركات القلب .

لم يستطع أحد أن يهتدى بوعى إلى الإنسان العاطفى إلا " سيرفانتس " . فإن " دون كيشوت " سيقدر أن يحب سيدة معينة تسمى " دولسينيا " ، وذلك رغم أنه لا يعرفها تقريباً (وهذا شئ لا يدهشنا ، لأننا نعرف بالفعل أنه عندما يتعلق الأمر بالحب الحقيقى ، فإن دور المحبوب هنا صغير جداً) . وفى الفصل الخامس والعشرين من الكتاب الأول يذهب مع " سانشو " إلى الجبال الموحشة حيث يريد أن يريه مدى ولعه . ولكن كيف أظهر للآخر أن اللهيب يشتعل فى نفسى ؟ وكيف تثبت ذلك لمخلوق ساذج وأحمق مثل سانشو ؟ وهكذا فى طريق الغابة يتجرد دون كيشوت من ملابسه تاركاً القميص فقط ، ولكى يرى الخادم كبر إحساسه بدأ يتشقلب فى الهواء . وفى كل مرة يجد نفسه فى الهواء ورأسه لأسفل ، يترشح قميصه إلى كتفيه ويرى سانشو أعضائه التناسلية وهى تتحرك . إن النظر إلى الذكر الصغير البكر لهذا الفارس يبدو هزلياً للدرجة تأثير الحزن والألم ، حتى إن سانشو صاحب النفس الجاملة لم يستطع الاستمرار فى مشاهدة هذه المسرحية ، ويمتطى صهوة " روسيشت " وينصرف سريعاً .

كان على أجنس بعد وفاة والدها أن تعد برنامج الطقوس الجنائزية ، وكانت تأمل أن يمر الدفن بدون خطب ، وأن يتكون من الاستماع إلى قطعة موسيقية بطيئة الإيقاع من السيمفونية العاشرة لـ "ماهر" والموسيقى التي يجلبها والدها . ولكن هذه الموسيقى كانت حزينة بدرجة كبيرة ، وخافت أجنس من أنها لن تستطيع التحكم في دموعها . فقد بدا لها غير محتمل أن تجهش بالبكاء أمام الناس ؛ ولذا فقد وضعت في الفونوغراف اسطوانة عليها مقطوعة موسيقية بطيئة الإيقاع ، واستمعت إليها . ففي المرة الأولى والثانية والثالثة كانت الموسيقى تذكرها بأبيها ، وكانت تبكى . ولكن عندما دوت القطعة الموسيقية بهدوء للمرتين الثامنة والتاسعة ، فإن فاعلية الموسيقى قد ضعفت وعندما تركت الاسطوانة تدوى للمرة الثالثة عشرة ، لم تؤثر عليها أكثر من لو أنها كانت تسمع النشيد القومى لباراجواى . وبفضل هذا التدريب تمكنت من عدم البكاء أثناء الدفن .

من تعريف الإحساس أنه يولد فى داخلنا بدون إرادتنا ، بل إنه غالباً على خلاف إرادتنا . ففي اللحظة التي نريد فيها أن نحس (التى نقرر فيها أن نحس مثلما قرر دون كيشوت أن يحب دولسينيا) لا يصير الإحساس إحساساً ، بل تزييفاً للإحساس واستعراضاً له ، وهو ما يطلق عليه فى الغالب هستيريا . ولذلك فإن الإنسان العاطفى (أى الإنسان الذى رفع الإحساس ليصبح قيمة) هو فى الحقيقة الإنسان الهستيرى .

إن الشيء الذى لا ينبغى أن يقال هو أن الإنسان الذى يزيّف الإحساس لا يحس . فالممثل الذى يلعب دور الملك العجوز " لير " يشعر على المسرح أمام المتفرجين بالحزن الحقيقى للإنسان المهجور المخدوع ، ولكن هذا الحزن يتبخّر فى لحظة عندما ينتهى العرض . ولذلك فإن الإنسان العاطفى الذى يجعلنا نخجل من الأحاسيس العظيمة ، يستطيع فى لحظة أن يذهلنا بفتوره غير المبرر .

(٩)

كان دون كيشوت بكراً . أحست باتينا لأول مرة بيد رجل على ثديها عندما كانت فى الخامسة والعشرين من عمرها ، عندما انفردت بجوته فى حجرة أحد الفنادق بمنتجع تبليتسه . لقد عرف جوته الحب الجسدى لأول مرة ، إذا كان بإمكانى تصديق مذكراته ، فقط خلال رحلته عبر إيطاليا عندما كان عمره تقريباً أربعين عاماً . وبعد عودته بفترة وجيزة التقى فى فيمار بعاملة تبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً ، وجعلها أول حبيبة دائمة له . كانت هذه كرستيانا فولبيوس ، التى أصبحت فى عام ١٨٠٦ ، وبعد سنوات طويلة من المعاشرة ، زوجته الشرعية ، وفى العام الشهير ١٨١١ أوقعت نظارة باتينا على الأرض . كانت مرتبطة بزوجها بإخلاص (يقال إنها كانت تحميه بجسدها عندما كان يهدده جنود جيش نابليون السكارى) ، وكانت بلاشك أيضاً أنثى رائعة ، كما تشهد على ذلك

كلمات جوته المرحمة ، والذي أطلق عليها "mein Bettschatz" وهو ما يمكن أن نترجمه : كنز فراشى .

لقد وجدت كرستيانا بالطبع نفسها فجأة فى سيرة جوته مستثناة من الحب . فالقرن التاسع عشر (وحتى قرننا هذا الذى مازال يعيش فى أسر القرن السابق) رفض أن يسمح لكرستيانا بدخول معرض حبيبات جوته بجوار " فرديكا " ، و " شارلوتا " ، و " ليليا " ، و " باتينا " أو " أورليكا " . قولوا إن سبب هذا هو أنها زوجته ، وأنا اعتدنا أن نعتبر الزواج تلقائياً شيئاً مبتذلاً . غير أننى أعتقد أن السبب الجوهرى أعمق : إن الجمهور رفض أن يرى فى كرستيانا حب جوته ، وذلك ببساطة لأنه كان يضاجعها . لأن كنز الحب وكنز الفراش شيئان يبعد كل منهما الآخر . فإذا كان كتاب القرن التاسع عشر يفضلون إنهاء الروايات بالزواج ، فذلك ليس لأنهم يريدون أن يحموا قصة الحب من ملل الزواج ، ولكن يحموها من الجماع !

إن جميع قصص الحب العظيمة فى أوروبا تجرى فى مجال بعيد عن الاتصال الجنسى : قصة الأميرة " ديكليفس " ، و " بول فرجينيا " ، وقصة " دومينيك " من رواية " فرومينتن " الذى يحب طوال حياته امرأة واحدة فقط ولم يقبلها أبداً ، وأيضاً بالطبع قصة " فارتير " ، وقصة " فيكتوريا هامسونج " ، وقصة رواية " رومان رولاند " الذى بكت جميع القارئات فى

أوروبا في ذلك الوقت على أشخاصها " بيتر " و "لوتسيا" وفي روية "الأبله" جعل "دوستويفسكى" ناستاسيا فيليوفنا "تضاجع كل مشتر ، ولكن عندما تعلق الأمر بعاطفة حقيقية ، أى عندما وجدت "ناستاسيا" نفسها فجأة بين الأمير "ميشكن" ، والأمير "رجوى" ذابت أعضاؤهم التناسلية في ثلاثة قلوب كبيرة كما يذوب السكر في فناجين الشاي . إن قصة حب "أناكارينا" و "فيرونسكى" انتهت مع أول لقاء جنسى ، ونحن لا نعرف حتى لماذا : هل كان جماعهم ضعيفاً ، أم على العكس من ذلك كان رائعاً لدرجة أن قوة الشهوة ولدت لديهم شعوراً بالذنب ؟ فلنجب على كل هذا . ، لكن سنصل دائماً إلى نفس النتيجة : لا يوجد حب آخر كبير بعد حب ما قبل الجماع ، ولا يمكن أن يوجد .

وهذا لا يعنى أبداً أن الحب البعيد عن الجماع كان حياً بريثاً وملائكياً وطفولياً وعفيفاً ؛ على العكس من ذلك ، إنه يتضمن كل الجحيم الذى يمكن تصور وجوده فى الدنيا . لقد جمعت "ناستاسيا فيليوفنا" بلاخطر الكثير من الأغنياء السافلين ، ولكن فى اللحظة التى التقت فيها بالأمير "ميشكين" والأمير "روجوجين" اللذين ذابت أعضاؤهما التناسلية ، كما قلت ، فى وعاء كبير للإحسانين ، دخلت إلى منطقة الكوارث وماتت . أو أذكركم بهذا المشهد الرائع من قصة دومينيك لفورمنتين : انطلق كلا العاشقين ، اللذين يشتاق كل منهما للآخر لسنوات طويلة ،

ممتطين جواديهما فى رحلة خلوية. ، وبدأت " ماديلينا " الرقيقة ، الناعمة ، المنطوية تنخن الفرس بقسوة غير متوقعة فى سباق غاضب ، لأنها كانت تعرف أن دومينيك الذى يعدو بفرسه بجوارها فارس غير ماهر ، ويمكن أن يلقي حتفه . فالحب البعيد عن الجماع : كإناء النار بغطاء ، يتحول تحته الإحساس مع الغليان إلى لهيب ، وهكذا يقفز الغطاء ويرقص على الإناء كالمجنون .

إن مفهوم الحب الأوروبى له جذوره فى التربة البعيدة عن الجماع ، فالقرن العشرون الذى يتباهى بأنه حرر الأخلاق ويسخر عن طيب خاطر من الأحاسيس الرومانسية ، لم يستطع أن يعطى لمفهوم الحب أى معنى جديد (وفى ذلك يكمن واحد من أسباب فشله) ، ولذلك فإن الشاب الأوروبى عندما ينطق فى نفسه هذه الكلمة العظيمة ، فإنه يعود على جناح الحماسة ، سواء أراد أم لم يرد ، تمامًا إلى حيث جرب " فرتر " حبه لـ " لوتا " وحيث كاد " دومينيك " أن يسقط من على صهوة جواده .

(١٠)

من الغريب أن ريلكه مثلما كان معنيًا بباتينا ، كان معجبًا أيضًا بروسيا ، والتي كان يعتقد أنه يرى فيها وطنه الروحى . لأن روسيا

بالنسبة لبعض العظماء أرض الوجدان المسيحى . فكما تم الحفاظ فيها على المذهب العقلانى لفلسفة العصور الوسطى المتضاربة نظريًا ، فكذلك تم الحفاظ على النهضة . فالعصر الحديث القائم على التفكير الديكارتى النقدى جاء متأخرًا مائة أو مائتى عام . فالإنسان العاطفى لم يجد هناك التوازن الكافى ، وأصبح القطع الزائد لنفسه ، والتي تعرف فى المعتاد باسم الروح السلافية .

إن روسيا وفرنسا هما قطبا أوربا الذى يشد دائمًا كل منهما الآخر . ففرنسا بلد عجوز ، ومتعب حيث بقى من الأحاسيس فقط قوالب جامدة . إن الفرنسى يكتب لك فى نهاية الخطاب : "كن خيرًا ياسيدى العزيز ، وتقبل دليل مشاعرى المختارة " . عندما تسلمت لأول مرة مثل هذا الخطاب الموقع من سكرتيرة دار "جاليمار" للنشر كنت مازلت أعيش فى براغ . فصرت أقفز حتى السقف من السعادة ؛ فى باريس توجد امرأة تحبنى ! لقد تمكنت من أن تجد مكانًا لتكتب فى نهاية الخطاب الرسمى اعترافًا بالحب ! ليس فقط لأنها تكن لى مشاعر طيبة ، ولكنها تؤكد بشكل واضح أنها مختارة ! لم تقل لى شيئًا كهذا فى حياتى أى امرأة تشيكية !

وفقط بعد عدة سنوات أوضحتوا لى فى باريس أنه توجد مجموعة كاملة من الصيغ الدلالية التى توضع فى نهاية الخطابات ؛ ويفضلها يستطيع الشخص الفرنسى وبدقة الصيدلى أن يقدر أرق

درجة للتعبير عن المشاعر والتي يريد - وبدون أن يحس بها - أن يظهرها للمرسل له الخطاب ؛ ومن بين هذه الصيغ صيغة "المشاعر المختارة" التي تعبّر عن أدنى درجة من درجات الدماء الرسمية والتي تقترب من الازدراء .

آه يا فرنسا ! أنت بلد القوالب الجامدة مثلما أن روسيا هي بلد الأحاسيس ! ولذلك فإن الفرنسي المحيط دائماً لا يحس بأى لهيب يشتعل فى صدره ، ينظر بحس وبحنين إلى وطن "دوستوفسكى" ، حيث يمد الرجال أفواههم للرجال ليقبلوهم وهم مستعدون لذبح من يرفض تقبيلها . (وبالإضافة إلى ذلك قد يذبحونه على سبيل المثال إذا تركهم على الفور ، لأنه فى هذه الحالة يتصرف نيابة عنهم حبهم الجريح وهذا ، كما نعرف من باتينا ، يجعلهم أبرياء . فمن يقتل بسبب العاطفة يجد فى باريس على الأقل مائة وعشرين محامياً يجهزون قطاراً خاصاً إلى موسكو للدفاع عنه . لن يدفعهم لذلك أى إحساس بالشفقة (فالإحساس شىء غريب ونادر تطبيقه فى بلدهم) ، ولكن المبادئ المجردة ، التى هى ولعهم الوحيد . إن هذا القاتل الروسى لا يدرك ذلك ، وعندما يطلق سراحه ينطلق إلى محاميه ليعانقه ويقبله فى فمه . فيتراجع الفرنسى بفزع ، فيشعر الروسى بالإهانة ، ويطعنه بسكين فى جسده ، وهكذا تتكرر كل الحكاية مثل أغنية الكلب والسجق .

آخ ، الروس ...

عندما كنت أعيش فى براغ كانت تحكى هذه الطرفة عن الروح الروسية . رجل تشيكى يغوى فى وقت قياسى امرأة روسية . بعد الجماع تقول له هذه الروسية باحتقار شديد : " لقد ملكت جسدى ولكنك لن تملك روحى أبداً "

حكاية رائعة . كتبت باتينا لجوته اثنين وخمسين خطاباً . وتكررت ففيها كلمة الروح خمسين مرة ، وكلمة القلب مائة وتسع عشرة مرة .

ونادراً ما تذكر كلمة القلب فى معناها الحرفى التشرىحي (" كان قلبى يخفق ") ، وفى كثير من المرات تستخدمه كمجاز للتعبير عن القفص الصدرى (" أود أن أضمك إلى قلبى ") ، ولكن فى الغالبية العظمى من الحالات تعنى نفس معنى كلمة الروح : الأنا الذى يحس .

أنا أفكر إذا أنا موجود ، هى جملة الإنسان المتأمل ، الذى يستهين بألم الإنسان . أنا أشعر إذا أنا موجود ، هى الحقيقة التى تسرى بشمولية أكبر وتتعلق بكل ما هو حى . فالأنا عندى لا تختلف جوهرياً عن الأنا عندك فيما يتعلق بالتفكير ، فالناس كثيرون والأفكار قليلة : فجميعنا لنا تقريباً نفس التفكير ، نتناقل الأفكار

فيما بيننا ، نستعيرها ، ونسرقها . فعندما يدوس أحد على قدمي ، فإنني أحس بالألم وحدي فإن جوهر الأنا ليس التفكير لكن الألم ، الذي هو الأساس من بين جميع الأحاسيس . ففيما يتعلق بالألم ، لا تشك حتى القطة في أنها التي لا تقبل التغيير ففي وقت الألم الشديد يختفي العالم ويصبح كل منا فقط مع نفسه . فالألم هو مدرسة الأنانية .

يسأل " هيبوليت " الأمير ميشكن " ألا تسخر مني؟ "

" لماذا ؟ لعله بسبب أنك عانيت وتعاني أكثر منا ؟ "

" لا ، لأنني لست جديراً بمعاناتي . "

لست جديراً بمعاناتي إنها جملة عظيمة . ينتج منها أن الألم هو أساس الأنا ، هو دليله الوحيد الذي لا شك فيه على الوجود ، ولكن رغم أنه هكذا من بين جميع الأحاسيس ، إلا أنه أكثرها جدارة بالاحترام : إنه قيمة كل القيم . ولذلك فإن " ميشكن " يقدر كل النساء اللائي يتألمن . فعندما يرى صورة " ناستاسيا فيليبوفنا " للمرة الأولى يقول : " لا بد أن هذه المرأة عانت كثيراً " . هذه الكلمات حددت منذ البداية ، وقبل أن نتمكن من رؤيتها في مشهد الرواية ، أن " ناستاسيا فيليبوفنا " فوق الآخرين جميعاً . سيقول ميشكن الولهان لـ " ناستاسيا " في الفصل الخامس عشر من الجزء الأول " أنا لا شيء ، ولكن أنت ، أنت عانيت " وأصبح منذ هذه اللحظة ضائعاً .

قلت إن ميشكن كان يقدر كل النساء اللائي يتألن ، ولكنى قد أستطيع أن أفند زعمه هذا : فمن اللحظة التى كانت تعجبه فيها امرأة ما ، كان يتخيلها وهى تتألم . ولأنه لم يكن يعرف أن يكتم ما يتصوره ، فقد قال لها أيضاً على الفور ذلك . لقد كانت هذه طريقة رائعة للإيقاع بالنساء (خسارة أن ميشكن لم يعرف كيف يستفيد كثيراً من هذه الطريقة !) ، لأننا إذا قلنا لأى امرأة " أنت تألمت كثيراً " ، فكما لو أننا نادينا روحها ، ربنا عليها ، رفعناها لأعلى . فكل امرأة مستعدة أن تقول لنا فى هذه اللحظة : " رغم أنك لم تملك جسدى بعد ، لكن روحى أصبحت لك ! " .

وتحت رؤية ميشكن تكبر النفس وتكبر حتى تشبه عيش الغرباب الضخم الفارغ ، كمنزل من خمسة طوابق ، وتشبه بالون الغاز الذى يرتفع كل لحظة إلى السماء بطاقم الملاحين الجويين . حتى يصل إلى الظاهرة التى نسميها : تضخم النفس .

(١٢)

عندما تسلم جوته اقتراح التمثال من باتينا ، شعر ، إذا كنتم تتذكرون ذلك جيداً ، بأن فى عينه دمة ، وكان متأكداً أن أعماق أعماقه يمكنه بذلك من أن يعرف الحقيقة : باتينا تحبه ، وهو ظلمها ، غير أنه أدرك مؤخراً أن الدمة لم تكشف له عن أى حقيقة تستحق الملاحظة ،

عن إخلاص باتينا ، ولكن عن حقيقة غروره المبتذلة . فخبجل من أنه سقط من جديد فريسة لغوغائية دمعته . إن له معها تجربة طويلة منذ أن بلغ الخمسين من عمره : فكل مرة عندما يثنى عليه أحد أو يشعر برضا جارف عن الذات من أى عمل جميل أو طيب قام به ، كان يشعر بالدموع فى عينيه . ما هى الدمعة ؟ كان دائما يسأل نفسه هذا السؤال ، ولم يجد أية إجابة . ولكن ذات مرة بدا له الأمر واضحاً : إن الدمعة كانت ، غالباً إلى درجة الارتياح ، تستثار بالانفعال ، الذى كان يوقظه فى جوته النظرة إلى جوته .

فبعد أسبوع تقريبا من موت أجنس المريع زارت " لاورا " بول " المنهار .

قالت له " بول ، لم يعد لنا أحد فى هذا العالم " .

اغروقت عينا بول بالدموع ، لذا أدار رأسه حتى يخفى انفعاله عن لاورا .

إن إدارة رأسه جعلتها تمسك ذراعه بقوة وتقول له " بول ، لا تبكى ! "

نظر بول إلى لاورا والدموع فى عينيه ، وتأكد أن عينيها هى الأخرى مغرورقتان بالدموع . ابتسم وقال بصوت مرتعش : " أنا لا أبكى . أنت التى تبكين " .

" إذا احتجت أى شىء يابول ، فأنت تعرف أننى هنا وإننى معك تمامًا " .

وأجاب بول . " أعرف ذلك " .

إن الدمعة فى عين لاورا كانت دمعة الانفعال الذى أحست به لاورا من لاورا التى قررت أن تضحى بكل حياتها من أجل أن تقف بجانب زوج أختها الراحلة .

إن الدمعة فى عين بول كانت دمعة الإنفعال الذى أحس به بول من وفاء بول ، الذى لا يستطيع أن يعيش أبداً مع أى امرأة أخرى بخلاف هذه التى هى ظل زوجته الراحلة وصورة منها ، - أختها .

وبعد ذلك فى يوم ما استلقيا على الفراش الواسع ، والدمعة (رحمة الدمعة) تسببت فى أن لا يكون لـديهما أدنى إحساس بخيانة قد يقتربانها فى حق الراحلة . إن البراعة القديمة للغموض الجنسى قدمت لهما الغنوة : تمدد الاثنان بجوار بعضهما لا كزوجين ولكن كشقيقين . لقد كانت لاورا تعتبر حتى الآن بالنسبة لبول شيئاً محرماً ؛ ولعله حتى فى أى ركن من تفكيره لم يربطها أبداً بأى تصور جنسى . شعر عندئذ أنه أخوها الذى يجب أن يعوضها عن فقد أختها . لقد هون عليه

أخلاقيا فى البداية أنهما استلقيا معًا فى الفراش ، ولكن بعد ذلك ملأته إثارة غير معروفة تمامًا : كان كل منهما يعرف كل شىء عن الآخر (كأخ وأخت) ، فذلك الذى كان يفصلهم لم يكن غير معروف ، ولكنه التحريم ؛ التحريم الذى استمر عشرين عامًا ، وكلما مر الوقت ، كلما أصبح اختراقه أكثر صعوبة . لم يكن شىء أقرب من جسد هذا الآخر . لم يكن شىء أكثر تحريمًا من جسد هذا الآخر . وبإحساس زنى المحارم المثير بدأ يحبها ، أحبها بعنف ، كما لو أنه لم يحب أحدًا فى حياته قط .

(١٣)

توجد حضارات لديها عمارة أعظم من أوروبا ، وتظل التراجيديا القديمة للأبد لا يمكن التفوق عليها . ولكن لا توجد حضارة استطاعت أن تكون من النغمات هذه المعجزة ، التى هى ألف عام من التاريخ الموسيقى الأوروبى بغزارة صوره وأساليبه | أوروبا : الموسيقى العظيمة والإنسان العاطفى . التوأمان اللذان يرقدان بجوار بعضهما فى المهد نفسه .

إن الموسيقى لم تعلم الأوروبى فقط كيف يكون مرهف الأحاسيس ، ولكن أن يقدس إحساسه والأنا التى تحس فيه . أنتم تعرفون : أن

عازف الكمان على المسرح يغلق عينيه ، ويعزف أول نغمتين طويلتين . فى هذه اللحظة يغلق المستمع عينيه كذلك ، ويشعر أن روحه تنتشر فى صدره وتقول : " ما هذا الجمال ! " ورغم أن ما يسمعه ليس إلا نغمتين لا يمكنهما أن يحتويا على أى فكرة للملحن ، ولا أى إبداع ، وبالتالي لافن ولا جمال ، ولكن هاتان النغمتان لمستا قلب المستمع ، وأسكتتا عقله ، وحتى حكمه على الجمال ، فقد صورت موسيقى يمارس علينا تقريبا التأثير نفسه مثل تحديق ميشكن فى المرأة . الموسيقى : مضخة لتضخيم النفس . إن الأنفس المتضخمة التى تحولت إلى بالونات كبيرة تخلق تحت سقف الصالة الموسيقية مصطدمة بنفسها فى ضغط رهيب .

كانت لاورا تحب الموسيقى بصدق وبعمق ؛ وإننى أرى فى حبها لـ "ماهلير" المعنى الحقيقى : إن ماهلير آخر مؤلف موسيقى عظيم فى أوروبا مازال يتوجه بصدق ، ومباشرة إلى الإنسان العاطفى . وبعد ماهلير يصبح الإحساس فى الموسيقى موضع شك . إن "دوبوسى" يريد أن يسحرنا لا أن يحرك مشاعرنا ، أما "سترافنسكى" فيخجل من الأحاسيس . إن ماهلير يعتبر بالنسبة للاورا آخر مؤلف موسيقى ، وعندما تسمع من حجرة بريجيتا صخب موسيقى الروك ، فإن حبها الجريح للموسيقى الأوروبية التى تختفى تحت ضجيج الجيتارات

الكهربائية يدفعها إلى الغضب الشديد ؛ وتوجه لبول إنذاراً نهائياً : إما ماهلير أو الروك . وهذا يعنى : إما أنا أو بريجيتا . ولكن كيف يختار بين نوعين من الموسيقى لا يحبهما بالدرجة نفسها ؟ إن الروك بالنسبة لبول (أذنه حساسة مثل جوته) شديد الجلبة . الموسيقى الرومانسية تثير فى داخله مشاعر الضيق . ففى وقت ما أثناء الحرب ، عندما كان الجميع من حوله مذعورين من الأخبار المختلفة ، كانت تدوى من المذياع معزوفات ثانوية لموسيقى المناسبات الجادة بدلاً من التانجو والفالس المعتادين . هذه المعزوفات نقشت فى ذاكرة الطفل للأبد كمعلنات للكوارث . وأدرك مؤخراً أن رحمة الموسيقى الرومانسية توحد أوروبا كلها : نسمعها فى كل مرة عندما يقتل أحد رجال الدولة ، عندما تعلن الحرب ، فى كل مرة يصبح من الضرورى حشو رؤوس الناس بإحساس المجد ، حتى يذهبوا طواعية لحتفهم . إن الأمم التى يقتل بعضها البعض كانوا ممثلين بإحساس أخوى متماثل عندما كانوا يسمعون صخب مقطوعة " شوبان " المارش الجنائزى أو مقطوعة " الخليج لبيتھوفن . آخ ، لو كان الأمر بيد بول ، فإن العالم يمكن أن يستغنى بلا مشاكل عن موسيقى الروك وعن موسيقى ماهلير . ولكن كلتا المرأتين لم تريدا له أن يقف على الحياد . اضطررنه أن يختار بين الموسيقتين ، بين المرأتين . ولم يعرف ماذا يفعل إنه كان يحب كلتا المرأتين بالقدر نفسه .

ولذلك كانت تكره كل منهما الأخرى ، كانت بريجيتا تنظر بحسرة موجعة للبيانو الأبيض الذى لم يستخدم لشيء إلا لوضع الأشياء عليه ؛ كان يذكرها بأجنس التى كانت ترجوها من دافع حبها لأختها أن تعلمها العزف عليه ، ولكن بعد أن ماتت أجنس دبت الحياة فى البيانو وأخذ يدق طول الوقت . كانت بريجيتا تتوق لأن يثار الروك الثائر لأمها المخدوعة ، وأن يزيح هذه المتطفلة من الشقة . وعندما أدركت أن لاورا ستبقى ، رحلت هى . صمت الروك ودارت الأسطوانة فى الفونوغراف ودوت فى الشقة الآلات المترددة ، التى تعزف موسيقى ماهلير ، يشقى قلب بول المكلوم لرحيل ابنته . اقتربت لاورا من بول وأمسكت برأسه بين يديها ، ونظرت فى عينيه ثم قالت : "أريد أن ألجأ لك طفلاً " . كان كلاهما يعرف أن الأطباء حذورهما منذ وقت طويل من الولادة . ولذلك أضافت : " سأضحى بكل شيء يلزم لذلك . "

كان الجو صيفاً . أغلقت لاورا متجرها ، وسافرا لمدة أسبوعين إلى البحر . كانت الأمواج تتحطم على الشاطئ وكانت صرختها تملأ صدر بول . إن موسيقى هذا العنصر الطبيعى كانت هى الوحيدة التى أحبها بحرارة ، وتأكد بدهشة مثيرة للسعادة أن لاورا تنساب مع هذه الموسيقى ؛ إنها المرأة الوحيدة فى حياته التى كانت فى عينيه تشبه البحر ، التى هى البحر .

كان يمتاز رومان رولاند الشاهد في الدعوة المقامة ضد جوته أمام المحكمة الأبدية بصفتين : بموقفه المتحيز للنساء (يكتب عن باتينا "إنها امرأة ولذلك فنحن نحبها ") و بولعه الشديد في مواكبة التقدم (والذى كان يعنى بالنسبة له روسيا الشيوعية والثورة) . من الغريب إن هذا المولع بالنساء أبدى فى نفس الوقت وفى كثير من الأحيان إعجابه بيهوفن لأنه رفض تحية النساء . ذلك أن الأمر يتعلق ، إذا كنا أدركنا الأمر بشكل صحيح ، بالقصة التى حدثت فى مصحات الاستشفاء فى تبليسه : يسير بيهوفن وقبعته مضغوطة على رأسه حتى جبهته ، يده على ظهره فى الاتجاه المقابل لزوجته القيصر وحاشيتها ، والتى كانت تتضمن بالتأكيد نساء بالإضافة للرجال ، فإذا لم يكن قد قام بتحيتهم فهو إنسان غير مهذب ليس له مثيل ! ولكن فى الحقيقة يصعب تصديق ذلك : رغم كونه غريب الطباع وسىء الخلق ، فإن بيهوفن لم يكن أبداً وقحاً مع النساء ! إن كل هذه القصة هى عبارة عن حماقة جليلة ، وأمكن قبولها ونقلها بعد ذلك بسذاجة وإن الناس (وحتى الكاتب الروائى ، وذلك هو الهوان !) فقدوا كل ميل لمعرفة الحقيقة .

لعلكم تعترضون على ؛ لأنه فى غير محله مناقشة احتمالات هذه الحكاية الكوميديّة ، التّى من الواضح تماماً أنها ليست شهادة ولكنها حكاية رمزية . حسناً فلننظر إلى هذه الحكاية الرمزية كحكاية

رمزية ؛ ولتنس كيف بدأت (فعلى كل حال لن نعرف أبداً بالضبط) ،
فلننس المغزى المتحيز الذى أراد أن يزوج به هذا أو ذاك ، ولنحاول أن
نصل إلى ، وإذا أمكن قول ذلك ، مغزاها الموضوعى .

ماذا تعنى قبعة بيتهوفن المكبوسة على رأسه حتى جبهته ؟ إن
بيتهوفن يرفض سلطة النبلاء كسلطة رجعية وظالمة بينما القبعة فى يد
جوته الخائفة تتوسل للحفاظ على هذا العالم كما هو ؟ نعم ، هذا
على العموم هو التفسير المقبول ، الذى لا يمكن بالطبع الدفاع عنه :
مثلاً اضطر جوته وأيضاً بيتهوفن أن يكون فى عصره طريقة حياة له
ولموسيقاه ؛ ولذلك فقد أهدى ألحانه مرة لهذا الأمير ، وثانية لأمير
آخر ، وحتى لم يتردد فى أن يلحن "كتاتاً" على شرف المنتصرين ،
الذين اجتمعوا بعد هزيمة نابليون فى فينا ، والتى يصيح فيها
الكورس : "فليكن العالم من جديد ، كما كان ا " ، ذهب فى النهاية
إلى أبعد من ذلك بأنه كتب من أجل زوجة القيصر الروسى موسيقى
رقصة البولناز البولندية ، فكما لو أنه وضع بذلك مجازاً ، بولندا
المسكينة (بولندا هذه ، هى التى ستناضل باتينا من أجلها بشجاعة بعد
ثلاثين عاماً) تحت قدمى مغتصبها .

إذا كان بيتهوفن فى صورتنا المجازية يسير فى الاتجاه المقابل
لمجموعة النبلاء بدون أن يرفع قبعته ، فإن هذا لا يعنى أن النبلاء
رجعيون حقراء ، وهو ثورى يستحق الإعجاب ولكن لأن هؤلاء
الذين يبدعون (الثنائيل ، القصائد الشعرية ، السيمفونيات) يستحقون

إجلالاً أكبر من هؤلاء الذين يحكمون (الخدم ، الموظفين ، أو حتى كل الشعوب) . وإن الإبداع أفضل من السلطة ، الفن أفضل من السياسة . وإن الأشياء الخالدة هي الأعمال الإبداعية ، وليست الحروب ، وحفلات الأمراء الراقصة .

(لابد أن جوته كان يفكر تماماً بالإضافة لذلك بالطريقة نفسها ، ولكن بخلاف ذلك رأى أنه من غير المفيد أن يظهر لسيادة العالم هذه الحقيقة المزعجة الآن في حياتهم : وكان واثقاً من أن الخالدين سيكونون هم الذين ينحنون أولاً ، وكان يكفيه ذلك .)

إن المجاز هنا واضح ، ورغم ذلك فإنه يفسر غالباً على غير معناه . فهؤلاء الذين يتعجلون بالتصفيق لبيتهوفن من خلال النظر إلى هذه الصورة المجازية ، فإنهم في الغالب أناس أعمتهم السياسة ، وهم أنفسهم يفضلون "لينين" ، و"جيفارا" ، و"كينيدى" ، و"ميتران" على "فلليني" ، وبيكاسو ، فرومان رولاند كان بالتأكيد سيرفع قبعته ويخفضها لأسفل كثيراً عن جوته ، لو كان ستالين هو الذى يسير فى الاتجاه المقابل له بطريق مصحات الاستشفاء فى تيلتسه .

(١٥)

إن إجلال رومان رولاند للنساء أمر غريب . فهو الذى أعجب بباتينا فقط لأنها امرأة ("كانت امرأة ، ولذلك فنحن نحبها") ، ولم

يجد أى إعجاب تجاه كرستيانا ، والتي كانت مع ذلك وبدون أدنى شك امرأة أيضا ! إن باتينا بالنسبة له "مجنونة وحكيمة " (foll et sage) ، وهى "محبة للضحك متهورة إلى حد الجنون " لها قلب رقيق ومجنون " وفوق ذلك يلقبها فى كثير من المرات بالمجنونة . ونحن نعرف أن كلمات المهووس ، المجنون ، الجنون بالنسبة للإنسان العاطفى (هذه الكلمات تبدو فى اللغة الفرنسية أكثر سحرا من اللغات الأخرى (fou, folle, folie) تدل على تدفق الإحساس المتحرر من الرقابة (قد يقول إيلارد : الهوس الإيجابى للعاطفة) ، وبالتالي فهى تنطق باستحسان مثير للمشاعر . وعلى العكس من ذلك لا يتحدث هذا المفتون بالنساء وبطبيعة العمال أبدا عن كرستيانا بدون أن يضيف لاسمها ، وبدون مراعاة لقواعد المروعة ، الصفات "غيور" ، "بدينة" ، "محمرة اللون وسمينة" ، "ثقيلة الظل" ، "فضولية" ، وكذلك يكرر فى كثير من المرات صفة "البدينة" .

إن هذا لشيء غريب أن صديق النساء وطبقة العمال والمنادى بالمساواة والأخوة لم يتأثر بأى شكل بكون كرستيانا عاملة سابقة ، وأن جوته أظهر بصفة عامة شجاعة غير عادية عندما عاش معها علانية كعشيقة وبعد ذلك جعلها زوجته أمام الجميع . وكان لابد من أن يواجه ليس فقط غيمة صالونات فيمار ، ولكن أيضا معارضة أصدقائه المثقفين "هردر" ، و"شيلر" الذين سخرُوا منها . لا أستغرب أن الارستقراطيين فى فيمار شعروا بالسعادة عندما لقبتهَا باتينا بالحمقاء

البدينة . لكنى مندهش من أنه كيف أمكن لصديق النساء والطبقة العاملة أن يشعر بالسعادة لذلك . كيف أن البرجوازية الشابة التي استعرضت عن سوء قصد ثقافتها أمام امرأة بسيطة كانت قريبة إليه هكذا ؟ وكيف أن كرستيانا التي كانت تحب الخمر والرقص ، لم تتبه لقوامها وتسمن وهي مرتاحة البال ، لم يكن لها أبداً الحق في هذه الصفة الرائعة ، "مجنونة" كانت في عيني صديق الطبقة العاملة فقط "ثقيلة الظل" ؟ كيف أنه لم يخطر لصديق الطبقة العاملة أن يجعل من مشهد النظارة حكاية مجازية تعاقب فيها امرأة بسيطة من الشعب عن حق مثقفة شابة متعجرفة ، ويسير جوته ، والمؤيد لزوجته ، للأمام رأسه مرفوعة (وبدون قبعة!) مقابل جيش من الأرستقراطيين ، وأحكامهم المسبقة الدنيئة " ؟

بالطبع فإن هذه الحكاية المجازية قد لا تكون أقل حماقة من السابقة ، ولكن يبقى السؤال : لماذا اختار صديق الطبقة العاملة ، والنساء إحدى هاتين الحكايتين المجازيتين السخيفتين ، ولم يختار الأخرى؟ لماذا فضل باتينا على كرستيانا ؟ هذا السؤال يتطرق إلى لب الموضوع .

الفصل القادم سيجيب عنه .

حث جوته باتينا (فى إحدى الخطابات الغير مؤرخة) أن : تخرج
 من نفسها " . اليوم قد نقول أنه كان يوبخها على أنانيتها ، ولكن
 هل كان على حق ؟ من الذى قاتل من أجل ساكنى الجبال الثائرين فى
 "تيرولى" ، من أجل شهرة "بيتوفن" الراحل ، من أجل حياة
 "ميروسلفسكى" ، هو أم هى ؟ من الذى كان يفكر دائماً فى
 الآخرين ؟ من الذى كان مستعداً لأن يضحى ؟ باتينا . ما من شك
 فى ذلك . ولكن لم يتم بذلك دحض توبيخ جوته . لأن باتينا لم
 تخرج أبداً من ذاتها . فأينما ذهبت بقيت ذاتها ترفرف خلفها كالعلم .
 فهذا الذى حثها لأن تناضل من أجل ساكنى الجبال فى تيرولى ، لم
 يكن ساكنو الجبال ، ولكن صورة باتينا الرائعة التى تناضل من أجل
 ساكنى الجبال فى تيرولى . وهذا الذى دفعها لحب جوته لم يكن
 جوته ، ولكن الصورة الفاتنة لباتينا - الطفلة الواقعة فى غرام الشاعر
 العجوز . فلتذكر الإيماءة ، التى أسميتها إيماءة الرغبة فى الخلود
 "وضعت أولاً أصابعها فى المكان الذى بين يديها كما لو أنها تشير
 إلى نفس منتصف هذا الذى يسمى بالأنا . وبعد ذلك ألقت بيديها
 للأمام ، كما لو أنها أرادت أن ترسل هذا الأنا بعيداً ، إلى الأفق ،
 إلى اللانهاية . فإيماءة الرغبة فى الخلود تعرف فقط مكانين فى
 المجال المحيط : أنا هنا ، والأفق هناك على البعد ؛ فقط
 مفهومان : الكمال : الذى هو أنا ، وكمال العالم . هذه الإيماءة ليس

لها أى علاقة بالحب ، لأن الشخص الآخر المقرب ، أو أى شخص يوجد بين هذين المحورين المتطرفين (الأنا والعالم) فهو مستبعد مسبقاً من اللعبة ، متجاهل وليس له وجود . إن الغلام ذا العشرين ربيعاً عندما ينضم إلى الحزب الشيوعى أو يصعد إلى الجبال وفى يده بندقية ليقا تل مع رجال حرب العصابات يكون مفتونا بصورته كثرى والتى تجعله مختلفاً عن الآخرين وبها يصير هو نفسه . ففى بداية نضاله لمجد أن حبه يستفزه ، ويشير استيائه من ذاته التى يريد أن يضع لها سمات واضحة ، وبعد ذلك يرسلها (بالحركة التى أسميتها إيماءة الرغبة فى الخلود) إلى مسرح التاريخ الكبير ، حيث تتركز عليه آلاف العيون ؛ ونحن نعرف من مثال ميشيكن وناستاسيا فيليبوفنا أن النفس تنمو تحت تأثير النظرات المركزة وتنتفخ وتزداد ضخامة ، وفى النهاية ترتفع إلى السماء كأنها منطاد رائع مضىء .

إن هذا الذى يجعل الناس يرفعون قبضات أيديهم لأعلى ويضع البندقية فى يدهم ، ويسوقهم إلى القتال المتلاحم من أجل أشياء عادلة وغير عادلة ، ليس العقل ولكن النفس المتضخمة ، إنها البنزين ، الذى بدونه قد لا يدور محرك التاريخ ، وترقد أوروبا بكسل على العشب وهى تنظر إلى السماء على السحب الشاردة .

لم تكن كرستيانا تعاني من تضخم النفس ، ولا تهفو لأن تعرض على مسرح التاريخ الكبير . أشك فى أنها كانت تفضل أن تتمدد على العشب . وعيناها محمقتان فى السماء ، التى كانت

تطوف بها السحب . (حتى إننى أشك فى أنها كانت تعرف كيف تكون سعيدة فى هذه اللحظات الشئ الذى لا يحب الإنسان صاحب النفس المتضخمة أن يراه ، لأن الإنسان الذى يحترق على نار ذاته لم يكن أبداً سعيداً .) إن رومان رولاند صديق التقدم والدمعة لم يتردد عندئذ ثانية واحدة عندما كان ينبغى عليه أن يختار بينها وبين باتينا .

(١٧)

متسكعاً فى طرقات العالم الآخر رأى هيمنجواى كيف أن رجلاً شاباً يأتى ناحيته من بعيد ؛ كان أنيق الملبس ولا يحيد عن طريقه بشكل ملفت للنظر . وعندما اقترب منه هذا الأنيق ، تمكن هيمنجواى من أن يلمح على فمه ابتسامة غريبة . وعندما اقترب كل منهما من الآخر لعدة خطوات أبطأ الرجل الشاب من مشيته ، وكما لو أنه أراد أن يعطى هيمنجواى فرصة أخيرة ليعرفه .

صرخ هيمنجواى من المفاجأة "جوهان !"

ابتسم جوته بسعادة ؛ شعر بالفخر من أنه نجح فى هذا التأثير المسرحى الممتاز ، لا ننس أنه كان لفترة طويلة مديراً للمسرح وكان لديه ميل للتأثير فى الآخرين بعد ذلك أخذ صديقه تحت ذراعه (من المثير للاهتمام أنه رغم صغر سنه عن هيمنجواى إلا أنه تصرف تجاهه باستمرار بنفس التسامح الكريم كأنه الأكبر سناً واصطحبه فى نزهة طويلة) .

قال هيمنجواى : "يا "جوهان" إنك تبدو اليوم جميلاً كالإله : " إن جمال صديقه جعله يشعر بسعادة حقيقية فضحك بفرحة : "أين تركت خفك ؟ وهذا اللوح الأخضر الذى كنت تضعه على عينيك؟ "وعندما توقف عن الضحك قال : "هكذا يجب أن تأتى للمحكمة الأبدية . سوف تسحق القضية لا بالحجج ، ولكن بجمالك ! .

"أنت تعرف أننى أمام المحكمة الأبدية لم أتفوه بكلمة واحدة . وكان هذا بسبب الإحساس بالمهانة ، ولكنى لم أستطع أن أقاوم الذهاب إلى هناك والاستماع إليهم . إنى أسف لذلك . "

ماذا تريد ؟ لقد حكم عليك بالخلود بذنب كتابة الكتب ، ولقد أوضحت لى ذلك بنفسك . "

هز جوته كتفيه وقال بإحساس مؤكد بالفخر : "من المحتمل أن كتبنا فى جميع الأحوال هى الخالدة . ربما . "وبعد وقفة قصيرة أضاف بصوت منخفض ويتأكد كبير : "ولكن نحن لا . "

اعترض هيمنجواى بمرارة قائلاً : "بل العكس هو الصحيح . فمن المحتمل أنهم قريباً سيتوقفون عن قراءتها . فمن دراما فاوست التى كتبها ستبقى فقط أوبرا "غونو" الحمقاء . وربما بعد ذلك بيت الشعر الذى يتحدث عن أن الأثوثة الخالدة تجذبنا إلى مكان ما . . "

فقال جوته مردداً : "Das Ewigweibliche zieh uns hinan"

"حقا . ولكن لن يتوقف الناس أبداً عن الاهتمام بحياتك حتى أدق تفاصيلها إنك باستمرار لا تدرك يا أرنست أن الشخصيات التي يتحدثون عنها ليست نحن ؟ "

" لا تحاول أن تؤكد يا جوهان أنه ليست لك أى علاقة بجوته ، الذى يكتب ويتحدث عنه الجميع . فلنفترض أن الصورة التى بقيت من بعدك لا تشبهك تماماً . ولنفترض أنها مجرد رسم متقن لك . ولكن رغم ذلك أنت حاضر فيها . "

فقال جوته بصرامة شديدة "لست حاضراً . وأقول لك شيئاً آخر . حتى فى كتبى لم أكن حاضراً . فمن كان غائباً لا يستطيع أن يكون حاضراً . "

" هذا الكلام الفلسفى صعب على . "

"فلتنس اللحظة أنك أمريكى ، واجهد عقلك : من كان غائباً لا يستطيع أن يكون حاضراً . هل هذا شيء معقد ؟ ففى اللحظة التى مت فيها ، رحلت عن كل الأماكن بلا استثناء . رحلت حتى عن كتبى . وهذه الكتب توجد فى الدنيا بدونى . لن يجدنى أحد بعد ذلك فيها لأنه من غير الممكن العثور على شخص غير موجود . "

قال هيمنجواى "يسرنى أن أوافق معك ، ولكن هل تفسر لى إذا كانت الصورة التى بقيت بعدك لها أى علاقة بك ، لماذا أعطيتها كل

هذا الاهتمام عندما كنت على قيد الحياة ؟ لماذا دعيت إليك
"اسكرمن" لماذا أخذت فى كتابة القصيدة والحقيقة ؟

"فلنسلم بهذا يا أرنست ، فى أننى كنت مغفلاً مثلك . إن عدم
نضج الإنسان المحتوم يكمن فى اهتمامه بصورته . فهذا الحذر فوق
قدرة البشر . فالإنسان سيفطن إليه بعد الموت . وحتى ذلك لن
يحدث على الفور . سيحدث بعد الموت بفترة طويلة . إنك لم تظن
إليه بعد ، فمازلت غير ناضج فأنت ميت منذ . . كم مضى على
ذلك؟"

قال هيمنجواى : "سبعة وعشرون عاماً "

" هذا شىء لا يذكر . لا بد وأن تنتظر على الأقل عشرين
أو ثلاثين عاماً أخرى حتى تدرك تماماً أن الإنسان ليس خالداً ، سوف
تعرف كيف تستخلص كل النتائج من ذلك . لم يكن يمكن هذا من
قبل . فقبل موتى بفترة ليست بطويلة أعلنت أننى أشعر فى داخلى
بهذه القدرة الإبداعية ، التى ليس من الممكن أن تختفى تماماً ،
وبالطبع صدقت أننى سأعيش فى الصورة التى سأتركها هنا من
بعدى ، نعم لقد كنت مثلك .

حتى بعد الموت كان من الصعب التسليم بأننى غير موجود .
أعرف أن هذا الشىء فى غاية الغرابة . فإن كون الإنسان فانياً هو
التجربة الإنسانية الأكثر بدائية ، ورغم ذلك فإن الإنسان لم يستطع

أبداً أن يتقبلها ويفهم ويتصرف طبقاً لهذا . إن الإنسان غير قادر على أن يكون فانيا . وعندما يموت لا يقدر حتى أن يكون ميتا " .

" لعلك تعرف أنت يا جوهان كيف تكون ميتا ؟ " سأل هيمينجواي هذا السؤال لكي يخفف من جدية اللحظة . " أعتقد حقاً أن أفضل طريقة لكي تكون ميتا هي أن تضيع الوقت في الحديث معي ؟ "

قال جوته : " لا تتظاهر بالغباء يا إرنست ، إنك تعرف جيداً أننا في هذه اللحظة عبارة فقط عن تخيل قدر لكاتب روائي يريد أن يجعلنا نقول ما لم يكن من الممكن أن نقوله أبداً . ولكن لكي أنهى حديثي ، هل لاحظت كيف يبدو شكلي اليوم ؟ " " ألم أقل لك هذا على الفور عندما رأيته ؟ إنك جميل كالإله ! "

قال جوته تقريباً بأسلوب منمق " هكذا كنت أبدو عندما كانت تعتبرني كل ألمانيا صاحب جاذبية لا ترحم . " ثم أضاف بتأثر : " كنت أريد حقيقة أن تأخذني في هذه الصورة إلى أيامك القادمة " .

نظر هيمينجواي إلى جوته بتسامح مفاجئ ورقيق : " وأنت يا جوهان كم عمرك بعد الموت ؟ "

أجاب جوته بنوع من الخجل " مائة وستة وخمسون " .

" ومازلت باستمرار لا تقدر أن تكون ميتا ؟ "

ابتسم جوته : " أعرف يا إرنست . إننى أناقض بعض الشيء ما قلته لك قبل قليل . لكنى تمنيت هذا الزهو الطفولى ؛ لأنه اليوم يرى كل منا الآخر للمرة الأخيرة . " وبعد ذلك قال بتأن هذه الكلمات كأنه لن يتحدث بعد الآن : لقد أدركت كذلك بما لا يدع مجالاً للشك ، أن المحكمة الأبدية بلاهة . لقد قررت أخيراً أن أستفيد من هذا ، من أننى ميت ، وأذهب ، إذا كان يمكن التعبير عن ذلك بهذه الكلمة غير الدقيقة ، لأنام . أن أتذوق عذوبة اللاوجود الكامل والذى قال عنه صديقى العظيم " نوفالس " إن لونه ضارب إلى الزرقة " .

الجزء الخامس

المصادفة

(١)

صعدت بعد تناول الغداء إلى حجرتها . كان اليوم هو يوم الأحد ، لم يكن الفندق ينتظر أى نزيل جديد ، لم يكن أحد متعجلاً للمغادرة . كان السرير العريض فى الغرفة مازال غير مرتب كما كان عندما استيقظت منه فى الصباح . كانت ممتلئة بالسعادة : لقد قضيت هناك ليلتين بمفردها ، كانت تسمع صوت أنفاسها هى فقط ، نامت بعرض السرير من جانب إلى آخر . وكأنها أرادت أن تحتضن بجسدها هذا المربع الكبير الذى كان ملكاً لها وحدها ومن أجل راحتها . كان كل شىء معداً فى الحقيبة على المنضدة: على التنورة المطوية وضعت طبعة ورقية الغلاف من قصائد " ريمبو " . أخذتها معها حيث إنها كانت فى الأسابيع الأخيرة تفكر فى بول . كثيراً ما جلست خلفه على دراجة نارية كبيرة قبل أن تولد بريجيتا وطافت معه فى جميع أنحاء فرنسا . تربط ذكرياتها مع " ريمبو " بهذه الفترة وبهذه الدراجة النارية : كان هذا شاعرها .

تناولت تلك القصائد شبه المنسية بفضول وكأنها تتناول يوميات قديمة ، هل ستكون هذه اليوميات ؛ التى اصفر ورقها مع الزمن ، مؤثرة ومحركة لمشاعرهما ومضحكة وجذابة أم أنها ستكون بلا معنى . كانت الأبيات مازالت جميلة ، ولكن أدهشها فيها شىء ما : لم تكن لها أية علاقة بالدراجة النارية الكبيرة التى سافرت بها يوماً ما . كان

عالم قصائد "ريمبو" أقرب بكثير لمحيى "جوته" الذى مر عليه قرن
لا لبريجيتا . إن "ريمبو" كان شاعر الطبيعة الذى أوجب على الجميع
أن يكونوا عصريين بمعنى الكلمة ، كان رحالة ، كانت فى قصائده
كلمات نسيها الإنسان المعاصر أو لم يعرف الاستمتاع بها : نبات
الكبوستين ، وأشجار الزيزفون ، والبلوط ، وحشرات الزيز ، وشجر
الصنوبر ، والدردار والورد البرى ، والغراب الأسود والغائط الدافئ
فى أبراج الحمام القديمة ، الطرق ، وبخاصة الطرق : أخرج فى زرقة
الليل عبر المشى تشكنى حبات القمح ، لأتندى فى العشب القصير
.. لن أتكلم ، لن أفكر فى شىء .. وسأذهب بعيداً ، بعيداً مثل
العجورى فى الطبيعة ، سعيداً بها كسعادتى مع امرأة .

أغلقت الحقيبة ثم خرجت إلى الممر ، نزلت أمام الفندق ،
وألقت الحقيبة على المقعد الخلفى ، ثم جلست خلف عجلة القيادة .

(٢)

كانت الساعة الثانية والنصف وكان عليها أن تبدأ السفر ؛ لأنها
لا تحب السفر فى الظلام . غير أنها لم تكن قادرة على أن تدير مفتاح
التشغيل . مثل العاشق الذى لا يتمكن من أن يعبر عن كل ما يجيش
فى قلبه ، فالمشهد حولها يمنعها من الانصراف ، غادرت السيارة .

كانت الجبال من حولها ، على يسارها كانت الجبال واضحة ، وألوانها زاهية ، تضيء محيطها قمم جبلية بيضاء . على اليمين جبال مغطاة بضباب يميل إلى اللون الأصفر ، وقد تحول إلى مجرد دائرة ، كان هذا نوعين من الضوء مختلفين تماما ، عالمان منفصلان . أدارت رأسها يمينًا ويسارًا ، ويسارًا ويمينًا ثم قررت أن تتجول بها للمرة الأخيرة . سارت إلى طريق مرتفع قليلا أدى بها عبر المروج إلى أعلى تجاه الغابات .

لقد مرّ ما يقرب من خمس وعشرين عامًا منذ أن جاءت مع بول إلى جبال الألب بالدراجة النارية الكبيرة ، كان بول يحب البحر ، ولم تكن الجبال تمثل له أى شيء . أرادت أن تشده إلى عالمها ، وأرادت أن يفتن بالنظر إلى الأشجار والمروج ، . أوقفت الدراجة النارية على حافة الطريق السريع ثم قال بول :

" إن المرج هو المجال الوحيد للمعاناة ؛ ففي كل ثانية على هذه الأرض الخضراء الجميلة يموت مخلوق ، النمل يأكل على مهل دودة الأرض ، والطيور تربص فى السماء لرؤية ابن عرس أو فأر ، ألا ترين هذه القطعة السوداء التى تقف ساكنة فى العشب ؟ إنها تنتظر أن تواتيها فرصة للاقتناص . أنا أكره هذا الاحترام الساذج للطبيعة؟ أعتقد أن الغزال يشعر وهو فى فم النمر برعب أقل مما قد تشعرين به ؟ إن الناس تعتقد أن الحيوان ليس له القدرة نفسها على المعاناة كالإنسان ، لأنهم بدون ذلك لا يمكنهم أن يتحملوا فكرة أنهم

محاصرون بالطبيعة التى هى عبارة عن رعب ولا شئ آخر . " لقد كان بول يتمنى أن يقوم الإنسان تدريجيا بتغليف الأرض كلها بالأسمنت . كان وكأنه يشاهدهم وهم يقيمون الجدران على القاتلة الشرسة . كانت أجنس تتفهم موقفه إلى حد كبير - إذا أمكن قوله هذا - بأنه شعور بالإنسانية والعدل ، ولم تغضب منه لكرهيته المسببة للطبيعة .

ولكن من الممكن أن هذا لم يكن سوى صراع طبيعى جدا للرجل من أجل المرأة التى أراد أن يفصلها عن أيها إلى الأبد . فوالد أجنس قد علمها أن تحب الطبيعة . ذهبت معه فى نزعات وسارا لكيلو مترات عديدة ، أعجبت فيها بهدوء الغابات .

فى وقت من الأوقات كان أصدقائها يحملون لها الطبيعة الأمريكية ، كانت هذه الطبيعة عبارة عن مملكة من الأشجار مترامية الأطراف وقاسية وغارقة فى الطرق السريعة الطويلة ، وكان الهدوء فى تلك الغابات يبدو لها عدوانيا وغريبًا تمامًا مثل صخب نيويورك . الطرق فى الغابة التى تحبها أجنس تتفرع إلى طرق أقصر والتى بدورها تتفرع إلى دروب أكثر صغرا . وفى هذه الدروب يسير القناصون . توجد على الطرق مقاعد ، يمكنها على هذه المقاعد أن ترى الأغنام والأبقار التى ترعى . هذه هى أوربا ، قلب أوروبا ، هذه هى جبال الألب .

(٣)

يقول ريمباولد

Depuis huit jours, j'avais déchaîné mes bottines

Aux cailloux des chemins ...

مرت سبعة أيام وأنا أمزق حذائي .

على حصي الدروب .

الدرب : هو ممر على الأرض نعبره سيراً على الأقدام ،
ويختلف الطريق عن الدرب ليس فقط بأن الطريق تسير فيه السيارات
ولكن بأنه مجرد خط يربط نقطة بأخرى ، إن الطريق ليس هدفاً في
حد ذاته ولكن الهدف هو هاتان النقطتان اللتان يربطهما . إن الدرب
فخر للمكان ، فكل جزء من الدرب له دلالة في حد ذاته ويدعونا
للتوقف . أما الطريق فهو امتهان ناجح للمكان الذي صار بفضل
مجرد عائق لحركة البشر ومضيعة للوقت .

وقبل أن تختفي الدروب من القرية اختفت من روح الإنسان :
توقفت رغبة الإنسان في السير على قدميه وسعد لهذا . وحتى أنه لم
ير حياته كدرب بل كطريق : كحظ يأخذه من نقطة إلى أخرى ، من
رتبة عقيد إلى رتبة لواء ، من وظيفة إلى وظيفة أرملة . وصار الوقت
في حياته مجرد عائق ينبغي التغلب عليه بسرعة متزايدة باستمرار .

الدرب والطريق ، مفهومان مختلفان للجمال . فعندما يقول بول إنه توجد هنا أو هناك قرية جميلة فهذا يعنى : عندما تتوقف هناك بسيارتك سترى قلعة من القرن السابع عشر بها حديقة ، أو : هناك بحيرة يطفو البجع على سطحها اللامع بعيد المدى . المنطقة الجميلة فى عالم الطرق تعنى : جزيرة الجمال التى يربطها خط طويل بجزر أخرى للجمال .

الجمال فى عالم الدروب متواصل ومتغير باستمرار ، ففى كل خطوة يقول لنا : "توقف!"

كان عالم الدروب هو عالم الأب . وعالم الطرق هو عالم الزوج . قصة أجنس عبارة عن حلقة مفرغة : من عالم الدروب إلى عالم الطرق ، والآن من جديد من عالم الطرق إلى عالم الدروب . ولأن أجنس تنتقل إلى سويسرا وصار هذا فى حكم المؤكد ولهذا السبب فهى تشعر باستمرار فى الأسبوعين الأخيرين بالسعادة الجنوية .

(٤)

كان الوقت أصيلا عندما عادت إلى السيارة . فى هذه اللحظة وعندما وضعت المفتاح فى قفل السيارة ، كان البروفيسور أفيناريوس قادما مرتديا المايوه صوب حمام السباحة الصغير حيث كنت أنتظره فى المياه الدافئة حيث استسلمت لتدفق التيارات الشديدة التى تفور من الحوائط تحت السطح .

هكذا تتزامن الأحداث . فدائما عندما يحدث شيء فى المكان "ى" . فإن شيئا آخر يحدث فى الأماكن "أ" و"ب" و"ت" و"ث" و"ج" . إن جملة " وفى الواقع فى هذه اللحظة عندما . . " تعتبر واحدة من الجمل السحرية فى كل الروايات . إنها جملة تسحرنا عندما نقرأ . ثلاثة جنود مسلحون "أفضل روايات البروفيسور أفيناريوس الذى قلت له بدلا من أن أحييه : "فى هذه اللحظة وأنت تدخل حمام السباحة فإن بطلة روايتى أدارت أخيرا مفتاح التشغيل لكى تنطلق إلى فرنسا " .

قال البروفيسور أفيناريوس وهو سعيد بصورة واضحة : "صدفة رائعة ثم غاص فى الماء .

"يقع فى العالم كل لحظة مليارات من هذه المصادفات . أحلم بأن أولف كتابا كبيرا عن هذا الموضوع : نظرية الصدفة ، وأن أقوم بشرح وتصنيف الأنماط المتعددة للمصادفة . على سبيل المثال : فى اللحظة التى دخل فيها البروفيسور أفيناريوس إلى حمام السباحة لكى يستشعر تيار الماء الدافئ على ظهره ، سقطت ورقة صفراء من نبات القسطل فى مدينة شيكاغو . إنه تزامن عفوى للأحداث وليس له أى منطق . أطلق عليه فى تصنيفى للمصادفات الصدفة الخرساء . ولكن تخيلنى أقول : "فى اللحظة التى وقعت فيها أول ورقة صفراء فى مدينة شيكاغو ، دخل البروفيسور أفيناريوس إلى حمام السباحة ليدلك ظهره . إن هذه الجملة تبدو كئيبة ، لأننا نرى البروفيسور

أفيناريوس نذيرا بمقدم الخريف وأن الماء الذى غاص فيه يبدو لنا كماء
تملح بالدموع . لقد أعطت الصدفة معنى غير متوقع للحدث ، من
أجل ذلك أطلق عليها مصادفة شعرية . ويمكننى كذلك أن أقول ما
أخبرتكم به عندما رأيته : " غاص البروفيسور أفيناريوس فى حمام
السباحة فى اللحظة نفسها التى انطلقت فيها أجنس بسيارتها فى جبال
الألب " . لا يمكن أن نطلق على هذه الصدفة بأنها مصادفة شعرية ؛
لأنها لا تقدم أى دلالة لدخولك إلى الحمام ، ورغم ذلك فهى
مصادفة قيمة جدا أطلق عليها صدفة متناغمة . إنها مثل نغمتين
موسيقيتين ترتبطان فى مقطع موسيقى واحد يرافقهما شاب آخر بأغنية
أخرى والكل يسير معا ! وهناك أيضا نمط آخر للمصادفة :
" بروفيسور أفيناريوس دخل إلى محطة مترو " مون بارناس " فى الوقت
نفسه الذى تقف فيه امرأة جميلة تحمل فى يديها صندوقا أحمر " . هذه
هى الصدفة التى تكون قصة والتى يعشقها الروائيون .

قمت بوقفة بعد حديثى هذا لأننى أردت أن أستثيره لكى يحكى
لى شيئا محدداً عن لقاءه فى محطة المترو ، ولكن ما كان منه إلا أنه
استدار بظهره تجاه تيار الماء المنبعث لكى يدللك له الألم أسفل الظهر
جيداً . تظاهر وكأن المثال الأخير الذى أوردته لا صلة له به على
الإطلاق .

قال : " لا أستطيع التخلص من الشعور بأن الصدفة فى حياة
البشر لا تنتج عن إحصاء ما هو محتمل . ما أريد أن أقوله أنه تحدث

لنا العديد من المصادفات غير المحتملة ولا يمكن أن نبررها رياضيا .
منذ وقت قريب كنت أسير فى شارع فرعى جدا بأحد أحياء باريس
البسيطة ، والتقيت بسيّدة من " هامبورج " كنت ألتقى معها يوميا
تقريباً منذ خمسة وعشرين عاماً ثم اختفت تماماً . سرت فى هذا
الشارع فقط لأننى غادرت المترو سهواً فى محطة قبل محطتى . أما
هى فقد كانت فى رحلة إلى باريس لمدة ثلاثة أيام وضلت طريقها ،
لقد كان لقاءنا هذا محتملا بنسبة واحد فى المليار ! "

" ماهى الطريقة التى تخصى بها نسبة الاحتمال لالتقاء البشر ؟ "

" هل تعرف طريقة ما ؟ "

قلت : " لا أعرف ويؤسفنى هذا ، إن هذا يبدو غريباً ، غير أن
حياة البشر لم تكن يوما ما خاضعة للبحث الرياضى ، خذ مثلا
الوقت . أتطلع إلى تجربة تختبر بواسطة الأقطاب الكهربائية الملحقة
برأس الإنسان ما يوليه الإنسان فى حياته للحاضر والمستقبل ونسبة
ما أتذكره ، قد نتوصل بهذا إلى معرفة من هو الإنسان الحقيقى بالنسبة
للزمن ، وما هو زمن البشر . ويمكننا أن نحدد ثلاثة أنماط رئيسية
للإنسان بناء على شكل الزمن الذى يعتبر أساسيا بالنسبة له . لنعد
إلى الصدفة . ما هو الشئ المؤكد الذى يمكننا أن نقوله عن الصدفة
فى الحياة من دون البحث الرياضى ؟ لكنه لا توجد للأسف رياضة
وجودية . . . "

"رياضة وجودية . فكرة رائعة " قال أفيناريوس وهو يفكر ثم أضاف : "على أية حال سواء تعلق الأمر باحتمال مليون أو بليون فى المائة فإن اللقاء لم يكن محتملاً على الإطلاق ، وفى هذه الاحتمالية تكمن قيمته ، فالرياضة الوجودية التى لا وجود لها قد تعطى هذه المعادلة : "قيمة الصدفة تساوى مقدار الاحتمالية ."

قلت بصورة حاملة : "لقاء امرأة جميلة لم أرها على مدى سنوات فى وسط باريس بصورة غير متوقعة . . ."

"لا أعرف كيف حكمت أنها كانت جميلة . لم تكن سوى عاملة لحفظ الملابس فى مقهى لشرب البيرة ، كنت أتردد عليه فى ذلك الوقت يوميًا ، جاءت إلى باريس فى رحلة لمدة ثلاثة أيام مع نادى المتقاعدين . عندما تعارفنا ، أخذ كل منا ينظر إلى الآخر وهو مرتبك ، يائسا تقريبًا ، كشاب فاقد لساقيه يفوز بدراجة فى اليانصيب كيف لكلينا أن يعرف أننا حصلنا على صدفة غالية جدا كهدية لن نفيدنا فى شيء . تصورنا أن أحداً ما يسخر منا واستحى كلانا من الآخر" .

قلت : "هذا النوع من الصدفة يمكن أن يطلق عليه صدفة مرضية ، غير أنني أفكر عبثاً فى النمط الذى أدرج تحته الصدفة التى تسببت فى أن يحصل برنارد برتراند على شهادة الحمار الكبير ."

قال أفيناريوس بكل ثقة : لقد حصل برنارد برتراند على شهادة الحمار الكبير لأنه حمار كبير ، لم يكن الأمر يتعلق بأية مصادفة .

كان هذا ضرورة مؤكدة . ولا حتى قوانين التاريخ الحديدية التي يتحدث عنها ماركس لا تمثل حتمية أكبر من هذه الشهادة " .

وكأن سؤالي كان دافعاً له ، ارتفع في الماء بجسمه الضخم الهائل ، وقمت أنا كذلك ، ثم خرجنا من حمام السباحة لنذهب للجلوس في البار في الناحية الأخرى من البهو .

(٥)

طلبنا كأسين من النبيذ ، تناولنا أول رشفة ثم قال أفيناريوس :
" إنك على علم بأن ما أفعله هو صراع ضد "ديابولوم" .

أجبت : " بالطبع أنا أعرف هذا ، وهذا هو سبب سؤالي عن منطق الهجوم على برنارد برتراند " .

" أنت لا تفهم شيئاً " قال أفيناريوس وكأنه قد أعياه أننى لا أفهم ما شرحه لى عدة مرات ، " لا يوجد أى صراع فعال ومعقول ضد "ديابولوم" . لقد جرب ماركس هذا ، وكل الثوريين جربوا هذا . فى النهاية يستولى ديابولوم دائماً على كل مؤسسة كان هدفها الأساسى القضاء عليه . إن تاريخى الثورى كله انتهى بخيبة أمل ، والمهم بالنسبة لى اليوم هو شىء واحد : ماذا يبقى للإنسان الذى أدرك أن أى صراع منظم وفعال ومنطقى ضد ديابولوم غير ممكن ؟ لديه فقط إمكانيتان : إما أن يستسلم ويفقد ذاته ، أو ينمى فى نفسه باستمرار

حاجته الداخلية للثورة ، ويعبر عنها من وقت لآخر ، لا لكى يغير العالم ، كما كان ماركس يتمنى عبثاً وهو محق فى وقت من الأوقات، ولكن لأن هناك دافعاً أخلاقياً حميماً يدفعه إلى هذا . فى الأيام الأخيرة كنت أفكر بك ، من المهم بالنسبة لك أن لا تعبر عن ثورتك بمجرد كتابة الروايات التى لا يمكنها أن تجلب لك أى رضا حقيقى ، ولكن بالفعل . أريدك اليوم أن تنضم إلى أخيراً ! "

قلت : " رغم ذلك مازلت لا أفهم لماذا دفعتك الحاجة الداخلية إلى الهجوم على محرر بسيط فى الإذاعة . هل دفعتك إلى هذا دوافع موضوعية ؟ لماذا صار بالنسبة لك رمزاً للغباء ؟ "

رفع أفيناريوس صوته قائلاً : " أنا أمتنع من استخدام كلمة رمز الغباء ! إن هذا هو فكر المؤسسات النظرية ! وفكر السياسيين الذين أصبحوا اليوم مجرد بهلوانات للرموز ! أنا أحتقر من يدلون الأعلام من النوافذ تماماً كاحتقارى لمن يحرقونها فى الميادين . إن برنارد ليس رمزا بالنسبة لى . لا شىء عندى أكثر واقعية منه ! أسمعته يتحدث كل صباح ! أبدأ يومى بكلماته ! إن صوته الأثوى المداعب بطريقة غبية يثير أعصابى ! أنا أجزع مما يقوله ! أسباب موضوعية ؟ لا أعرف ما هو المقصود بهذا ، لقد عيته حماراً كبيراً انطلاقاً من حريتى الشخصية الغريبة الشريرة ! "

قلت : " هذا ما أردت سماعه ، لقد تصرف كإله الصدفة وليس كإله الضرورة " .

"سواء أكنت إله الصدفة أم إله الضرورة ، فأنا سعيد بأننى بالنسبة لك إله " قال أفيناريوس ، ثم أضاف مرة أخرى بصوته الطبيعى الهادئ : " لكننى لا أفهم سبب دهشتك الكبيرة من اختيارى . إن من يمزح بطريقة غبية من المستمعين ويقوم بحملة ضد قتل الأرحام هو بلا أدنى شك حمار كبير ، وأنا لا أتصور اعتراضاً واحداً على ما قمت به . "

صعقت عندما سمعت كلمات أفيناريوس الأخيرة : "إنك تخطط بين برنارد برتراند برتراند برتراند ! "

" أنا أعنى برنارد برتراند الذى يتحدث فى الإذاعة ويحارب الانتحار والبيرة ! "

أمسكت برأسه : "إنهما شخصان مختلفان ! الأب والابن ! كيف أمكنك أن تربط محرر الإذاعة والنائب فى شخص واحد؟! إن خطأك هذا هو مثال أكيد على ما أسميته منذ لحظات بالصدفة المرضية " .

اضطرب أفيناريوس للحظة . لكنه سرعان ما أفاق وقال "أخشى أن لا تكون على دراية كافية بنظريتك فى الصدفة . لا يوجد أى شىء مرضى فى خطئى . ما فعلته هذا على العكس يشبه وبوضوح ما أطلقت عليه الصدفة الشاعرية . لقد صار الأب والابن عبارة عن حمار واحد برأسين . مثل هذا الحيوان الرائع لم يتوصل إليه ولا حتى علم الميثولوجيا الإغريقى القديم ! "

تناولنا الخمر ثم ذهبنا إلى دولاب الملابس لارتداء ملابسنا ، ومن هناك اتصلنا هاتفيا بالمطعم لكي يحجزوا لنا طاولة .

(١)

كان البروفيسور أفيناريوس يرتدى الجورب بينما أجنس كانت تذكر هذه الجملة : " تفضل كل امرأة طفلها عن زوجها . " هذا ما قالته أم أجنس لها بلهجة واثقة (فى أجواء اندثرت منذ تلك الفترة) وكانت أجنس وقتها فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها . إن مغزى هذه الجملة يكون واضحا فقط عندما نمعن النظر فيه للحظة : فعندما نقول إننا نحب "أ" أكثر من "ب" ، فلا يعتبر هذا مقارنة بين درجتين من الحب ولكنه يعنى أن "ب" غير محبوب . وعندما نحب شخصًا ما ، لا يمكننا إذن مقارنته . فالمحبوب لا يقارن ، وعندما نحب "أ" و "ب" فلا يمكننا أن نقارنهما لأننا ونحن نقارن بينهما نكون قد توقفنا عن حب أحدهما . وإذا قلنا علنا، إننا نفضل أحدهما عن الآخر ، فنحن لا نريد أن نعترف أمام الجميع بحبنا لـ "أ" (لأنه يكفى فى هذه الحالة مجرد القول "أحب "أ") بل نريد أن نظهر بتحفظ ولكن بوضوح أن "ب" مهمل بالنسبة لنا .

لم تكن أجنس الصغيرة بالطبع قادرة على هذا التحليل . كانت أمها تأخذ هذا فى اعتبارها بالتأكيد ، كانت ترغب فى أن تفضى

لأحد ما بهذا ، وفى الوقت نفسه لم تكن ترغب فى أن يفهمها تماما .
غير الطفل ، ورغم أنه لم يكن قادراً على فهم كل شيء ، فقد
استنبط رغم ذلك أن الجملة تتحدث فى غير صالح الأب . وكانت
أجنس الصغيرة تحبه ! لهذا لم تشعر بالتدليل ؛ لأنها تفضلها ولكن
شعرت بالحزن لأن حبيبها ينتقص من قدره .

انطبعت الجملة فى ذهنها ، حاولت أن تتخيل بكل واقعية ماذا
يعنى أن تحب شخصاً أكثر والآخر أقل ، استقلت قبل النوم فى
سريرها وهى شاردة ، رأت أمام عينيها هذا المشهد : أبوها يقف
ويمسك بكل يد ابنة له . تقف أمامه مصطفى فرقة إعدام تنتظر الأمر :
صوب ! اطلق ! ذهبت أمها تطلب من قائد العدو العفو ، فأعطاهما
حق إنقاذ اثنين من ثلاثة . وقبل أن يصدر القائد أمر إطلاق النار
مباشرة ، تقبل الأم مسرعة ، وتنزع البنتين من يد أبيهما ، وبسرعة
مذعورة تأخذهما بعيداً . أجنس تجرها أمها وهى تنظر إلى الخلف
صوب الأب ، كانت رأسها ملتفة إلى الخلف بعناد ومقاومة لأنها
ستصاب بتشنج فى رقبتها ، ترى أباهما وهو ينظر إليهم بحزن ؛ بدون
أدنى اعتراض : لقد تقبل اختيار أمها ، لأنه يعرف أن عاطفة الأمومة
أقوى من حب الزوج ، وأن عليه أن يذهب للقاء الموت .

أحياناً كانت تتخيل أن قائد العدو أعطى لأمها الحق فى إنقاذ
واحد فقط من بين المحكوم عليهم . لم تشك للحظة فى أن أمها
ستنقذ لاورا . تراءى لها أنها بقيت هى وأبوها وحدهما ؛ وجها

لوجه مع فرقة الإعدام . أمسك كل منهما بيد الآخر . لم تهتم
أجنس على الإطلاق بما يحدث لأمها وأختها ، ولم تنظر ناحيتهما ،
ولكنها كانت تعرف أنهما تبتعدان سريعاً ولم ترى واحدة منهما !
كانت أجنس شاردة فى مخدعها ، وفى عينيها دموع حارة وقد شعرت
بالسعادة الدفينة بأنها تمسك بيد أبيها وأنها معه وأنهما سيموتان معا .

(٧)

ربما كانت أجنس قد نسيت مشهد الإعدام لو لم تكن تشاجرت
مع أختها عندما فاجأتا أباهما فوق كومة الصور الفوتوغرافية . نظرت
فى ذلك الوقت إلى لاورا التى تصرخ ، وتذكرت أنها هى نفسها
لاورا التى تركتها بمفردها مع أبيها أمام فرقة الإعدام وانصرفت ، دون
أن تنظر وراءها ، أدركت فجأة أن نزاعهما أعمق مما تصورت ، ولهذا
السبب لم تفكر فى هذه المشاجرة مطلقاً ، وكأنها خافت أن تذكر شيئاً
يجب أن يبقى فى طى النسيان ، وأن توقظ ما يجب أن يبقى ساكناً .

وعندما انصرفت أختها فى ذلك الوقت باكية غاضبة ، وبقيت
هى مع أبيها بمفردها ، شعرت لأول مرة بشعور غريب ، شعور
الإرهاق الغريب من الحقيقة المدهشة (أكثر ما يدهشنا دائماً الحقيقة
التافهة) إنها هى نفسها ستكون أختاً مدى الحياة . سيكون فى
استطاعتها أن تغير الأصدقاء والعشاق ، وأن تنفصل عن بول إن

أرادت ، ولكنها لن يكون فى مقدورها على الإطلاق أن تغير أختها .
إن لاورا تعد من ثوابت حياتها ، الأمر الذى تعتبره أجنس مزعجا ،
خاصة وأن علاقتهما كانت تشبه الحلقة المفرغة منذ الطفولة : أجنس
تجربى فى المقدمة وأختها وراءها .

أحيانا كانت تتخيل نفسها وكأنها فى إحدى الروايات التى عرفتھا
منذ الطفولة : الأميرة تهرب على الحصان من شخص شرير يلاحقها ،
تحمل فى يدها فرشاة ومشطاً وشريطة . ترمى الفرشاة خلفها فتتمو
بينها وبين من يلاحقها غابات كثيفة ، هكذا تكسب مزيداً من الوقت ،
غير أنه عاد وظهر مرة أخرى ثم تلقى بالمشط خلفها والذى يتحول إلى
صخور مدبية ؛ ولكنها تراه فى أعقابها من جديد فتلقى الشريطة التى
تتحول إلى نهر واسع من خلفها .

ثم لم يتبق فى يد أجنس سوى آخر وسيلة : وهى النظارة
السوداء . ألقت بها على الأرض فكونت بينها وبين المطارد بقعة مغطاة
بالشظايا الحادة .

إلا أنها لا تملك شيئاً الآن وتعرف أن لاورا أقوى منها ؛ فقد
حولت الضعف إلى سلاح وتفوق أخلاقى . إنها مغلوقة على أمرها ،
فقد تركها حبيبها وهى تتعذب ، وتحاول الانتحار ، فى حين أن
أجنس السعيدة بزواجها تلقى بنظارة أختها على الأرض ، وتحط من
قدرها وتمنعها من الدخول إلى شقتها ، لقد مرت ثلاثة أشهر منذ أن
كسرت النظارة ومنذ أن التقيا آخر مرة . أجنس تعرف أن بول ،

ويدون أن يدري ، لا يتفق معها ، لقد تعاطف مع لاورا . يقترب السباق من نهايته . أجنس تسمع أنفاس أختها المتلاحقة وتتأكد من أن أختها تكسب .

إن شعور الإعياء يتزايد أكثر فأكثر . ولم تعد لديها الرغبة في مواصلة العدو . فهي ليست عداءة . لم تكن ترغب يوما في العدو . إنها لم تختار أختها ، لم تكن تريد أن تكون مثالا لها ولا منافسا لها . إن أختها تمثل لها في حياتها مجرد صدفة ، تماما مثل شكل أذن أجنس . إنها لم تختار لا شكل أذنها ولا أختها ؛ وعليها أن تجرب خلفها طوال حياتها عبثية الصدفة .

لقد علمها أبوها لعب الشطرنج وهي صغيرة ، لقد جذبتها حركة معينة يطلق عليها الخبراء التسييت : يحرك اللاعب بلمسة واحدة بيدقين ، يضع القلعة مكان الملك ثم يحرك الملك إلى جوار المكان الذي كانت تقف فيه القلعة . أعجبت بتلك الحركة ، يركز العدو كل قوته لكي يصيب الملك ، الذي يختفى من أمامه فجأة ويرحل ، كانت تحلم طيلة حياتها بهذه الحركة وخاصة عندما يصيبها الإعياء .

(٨)

منذ أن توفي أبوها وترك لها نقودا بينك في سويسرا ، سافرت أجنس إلى جبال الألب مرتين أو ثلاث مرات في العام ، أقامت في

الفندق نفسه ، وحاولت أن تتصور أنها ستبقى إلى الأبد في هذه الأطراف : أيمكنها أن تعيش بدون بول وبريجيتا ؟ وكيف تعرف هذا ؟ لقد تعلمت القليل من بقائها وحدها "على سبيل التجربة " لمدة ثلاثة أيام اعتادت أن تقضيها في الفندق . لقد دوت كلمة "يرحل " في رأسها ككلمة جذابة في غاية الجمال . ولكنها إن رحلت ألن تأسف على هذا سريعاً ؟ الحقيقة أنها تمت أن تكون وحدها ، ولكنها كانت في نفس الوقت تحب زوجها وابنتها وتخاف قد تحتاج لمعرفة أخبارهما وأن تعرف إن كانت أحوالهما تسير على ما يرام ، ولكن كيف تكون وحدها ، منفصلة عنهم ، وتعرف عنهم في نفس الوقت كل شيء ؟ ولكن كيف ستسير أمور حياتها ؟ ستبحث عن وظيفة جديدة ؟ لن يكون هذا سهلاً . قد لا تفعل أى شيء . نعم ، إنه لأمر مغرى ، ولكن ألن تبدو فجأة كالمقاعد ؟ عندما فكرت في كل هذا ، بدت لها خطة "الرحيل " يوما بعد يوم غير ممكنة ومصطنعة ، ولا يمكن تحقيقها ، وتشبه اليوتوبيا التى تصيب بالإحباط كل من يؤمن فى قرارة نفسه أنه لا حيلة له ولن يفعل شيئاً .

ولكن يوما ما جاءها الحل من الخارج ، وغير متوقع أيضا وعادى جدا . لقد أسس صاحب العمل فرعا فى مدينة "برن " ، ولأن الجميع كانوا يعرفون أنها تجيد الألمانية تماما كالفرنسية سألوها إذا كانت تريد إجراء بحث هناك . كانوا يعرفون أنها متزوجة ، لهذا لم

يتوقعوا كثيراً موافقتها فأدهشتهم وقالت دون أن تتردد للحظة :
"نعم" ، لقد أدهشت نفسها كذلك : فهذه الموافقة التلقائية أكدت أن
رغبتها لم تكن مجرد قصة هزلية صورتها لنفسها كنوع من الدلال ،
ولم تكن مؤمنة بها ، بل شيء حقيقى وجاد .

لقد أغتنمت هذه الرغبة الفرصة بحماس حتى لا تظل حلمًا
رومانسيًا ، وتصبح مجرد كلام مشور ، على طريقة الخدم . عندما
قبلت أجنس العرض تصرفت وكأنها امرأة طموحة . فالدوافع
الشخصية لقرارها لا يمكن لأى إنسان أن يعرفها أو أن يتنبأ بها ،
وصار كل شيء بالنسبة لها واضحًا ، لم يكن عليها أن تقوم
بمحاولات واختبارات وتحاول أن تتخيل "ماذا سيحدث لو . . ." إن
ما تمته قد حدث فجأة ، أما هى فكانت مندهشة أنها تتقبل الأمر
بسعادة واضحة لا تشوبها شائبة .

كانت هذه سعادة غامرة لدرجة أنها أثارت فيها الحياء والشعور
بالذنب . لم تجد الشجاعة لتخبر بول بقرارها . لهذا ذهبت لآخر مرة
إلى الفندق الذى تتردد عليه بجبال الألب . (قريبًا سيكون لديها شقة
هنا ، سواء فى أطراف "برن" أو بالقرب من الجبال) أرادت أن تفكر
خلال هذين اليومين كيف ستخبر بول وبريجيتا بالأمر كله لكى يؤمنوا
بأنها امرأة طموحة وحررة ومأخوذة بالعمل التخصصى والنجاح ،
حيث إنها لم تكن كذلك من قبل على الإطلاق .

كان الظلام قد حل ، عبرت أجنس الحدود السريعة وهى تشعل أضواء السيارة إلى الحدود الفرنسية التى تصيبها دائماً بالخوف ، التزم السويسريون المنضبطون بالتعليمات ، فى حين تزمم الفرنسيون ممن يريدون أن ينكروا على الناس حقهم فى السرعة وهم يهزون رؤوسهم بحركات أفقية ، حولوا القيادة على الطرق إلى احتفال للعريضة من أجل حقوق الإنسان .

شعرت بالجوع وأخذت تبحث على الطريق عن مطعم أو بنسيون تأكل فيه . مرت من على يمينها ثلاث دراجات نارية محدثة صوت ضجيج شديد ، وعلى ضوء الكشافات كانت ترى السائقين فى زى يشبه زى رواد الفضاء أعطتهم صورة كائنات كونية غير بشرية .

فى هذه اللحظة انحنى على الطاولة النادل ليحمل الأطباق الفارغة بعد تناول المقبلات وأنا أقول لأفيناريوس : " فى صباح اليوم الذى بدأت فيه فى كتابة الجزء الثالث من روايتى سمعت فى الإذاعة خبراً لا يمكن أن أنساه . فتاة خرجت ليلاً على الطريق ثم جلست على ركبتيها تنتظر الموت . أدار سائق السيارة الأولى عجلة القيادة فى اللحظة الأخيرة ولقى حتفه مع زوجته وطفليه . وسقطت السيارة الثانية فى الحفرة . وتلتها السيارة الثالثة . ولم تصب الفتاة بأى مكروه . قامت وانصرفت ولم يعرف أحد هويتها " .

قال أفيناريوس : " ما هي الأسباب ، حسب اعتقادك التي دفعت بفتاة صغيرة إلى أن تجلس على الطريق وتريد أن تجعل السيارات تتحطم؟ "

قلت : " لا أعرف ولكنني أراهن أن السبب كان صغيراً جداً .
تافها بمعنى أدق أنه من الخارج قد يبدو صغيراً وأحمق . "

هزرت كتفى : " لا أستطيع أن أتخيل أى سبب وجيه لهذه الانتحار المفزع ، ينتج عنه مثلاً مرض مستعص أو موت شخص قريب . لا أحد فى هذه الحالة يختار هذه النهاية المفجعة التي يموت فيها أناس آخرون ، فمجرد سبب خال من المنطق يمكن أن يؤدي إلى كارثة غير منطقية . ففي كل اللغات ذات الأصل اللاتيني تعنى كلمة سبب "ratio raison, reason" فى المقام الأول ما نطلق عليه العقل . فالسبب دائماً يفهم على أنه منطقي . والسبب الذى يكون منطقته غير واضح ، يبدو غير قادر على تفسير عاقبة ما . كلمة سبب باللغة الألمانية تعنى Grung وهي كلمة لا علاقة لها بالكلمة اللاتينية ratio وتعنى فى الأصل أرض ثم أساس . وسلوك الفتاة التي تجلس على الطريق يبدو بالنسبة للكلمة اللاتينية ratio عبثاً وفى غير محله وخالياً من المنطق ، ولكنه رغم ذلك له سببه ، أى له أساس ، وله Grund الذى هو سبب دائم لأفعالنا وأساس يصدر منه قدرنا . أحاول أن أتبع الأساس الكامن فى قاع تصوراتى ، وتزداد على الدوام قناعتى أن طبيعة هذا السبب هي طبيعة مجازية " .

قال أفيناريوس : " لا أستطيع أن أفهم هذه الفكرة " .
"خسارة ! هذه هي أهم فكرة خطرت لى على الإطلاق " .
فى هذه اللحظة جاء النادل بالبطة . كانت رائحتها تفوح بصورة
جذيلة وجعلتنا ننسى حديثنا السابق .
بعد لحظات قطع أفيناريوس الصمت قائلاً : " عمّ تكتب الآن ؟
" لا يمكننى أن أتحدث عن هذا " .
"خسارة !"

" لا توجد أية خسارة . بل فائدة ، فالحقبة الجديدة تسعى وراء
كل ما كتب ، لكى تحوله إلى أفلام ، ومسلسلات تليفزيونية ورسوم
متحركة . ولأن الشيء الرئيسى فى الرواية هو فى الواقع هذا الشيء
الذى لا يمكن تسميته إلا رواية ، ولا يبقى فى كل إعداد إلا ما هو
ثانوى . إذا أراد أحد المجانين الذى مازال يكتب حتى اليوم أن يحمى
رواياته ، فعليه أن يكتبها بحيث لا يمكن تحويلها إلى شكل فنى آخر ،
وبمعنى آخر ، بحيث لا يمكن أن تروى " .

. اعترض أفيناريوس قائلاً : " يمكننى أن أحكى لك رواية " ثلاثة
جنود مسلحون " لـ "الكسندر دوماس" بكل استمتاع فى أى وقت
تريد منذ البداية وحتى النهاية !"

قلت له : " أنا مثلك لا أسمح لأحد بالهجوم على الكسندر
دوماس ، رغم ذلك يؤسفنى إن كل الروايات التى كتبت تقريباً تخضع
لمبدأ وحدة الحدث . أريد أن أقول إن أساسها عبارة عن سلسلة واحدة

من الأحداث والأفعال المرتبطة ببعضها ارتباطها سببياً ، هذه الروايات تشبه الشارع الضيق يسوق فيه شخص ما شخصيات الرواية بالسوط . ويعتبر التصعيد الدرامى لعنة للرواية ؛ لأنه يحول كل شىء وحتى أجمل ما فى الرواية ، وأكثرها المشاهد الدرامية والتأمل ، إلى خطوات تؤدي إلى الحل النهائى ، الذى يتجمع فيه منطق كل ما سبق ويلتهم الرواية ما بها من تصعيد كالتهام البركان للهشيم " .

قال البروفيسور أفيناريوس بصوت خافت : " أخشى وأنت تقول هذا أن تكون روايتك مثيرة للملل " .

"أكل ما ليس حلقة مجنونة قبل الحل النهائى مثير للملل ؟
أتصاب بالملل عندما تتذوق طعم هذا الورك الرائع ؟ أتعجل الهدف ؟
على العكس ، أنت تريد أن تدخل البطة إلى جوفك بأبطأ ما يمكن ،
وأن لا ينتهى طعمها على الإطلاق . لا يجب أن تكون الرواية كسباق الدراجات النارية ، أنا فى شوق إلى الجزء السادس . فستظهر فى الرواية شخصية جديدة تماماً . وسترحل فى نهاية الجزء كما جاءت ولن يكون لها أثر . فهى ليست سبباً فى أى شىء ولن تترك أى تأثير وهذا فى الواقع يعجبني . إن الجزء السادس سيكون رواية داخل الرواية ، والجزء الجنسى الملىء بالحزن فى الرواية والذى كتبته فى وقت ما ، سوف تصاب بالحزن عندما تقرأه " .

صمت أفيناريوس للحظة وهو متردد ثم سألنى بلطف : " وماذا ستطلق على الرواية ؟ "

"بساطة الوجود التى لا تحتمل" .

"ولكنى أعتقد أن شخصا ما قد كتب هذا من قبل" .

"أنا ، ولكنى أخطأت حيثئذ فى العنوان . إن هذا العنوان كان يجب أن يكون عنوان الرواية التى أكتبها الآن " .

ثم صمتنا ونحن نركز على مذاق الخمرة والبطّة .

أثناء مضغ الطعام قال أفيناريوس : "أعتقد أنك تعمل كثيرا . يجب أن تفكر فى صحتك" .

كنت أعرف جيدا الهدف الذى يرمى إليه أفيناريوس ، ولكنى تظاهرت بأننى لا أعرف ما يقصده ، وأخذت أذوق النبيذ فى صمت .

(١٠)

عاد أفيناريوس وكرر بعد لحظة صمت طويلة : "يبدو لى أنك تعمل كثيراً ، يجب أن تفكر فى صحتك" .

قلت له : أنا أفكر فى صحتى . أذهب بانتظام لرفع الدمبل : .

" إنه خطر ، يمكن أن يصيبك بنوبة قلبية "

" هذا ما أخشاه تماما " قلت له وقد تذكرت "روبرت موسيل" .

" إن ما تحتاج إليه هو الجرى ، سأطلعك على شيء ، قال أفيناريوس ثم قام بفك أزرار سترته خلسة . رأيت مجموعة غريبة من

الأحزمة التى تشبه من بعيد طقم الحصان ، مثبتة حول صدره وعلى امتداد كرشه الضخم . وفى أسفل على اليمين ستارة على شكل حزام دس فيها سكين مطبخ كبير ومرعب .

أثنت على زيه ، ولكن لأتنى أردت أن أصرف الحوار بعيدا عن الموضوع الذى أعرفه جيداً ، فقد وجهت الكلام إلى موضوع كان يهمنى وأردته أن يحدثنى عنه : "عندما رأيت لاورا فى محطة المترو ، عرفتُها عرفتُك" .

قال أفيناريوس : "نعم"

"أنت تهتم بالأشياء التافهة وتمل من الأشياء المهمة " قال أفيناريوس بخيبة أمل واضحة ثم أغلق سترته " إنك مثل حارس البيت العجوز " .

هزرت كتفى .

استطرد قائلاً : " لا يوجد شىء مهم فى هذا الأمر على الإطلاق . قبل أن أمنح الحمار الكبير الشهادة ، كانت صورته قد ظهرت فى الشوارع . انتظرت فى بهو الإذاعة لكى أراه بشحمه ولحمه ، وعندما خرج من المصعد تقدمت إليه امرأة وقبلته . تابعتهما ثم ألتقت عينانا عدة مرات ، ولهذا كان وجهى يبدو مألوفاً لها ، رغم أنها لم تعرف من أنا " .

"وهل أعجبتك ؟"

قال أفيناريوس بصوت خفيض : "أعترف لك أنه لولاها لما قمت بتنفيذ خطتي عن الشهادة مطلقاً ، فعندى آلاف من هذه الخطط تظل فى الغالب أحلاماً .

قلت موافقاً على كلامه : "نعم ، أعرف هذا " .

"عندما تجذب الإنسان امرأة ، فهو يفعل كل ما فى وسعه لكى يتقرب منها ولو بطريقة غير مباشرة وملتوية ، ولكى يلامس ولو عن بعد عالمها ويحركه " .

"برنارد إذن صار حماراً كبيراً لأن لاورا أعجبتك " .

"هذا ممكن " قال أفيناريوس وهو يفكر ثم أضاف " إن فى هذه المرأة شيئاً يجعلها تصبح ضحية . وهذا بالفعل ما جذبنى إليها . لقد انجذبت إليها عندما رأيته فى أيدى اثنين من المتسكعين السكارى الذين تفوح منهم رائحة كريهة ! إنها لحظة لا تنسى ! "

"نعم ، أنا أعرف ما حدث إلى هنا ، ولكنى أريد أن أعرف ماذا حدث بعد ذلك . "

استرسل أفيناريوس متجاهلاً سؤالى : "إن لها مقعدة غير عادية ، عندما كانت فى المدرسة لا بد أن زملاءها كانوا يلدغونها فيها . أكاد أسمعها فى كل مرة تصرخ بصوتها السوبرانو العالى ، لقد كان هذا الصوت عهداً جميلاً لجاذبيتها فى المستقبل " .

"نعم ، لتكلم عن هذا . احك لى ، ماذا حدث بعد أن أخذتها من محطة المترو كالمنقذ العجيب " .

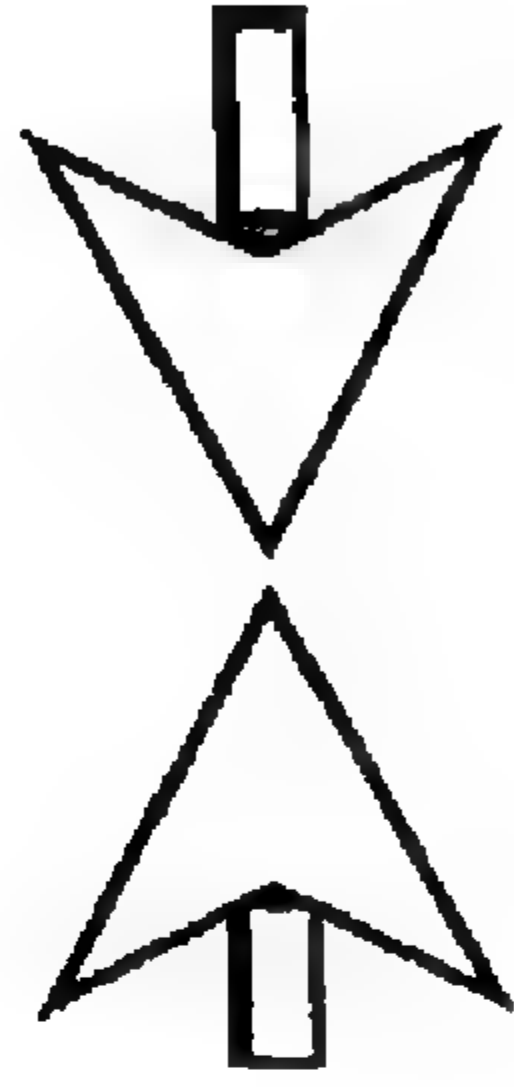
تظاهر أفيناريوس وكأنه لا يسمعى ثم استطرد قائلاً . " يقول محب الجمال إن مقعدتها ضخمة كثيرا ومتدلية ، مما يعتبر أمراً مزعجاً جعلها تنوق إلى الأعلى . وفى هذا التناقض يكمن ، حسب اعتقادى الإرث البشرى : العقل ملئ بالأحلام ، أما المقعدة فهى كالمرساة التى تربطنا بالأرض " .

صدرت كلمات أفيناريوس الأخيرة كئيبية ، لا أدرى لماذا ، ربما لأن الأطباق كانت فارغة ، وأنه لم يعد أثر للبطة . ومن جديد انحنى النادل ليأخذ الأطباق رفع أفيناريوس رأسه قائلاً : " أ لديك ورقة ؟ " أعطاه النادل ورقة من دفتر الحساب ، أخرج أفيناريوس قلماً ورسم هذا الشكل على الورقة :



ثم قال : " هذه هى لاورا : رأس ملئ بالأحلام ينظر إلى السماء ، وجسدها منجذب إلى الأرض ، مقعدتها وثدياها الثقيلان كذلك ينظران إلى أسفل " .

قلت له هذا شيء غريب " ثم رسمت بجوار الشكل الذى رسمه
أفيناريوس هذا الشكل :



سأل أفيناريوس : " من هذا ؟ "

" إنها أختها أجنس : الجسد يرتفع كاللهب . والرأس متطأطة
قليلا باستمرار : تنظر فى رية إلى الأرض " .

" أنا أفضل لاورا " قال أفيناريوس بصرامة ثم أضاف : " لكنى
أفضل المشى ليلا عن أى شيء . أحب كنيسة " سان جرمان دى
بريس ؟ "

أومأت بالموافقة

" رغم أنك لم ترها بالفعل فى الواقع " .

قلت له : " لست أفهم ما تعنيه " .

" كنت أسير فى رى دى نوار " " تجاه الطريق ، وأخذت أحصى
كم مرة نظرت إلى هذه الكنيسة دون أن يصطدم بى أحد المشاة

المتعجلين ، أو تتخطانى سيارة . أحصيت سبع مرات من النظرات القصيرة جدا تسببت لى فى كدمة على ذراعى الأيسر ؛ لأن أحد الفتيان المشاكسين أصابنى بذراعه . تمنيت نظرة للمرة الثامنة عندما كنت أقف أمام مدخل الكاتدرائية مباشرة ، وأرفع رأسى إلى أعلى . ولكنى رأيت فقط الواجهة فى منظر كالصفدعة مشوه تماما . تكون فى ذهنى من تلك النظرات السريعة أو المشوهة شكل تقريبي لا تزيد علاقته بالكاتدرائية عن علاقة لاورا بالشكل الذى رسمته والذى يتكون من سهمين . اختفت كاتدرائية "سانت جيرمان دى بريس" ، واختفت كذلك جميع الكنائس فى كل المدن كالقمر عندما تحين لحظة كسوفه . إن السيارات التى امتلأ بها الطريق ، جعلت الأرصفة التى يتدافع عليها المشاة صارت أصغر ؛ إذا أراد أحد أن ينظر إلى الآخر يرى السيارات خلفه ، وإذا أراد أن ينظر إلى البيت الذى أمامه فسيرى أمامه السيارات ، لا توجد زاوية واحدة للنظر لا تكون بها سيارات ، فى الخلف وفى الأمام وعلى الجانبين يقضى ضجيجها المنتشر فى كل مكان وفى كل لحظة كالمادة الكاوية على التأمل .

لقد تسبب السيارات فى إخفاء جمال المدن . أنا لست كأساتذة علم الأخلاق الأغبياء الذين يغضبون لموت عشرة آلاف شخص كل عام على الطريق . فبذلك يقل عدد السائقين على الأقل . ولكنى أعترض على أن السيارات قد تسببت فى خسوف الكاتدرائية .

صمت البروفيسور أفيناريوس ثم قال : "عندى رغبة فى تناول
الخبز . "

(١١)

جعلنى الخبز أنسى الكنيسة تدريجيا ، وجعلتنى الخمر أستدعى
صورة السهمين الرأسين فوق بعضهما : " أنا على يقين أنك أخذتها
إلى البيت ، وأنها دعتك إلى منزلها ، وأخبرتكم بأنها أتت امرأة فى
العالم ، قد سال جسدها على أثر لمساتك ، صار أعزل وغير قادر
لا على تحمل الدموع ولا البول . " :

صاح أفيناريوس : الدموع والبول " ! . تصور رائع ! .

" ثم وقعت فى غرامها وأخذت تنظر إلى وجهك ، وهزت
رأسها وقالت : أنا لا أحبك ! أنا لا أحبك .

قال أفيناريوس : إنه شيء مشير ، ولكن عمن تتحدث ؟ "

"عن لاورا ! "

قاطعنى قائلا : "من الضرورى لا محالة أن تمارس رياضة . إن
الجرى ليلا هو الشيء الوحيد الذى يمكنه أن يأخذك بعيداً عن أوهامك
الجنسية . "

" أنا لست مسلحاً مثلك " قلت له ، ملمحاً إلى الحزام الذى يرتديه ، "أنت تعرف جيداً أنه بدون العادة المناسبة لا يمكن الخوض فى هذا العمل . "

" هدىء من روعك . إن العدة ليست بهذه الأهمية . فقد كنت أمارس رياضة الجرى بدونها فى البداية . إن مبدأ " وضع يده على ثديه " يعتبر مهارة حصلت عليها بعد سنوات عديدة ، ولم تقودنى إليها الضرورة العملية ، بل على الأحرى رغبة جمالية فى الكمال خالصة وعديمة الجدوى تقريباً . يمكنك فقط أن تحمل سكيناً فى جيبك بدون أية مشاكل . لكن من المهم أن تلتزم بهذه القاعدة : عند أول سيارة تقوم بوضع الإطار الأيمن الأمامى ، وعند ثانى سيارة تقوم بثقب الأيسر الأمامى ، وعند الثالثة الأيمن الخلفى ، وعند الرابعة "

... " الأيسر الخلفى "

ابتسم أفيناريوس مثل المدرس الشرير الذى يفرح من إجابة التلميذ الخاطئة : " خطأ ! عند السيارة الرابعة الأربعة كلهم . "

ضحكنا لحظة ثم واصل أفيناريوس : " أعرف أنك فى الفترة الأخيرة متيم بالرياضيات ، لذلك لابد أن تقدر قيمة هذه القاعدة الهندسية . أنا مصر عليها كالقاعدة المطلقة التى تحمل معنيين : إما أن تقود الشرطة إلى دليل زائف ، وسترى فى تخطيط غريب لإطارات السيارات المثقوبة منطقاً ، ورسالة ، وشفرة ، وسوف تحاول فك رموزها ، ولكن المهم هو أن الالتزام بهذا النموذج الهندسى يزود فعلنا

الهدام بمبدأ الجمال الرياضى الذى يميزنا جذرياً عن الونداليين الذين يخذشون السيارة بالمسمار ويتبرزون على سطحها . لقد قمت بإعداد طريقتى هذه بكل تفاصيلها فى ألمانيا منذ عدة سنوات ، حيث كنت مارلت أومن فى إمكانية الخروج المنظم على "ديابولوم" . قمت بزيارة اتحاد علماء البيئة . هؤلاء هم من يرى أن البلاء الأساسى لـ "ديابولوم" يكمن فى أنه يدمر الطبيعة ، ولم لا ، وحتى هكذا يمكن أن نفهم "ديابولوم" ، لقد تعاطفت معهم . قمت بوضع خطة لتكوين فرق خاصة لثقب إطارات السيارات . ولو كانت خطتى تحققت - أجزم لك أن السيارات كانت قد اختفت . كان خمس فرق من الكوماندو ، بكل فرقة ثلاثة رجال ، قادرة خلال شهر على أن يجعلوا استخدام السيارات فى مدينة متوسطة الحجم غير ممكن ! شرحت لهم خطتى بكل تفاصيلها استطاعوا أن يتعلموا منى كل شىء ، كيف يتم إنجاز العمل التخريبى المتقن والفعال ، وفى نفس الوقت لا يمكن أن تكشفه الشرطة . ولكن هؤلاء الأغبياء اعتبرونى محرضاً ! أخذوا يصفرون ويهددوننى بقبضات أيديهم ! بعد ذلك بأسبوعين خرجوا على دراجاتهم النارية الكبيرة ، وفى سياراتهم الصغيرة ، وانطلقوا إلى مكان ما فى الغابات فى مظاهرة احتجاج على إنشاء محطة كهرباء نووية . دمروا العديد من الأشجار، فاحت هناك رائحة كريهة استمرت أربعة أشهر بعد رحيلهم . عندما أدركت أنهم صاروا جزءاً من "ديابولوم" ، وكانت هذه هى آخر محاولة لى لتغيير العالم . واليوم أستخدم الأعمال الثورية لمجرد إرضاء ذاتى . إن

السير ليلا وثقب إطارات السيارات هي سعادة غامرة للروح ،
وتدريب رائع للجسد . أنصحك بشدة بأن تفعل هذا ، فسوف تنام
بعدها بصورة أفضل . ولن تفكر فى لاورا . " أخبرنى عن شيء
واحد ، هل تصدق زوجتك بأنك تخرج فى الليل من المنزل
لثقب إطارات السيارات؟ ألا تشك بأنها قد تكون ذريعة تخفى
وراءها مغامرات نسائية ؟ "

" إنك تنسى شيئاً مهماً . فأنا أعط فى نومى . ولهذا كان
لى الحق فى أن أنام فى أبعد غرفة فى الشقة ، فأنا سيد ليلى بلا
منازع . "

أخذ يضحك ، وانتابتنى رغبة فى الاستجابة لدعوته ؛ فوعده
أن أذهب معه : أولاً مؤسسته كانت تبدو لى جديرة بالثناء ، وثانياً
لأننى كنت أحب صديقى وأردت أن أسعده ولكن قبل أن أتمكن من
الحديث عن هذا ، ناديت بصوت عال على النادل لكى يحضر فاتورة
الحساب ، وبذلك انقطع حبل الحوار ، واستهوانا موضوع آخر .

(١٢)

لم يعجبها أى من المطاعم المنتشرة على الطريق ، مرت بها
والإرهاق والجوع يتزايدان . كان الوقت متأخراً جداً عندما توقفت
بالسيارة أمام أحد البنسيونات .

لم يكن بصالة الطعام سوى أم ومعها طفلها فى السادسة من عمره ، يجلس حيناً ، ويجرى فى الغرفة حيناً آخر محدثاً ضجيجاً متواصلاً .

طلبت عشاءً بسيطاً ، وأخذت تنظر إلى دمية تقف فى منتصف الطاولة . كانت عبارة عن تمثال صغير من المطاط وهو عبارة عند دعاية لسلعة ما . كان للدمية جسم كبير وأرجل قصيرة ، فى وجهها أنف أخضر ضخمة يتدلى حتى سرتها . قالت لنفسها ، إنه لشئ مدهش جداً ، وأخذت الدمية بيدها ، وتفحصتها طويلاً .

خطر لها أن شخصاً ما قد يبعث الروح فى هذه الدمية ، وإذا بعث فيها الروح فقد تشعر بألم شديد إذا عبث شخص ما بأنفها الأخضر المطاطى كما تفعل أجنس الآن . وسيتولد فيها سريعا الخوف من البشر ؛ لأن الجميع سيرغب فى أن يلعب بهذا الأنف المثير للضحك ، ولن تكون حياتها سوى ألم ومعاناة .

هل ستبجل خالقها ؟ هل ستشكره على منحه إياها الحياة؟ وهل ستصلى له ؟ يوماً ما سيضع لها شخص ما مرآة أمام وجهها وستمنى من تلك اللحظة أن تخفى وجهها أمام الناس من شدة خجلها ولكنها قد لا تستطيع ؛ لأن خالقها قد شكلها بحيث لا يمكنها تحريك يديها .

قالت أجنس لنفسها إنه شئ غريب أن تخجل الدمية ؟ هل هى مسئولة عن أنفها الخضراء ؟ ألن تهز كتفيها غير مبالية ؟ كلا ، لن تهز

كتفيتها . قد تخجل . فعندما يكتشف الإنسان ، لأول مرة ذاته الجسدية فإن أول وأهم ما يشعر به ليس الغضب واللامبالاة بل الخجل : الخجل الرئيسى الذى سيصاحبه طوال الحياة ، قويا كان أو ضعيفا أو باهتا بفعل الزمن . عندما كانت فى السادسة عشر من عمرها ، كانت فى زيارة لأحد معارف والديها ، جاءها الحيض ، وامتلات الفوطة بالدم ، عندما اكتشفت هذا فى الصباح الباكر ، أصابها الذعر . تسالت خلصة إلى الحمام تبحث عن صابونة ثم دعت الفوطة بليفة مبللة ، غير أن البقعة تزايدت ولوثت الفراش ، أصابها الخجل المميت .

لماذا خجلت إلى هذه الدرجة ؟ أليس كل النساء يعانين من الدورة الشهرية ؟ هل خلقت لنفسها أعضاءها التناسلية ؟ هل كانت مسئولة عنها ؟ لم تكن غير أن المسئولية ليست مرتبطة بالخجل . فلو قلنا أنها سكبت الخبر ، وأتلفت ، لمن ، كانوا فى زيارتهم ، السجادة والمفرش لكان أمراً مزعجاً ومستهجئاً ، ولكنها لا تخجل . فأساس الخجل ليس خطأ ما ارتكبناه ، ولكنه الحزى والمهانة التى نشعر بها عندما نكون مضطرين إلى أن نظل على الحالة التى نحن عليها ، دون أن نختر ، إنه الشعور الذى لا يحتمل بأن هذه المهانة نراها من كل اتجاه .

لا يمكن أن نتعجب من أن الدمية ذات الأنف الطويل تخجل من وجهها . ولكن كيف ترى أجنس أباهما ؟ فقد كان جميلا ! نعم ، كان كذلك . ولكن كيف يفسر الجمال من الناحية الرياضية ؟

إن الجمال يعنى أن الصورة تشبه إلى درجة كبيرة النموذج
الأصلى . فلتتخيل أنه تم تغذية الحاسب الآلى بالحد الأقصى والأدنى
لأبعاد كل أجزاء الجسد : فطول الأنف يتراوح من ثلاثة إلى سبعة
سنتيمترات ، ارتفاع الجبين من ثلاثة إلى ثمانية سنتيمترات وهكذا ،
والشخص الدميم هو من له جبهة ارتفاعها ثمانية سنتيمترات ، وأنف
طوله ثلاثة سنتيمترات فقط . القبح هو القلب الجمالى للمصادفة .
فقد اختارت لعبة المصادفات بالنسبة للإنسان الجميل معدل كل
الأبعاد . فالجمال هو معدل الالجمال . فعدم تفرد الوجه هو وحده
دون غيره ما يظهر فى الالجمال أكثر منه فى القبح . فكل إنسان
يرى فى وجهه التصميم التقنى الأصلى تماما كما رسمه مصمم
النموذج الأصلى . وهو لذلك لا يمكنه أن يصدق - بسهولة - أن
ما يراه " ذاته " الأصلية ، لذلك يصيبه الخجل تماما كالدمية ذات
الأنف الأخضر الطويل .

عندما كان أبوها يحتضر ، جلست على حافة فراشه . قال لها
قبل أن يدخل فى المرحلة الأخيرة من سكرات الموت : " كفى عن
النظر إلى " كانت هذه آخر كلمات سمعتها تخرج من فمه ، آخر
رسالة له .

أطاعته ، خفضت رأسها تجاه أرض الغرفة ، وأغمضت عينيها ،
فقط أمسكت بيده ولم تتركها ، وتركته يرحل ببطء حيث لا يراه ،
أحد ، إلى عالم لا توجد به وجوه .

دفعت الحساب ، ثم توجهت إلى السيارة . اندفع أمامها الصبي الذي رآته فى المطعم يتشاكس . جلس أمامها ، ورفع يده إلى الأمام وكأنه يحمل بها بندقية آلية . أخذ يقلد صوت الطلقات : " طاك ، طاك ، طاك ! " فأرداها قتيلا بطلقاته الوهمية .

توقفت أمامه ، ثم قالت بصوت معتدل : " هل أنت مجنون؟ " توقف الصبي عن إطلاق النار ، ونظر إليها بعينه الطفولتين الواسعتين . قالت مرة أخرى : " نعم " ، من الواضح أنك مجنون " . انقبض وجه الصبي إلى تكشيرة باكية وقال : " سأقول هذا لأمى ! " .

قالت أجنس : " أسرع ، أسرع لتشتكى لها ! " ثم استقلت السيارة وانطلقت مسرعة .

كانت سعيدة أنها لم تلتق بأمه ، أخذت تتخيلها وهى تصبح ، وتهز رأسها ثائرة بحركات أفقية ، وترفع ذراعيها وحاجبيها لكى تدافع عن الطفل المهان . فحقوق الطفل بالطبع هى فوق باقى الحقوق . لماذا إذن فضلت الأم لاورا على أجنس عندما سمح لها قائد الأعداء أن نحمى فردا واحداً من أفراد الأسرة الثلاثة ؟ الإجابة كانت فى غاية الوضوح : فضلت لاورا لأنها كانت الأصغر . ففى تسلسل الأعمار يحتل الطفل الرضيع المرتبة الأعلى ، ثم الطفل ، ثم الصبي ، ثم

بعد ذلك الإنسان البالغ . أما الإنسان المسن فهو على الأرض ، فى ذيل هرم القيم هذا .

وماذا عن الشخص الميت ؟ إنه تحت الأرض . أى فى مرتبة أدنى من الإنسان المسن . فالإنسان المسن مازالت له كل حقوق الإنسان . أما الشخص الميت فهو على النقيض من هذا يفقدها من أول لحظة لموته . ولن يحميه أى قانون من تشويه سمعته لم تعد حياته الخاصة كما هى ملك له ، لا الخطابات التى كتبتها له حبيباته ، ولا التذكار الذى تركته له أمه ، لأشياء ، لأشياء ، لأشياء يملكه .

فى السنوات الأخيرة قبل موته تخلص أبوها من كل شئ ، لم يبق منه بعد رحيله حلة واحدة فى دولاب ملابسه ، ولا مخطوط واحد ، ولا أى مسودة كان يكتبها لمحاضراته ، ولا أية خطابات . لقد أزال أى أثر له ، ولم يتوقع أحد ذلك ، أدركوه فقط ، وبالمصادفة وهو يمزق الصور الفوتوغرافية . ورغم ذلك لم يمنعوه أن يدمرها . ولم تبق منها صورة واحدة .

احتجت لاورا على هذا . كانت تدافع عن حقوق الأحياء أمام حقوق الموتى التى لا أساس لها . فالوجه الذى سيختفى غدا فى التراب ، أو فى النار ليس ملكا لموتى المستقبل بل لأحيائهم فقط الذين أصابهم الجوع ، ويحتاجون إلى كل الموتى ، وخطاباتهم وأموالهم ، وصورهم ، وغرامياتهم القديمة ، وأسرارهم .

ولكن أبوها هرب منهم ، هذا ما قالت أجنس لنفسها .

أخذت تفكر فيه وهى تبتسم . على الفور خطر لها أن أباهما كان حبها الوحيد ، نعم كان هذا واضحاً جداً ، أبوها كان حبها الوحيد .

فى هذه اللحظة مرت بجوارها ، وبسرعة مذهلة ، الدراجات النارية الثلاث ، كانت ترى على ضوء كشافات السيارة أجساماً منكبة على مقاعد الدراجات وهى ممتلئة بعداونية هزت الليل . لقد كان هذا بالفعل هو العالم الذى أرادت أن تهرب منه ، تهرب منه إلى الأبد ، ولهذا قررت أن تتجه عند أول تقاطع على الطريق السريع إلى طريق أقل صخباً.

(١٤)

وجدنا أنفسنا فى شارع من شوارع باريس المليئة بالصخب والأضواء ، توجهنا إلى سيارة أفيناريوس المرسيدس التى كانت واقفة على بعد عدة شوارع . بدأنا تفكر من جديد فى الفتاة التى جلست على الطريق السريع ورأسها بين كفيها تنتظر أن تصدمها سيارة .

قلت : "لقد حاولت أن أوضح لك أنه منقوش فى أعماق كل منا سبب أفعاله ، هذا الذى يطلق عليه الأمان Grund ، الشفرة التى تحتوى على جوهر قدرنا ، هذه الشفرة لها حسب اعتقادى طبيعة مجازية ، فلا يمكنك بدون هذه الصورة الشعرية أن تفهم هذه الفتاة التى نتحدث عنها . إنها على سبيل المثال تسير فى الحياة كأنها تسير

فى واد؁ تقابل فى كل دقفة شفاً ما؁ وتحدثه؁ ولكن الناس ينظرون إليها ببلادة؁ ويواصلون سيرهم لأن صوتها كان ضعيفاً لدرجة أن أحدا لم يسمعه . هكذا أتخليها وأنا على ثقة من ذلك؁ كامرأة تسير فى الوادى بين أناس لا يسمعونها . أو صورة أخرى؁ تجلس فى قاعة انتظار مليئة بالناس عند طبيب الأسنان؁ يدخل مريض جديد إلى القاعة؁ يتجه نحو الكنبه التى تجلس عليها؁ ثم يجلس فى حجرها؁ إنه لم يفعل هذا عن عمد؁ ولكن لأنه لاحظ وجود مكان خال على الكنبه؁ تقاوم تدفعه بذراعيها وهى تصرخ : "سيدى! ألا تبصر! إن المكان مشغول! أنا أجلس هنا! ولكن الرجل لا يسمعها." جلس عليها بانسراح؁ ثم أخذ يتحدث بسرور مع أحد المرضى المنتظرين . إنهما صورتان مجازيتان تحددان طبيعتها وتمكنانى من فهمها . إن رغبته فى الانتحار لم تأت نتيجة لدافع خارجى . فقد كانت مغروسة فى تربة كينونتها؁ نمت ببطء ثم ترعرعت كالزهرة السوداء .

رد أفيناريوس : "أشهد معك بهذا؁ ولكن يجب أن تفسر لى كيف اتخذت قرار الانتحار فى هذا اليوم؁ وليس فى يوم آخر . " .
"وكيف تفسر أن الزهرة تزدهر فى يوم بعينه وليس فى يوم آخر؟ لقد حان وقتها . . إن الرغبة فى تدمير الذات قد نمت ببطء؁ وفى يوم مالم تكن قادرة على مقاومتها . إن الظلم الذى حاق بها كان حسب اعتقادى صغيراً إلى حد ما؁ فالناس لم تكن ترد عليها التحية؁

لم يكن أحد يتسم لها ، كانت تنتظر فى الطابور بمكتب البريد فدفعتها امرأة ممتلئة ، ثم تخطتها ، كانت تعمل بائعة فى متجر كبير ، واتهمها رئيسها بأنها تعامل الزبائن بطريقة سيئة . أرادت ألف مرة أن تثور وتصرخ ولكنها لم تملك الشجاعة لتفعل هذا ، لأن صوتها كان ضعيفا ، وفى لحظات الغضب تنهته . كانت أضعف من كل من حولها ، وكانت تشعر بالإهانة باستمرار . عندما يحل الشر بالإنسان يحاول أن يدفعه إلى غيره . وهذا يسمى النزاع ، الشجار أو الانتقام . غير أن الإنسان الضعيف لا يملك القوة التى يدفع بها الشر الذى حاق به . وضعفه يؤذيه ، ويهينه وهو يقف أمامه عاجزا . لا يبقى أمامه سوى التخلص من ضعفه بنفسه . وهكذا نشأ حلمها بأن تموت .

نظر أفيناريوس حوله يبحث عن سيارته المرسيدس ، ثم اكتشف أنه يبحث عنها فى شارع خطأ . استدارا ورجعا مرة أخرى .

واصلت حديثي : "لم يكن الموت الذى كانت تتمناه يأخذ شكل الاختفاء بل النفى ، نفى الذات . لم تكن راضية عن يوم واحد من حياتها ، ولا عن كلمة واحدة نطقتها . لقد اعتبرت حياتها شيئا فاحشا ، شيئا تكرهه ، ولا يمكنها أن تتخلص منه . لذلك تمت إلى هذه الدرجة أن ترمى نفسها كما تلقى بمنديل متجعد أو تفاحة فاسدة . تمت أن ترمى نفسها كما لو كانت من ترمى ومن يرمى بها شخصان مختلفان . كانت تتخيل أنها تسقط من النافذة . ولكن كان

هذا التصور مضحكا ؛ لأنها كانت تسكن فى الطابق الأول ، والمتجر الذى تعمل به كان فى الطابق الأرضى وليس به أية نوافذ . كما أنها تمت أن تموت بأن تصاب بضربة ثم يصدر صوتًا ، تماما كما تفعل عندما تحطم قوقعة الجعل . كانت هذه تقريرا رغبة جسدية فى أن تتحطم ، مثل الإنسان الذى يحتاج إلى أن يضغط كفه بقوة على المكان الذى يؤلمه . . "

وصلنا إلى سيارة أفيناريوس المرسيدس البغضة ثم توقفنا .

قال أفيناريوس : " بناء على الأوصاف التى تصفها بها فإن الإنسان يكاد يشعر بالتعاطف معها . . "

" أعرف ما تريد أن تقوله . لو لم تكن قررت أن تسبب ليس فقط فى موت نفسها ولكن فى موت الآخرين . ولكن هذا واضح فى الصورتين المجازيتين اللتين قدمتهما لك من خلالهما . فعندما كانت تخاطب شخصا ما ، لم يكن يسمعها . : افتقدت العالم ، وعندما أقول العالم ، أقصد هذا الجزء من الوجود الذى يتفق مع دعوتنا (وإن كان مجرد صدى مسموع) ودعوته هذه نسمعها بأنفسنا . لقد صار العالم بالنسبة لها أصم ، ولم يعد عالمها . صارت منغلقة على نفسها وعلى معاناتها . هل يمكن أن يتزعجها النظر إلى معاناة الآخرين على الأقل من انغلاقها ؟ كلا . فمعاناة كوكب المريخ ليس سوى معاناة واحدة كبيرة ، حيث يصرخ الحجر من الألم ، لا يمكن لهذا أن يؤثر فىنا ؛ لأن كوكب المريخ لا ينتمى إلى عالمنا . فالإنسان الذى يوجد خارج

عالمنا لا يمكنه أن يتأثر بتألم العالم . الحادثة الوحيدة التي انتزعتها للحظة من مأساتها كان مرض وموت كلبها . استنكرت جارتها سلوكها ؛ بأنها لا تتعاطف مع البشر ، ولكن تبكى على كلبها ، لقد بكى على كلبها ؛ لأن الكلب كان جزءاً من حياتها . أما جارتها فلم تكن كذلك ، كان الكلب يستجيب لصوتها أما الناس فلم يكونوا يستجيبون لها .

التزمنا الصمت غارقين في أفكارنا عن الفتاة المسكينة ، فتح أفيناريوس بعد ذلك أبواب السيارة ، وأشار على : هيا ! سأخذك معي ! وسأعيرك حذاءي الرياضي وسكيناً ! "

أنا على يقين أنني إن لم أذهب معه لخرق إطارات السيارات فلن يجد على الإطلاق شخصاً آخر ، وسيبقى وحيداً في شذوذه وكأنه في المنفى . كان عندي ألف رغبة في الذهاب معه ، ولكني كنت متكاسلاً ، شعرت بالنوم يقترب مني من مكان بعيد ، وبدأ لي أن الهرولة بعد منتصف الليل في الشوارع تضحية لا طائل منها .

قلت له : "سأعود إلى البيت ، سأذهب سيرا على الأقدام " ثم مددت له يدي أصافحه . انصرف البروفيسور أفيناريوس . أخذت أنظر إلى السيارة المرسيديس وأنا أشعر بتأنيب الضمير ؛ بأنني خيبت ظن صديقي . ثم أخذت طريقى عائداً إلى البيت ، وبعد لحظات عاودتني أفكارى إلى الفتاة التي ترعرعت فيها الرغبة في تدمير الذات كالزهرة السوداء .

قلت لنفسى : فى يوم من الأيام عندما أنهت العمل ، لم تذهب إلى البيت ، ولكن ذهبت خارج المدينة ، لم تر شيئاً من حولها ، لم تعرف أيّاً من فصول السنة يكون ، هل يكون الصيف أم الخريف أم الشتاء ، وهل هى تسير على شاطئ البحر أو بجوار مصنع ، فهى لا تعيش فى العالم منذ زمن ، كانت روحها هى عالمها الوحيد .

(١٥)

لم تكن ترى شيئاً حولها ، لم تكن تعرف هل هو فصل الصيف أو الخريف أم الشتاء ، لم تكن تعرف هل تسير على شاطئ البحر أم بجوار مصنع ، وإن كانت مشت ، فهى تمشى فقط لأن روحها المليئة بالاضطراب تحتاج إلى الحركة ، ولا يمكن أن تظل فى مكانها ، لأنها عندما تتوقف عن الحركة تؤلمها بشدة . إنه أمر يشبه ألم الأسنان الشديد الذى تصابون به : شىء يضطركم إلى التحرك فى الحجرة من حائط إلى آخر . لا يوجد سبب معقول لهذا ؛ لأن الحركة لا يمكنها أن تقلل من الألم ، ولكن دون أن تعرفوا السبب ؛ فالسنة التى هى مصدر الألم تستدعى هذه الحركة .

وهكذا سارت هذه الفتاة ووجدت نفسها على الطريق السريع الذى تهف عليه السيارات الواحدة تلو الأخرى ، سارت على حافته ، من سائر إلى آخر ، غير مدركة لأى شىء ، كانت فقط تنظر إلى

روحها التي رأت فيها باستمرار عدة صور متشابهة للإذلال . لم تستطع أن تحول عنها ناظريها ، لكن أخيانا كانت تدرك أن العالم موجود ، عندما تمر بجوارها دراجة نارية مسببة لها ألماً في طبلة أذنها بصخبها ، ولكن هذا العالم لم يكن له أية قيمة ، كان فراغاً مناسباً لأن تسير فيه وتتنقل بروحها المتألمة ، من مكان إلى آخر على أمل أن يخف الألم .

فكرت قبل ذلك أن تترك نفسها لسيارة تمر عليها . غير أن السيارات التي تمر بسرعة هائلة على الطريق السريع أصابتها الآن بالخوف ، كانت أقوى منها آلاف المرات ، لم تستطع أن تتخيل من أين تأتي بالجرأة لكي تندفع أسفل عجلاتها . كان يجب أن تندفع إليها ، في مواجهتها ، ولم تكن عندها القوة الكافية لهذا ، تماماً عندما أرادت أن تصرخ في رئيسها الذي وبخها على شيء لم تفعله ، ولم تستطع .

خرجت مع بداية الليل ، والآن حل الظلام . آلتها قدمها وأدركت أنها ليس لديها القوة للمضي قدماً . في لحظة الإرهاق هذه رأت على لوحة إرشادية كبيرة كلمة مضيئة تقول "ديون"

نسيت فجأة تعبها . وكأن هذه الكلمة تذكرها بشيء . حاولت الإمساك بتلك الذكرى التي تهرب منها : إن شخصاً ما من "ديون" أو إن شخصاً ما حكى لها شيئاً مرحاً حدث هناك . على الفور اعتقدت أن هذه المدينة جميلة وأن بها أناساً مختلفين عن عرفتهم

حتى الآن . كان هذا كموسيقى راقصة تدق في وسط الصحراء . كان
كنبع الماء الفضى الذى ينبثق فى المقابر .

نعم ، ستذهب إلى "ديون" ! بدأت تلوح للسيارات . ولكنها
كانت تجاهلتها ، وبهرها ضوءها ولم تتوقف . يتكرر باستمرار الموقف
نفسه الذى لم تستطع الهروب منه : تتوجه لأحد الأشخاص ،
تناديه ، وتتحدث إليه ، وتنادى ، ولا أحد يسمعها .

فذهبت إلى مكان يتفرع فيه طريق صغير من الطريق السريع .
توقفت : لا إن السيارات على الطريق السريع لا فائدة منها ، فهى لن
تخطمها ، ولن تقلعها إلى "ديون" . نزلت من الطريق السريع إلى
الطريق الملتف .

(١٦)

كيف تعيش فى عالم ترفضه ؟ كيف تعيش مع بشر لا تهتم
لآلامهم ولا لأفراحهم ؟ كيف تعيش مع بشر ، وأنت تعرف أنك
لست منهم ؟

سارت أجنس فى الطريق الهادئ وهى تقول : إما بالحب أو
بالكنيسة . إما بالحب أو بالكنيسة : طريقتان يمكن للإنسان أن يرفض
من خلالهما الحاسب الإلهى وأن يهرب منه .

الحب : منذ زمن وأجنس تتخيل هذه التجربة ؛ يسألونك : إذا كنت تريد أن تعود إلى الحياة من جديد بعد أن تموت فإذا كانت تحب بالفعل ، فسوف توافق بشرط أن تكون مع من تحبه مرة أخرى . الحياة بالنسبة لك قيمة مشروطة ، وأهل فقط لأن تتمكنك من أن تبقى حبك على قيد الحياة . إن من تحبه هو بالنسبة لك أكثر من خلق إلهي وأكثر من الحياة . هذا بالطبع ضحك تهكمي على خالق الحاسب الذي يعتبر نفسه سيد كل شيء ، وغرض الوجود .

غير أن غالبية البشر لا تعرف الحب ، وقليل ممن اعتقدوا أنهم يعرفونه قد يجتازون بنجاح هذا الامتحان الذي ابتدعته أجنس ، قد يهربون على أمل حياة جديدة وبدون أن يضعوا أية شروط ، سيفضلون الحياة عن الحب ، وسيقعون مختارين مرة ثانية في شبكة الخالق العنكبوتية .

إذا لم يتمكن الإنسان من الحياة مع من يحب ، وعمل كل شيء لمن يحب ، تبقى إذن الطريقة الثانية متمثلة في الهروب من الخالق : الذهاب إلى الكنيسة . تذكرت أجنس جملة من رواية "كنائس بارما" للروائي الفرنسي ستندال : *il se retia à la chartreuse de Parme* " فقد رحل "فابريشيوس" انزوى في كنيسة "بارما" ، لم يرد في الرواية أى ذكر لكنيسة من قبل ، ورغم ذلك فإن هذه الجملة الوحيدة في آخر صفحة مهمة للدرجة أن "ستندال" سمى بها روايته ، ولأن

الهدف الرئيسى من كل مغامرات " فابريشيوس " كان الكنيسة : مكان منعزل عن العالم وعن الناس .

فى يوم من الأيام كان يذهب إلى الكنيسة الأشخاص الذين رفضوا العالم ، ولم يشاركوه أفراحه وآلامه . ولكن هذا القرن يأبى أن يعترف للبشر بحقهم فى رفض العالم ، ولهذا فالكنائس التى استطاع أن يلجأ إليها " فابريشيوس " لم يعد لها وجود . لا يوجد مكان منعزل عن العالم ولا عن البشر . لم يبق من هذا المكان سوى ذكريات صورة مثالية عن الكنيسة . الحلم بالكنيسة . *il se retia à la chartreuse de Parme* . رؤية الكنيسة . تسافر أجنس وراء هذه الرؤية منذ سبع سنوات إلى سويسرا . من أجل الكنيسة وهربا من عالم الطرق المتضادة .

تذكرت أجنس لحظة خاصة عاشتها بعد ظهر يوم سفرها ، عندما ذهبت فى نزهة أخيرة بالبلدة . وصلت إلى جدول الماء ثم استلقت على العشب . ظلت مستلقية هناك طويلا وقد شعرت أن هناك تيارا يتسلل إليها ويخرج منها كل آلامها ، وما بها من قذارة : يخرج منها ذاتها . إنها لحظة فريدة لا تنسى : لقد نسيت ذاتها ، فقدتها ، كانت بدون ذاتها ، وفى هذا كانت تكمن سعادتها .

راودت أجنس وهى فى ذكراها هذه فكرة غامضة تهرب منها ، ولكنها رغم ذلك مهمة جدا ، بل قد تكون من أهم الأفكار ؛ لدرجة أنها تحاول أن تستدعيها بتلك الكلمات ..

إن ما هو غير محتمل فى الحياة ليس الوجود ، بل أن تكون أنت ذاتك . فالخالق الحاسب قد أحضر للعالم ، عن طريق حاسبه ، مليارات الأنفس والأعمار ، ولكن فضلاً عن هذه الأنفس العديدة يمكننا أن نتصور وجوداً جوهرياً أكثر من هذا ، وجوداً كان قائماً هنا ، وقبل أن يبدأ الخالق فى الخلق ، وجوداً لم يكن له تأثير عليه ولا يكون . عندما استلقت اليوم على العشب ، وتسلى إليها غناء المرج الرتيب الذى أخرج منها ذاتها ، وقذارة ذاتها ، شاركت فى هذا الوجود الجوهري الذى يتجلى فى صوت الزمان المتدفق ، وفى صفاء السماء ، إنها تعرف الآن أنه لا شىء أجمل من هذا .

إن الطريق الذى تسير عليه هادىء تضىء فوقه من بعيد النجوم البعيدة . تقول أجنس لنفسها .

أن تعيش فى هذا العالم ليس من السعادة فى شىء . تعيش بمعنى : تأخذ ذاتك المؤلة إلى العالم . ولكن أن تكون هذه هى السعادة . الوجود بمعنى : أن تتحول إلى نبع ، إلى حوض صخرى يسقط فيه الفضاء مثل المطر الدافئ .

(١٧)

سارت الفتاة طويلاً ، كانت قدماها تؤلمانها أخذت تترنح ، ثم جلست على الأسفلت تماماً فى منتصف الجانب الأيمن من الطريق .

رأسها مختبئة بين ذراعيها ، أنفها تلامس ركبتيها ، وظهرها المنحنى يؤلمها لمعرفتها أنها عرضة لمعدن ، للوح معدنى ، لصدمة . صدرها منضم ، هذا الصدر البائس ضعيف البنية الذى يحترق فيه لهب مرير لذاتها المتألمة ، ولم يجعلها تفكر فى شئ سواه . تمت الصدمة التى قد تحطمها وتطفىء هذا اللهب .

عندما سمعت سيارة تمر ، وبدلاً من ضربة كانت تنتظرها ، لم يهبها سوى صفعة هواء من على يمينها ، فاستدار جسدها ، سمعت صرير الفرامل ثم ضجيجاً هائلاً للارتطام ، لم تر شيئاً وقد كانت عيناها مغلفتين ، ووجهها منكبا على ركبتيها ، فقد تعجبت من أنها مازالت على قيد الحياة ، وجالسة كما كانت تجلس من قبل .

سمعت مرة أخرى ضجيج محرك قادم ، وفى هذه المرة طرحتها خبطة الهواء على الأرض ، سمعت دوى الصدمة من على مسافة قريبة ثم سمعت على الفور صراخاً لا يوصف ، صراخاً رهيباً ، جعلها تقوم من على الأرض . وقفت فى منتصف الطريق السريع الخالى ، رأت على بعد حوالى مائتى متر ألسنة لهب ، ومن مكان أقرب إليها ارتفع من الفتاة إلى السماء المظلمة الصراخ الرهيب الذى لا يوصف .

كان الصراخ متواصلاً ومرعباً ؛ لدرجة أن العالم من حولها ، العالم الذى افتقدته صار حقيقياً وملوناً ومبهراً وصاخباً . وقفت فى منتصف الطريق ، مدت ذراعيها ، ورأت نفسها فجأة كبيرة وقوية

وشديدة ، إن العالم ، هذا العالم الذى رفض أن يسمعها يعود إليها بالصراخ ، كان هذا رائعا ومخيفا أيضاً ، حتى إنها أرادت أن تصرخ ، ولم تستطع . لقد اختنق صوتها فى حلقها ولم يكن بمقدورها أن تخلصه .

وجدت نفسها أمام أنوار السيارة الثالثة التى أبهرتها . أرادت أن تقفز ولم تعرف إلى أى ناحية ، سمعت صوت الفرامل ، مرت السيارة حولها ثم سمعت صوت ارتطام . عندما استيقظ أخيراً الصراخ الذى كان فى حلقها ، ترددت من الفتاة ومن مكان واحد صرخات الألم ، وهى الآن ترد عليه .

ثم عادت وهربت بعيداً ، هربت وهى تصرخ ، وهى معجبة بأن صوتها الضعيف قادر على أن يصدر مثل هذا الصراخ . وفى المكان الذى يربط الطريق بالطريق السريع ، وعلى العمود كان يوجد جهاز هاتف . رفعته : "ألو ! ، ألو ! " أخيراً رد صوت على الطرف الثانى "لقد وقعت حادثة " طلب منها الصوت أن تذكر المكان ، ولكنها لم تكن تعرف أين هى ، فوضعت السماعة وفرت عائدة إلى المدينة التى خرجت منها بعد الظهيرة .

(١٨)

لقد أخبرنى قبل عدة ساعات أن إطارات السيارات يجب أن تتقّب بنظام صارم : أولاً الإطار الأمامى الأيمن ، ثم الأمامى الأيسر ،

ثم الخلفى الأيسر ، فباقي الإطارات ، ولكن هذه كانت مجرد نظرية ، أراد أن يدهش بها مجتمع علماء البيئة ، أو صديقه الحميم جدا ، لكن أفيناريوس تصرف فى الواقع بدون أى نظام . جرى فى الشارع وعندما راق له أن يفعل هذا ، استل سكينه ودسه فى أقرب إطار .

عندما كنا فى المطعم أخذ يشرح لى أنه بعد كل طعن من الضرورى أن أعيد السكين إلى مكانه خلف السترة ، وأعلقه فى الحزام ، ثم أوصل السير بيدين فارغتين . أولاً لأنه هكذا أيسر بصورة أفضل ، ثانياً لأسباب أمنية : فلا يصح بأن أتعرض للمخاطرة بأن يرانى أحد وفى يدى سكين . يجب أن تكون عملية الوخر شديدة وقصيرة ، لا يجب أن تستغرق أكثر من عدة ثوان .

ولكن لسوء الحظ بقدر ما كان أفيناريوس حازماً فى نظريته بقدر ما تصرف فى الواقع بلامبالاة ، بغير منهج وبرغبة خطيرة فى التراخى . الآن وفى الشارع الخالى ثقب إطارين فى سيارة واحدة فقط (بدلاً من أربعة) ثم همّ وواصل السير ممسكاً سكينه مخالفاً كل قواعد الأمان . كانت السيارة التالية التى توجه إليها تقف على ناصية الشارع . مد يده قبل السيارة بأربع أو خمس خطوات (مرة أخرى مخالفاً القواعد وقبل الأوان) وفى هذه اللحظة سمع صراخاً على يمينه كانت تنظر إليه امرأة متحجرة من الرعب . اضطرت أن تصعد من جوار الناصية فى اللحظة التى كان كل اهتمام أفيناريوس منصبا

على البحث عن هدفه عند الرصيف . وفقا متقابلين ، ولأنه ثبت فى مكانه من الرعب ، بقى ذراعه منتصبا بلا حراك . لم تستطع المرأة أن تصرف ناظريها عن السكين المشهورة ، وصرخت مرة ثانية . فأفاق أفيناريوس ثم علق السكين فى الحزام تحت السترة . ولكى يهدئ من روع المرأة سألها : " كم الساعة ؟ " .

وكما لو أن السؤال ملأ المرأة بمزيد من الخوف أكثر من السكين أطلقت صرخة ثالثة مفرعة .

فى هذه الأثناء أخذ يتوافد عبر الطريق أناس ممن يسيرون مساء ، وارتكب أفيناريوس أخطاء قاتلة . لو كان أفيناريوس أشهر من جديد سكينه ، وبدأ يلوح بها بحدة ، لكانت المرأة استفاقت من صدمتها ، ولفرت ، ولأخذت معها كل المارة الذين تجمعوا مصادفة ، ولكنه عزم على أن يتصرف وكأن شيئا لم يكن ، وأخذ يكرر بصوت لطيف : " هل يمكن أن تخبرينى كم الساعة الآن ؟ "

عندما رأت أن الناس يقتربون منها ، وأن أفيناريوس لا ينوى أن يؤذيها ، أطلقت صرخة رابعة مفرعة ، ثم بدأت تشكو بصوت عال لكل من يسمعها لقد صوب نحوى سكينه ، أراد أن يغتصبني ! "

وبحركة تعبر عن البراءة التامة مد أفيناريوس ذراعيه وقال : " أنا لم أرد سوى أن أعرف الوقت . "

ظهر رجل صغير يرتدى زيه من بين الجمع الصغير الذى تكون حولهما ، إنه رجل شرطة . سأل ماذا يجرى ، قالت المرأة من جديد إن أفيناريوس أراد أن يغتصبها .

اقترب الشرطى الصغير على خجل من أفيناريوس صاحب الطول الملكى والذى كان يمد يده أمامه ، وقال بصوت ضخم : "أنا البروفيسور أفيناريوس ! .

هذه الكلمات والطريقة الأبية التى قالها بها أحدثت أثراً كبيراً فى الشرطى ، بدا وكأنه سيدعو الجماهرة إلى الانصراف وسيترك أفيناريوس يذهب .

ولكن المرأة عندما زال منها الخوف صارت هجومية وصرخت قائلة : "حتى لو كنت البروفيسور "كابيلاريوس" ، فأنت هددتني بالسكين!"

خرج رجل من بوابة بيت يبعد عدة مترات عن المكان . سار بطريقة غريبة كمن يسير وهو نائم ، ثم حضر فى اللحظة التى كان فيها أفيناريوس يشرح بصوت صلب : " لم أفعل سوى أننى سألت هذه السيدة كم الساعة . "

بدأت المرأة تصرخ فى الشرطى وكأنها شعرت أن أفيناريوس كسب بهيبته تقدير المتجمهرين ، : "إن معه سكيناً تحت الجاكت ! لقد خبأه تحته ! سكين كبير ! فتشه !"

هز الشرطى كتفه ، ثم قال لأفيناريوس بصوت المعتذر تقريباً :
"من فضلك افتح الجاكيت!"

ظل أفيناريوس لحظة بلا حراك ، ثم أيقن أنه لا مفر من أن يطيع . ففك الجاكيت ببطء فتحه حتى رأى الجميع النظام البارع للأحزمة التى تطوق صدره وسكين المطبخ المخيف الذى كان معلقاً بها .

اندهش الجمهور الواقف ، فى الوقت الذى تقدم الرجل الذى يسير وهو نائم من أفيناريوس وقال له : "أنا محامى لو احتجت إلى مساعدتى فهذا الكارت به بياناتى ، أريد أن أخبرك بشئ واحد فقط . لست مضطراً إلى أن تجيب على الأسئلة ، يمكنك أن تطلب حضور محامى منذ بداية التحقيق ."

أخذ أفيناريوس الكارت ووضعها فى جيبه . أمسكه الشرطى من ذراعه ثم قال للمجتمعين : "امسحوا الطريق ! امسحوا الطريق!"

لم يعترض أفيناريوس . عرف أنه موقوف . لم يجد أدنى صورة للتعاطف من أحد بعدما رأى الجميع سكين المطبخ الكبير معلقاً على بطنه . استدار إلى الرجل الذى قال إنه محامى وأعطاه الكارت . إلا أنه انصرف ولم ينظر حوله : توجه إلى إحدى السيارات الواقفة ، ووضع المفتاح بالباب . كان أفيناريوس مازال يرى الرجل وهو يغادر السيارة وينحنى على إحدى العجلات .

فى هذه اللحظة أمسك الشرطى بقوة بذراع أفيناريوس وأخذه بعيداً .

قال الرجل الواقف عند السيارة : " يا إلهى ! " وأخذ جسده كله ينتفض من البكاء .

(١٩)

صعد إلى الشقة وهو يبكى ، وعلى الفور اندفع نحو الهاتف كان يستدعى سيارة أخرى . سمع صوتاً شديداً العذوبة فى السماعة يقول : " سيارات الأجرة ، باريس . من فضلك ، انتظر معنا على الخط . . " ثم انطلق صوت الموسيقى فى السماعة ، كانت أغنية مرحة لصوت نسائي ثم دقائق ، بعد لحظة طويلة انقطعت الموسيقى ثم تحدث إليه مرة أخرى هذا الصوت الجميل يطلب منه أن ينتظر على الهاتف . أراد أن يتذمر من أن صبره نفذ ، فزوجته تموت ، ولكنه عرف أنه لا طائل من صراخه ، لأن الصوت الذى يتحدث إليه مسجل على شريط ولن يسمع أحد شكواه . ثم انطلقت من جديد الموسيقى وأصوات نسائية تغنى ، وصراخ ، ودقات ، وبعد فترة طويلة سمع صوتاً نسائياً حقيقياً ، عرفه على الفور فلم يكن عذبا بل جافا ومتعجلاً . وعندما قال إنه يحتاج إلى سيارة أخرى تقله لمسافة بضع مئات الكيلو مترات خارج باريس ، رفض الصوت على الفور طلبه ، وعندما أراد أن يوضح أنه يحتاج سيارة لأمر مهم ، انطلقت

فى أذنه من جديد الموسيقى العذبة ، والدقات وأصوات نسائية تغنى ،
ثم دعاه بعد فترة الصوت الجميل الصادر من الاسطوانة إلى الانتظار
بصبر على الهاتف .

وضع السماعة ثم طلب رقم مساعده ، ولكن بدلا من مساعده
سمع الطرف الآخر صوتًا خفيف الدم خجولاً مشوهاً بالابتسامة
ومسجلاً على آلة التسجيل : أنا سعيد أنكم تذكرتمونى أخيراً . كم أنا
حزين بأننى لا يمكننى محادثتكم ، ويسعدنى إذا تركتم رقم هاتفكم
أن أجيب عليكم قدر المستطاع . . "

قال : "أيها الغبى ! " ثم وضع بالسماعة .

لماذا بريجتا متغيبه عن البيت ؟ لماذا هى غير متواجده فى البيت
منذ فترة . قال لنفسه للمرة المائة ، ثم ذهب ينظر فى حجرتها ، رغم
أنه كان من المستحيل أن يسمعها عائده إلى البيت .

إلى من يلجأ ؟ إلا لاورا؟ إنها بالتأكيد ستعيده السيارة ولكنها
ستصر على أن تذهب معه ، وهذا مالم يكن يريده : فأجنس قد
تشاجرت معها أختها ، ولا يرغب بول فى أن يفعل شيئاً ضد إرادتها .

ثم تذكر برنارد . إن الأسباب التى جعلته لم يعد يتقابل معه
بدت له فجأة تافهة ومضحكة . طلب رقمه . كان برنارد بالبيت .

طلب منه بول أن يعيره سيارته ، لقد تعرضت أجنس لحادثه
سيارة على الطريق ، واتصلوا به من المستشفى .

قال برنارد : " سأحضر عندك فوراً ، فى هذه اللحظة غمر بول حب كبير لصديقه القديم ، تمنى أن يغانقه ويبكى على صدره .

كان سعيداً أن بريجيتا ، ليست بالبيت . تمنى أن لا تعود ، وأن يذهب لأجنس وحدة . فجأة اختفى كل شيء ، أخت زوجته ، ابنته ، كل العالم ، وبقي وحده مع أجنس : لم يكن يريد أن يكون معهما طرف ثالث . كان على ثقة أن أجنس تختصر . فلو لم تكن حالتها حرجة لما اتصلوا به من مستشفى قروية فى منتصف الليل . كل ما يفكر به الآن هو أن يدركها وهى على قيد الحياة ، ويستطيع أن يقبلها . كان متلهفا لتقبلها . تمنى أن يقبلها قبل النهاية ، القبلية الأخيرة ، قبله يصل بها إلى شباك وجهها الذى سيختفى عما قريب ، ولن يبقى منه سوى الذكرى .

ليس أمامه الآن سوى الانتظار . بدأ يرتب الفوضى الموجودة على منضدة الكتابة ، وهنا تعجب من أنه كيف يهتم فى هذا الوقت بنشاط تافه كهذا . ماذا يهمه إذا كانت المنضدة مرتبة أو غير مرتبة ؟ ولماذا أعطى قبل قليل كارت ياناته لرجل غريب فى الشارع ؟ ولكنه لم يكن يمكنه أن يكف عن هذا : رتب الكتب على جانب من المنضدة ، لوى أغلفة الخطابات القديمة ، ثم ألقى بها فى سلة المهملات . تبين أن الإنسان يتصرف هكذا عندما يصيبه مكروه : يتصرف كمن يمشى وهو نائم . إن تتابع الأحداث اليومية يحاول أن يبقيه فى مسيرة الحياة .

نظر إلى ساعنته . أضاع بفضل الإطارات المثقوبة حوالى نصف ساعة . قال فى نفسه مخاطباً برنارد ، أسرع ! ، أسرع ! قبل أن تجدنى بريجيتا هنا ، وحتى أستطيع أن أذهب لأجنس وحدى ، ولكى أذهب فى الوقت المناسب .

ولكن خطه كان عاثراً . فقد عادت بريجيتا إلى المنزل قبل أن يحضر برنارد بقليل . تعانق الصديقان القديمان ، انصرف برنارد عائداً إلى بيته ، واستقل بول السيارة ، قاد السيارة بنفسه وسار بها بأقصى سرعة .

(٢٠)

رأت أجنس جسد الفتاة منتصباً فى منتصف الطريق ، كان جسدها مضاء بصورة شديدة بسبب كشاف النور القوى ، ويداها مفرودتان كما لو كانت ترقص كانت تبدو كراقصة الباليه التى تسدل الستار عن نهاية العرض ، ولأنه لم يبق شىء . فلم يبق من العرض الذى أصبح فجأة فى طى النسيان سوى هذه الصورة الأخيرة . ثم كان الإعياء، الإعياء الشديد الذى يشبه البئر السحيق الذى وصل إلى حد أن الممرضات أو الأطباء اعتبروها فاقدة للوعى ، فى الوقت الذى كانت تدرك فيه كل شىء كانت مدركة بوضوح غريب أنها تحتضر . حتى أنها كان يمكنها أن تتعجب من أنها لا تشعر بأى حنين ، لا بأى

أسى ولا خوف لا شيء على الإطلاق مما ارتبط حتى الآن بصورة الموت .

بعد ذلك رأت المعالجة تنحنى عليها وسمعتها تهمس فى أذنها :
"إن زوجك فى الطريق . سيأتى من أجلك . زوجك " . ابتسمت
أجنس ، ولكن لماذا ابتسمت ؟ شيء ما راودها من العرض الذى كان
منسيا : أجل ، إنها متزوجة . ثم ظهر على السطح اسم الزوج :
بول ! نعم ، بول ، بول ، بول ، إنها ابتسامة تحدث عندما تجد الكلمة
الضائعة . تماما عندما يعرضون عليك دبا لم تره منذ خمسين عاما ثم
تتعرف عليه .

بول ، قالت هذا فى نفسها وأخذت تبتسم . ظلت هذه الابتسامة
على شفثيها ، رغم أنها عادت ونسيت سببها . كانت مجهدة ، كل
شيء كان يؤلمها . لم يكن لديها القدرة خاصة على إلقاء أية نظرة
أغلقت عينيها حتى لا ترى أى شيء ولا أى شخص . كان كل
ما حولها يزعجها ويقلقها ، تمت أن لا يكون هناك شيء من حولها .

ثم استردت وعيها من جديد : بول ماذا قالت لها المريضة . إنه
سيأتى ؟ صارت ذكرى الصورة المنسية ، ذكرى حياتها صارت فجأة
أكثر وضوحا . بول ، بول سيأتى ! تمت فى هذه اللحظة بشدة
ويعنف ألا يراها مرة ثانية كانت مرهقة ، لم تكن تريد إلقاء أية نظرة .
لم تكن تريد نظرة بول . لم تكن تريده أن يراها وهى تحتضر . يجب
أن تسرع لكى تموت .

وتكرر من جديد ، ولآخر مرة ، المشهد الرئيسى لحياتها : هى
تهرب وشخص ما يلاحقها . بول يلاحقها . لا تملك أى شىء فى
يدها . لا فرشاة ، ولا مشط ولا شريطة . إنها منزوعة السلاح .
عارية ، لا ترتدى سوى زى المستشفى الأبيض ، وصلت إلى خط
النهاية ، حيث لا معين لها ، ولا يمكن أن تعتمد إلا على سرعتها فى
الجرى . فمن سيكون الأسرع ؟ بول أم هى ؟ موتها أم قدومه ؟

اشتد عليها الإرهاق وشعرت أنها تبتعد بسرعة وكأن شخصاً ما
يجر سريرها إلى الخلف . فتحت عينيها فرأت الممرضة وهى ترتدى
عباءة بيضاء . كيف كان وجهها ؟ لم تتعرف عليها . تذكرت هذه
الكلمات : " لا ، ليس هناك وجوه . "

(٢١)

عندما تقدم مع بريجيتا من الفراش ، رأى بول جسداً كاملاً ، له
رأس ومغطى بالمفرش . قالت لهم سيدة ترتدى بلوزة بيضاء : " لقد
ماتت منذ زرع ساعة . "

لقد أثارت يأسه المدة التى فصلته عن اللحظة التى كانت مازالت
فيها على قيد الحياة . لقد جاء متأخراً خمس عشرة دقيقة . تأخر
خمس عشرة دقيقة عن تنمة حياته التى توقفت فجأة وصارت غير
مقبولة . بدا له أنها طوال السنوات التى عاشها معا لم تكن له يوماً

من الأيام ، لم تكن معه ، وتنقصه الآن لكى ينهى ويكمل قصة
حبهما القبلية الأخيرة ، القبلية الأخيرة ، لكى يمسك بها وهى على قيد
الحياة من فمها ولكى يبقى عليها فى فمه .

أزاحت السيدة التى ترتدى البلوزة البيضاء الملاءة . رأى وجهها
يعرفه جيداً ، وجهها شاحباً ، جميلاً ، ولكنه مختلف تماماً ، شكلت
شفاتها بطريقة بسيطة كالمعتاد ، خطأ لم يعرفه من قبل . كان فى
وجهها تعبيراً لم يفهمه . لم يكن قادراً على أن يقترب منها ويقبلها .

انخرطت بريجيتا بجواره فى البكاء ، وضعت رأسها على
صدره ، وأخذت ترتعد من التشنج .

نظر إلى أجنس مرة أخرى : هذه الابتسامة الفريدة التى لم يكن
يرأها عليها من قبل ، هذه الابتسامة الغامضة على الوجه مغلق العينين
لم تكن له ، كانت لشخص لا يعرفه ، وتقول شيئاً لا يفهمه .

أمسكت السيدة التى ترتدى البلوزة البيضاء بول بشدة من
ذراعه ، فقد كان على وشك فقدان الوعي .

الجزء السادس

ميناء الساعة

(١)

عندما يولد الطفل يبدأ فى مص ثدى أمه . وعندما تفضمه الأم عن ثديها ، يمص إبهامه .

وعندما سأل " روبنس " إحدى السيدات : " لماذا تتركين ابنك يمص إبهامه ؟ فقد صار عمره عشر سنوات " . استشاطت غضباً : " أتريد أن تمنعه من ذلك ؟ إن ذلك يحدث تواصلاً لعلاقته بثدى الأم ! أتريد أن أسبب له صدمة نفسية ؟ "

وهكذا يظل الطفل يمص إبهامه حتى اللحظة التى يستبدله فيها فى سن الثالثة عشر فى تآلف ، بالسيجارة .

عندما وقع روبنس مؤخراً فى حب المرأة التى دافعت عن حق ابنها الأبله فى مص إبهامه ، وضع فى أثناء مضاجعته لها إصبعه على فمها ، فبدأت تدبر رأسها ببطء يمينا ، وشمالا وتلحق الإصبع ، كانت عيناها مغلقتين ، وتحلم أنها تضاجع رجلين .

كانت هذه الحادثة تمثل لروبنس تاريخاً مهماً لأنه بذلك اكتشف الطريقة التى يختبر بها النساء : كان يضع لهن إبهامه على أفواههن وكان يلاحظ كيف يكون رد فعلهن : فهؤلاء اللاتى كن يلعقنه ، تستهوين تماماً ، ويلا شك المعاشرة الجماعية . هؤلاء اللاتى ظللن على فتورهن تجاه الإصبع ، فهن لا يلبن ، إلى درجة ميؤوس منها ، محاولات الاستدراج المنحطة أخلاقياً .

واحدة من هؤلاء النسوة ، التى اكتشف فيها بواسطة تجربة الإبهام ميولاً للعريضة ، كانت حقيقة تحبه بعد الجماع أمسكت بإبهامه ، وقبلته بسذاجة ، وهذا يعنى : الآن أريد أن يتحول إبهامك من جديد إلى إبهام ، وإننى سعيدة أنه بعد كل الذى تخيلته ، أظل معك هنا بمفردنا تمامًا .

تغيرات الإبهام أو : كيف تتحرك العقارب فى ميناء الحياة .

(٢)

إن العقارب فى ميناء الساعة تدور فى دائرة ، كذلك دائرة الأبراج كما يرسمها المنجم لها شكل ميناء الساعة ، فقراءة الأبراج هى عبارة عن صورة مجازية للحياة ، تكمن فى داخلها حكمة كبيرة .

كيف يرسم لك المنجم البرج ؟ يرسم دائرة ، صورة المدار الكونى ويقسمها إلى اثنى عشر جزءاً تمثل الأبراج المختلفة : الجدى ، الثور ، الجوزاء ، وهكذا . وفى هذه الحلقة - دائرة الأبراج يسطر رموزاً تخطيطية للشمس ، والقمر ، والكواكب السبعة تماماً حيث كانت تقف هذه النجوم فى لحظة ولادتك . كما لو أنه رسم فى ميناء الساعة الفلكية ، المقسمة فى المعتاد إلى اثنتى عشرة ساعة ، تسعة أرقام أخرى موضوعة بعشوائية : وفى ميناء الساعة تدور تسعة عقارب : هى أيضاً الشمس ، القمر ، والكواكب ، ولكن فى وضعها وهى

تتحرك فعليا عبر الكون خلال فترة حياتك . كل كوكب - عقرب يجد نفسه فجأة مرتبطاً باستمرار بعلاقات جديدة ، وجيدة مع الكواكب - الأرقام ، هذه الرموز الثابتة لبرجك .

إن الالتقاء الذى لا يتكرر للنجوم فى لحظة ولادتك ، هو المحور الدائم لحياتك ، هو تعريفه الجبرى ، هو بصمات أصابع شخصيتك : فالنجوم الثابتة فى برجك تكون كل واحدة فى علاقتها بالأخرى زوايا، قيمتها التى يتم التعبير عنها فى درجات لها معنى مختلف (سلبى ، إيجابى ، حيادى) : تخيل أن كوكب الحب "الزهرة" فى علاقة متوترة مع كوكب "المريخ" العدوانى ؛ وأن الشمس التى تمثل شخصيتك الاجتماعية تزداد قوة باقترانها "بأورانوس" المفعم بالنشاط ، والجرأة . إن النشاط الجنسي الذى يرمز له بالقمر يكون مرتبطاً "بنبتون" المتعصب وما شابه ذلك ، ولكن عقارب النجوم المتحركة ستلامس فى طريقها النقاط الثابتة للبرج ، وتدخل فى اللعبة (تضعف ، تقوى ، تهدد) العناصر المختلفة لمحور حياتك . وهذه هى الحياة : لا تشبه رواية المشردين ، التى يفاجأ فيه البطل باستمرار من فصل إلى فصل بأحداث جيدة ليس بينها أى قاسم مشترك . إنها تشبه الموسيقى التى يطلق عليها الموسيقيون : الموضوع وأشكاله المختلفة .

أورانوس يسير فى السماء ببطء نسبى . ويستغرق الأمر سبع سنوات حتى يمر من أحد الأبراج . فلنفترض أنه اليوم فى علاقة درامية بشمس برجك الثابتة (على سبيل المثال فى زاوية ٩٠ درجة) :

فإنك تعيش فترة صعبة ؛ وبعد واحد وعشرين عاماً سوف يتكرر هذا الموقف (فسوف يكون أورانوس فى زاوية ١٨٠ درجة من شمس برجك ، وهذا له نفسه المعنى التعس) : ولكن سيكون هذا ظاهرياً فقط ، لأنه فى الوقت نفسه الذى سيهاجم فيه أورانوس شمس برجك ، سيكون رحل فى السماء فى علاقة تألف مع الزهرة عندك ، ستمر العاصفة من حولك فى هدوء . سيكون ذلك كأنه قد عاد إليك نفس المرض ، ولكنك عايشت ذلك فى مستشفى رائعة ، حيث يعمل الملائكة بدلاً من الممرضات ضيقات الخلق .

يقال إن التنجيم يعلمنا الجبرية : لن تفر من قدرك ! طبقاً لرأى فإن التنجيم (مع الأخذ فى الاعتبار ، التنجيم كصورة مجازية للحياة) يقدم لنا شيئاً أكثر فطنة : لن تفر من محور حياتك ! ينتج عن ذلك وجود تخيل واضح إذا أردت أن تبدأ فى مكان ما حياة جديدة لا تشبه الحياة السابقة فى منتصف الحياة ، يجب كما يقال أن تبدأ من الصفر . فحياتك ستشيد دائماً من المادة نفسها ، من اللبنة نفسها ، من المشاكل نفسها وأن هذا يبدو لك لأول وهلة "حياة جديدة" سيظهر لك بعد فترة قصيرة جداً كشكل مجرد للحياة السابقة .

إن دائرة البروج تشبه الساعة ، والساعة هى مدرسة النهائية : فبمجرد أن العقرب يكمل الدائرة ، ويعود إلى المكان الذى خرج منه ، تنتهى بذلك دورة . ففى ميناء دائرة البروج تدور تسعة عقارب فى سرعات مختلفة ، وفى كل لحظة تنتهى دورة وتبدأ دورة أخرى ،

فعندما يكون الإنسان شابًا لا يستطيع أن يدرك الوقت كأنه دائرة ولكن كطريق يؤدي مباشرة إلى الأمام ، إلى آفاق أخرى على الدوام ؛ لم يشعر بعد أن حياته تحتوى على محور واحد فقط ؛ يدرك هذا عندما تبدأ حياته تحقيق اختيارها الأول .

كان عمر روبنس أربعة عشر عامًا عندما أوقفته فى الشارع فتاة صغيرة ، عمرها تقريبًا نصف عمره وسألته : " من فضل حضرتك ، كم الساعة يا سيدى ؟ كانت هذه المرة هى الأولى التى تخاطبه فيها فتاة غريبة عنه بصيغة الاحترام ، وتلقبه بالسيد . كان مشدوها من السعادة ، وبدأ له أنه تفتح أمامه مرحلة جديدة من الحياة . بعد ذلك نسى تمامًا هذه الواقعة ، وتذكرها فقط عندما قالت له سيدة جميلة : " عندما كنت شابا ، هل كنت تعتقد كذلك أن . . . " كانت هذه هى المرة الأولى التى يتحدث فيها أحد عن شبابه كأنه ماض . استحضر فى هذه اللحظة صورة الفتاة الصغيرة التى نسيها ، والتى سألته منذ وقت طويل كم الساعة ، وأدرك أن هاتين الشخصيتين النسائيتين يتبع كل منهما الآخر . كانت هاتان الشخصيتان لا تعيان شيئًا فى حد ذاتهما ، والتقى بهما عن طريق الصدفة ، ورغم ذلك ففى اللحظة التى ربط فيها بينهما ، بدتا له كحادثتين جيلتين فى ميناء حياته .

أقول ذلك بطريقة أخرى : فلتخيل أن ميناء حياة روبنس موضوع على ساعة فلكية ضخمة من العصور الوسطى ، مثلاً على هذه الساعة التى ظلمت لعشرين عامًا أسير بالقرب منها فى براغ فى

ميدان "المدينة القديمة" ، تدق الساعة ، وفوق الميناء تفتح نافذة صغيرة .: تخرج منها دمية - الفتاة الصغيرة ذات السبع سنوات ، والتي تسأل عن الساعة . وبعد ذلك عندما سيلمس نفس هذا العقرب الذى يتحرك ببطء شديد رقما آخر ، ستدق الأجراس ، وتفتح مرة أخرى النافذة الصغيرة ، وتخرج منها دمية لامرأة شابة ، والتي تسأل : "عندما كنت صبيًا . . . ؟"

(٣)

عندما كان فى زهرة شبابه ، لم يجرؤ أن يأتمن أى امرأة على تخيلاته الجنسية . كان يعتقد أن كل الطاقة الجنسية لابد أن تتحول إلى أداء جسدى جارف على جسد المرأة . كان لرفيقاته الشابات رأى نفسه . يتذكر بصعوبة واحدة منهن ، نرمز لها بحرف (A) ، والتي رفعت نفسها فجأة على مرفقيها ، وكعبيها فى منتصف الجماع ، قوست جسدها كالكوبرى ، ولذلك انقلب من عليها وكاد يسقط من على الفراش . هذه الإيماءة الرياضية كانت ممتلئة بالمعانى الكثيرة والتي يدين لها روبنس بالفضل . لقد عاش مرحلته الأولى : مرحلة الخرّس الرياضى .

بعد ذلك تخلص من هذا الخرّس ؛ وبدأ جرئًا جدا عندما حدد لأول مرة بصوت عال ، بكلمة منطوقة أمام هذه الفتاة أو غيرها

المنطقة الجنسية من جسدها ، ولكن هذه الجرأة لم تكن كبيرة كما كان يبدو له ، لأن العبارة التي اختارها كانت تصغيراً رقيقاً أو إعادة صياغة شعرية . ورغم ذلك كان مذهولاً لجرأته (ومندهشاً أن هذه الفتاة لم توبخه) وبدأ يخلط الصور المجازية الأكثر تعقيداً ، ولكي يتمكن بطريقة شعرية ملتوية أن يتحدث عن العملية الجنسية . كانت هذه هي المرحلة الثانية : مرحلة الصور المجازية .

في هذه الفترة كان مصادفًا للفتاة B وبعد المداعبات الكلامية المعتادة ضاجعها . وعندما اقتربت شهوتها ، قالت له فجأة جملة ذكرت فيها عضوها التناسلي بلفظ مباشر بدون أى مجاز . ففي هذا اليوم سمع لأول مرة هذه الكلمة من فم امرأة (الأمر الذي يمثل بالمناسبة أيضاً ، واحدة من اللحظات المهمة في ميناء حياته) . في حالة من الذهول والدهشة أدرك أنه في هذه العبارة الهمجية إغراء أكثر ، وطاقة غير عادية من تلك التي توجد في جميع الصور المجازية ، التي تم اختلاقها في وقت ما .

وبعد مرور بعض الوقت دعت إليها المرأة C . كانت أكبر منه بخمس عشرة سنة تقريباً . وقبل أن يذهب إليها ، ردد على صديقه M بعض العبارات البذيئة الرائعة (لا ، بدون أى صور مجازية !) ، والتي كان مستعداً ليقولها لهذه المرأة أثناء الجماع . انهيار بطريقة غريبة : قبل أن يقرر النطق بهذه الكلمات ، نطقت بها هي . فأصيب بالذهول . ليس لأنها تفوقت عليه في جرأتها الجنسية ، ولكن كشىء

أكثر غرابة : استخدمت حرفيا نفس الكلمات التى أعدها بنفسه لعدة أيام . هذا التطابق جعله مفتونا ، وحكم على هذا بأنه نوع من توارد الكلمات أو التقارب الخفى لروحيهما ، وهكذا بدأ يدخل ببطء إلى المرحلة الثالثة : مرحلة الحقيقة البذيئة .

المرحلة الرابعة كانت مرتبطة بشدة بصديقه M . مرحلة المراسلة الهادئة . المراسلة الهادئة ، وهكذا كانت تسمى اللعبة التى كان يتسلى بها ما بين الخامسة والسابعة من عمره . كان الأطفال يجلسون فى صف ويهمس كل منهما للآخر بجملة ، الذى بدوره ينقلها الثانى بهمس للثالث والثالث للرابع ، حتى الأخير الذى كان يقولها بعد ذلك بصوت مرتفع ، ويضحك الجميع من الفرق بين الجملة الأصلية ، وشكلها الأخير المتغير ، أما روبنس و M البالغان كانا يلعبان لعبة المراسلة الهادئة بأنهما يقولان للنساء عشيقتهما جملة بذيئة فى شكلها الأصيل ، والنساء اللاتى لم يعرفن أنهن يشاركن فى المراسلة الهادئة ، كن ينقلنها مرة أخرى . ولأنه كان لروبنس ، و M بعض العشيقات المشتركات (أو يتبادلانهن فيما بينهما فى سرية) ، كان يرسل كل منهما للآخر بواسطتهن تحيات مرحة . ذات مرة قالت واحدة لروبنس أثناء الجماع جملة غير متوقعة ، وملتوية بشكل غريب ، حتى أنه رأى فيها على الفور قطة سيئة النية من صديقه . أصابته نوبة من الضحك لا يمكن التغلب عليها ، ولأن المرأة اعتبرت الضحك المكتوم اهتزازات جنسية شجعها ذلك فكررت هذه الجملة مرة أخرى ، وفى

المرّة الثالثة قالتها وهى تصرخ ، فرأى روبنس فى نفسه فوق هذا الجسد الخاضع له معجزة الصديق الذى يضحك بصوت مرتفع .

وبهذه المناسبة تذكر الفتاة (B) التى قالت له بدون مقدمات فى نهاية مرحلة الصور المجازية كلمة قبيحة . فقط الآن ، وبعد مرور بعض الوقت طرح على نفسه سؤالاً : هل كانت هى المرّة الأولى التى تلفظت فيها بهذه الكلمة ؟ لم يشك حيثئذ مطلقاً فى ذلك . كان يعتقد أنها تحبه ، ولديه شك فى أنها تريد أن تتزوجه ، وكان متأكداً أنه ليس لديها أحد غيره . الآن فقط أدرك أنه لابد أن شخصاً ما فى البداية علمها (ربما أقول مرنها) أن تنطق هذه الكلمة بصوت مرتفع ، قبل أن تكون قادرة على أن تقولها لروبنس . نعم ، فقط بعد عدة سنوات ، وبفضل تجربة المراسلة الهادئة ، أدرك أنه فى الوقت الذى كانت تقسم له فيه بإخلاصها ، كان لـ B بالتأكيد عشيق آخر .

إن تجربة المراسلة الهادئة غيرته : فقد الإحساس (الذى يسيطر علينا جميعاً بأن الأداء الجنسى هو لحظة خصوصية مطلقة ، عندما يتحول العالم من حولنا إلى صحراء لا نهائية ، وفى منتصفها يتعانق جسدان وحيدان . وفجأة الآن أدرك أن هذه اللحظة لا توفر أى انفراد مريح . فعندما يسير بين حشد من الناس فى الشانزليزيه فإنه يشعر بأنه منفرد بنفسه ، وبدرجة أكبر من الخصوصية ، عن لو أنه فى حضن أكثر عشيقاته سرية . لأن مرحلة المراسلة الهادئة هى مرحلة المخالطة فى الحب : فبفضل بعض الكلمات يشارك الجميع فى عناق

مخلوقين يبدو في الظاهر أنهما منفردان ؛ فالمجتمع يمون باستمرار سوق التصورات الفاسدة ، ويتيح لها فرصة الانتشار ، والدوران . استحدث روبنس حينئذ هذا التعريف للأمة : هي مجتمع الأفراد الذين ترتبط حياتهم الجنسية بنفس المراسلة الهادئة .

ولكن بعد ذلك تعرف على الفتاة (D) التي كانت أكثر صراحة من جميع النساء اللاتي التقى بهن في فترة ما ، فخلال المقابلة الثانية صرحت له أنها ممارسة متعصبة للعادة السرية ، وتصل إلى شهوتها بأن تحكى لنفسها حكايات . (حكايات؟ أى حكايات ؟ احكى " ، وبدأ في مضاجعتها وبدأت تحكى : حمام سباحة ، حجرات خاصة ، فتحات محفورة في الجدران الخشبية ، عيون ، أحست بها عندما كانت تتجرد من ملابسها ، أبواب ، فتحت فجأة ، وقف بها أربعة رجال ، وهكذا ، وهكذا ، وهكذا . كانت الحكاية جميلة ومبتذلة ، أما هو فكان مع (D) في قمة نشوته . ولكن منذ ذلك الوقت حدث له شيء غريب ، فعندما التقى بنساء أخريات ، وجد في تصوراتهن فتافيت من هذه الحكايات الطويلة ، التي كانت تحكيها له (D) أثناء الجماع ، صادفته غالباً الكلمة نفسها التركيبية اللغوية نفسها رغم أن هذه الكلمة وهذه التركيبية كانتا غير معتادتين تماماً . وكان مونولوج D مرآة ظهر فيها جميع النساء اللاتي عرفهن . كانت عبارة عن موسوعة ضخمة موسوعة " لاورس " المكونة من ثمانية مجلدات للتخيلات والجمل الجنسية ، شرح لنفسه مونولوجها الكبير أولاً طبقاً لمبدأ

المراسلة الهادئة : فبواسطة مائة من العشاق تجمعت فى رأسها كل الأمة ، كأنها فى ركن تصور آثم تم جمعه من كل أنحاء الوطن . ولكنه تأكد له مؤخرا أن هذا التفسير مستبعد . فقد وجد بقايا مونولوج (D) عند نساء كان يعرف بصورة مؤكدة أنه لا يمكنهن أن يدخلن فى علاقة غير مباشرة مع (D) ، لأنه لا يوجد بينهن أى عشيق مشترك ، ليلعب بينهن دور ساعى البريد .

بالإضافة إلى ذلك فقد تذكر حيثنذ واقعة مع (C) أعد لها جملا غير مهذبة ليقولها لها أثناء الجماع ، ولكنها سبقته فى ذلك . قال عندئذ أنه توارد أفكار . ولكن هل قرأت حقيقة هذه الأفكار من رأسه؟ الاحتمال الأكبر أن هذه الجمل كانت فى رأسها قبل أن تعرفه بفترة طويلة . ولكن كيف أنه كان فى رأسيهما الجمل نفسها ؟ من الواضح أن السبب هو وجود نبع ما مشترك هنا وعندئذ خطر له أن نفس هذا التيار الواحد يخترق جميع النساء والرجال ، النهر المشترك ، والوحيد للتصورات الجنسية ، فالفرد لا يحصل على نصيبه من التخيل الآثم من العشيق أو العشيقة بطريقة المراسلة الهادئة ، ولكن هذا التيار غير الشخصى (فوق قدرة الفرد أو تحت قدرته) . ولكن إذا قلت إن هذا النهر الذى يخترقنا غير شخصى (فإن ذلك يعنى أنه يتبعنا ، ولكن يتبع من خلقه ، ومن وضعه فىنا ، أو بمعنى آخر يتبع الرب ، أو حتى أنه هو الرب أو واحدة من صوره .

عندما صاغ روبنس هذه الفكرة للمرة الأولى ، بدا له أنها تنطوى على انتهاك للمقدسات ، ولكن هذا الإحساس بالكفر تبدد ، وغاص هو النهر السفلى بنوع من الخشوع الدينى ، عرف أننا جميعاً مرتبطون بنفس التيار ليس كأمة ولكن كأطفال للرب . فعندما غاص فى هذا التيار ، شعر أنه يمتزج فى عمل ما غامض مع الرب . نعم ، المرحلة الخامسة هى المرحلة الغامضة .

(٤)

ولكن هل قصة حياة روبنس هى فقط قصة للحب الجسدى؟ يمكن فهمها هكذا واللحظة التى اتضح فيها أنها هكذا ، صارت أيضاً حدثاً بارزاً فى الميناء .

فعندما كان طالبا ، كان يقضى الساعات الطوال فى المتاحف أمام اللوحات الفنية ، ورسم فى المنزل مئات من اللوحات بالألوان المائية ، وكان مشهوراً بين زملائه برسومه الكاريكاتيرية للأساتذة . كان يرسمهم بالقلم الرصاص فى مجلة الطلبة المطبوعة ، وبالطباشير على السبورة فى أوقات الراحة ، وبذلك يسبب سعادة كبيرة للفصل . هذه الفترة جعلته يعرف ما هى الشهرة : كان معروفاً من كل المدرسة ، ومحل إعجابها ، وكان الجميع ينادونه من باب الممازحة بروبنس . وكتذكار لهذه السنوات الجميلة (سنوات الشهرة الوحيدة) تمسك بهذا

اللقب طول حياته ، وألح على أصدقائه (بسذاجة مثيرة للدهشة) أن ينادونه بهذا الاسم .

انتهت الشهرة بنهاية المدرسة الثانوية . أراد بعد ذلك أن يلتحق بمدرسة الفنون التشكيلية ، ولكنه أخفق في الامتحان هل كان أسوأ من الآخرين ؟ أم أنه كان سيء الحظ ؟ الغريب أنني لا أعرف الإجابة على هذا السؤال السهل .

وبتكاسل بدأ في دراسة الحقوق متهما صِغَر مساحة محل ميلاده سويسرا ، بأنه السبب في الفشل . تمنى أن يحقق رسالته في الرسم في مكان آخر ، وجرب حظه مرتين : أولاً عندما تقدم للامتحان في مدرسة الفنون الجميلة في باريس ولم ينجح ، وبعد ذلك عرض رسومه على عدة مجلات . لماذا رفضوا هذه الرسوم ؟ لم تكن جيدة؟ أم أن هؤلاء الذين قيموها كانوا أغبياء ؟ أم أن هذه الرسوم لم تثر اهتمام أحد ؟ مرة أخرى أستطيع أن أقول إنه ليس لدى إجابة على هذه الأسئلة .

ولأنه متعب من الفشل ، ابتعد عن أى محاولات أخرى . نتج من ذلك (وقد أدرك ذلك جيداً) أن ولعه بالرسم ، والتلوين كان أضعف مما اعتقد ، وأنه لم يكن مقدراً له أن يسلك طريق المبدعين كما توقع عندما كان طالباً في المدرسة الثانوية . في البداية أصيب بخيبة أمل من تلك الحقيقة ، وبعد ذلك ظهر في داخله رغبة في الدفاع عن استسلامه كوسيلة للمعارضة : لماذا يجب أن يكون مولعاً

بالتلوين ؟ ما هو الشيء المستحب فى هذا الولع ؟ ألا تخرج غالبية الصور السيئة ، والروايات السيئة فقط لأن المبدعين يرون فى ولعهم بالفن شئ مقدس ، رسالة ما ، وليس التزاما (التزاما تجاه أنفسهم ، بل تجاه البشرية) ؟ وتحت تأثير استسلامه بدأ يرى فى الفنانين ، والأدباء بصفة خاصة أناسا خاضعين لطموحهم أكثر من كونهم موهوبين بإبداعهم ، وتجنب عالمهم .

أكبر منافس له ، الغلام الذى فى مثل سنه (N) الذى ينحدر من نفس المدينة نفسها ، والذى درس مثله فى المدرسة الثانوية ، ولم يقبل فقط فى مدرسة الفنون الجميلة ، ولكنه حقق بعد فترة قصيرة نجاحات رائعة . فى أثناء دراستهم الثانوية كان الجميع يعتبرون روبنس أكثر موهبة من (N) بدرجة كبيرة . هل يعنى هذا أن الجميع لم يكونوا فى ذلك الوقت على صواب ؟ أم أن الموهبة شئ يمكن أن يفقده الإنسان فى الطريق ؟ وكما نتوقع لا توجد إجابة على هذه الأسئلة . وبخلاف ذلك يوجد ظرف مهم : ففى الفترة التى اضطرتة إخفاقاته لأن يتخلى نهائيا عن الرسم (فى نفس الفترة التى احتفل فيها (N) بأول نجاحاته) ، كان روبنس يصادق صبية غاية فى الجمال ، بينما تزوج منافسه من آنسة من أسرة ثرية ، قبيحة إلى درجة أن روبنس عندما نظر إليها فقد القدرة على الكلام ، بدا له أن القدر يتوافق الظروف هذه يشير له إلى الشئ الذى يوجد به منهل حياته : فهو ليس فى الحياة العامة ، ولكن فى الحياة الخاصة ، ليس فى ملاحقة النجاح المهنى ، ولكن فى النجاح مع النساء . وفجأة بدا هذا الذى كان يظهر بالأمس على

أنه هزيمة كانتصار مدهش : نعم ، ويتحول عن الشهرة ، عن القتال من أجل الاعتراف به (قتال فاشل ومحزن) ، لكى يستسلم للحياة نفسها . وحتى لم يسأل نفسه ، لماذا النساء بالذات هن "الحياة نفسها" . بدا له هذا الأمر بديها ، وواضحا ، وفوق كل الشكوك . كان متأكداً أنه اختار طريقاً أفضل من منافسه المبارك بهذه القبيحة الثرية . وفى هذه الظروف كانت فتاته الجميلة الساحرة بالنسبة له ، ليس فقط وعداً بالسعادة ، ولكن قبل كل شيء انتصاراً وفخراً ، ولكى يؤكد انتصاره غير المتوقع ، ويختمه بختم اللاعودة تزوج من هذه الفاتنة ، مقتنعاً بأن كل العالم يحسده .

(٥)

النساء تعنى لروبنس "الحياة نفسها" ، ورغم ذلك لم يكن لديه شيء أكثر إلحاحاً من الزواج بفتاة جميلة ، وبذلك يتعد عن النساء ، إنه يتصرف بشكل غير منطقي ، ولكن عادى تماماً ، فقد كان عمره أربعة وعشرين عاماً . كان فى ذلك الوقت قد دخل بالفعل إلى مرحلة الحقيقة البديئة (يعنى هذا أن ذلك حدث بعد فترة قصيرة من معرفته بالفتاة (B) ، والسيدة (C) ، لكن تجاربه الجديدة لم تغير شيئاً فى يقينه بأن الحب أسمى من المعاشرة الجنسية ، الحب الكبير ، هو أعظم قيمة فى الحياة ، فقد سمع عنه كثيراً ، قرأ عنه كثيراً ، شعر به كثيراً ، ولكن لم يعرف عنه شيئاً لم يشك فى أن الحب هو تاج الحياة

(هذه الحياة نفسها ، التى فضلها على حياته العملية) ، وعليه الآن أن يستقبله بأحضان مفتوحة ، وبدون حلول وسط .

وكما قلت فإن العقارب فى ميناء الجنس أشارت إلى ساعة الحقيقة البذيئة ، ولكن بمجرد أن بدأ فى المعاشرة ، حدثت على الفور ردة إلى المراحل السابقة : فإما كان يؤثر الصمت فى الفراش ، أو يقول لعروس المستقبل صورا مجازية رقيقة ، مقتنعا أن البذاءة قد تنقلهما إلى خارج نطاق الحب .

سأقول ذلك بشكل آخر : إنه حبه لهذه الفتاة الساحرة رجع به لمرحلة العذرية لأنه كما قلت فى مناسبة أخرى ، إن كل أوروبى عندما ينطق بكلمة الحب يعود على جناحى الشوق إلى طبيعة وإحساس ما قبل الجماع (أو بعيدا عن الجماع) تماما إلى حيث كان يعاني الشاب فرتر وحيث كاد دومينيك فى رواية "فرومينتين" أن يسقط من على حصانه . كان روبنس عندما التقى بحبيبته مستعدا لأن يضع وعاء أحاسيسه على النار وينتظر حتى يتحول الإحساس عند نقطة الغليان إلى عشق . المشكلة المؤكدة كانت فقط فى أنه فى ذلك الوقت كانت له عشيقة ثانية فى مدينة أخرى نرمر لها بالحرف (E) أكبر منه بثلاث سنوات ، وكان يعاشرها منذ فترة طويلة قبل أن يلتقى بعروسه القادمة ، وأيضا لبضعة شهور بعد ذلك . توقف عن رؤيتها فى اليوم الذى اتخذ فيه قرارا بالزواج . لم يكن سبب الانفصال هو الفتور العفوى للأحاسيس تجاه (E) (فسوف يظهر بعد

قليل أنه كان يحبها كثيرا) ولكن إلى حد ما هو إحساسه بأنه دخل إلى المرحلة الكبيرة ، والشهيرة في حياته ، حيث يجب أن يبارك الحب الكبير بالإخلاص . ولكن قبل الزفاف بأسبوع (والذى كان يشك في ركن من داخله في حتميته) انتابته حالة من الحنين الذى لا يقاوم لـ (E) ، والتي تركها بدون أن يشرح لها أى شىء ولأنه لم يسم علاقته بها أبدا بالحب ، فقد كان مندهشا من أنه يشفق إليها بجسده ، وقلبه ، ونفسه بلا حدود . لم يستطع التحكم في نفسه ، وانطلق إليها . تذلل لها أسبوعا لكى تسمح له بمضاجعتها ، استرحمها ، حاصرها بالتودد ، بالحسرة ، بالإلحاح ، ولكنها لم تعطه أكثر من نظرة لوجهها الحزين ، ولم تسمح له حتى بلمس جسدها .

وفى حالة من عدم الرضا والحزن عاد إلى المنزل فى يوم الزفاف . وفى خلال المأدبة الاحتفالية شرب حتى الثمالة ، وفى المساء اصطحب العروس إلى شقة الزوجية . وقد أعماه النيذ والشوق إليها ، ناداها فى منتصف الجماع باسم عشيقته السابقة . كانت هذه كارثة ، لن ينسى أبدا هذه العيون الواسعة التى كانت تنظر إليه فى دهشة مرعبة ! فى هذه اللحظة التى انهار فيها كل شىء ، خطر له أن عشيقته المخلوعة قد تأرت منه ، وفى اليوم ، الذى عقد فيه قرانه دمرت زواجه للأبد . ولعله استيقظ فى هذه اللحظة القصيرة حتى على عدم احتمالية ما حدث ، على حماقة وغرابة زلة اللسان هذه ، هذه

المفارقة التي ستجعل من الانهيار المحتوم للزواج أيضا شيئا أكثر بشاعة . كانت هذه ثلاث أو أربع ثوانٍ عصيبة لم يعرف فيها ماذا يفعل ، حتى بدأ يصرخ : يا إيفا ، يا إليزابيث ، يا مارلين ، أنت كل النساء ! " لم يقدر أن يتذكر سريعا الأسماء الأولى لنساء أخريات فكرر : يا إليزابيث ، يا مارلين نعم ، أنت بالنسبة لى كل النساء ! كل نساء العالم ! يا إيفا ، يا كلارا ، يا مارلين ، أنت كل النساء ! أنت امرأة فى الجمع ! مارلين ، جريتشين ، كل نساء العالم بك أنت ، تحملين جميع أسمائهن ! ... " وضاجعها بحركات مسرعة كأنه رياضى حقيقى فى الجنس ؛ وبعد بضع ثوانٍ تأكد من أن عينيها المتوحشتين اكتسبتا مرة أخرى شكلهما الطبيعى ، وجسدها الذى تحجر منذ لحظة تحته عاد يتحرك فى الإيقاع ، الذى أعاد إليه تناغمه الهدوء والثقة .

إن الطريقة التى خرج بها من هذا الموقف العصيب ، كانت حافة اللامعقول ، ويمكن أن نندهش من أن هذه الزوجة الشابة حديثة الزواج أخذت هذه المهزلة المجنونة محمل الجد . لا ننسى بالطبع أنهما كان يعيشان فى أسر التفكير فى ظل ما قبل الجماع ، الذى يقرب الحب من المطلق . ما هو معيار حب مرحلة العذرية ؟ فقط معيار كمى : الحب هو شعور كبير جدا ، جدا ، جدا ، الحب المزيف هو شعور صغير ، الحب الحقيقى هو شعور كبير . ولكن أليس من وجهة نظر المطلق كل حب صغير ؟ بالطبع ، ولذلك فإن الحب لكى يثبت

أنه حقيقى يريد أن يتعد عن العقل ، ألا يعرف حدودًا ، ألا يخضع للاحتمال ، ويهفو لأن يتحول إلى "هوس فعال للرجبة " (لا ننسى إلا وراة) ، أو بمعنى آخر يريد أن يكون مجنونًا ! فعدم احتمالية الإيماءة المغالية يمكن أن تأتي فقط بمنافع ، فالطريقة التى خرج بها روبنس من المأزق ليست بالنسبة للمراقب السطحى مناسبة أو مقنعة ، ولكنها فى الموقف الحالى الشىء الوحيد الذى يمكنه من تجنب الكارثة : وهو يتصرف كالمعتوه استغاث بالمطلق المجنون للحب ، ونجح فى ذلك .

(٦)

إذا كان روبنس وجهها لوجه مع زوجته الشابة قد أصبح من جديد رياضى مفرط فى أحاسيس الحب ، فإن هذا لا يعنى أنه تخلى للأبد عن القذارة الجنسية ، ولكنه أراد أن يضع أيضا القذارة فى خدمة الحب، تخيل أنه فى نشوة الزواج الأحادى يعايش مع امرأة واحدة أكثر من مائة أخريات . ولكنه لابد أن يجيب على سؤال واحد فقط : فى أى إيقاع يجب أن تسير مغامرة الرغبة الجنسية على طريق الحب ؟ ولأن طريق الحب يجب أن يكون طويلا ، أطول ما يكون ، ربما بلا نهاية، فقد حدد مبدأه ، أوقف الوقت ، لا تتعجل .

إذا افترضنا أنه تخيل مستقبله الجنىسى مع هذه الفتاة الفاتنة كأنه صعود إلى جبل عال . فإذا وصل إلى القمة فى اليوم الأول ، فماذا

عساه أن يفعل بعد ذلك ؟ كان عليه أن يخطط لطريقه بحيث يشغل كل حياته . ولذلك فقد عاش روجته الشابة بالطبع بحرارة ، باجتهاد بدنى ، ولكن بطرق ، قد أقول إنها كلاسيكية وبدون أى قذارة ، والتي كانت تجذبه (إليها أكثر من أى امرأة أخرى) ، ولكنه أجلها إلى السنوات القادمة .

وفجأة ، بعد ذلك حدث ما لم يكن متوقعا : لم يفهم كل منهما الآخر ، يثير كل منهما أعصاب الآخر ، بدأ يتصارعان على من له السيطرة فى شئون المنزل ، كانت هى تؤكد أنها تريد حرية أكبر لطريقتها فى الحياة ، وكان يغضب لأنها لا تريد أن تسلق له البيض ، وانفصلا فجأة بأسرع مما كان يعتقدان فى يوم من الأيام . اختفى هكذا سريعا الإحساس الكبير الذى أراد أن يبنى عليه كل حياته ، لدرجة أنه شك فى أنه شعر به فى وقت ما . إن اختفاء الإحساس (المفاجئ والسريع ، والسهل !) كان بالنسبة له هائلا لا يصدق لشدة ما حدث أكثر بكثير من وقوعه المفاجئ فى الحب قبل عامين .

انعدم ليس فقط توازنه العاطفى ، ولكن أيضا التوازن الجنىسى لحياته الزوجية . وبسبب هذا الإيقاع البطيء الذى وضعه ، عايش مع هذه المخلوقة الفاتنة فقط جماعا ساذجا بدون أى إثارات كبيرة . لم يصل معها لا إلى قمة الجبل ، ولا حتى إلى أول رحلة استكشافية . ولذلك حاول أن يلتقى بها عدة مرات بعد الطلاق (لم تعترض على ذلك ؛ فمنذ اللحظة التى توقف فيها الصراع على السيطرة على شئون

المنزل ، ضاجعته من جديد عن طيب خاطر) ، وليفعل سريعا على الأقل بعض الانحرافات الصغيرة التى أدخرها للأعوام التالية . ولكنه لم يفعل تقريبا شيئا ، لأنه فى هذه المرة اختار إيقاعا سريعا أكثر من اللازم . وقد فسرت المطلقة الجميلة رغبته الجنسية المتعجلة (أخذها بقوة إلى مرحلة الحقيقة القذرة) كنوع من الكليية ، وغياب الحب ، ولذلك انتهت سريعا علاقات ما بعد الزواج .

إن زواجه القصير كان فى حياته مجرد حدث بين قوسين ، مما يدفعنى للقول بأنه عاد بالضبط إلى حيث كان قبل أن يلتقى بعروسه ؛ ولكن قد لا تكون هذه هى الحقيقة . لقد عايش الامتلاء بالإحساس الجنسى ، والفشل فيه الذى لم يكن له عواقب درامية مؤلمة بشكل يصعب تصديقه ، وكأنه معرفة مذهلة نبهته إلى أنه يوجد بصفة نهائية خلف حدود الحب .

(٧٠)

إن الحب الكبير الذى بهره قبل عامين جعله ينسى الرسم . ولكن عندما طوى صفحة الزواج ، تأكد بخيبة أمل محزنة أنه خلف حدود الحب ، وبدا له فجأة أن تركه للرسم هو استسلام غير عادل .

بدأ من جديد يضع خطوطا للصور التى كان يهفو لرسمها فى كراسة الرسوم التخطيطية ، فعندما كان طالبا فى المدرسة الثانوية ،

كان يتخيل جميع رسامى العالم يسرون فى نفس الطريق الكبير ؛
كان طريقا ملكيًا يبدأ من الفنانين القوطيين إلى إيطالى عصر النهضة
العظماء ، وبعد ذلك إلى الهولنديين ومنهم إلى "دولاكروا" ، ومن
"دولاكروا" إلى "مانيه" ، ومن "مانيه" إلى "مونيه" ، ومن بونار
(أخ ، كم كان يحب بونار !) إلى "ماتيس" ومن "سيزان" ، إلى
"بيكاسو" . لم يكن الرسامون يسرون عبر هذا الطريق فى جماعة
كالجنود ، لا ، كل منهم سار بمفرده ، ولكن رغم ذلك ما كان
يكشفه أحدهم يصلح لأن يكون إلهاما للآخر ، وكان الجميع يعرفون
أنهم يسرون للأمام إلى المجهول ، الذى كان هدفهم المشترك ، وربط
بينهم جميعا ، وفجأة بعد ذلك حدث أن الطريق اختفى كأننا استيقظنا
من حلم جميل . نظل للحظة نبحث عن الشخصيات التى تتلاشى ،
قبل أن ندرك فى النهاية أن الأحلام لا يمكن استرجاعها . اختفى
الطريق ، لكنه رغم ذلك بقى فى نفس الرسامين صورة رغبة لا تموت
فى "السير قدماً" . ولكن "قدماً" إلى أين ، فلم يعد يوجد طريق ؟
ففى أى اتجاه يمكن البحث "قدماً" المفقودة ؟ وهكذا أصبحت الرغبة
فى السير للأمام نوعا من الاضطراب العصبى عند الرسامين ؛ ففروا ،
سار كل منهم فى اتجاه وفى خلال ذلك كانوا يتجولون بلا توقف
كالجمهور الذى يسير هنا وهناك فى نفس الميدان ، أرادوا أن يتميز كل
منهما عن الآخر ، واكتشف كل منهم من جديد اكتشافا آخر سبق
اكتشافه . ومن حسن الحظ أنهم وجدوا مبكرا أناسا (ليسوا رسامين
ولكن رجال أعمال ، ومنظمى معارض مع مندوبيهم ، ومستشاريهم

الإعلاميين) الذين طوروا هذه الفوضى، وحددوا أى اكتشاف يجب اكتشافه من جديد فى هذا العالم . رفعت إعادة النظام مرة أخرى كثيرا مبيعات اللوحات المعاصرة . اشترى هذه اللوحات لصالوناتهم نفس الأثرياء الذين سخرروا من "بيكاسو" و"دالى" قبل عشر سنوات ، ولذلك كان روبنس يكرههم بشدة . الآن قرر الأثرياء أن يصبحوا مساييرين للموضة ، وتنفس روبنس الصعداء أنه ليس رساما .

ذات مرة زار متحف الفن الحديث فى نيويورك . كان سعيدا أنه وجد فى الطابق الأول "ماتيس" و"براك" ، و"بيكاسو" و"ميرو" و"دالى" و"إرنست" . إن لمسات الفرشاة على لوح الرسم عبرت عن متعة جارفة . كانت الحقيقة مغتصبة بروعة كالمرأة التى اغتصبها "فاون" ، أو تصارعت مع الرسام كما يتصارع الثور مع مصارعه . لكن عندما صعد إلى الطابق الأعلى الذى يحتوى على اللوحات الأكثر معاصرة ، شعر كأنه فى الصحراء ؛ لم ير فى أى منها اللمسة المبهجة للفرشاة على لوح الرسم ؛ لم ير أى أثر للمتعة ؛ اختفى الثور المصارع ؛ هل أزاحت اللوحات الحقيقة عن نفسها ، أم أنها حاكتها بحرفية ساخرة وجامدة ، بين كلا الطابقين يتدفق نهر Lé- the ، نهر الموت والنسيان . عندئذ قال لنفسه أن ابتعاده عن الرسم كان له معنى أعمق من نقص الموهبة أو العناد : فى ميناء الرسم الأوربي أعلنت الساعة منتصف الليل .

فبماذا كان سيشغل الكيميائي العبقري الذى تم زرعه فى القرن
الثانى عشر ؟ ماذا كان سيصبح مصير "كريستوفر كولومبس" اليوم ،
بعدما أصبحت تقوم على خدمة الطرق البحرية ألف من شركات
النقل ؟ ماذا كان سيكتب "شكسبير" فى الفترة التى لم يكن بها
مسرح ، أو لم يعد يوجد ؟

هذه ليست أسئلة إنشائية . فعندما يكون لدى الإنسان موهبة
لعمل ، وأعلنت الساعة منتصف الليل (أو لم تدق الساعة الأولى
بعد) ، فماذا سيحدث لموهبته ؟ هل تتغير ؟ هل تتأقلم ؟ هل سيصبح
كريستوفر كولومبس مديراً لشركة سياحية ؟ هل سيكتب شكسبير
سيناريوهات لأفلام "هوليوود" ؟ هل سينتج "بيكاسو" مسلسلات
رسوم متحركة ؟ أم أن جميع هذه المواكب العظيمة ستتحنى جانبا ،
وترحل - إذا كان لى أن أقول - إلى كنيسة التاريخ الممتلئة بخيبة الأمل
الكونية لأنهم ولدوا فى الزمن الخاطئ ، بعيداً عن عصرهم ، بعيداً ،
عن الميناء الذى خلقوا لزمه ؟ هل سيهجرون موهبتهم التى هى فى
غير أوانها ، مثلما ترك "ريمبو" الشعر وهو فى التاسعة عشرة
من عمره ؟

حتى هذه الأسئلة لا توجد عليها إجابة لا لى ، ولا لكم ، ولا
لروبنس . هل كان روبنس يحفظ فى داخله روايتى عن القدرة التى
لم تتحقق للرسام الكبير ؟ أم أنه لم تكن لديه أى موهبة ؟ هل ترك
الرسم لانعدام قدراته ، أم فى الحقيقة على العكس من ذلك لقوة

بصيرته ، التى أرتأت عدم جدوى الرسم ؟ بالطبع إنه فكر غالبا فى ريمبو وإنه كان يقارن نفسه به فى داخله (ولكن بلا شجاعة ، وبسخرية) فريمبو يترك فقط الشعر بصفة نهائية ، وبلا أسف ، ولكن كان العمل الذى اشتغل به بعد ذلك عبارة عن تعارض ساخر مع الشعر : يقال إنه كان يتاجر فى السلاح فى أفريقيا ، بل وفى الرقيق أيضا . الرأى الثانى يعتبر فى أغلب الظن خرافة مفتراه تصف بشكل جيد ومبالغ فيه العنف المدمر للنفس كما تصف الانفعال ، والغضب ، الذى فصل ريمبو عن ماضيه كمبدع . فإن كان روبنس يزداد انجذاباً لعالم المال والبورصة بمرور الوقت ، فربما كان بسبب أن هذا العمل (سواء عن حق أو بدون حق) بدا له كتنقيض لأحلامه فى مجال الفن . ذات يوم عندما أصبح زميل دراسته مشهوراً باع روبنس لوحة كان قد حصل فقط على مال وفير ، بل اكتشف أيضا الطريقة التى سيققات بها فى المستقبل : سوف يبيع للأغنياء (الذين سخر منهم) لوحات الرسامين المعاصرين (الذين لم يكن يقدرهم) .

يوجد فى هذا العالم بالتأكيد الكثير من الناس الذين يقتاتون من بيع اللوحات الفنية ، ولن يخطر لهم ، ولا حتى فى الحلم أن ينجلوا من مهنتهم . ألم يكن "فيلازكيز" ، و"فيرمير" ، و"رامبرانت" يتاجرون كذلك فى اللوحات الفنية ؟ إن روبنس يعرف ذلك بالطبع ، ولكن إذا استطاع أن يقارن نفسه بريمبو تاجر الرقيق فإنه لن يقارن نفسه أبداً بالرسامين العظماء المتاجرين فى اللوحات الفنية . فإنه لن يشك ، ولو للحظة فى عدم جدوى عمله . فى البداية كان حزينا لذلك ،

ولام فى نفسه اللاأخلاقية . لكنه قال لنفسه بعد ذلك : ماذا يعنى بالضبط أن تكون مفيداً ؟ إن مقدار نفع جميع الناس فى جميع العصور يكمن كله فى هذا العالم الذى نراه اليوم . والذى يتضح منه : أنه لا يوجد شىء أكثر أخلاقية من كونك بلا جدوى .

(٨)

كان قد مر على انفصاله عن زوجته اثنا عشر عاماً تقريباً عندما حضرت إليه (F) . قصت عليه كيف أن رجلاً ما دعاها منذ فترة قريبة لزيارته ، ثم تركها فى البداية لمدة أكثر من عشر دقائق تنتظر فى الصالون ، تحت ذريعة أنه لابد أن ينهى فى الغرفة المجاورة مكالمته هاتفية مهمة . من الأرجح أنه اصطنع هذه المكالمة ، لكى يمكنها خلال ذلك من تفقد مجلات إباحية موضوعة على المنضدة الصغيرة أمام المقعد الذى عرض عليها . وأنهت (F) روايتها بهذه الملاحظة : " لو كنت أصغر سناً ، فى السابعة عشر من عمري لتمكن منى . هذا هو سن النزوات الأكثر جنوناً ، حيث لا يستطيع الإنسان مقاومة أى شىء "

كان روبنس يستمع إلى (F) على الأرجح بلا تركيز ، حتى جذبته كلماتها الأخيرة من غفلته . سيحدث له ذلك بصفة مستمرة : أن يتفوه أحد بجملة ، وهذه الجملة تؤثر عليه على غير انتظار كأنها

تأنيب له : تذكره بشيء مر به فى حياته ، شىء أخفق فيه ، أخفق فيه بشكل لا يمكن معالجته . فعندما تحدثت (F) عن الفترة التى كانت فيها فى السابعة عشرة من عمرها ، حيث لم تكن قادرة على مقاومة أى إغراء ، وتذكر زوجته التى كان سنها أيضا عندما عرفها سبعة عشر عاما . وعاد إلى مخيلته الفندق الريفى ، حيث أقام فيه معها بعض الوقت قبل الزفاف . كان يجامعها فى حجرة ملتصقة بها حجرة صديق لهما يستعد للنوم . فهمست لروبنس " إنه يسمعنا ! . الآن فقط (حيث يجلس فى مقابل (F) . التى تحكى تجاربها وهى فى السابعة عشرة من عمرها) يدرك أنها كانت حيثئذ تتأوه بصوت أكثر ارتفاعا من أى وقت مضى ، بل إنها كانت تصرخ ، كانت تصرخ متعمدة ليسمعها صديقهما ، وحتى فى الأيام التالية كانت غالبا ما تعود إلى هذه الليلة وتسأله : " أعتقد حقا أنه لم يسمعنا ؟ " فسر فى ذلك الوقت سؤالها على أنه نوع من الخجل المزعج ، وهذا من روع عروسه ، (الآن يشعر بالخجل الشديد عندما يفكر فى حماقته فى ذلك الوقت) بأن هذا الصديق معروف بنومه العميق . نظر إلى (F) ، وأدرك أنه ليس لديه أى رغبة خاصة فى أن يضاجعها فى حضور أى امرأة أخرى أو رجل آخر . ولكن كيف أن هذه الذكرى عن زوجته التى تأوهمت ، وصرخت قبل أربعة عشر عاما ، وهى تفكر فى الصديق الراقد خلف الجدار الرقيق ، كيف أن هذه الذكرى جعلت قلبه الآن يخفق ؟

خطر له أن المعاشرة فى ثلاثة ، فى أربعة يمكن أن تكون مثيرة فقط فى حضور المحبوبة . الحب فقط يمكن أن يوقظ الدهشة والفرع المثير من النظر إلى جسد المرأة فى أحضان رجل آخر . فالحقيقة الأخلاقية القديمة عن أن الاتصال الجنسى ليس له معنى بدون الحب ، أصبحت فجأة صادقة ، واكتسبت مفهوما جديدا .

(٩)

وفى اليوم التالى طار إلى روما حيث كانت تتطلب ذلك التزامات العمل . وعند الساعة الرابعة أصبح خاليا ، كان ممتلئا بحنين لا يمكن التخلص منه : فكر فى زوجته ، لم يفكر فيها فقط ؛ جميع النساء اللاتى عرفهن مررن أمام عينيه ، وبدا له أنه انصرف عنهن جميعا ، وأنه رأى معهن القليل جدا مما كان فى قدرته أو بإمكانه ، أراد أن ينفص عن نفسه هذا الحنين ، وهذه الحالة من عدم الرضا ، فزار معرض صور قصر "بيررينى" (كان يزور فى كل المدن معارض الصور) وبعد ذلك اتجه إلى الميدان الأسباني وهبط عبر الدرج الواسع إلى حديقة "فيللا بورجيس" . كانت تقف على القواعد الهزيلة المحددة فى صفوف طويلة من الطريق تماثيل نصفية من الرخام للمشاهير الإيطاليين . كانت وجوههم المتحجرة فى تكشيرة نهائية تكشف عن مجمل حياتهم . كان لدى روبنس إدراك خاص لكوفيدية التماثيل فضحك . تذكر حكاية من أيام الطفولة : الساخر الشرير

سحر الناس أثناء مأدبة طعام ، بقى الجميع فى الوضع الذى كانوا عليه تماما بأفواه مفتوحة ، وبوجه ملوى من المضغ ، وعظمة مقضومة فى اليد .

وذكرى أخرى : الناس يفرون من "سدوم" وغير مسموح لهم بالنظر تحت تهديد أنهم سيتحولون إلى أعمدة من الملح . هذه الواقعة من الإنجيل تجعل من المقبول بوضوح أنه لا يوجد فرع أكبر ، ولا عقاب أكبر من تحول الثانية إلى خلود ، من انتزاع الإنسان من الزمن ، من إيقافه فى منتصف حركته الطبيعية ، وهو غارق فى هذه الأفكار (نسيها فى الثانية التالية !) رآها فجأة أمامه . لم تكن هذه زوجته (هذه التى تأوهت بصوت مرتفع ، لأنها كانت تعرف أن صديقهما يسمعها فى الحجرة المجاورة) ، كانت هذه واحدة أخرى .

كل شىء حدث فى جزء من الثانية ، عرفها فى اللحظة التى أصبح جسد كل منهما جنباً إلى جنب مع الآخر ، وحيث كان من المحتمل أن خطوة أخرى ستباعد بينهما بلا رجعة . كان عليه أن يجد فى نفسه التصميم ، والسرعة لكى يقف ، ويستدير (أما هى فقد تفاعلت على الفور مع حركته) ويتحدث إليها .

شعر بأنه يشواق حقيقة إليها منذ سنوات عديدة ، كأنه كان طوال هذه الفترة يبحث عنها فى كل العالم . كان هناك مقهى على بعد مائة متر منهما ، طاولاته فى الخارج تحت أكاليل الأشجار ، والسماء رائعة الزرقة . جلسا فى مقابل بعضهما البعض .

كانت تضع على عينيها نظارة سوداء . أمسكها بأصابعه " ورفعها من على عينيها بحرص ، ووضعها على الطاولة . لم تمنع . قال " بسبب هذه النظارة كدت لا أعرفك " .

شربا مياها معدنية ، ولم يستطع كل منهما أن ينزل عينيهِ عن الآخر . كانت مع زوجها في روما ، ولديها بالكاد ساعة من الزمن . عرفت أنه لو كان ممكنا لجامعها في نفس اليوم ، وفي نفس اللحظة . ما اسمها ؟ ما اسمها الأول ؟ نسي ذلك ، وكان من غير الممكن أن يسألها ؟

حكى لها (وكان يعنى ذلك بكل الصدق) أنه طوال الفترة التي لم ير فيها كل منهما الآخر ، كان لديه إحساس أنه قال لها : هل تعرفين ماذا كنت أسميك ؟

" لا أعرف ، "

" العوادة "

" العوادة ؟ " .

" لأنك كنت رقيقة كالعود . أنا الذى اخترعت لك هذا الاسم بنفسى " .

نعم ، هو الذى اخترعه بنفسه . ليس قبل سنوات عندما عرف كل منهما الآخر لفترة قصيرة ، ولكن اخترعه الآن فى حديقة فيلا بورجيس لأنه أراد أن يخاطبها باسم ؛ ولأنها بدت له أنيقة ، ورقيقة كالعود .

(١٠)

ماذا كان يعرف عنها ؟ القليل . تذكر بصعوبة أنه عرفها منذ أن رآها فى ملعب التنس (كان عمره تقريبا سبعة وعشرين عاما ، وهى أصغر منه بعشر سنوات) وذات مرة دعاها إلى ملهى ليلى . فى هذا التوقيت كان محباً للرقص الذى كان يقف خلاله الرجل والمرأة على بعد خطوة من بعضهما ، وكل منهما يتلوى فى جانبيه ، ويحرك بالتبادل اليد الأولى والثانية فى اتجاه شريكه فى الرقص . طبعت فى ذاكرته وهى فى هذه الحركة . ما الذى كان مميزا فيها ؟ فى البداية لم تكن تنظر حتى لروبنس . أين كانت تنظر إذا ؟ إلى لا شىء . كانت أذرع جميع الراقصين منكشمة عند المرفق ، وأدوا بها بالتبادل حركات للأمام . حتى هى كانت تؤدي هذه الحركات ، ولكن بشكل مختلف قليلا : فأتثناء تحريك الذراع للأمام فعلت فى نفس الوقت بساعدها الأيمن قوسا صغيرا ناحية اليسار ، وبساعدها الأيسر قوسا صغيرا ناحية اليمين . بدا هذا وكأنها أرادت بهذه الحركات الدائرية أن تخفى وجهها . كما لو أنها أرادت أن تمحوه فقد كان الرقص فى هذه الفترة يعتبر شيئا منحلا نسبيا ، والفتاة كأنها اشتاقت أن ترقص بانحلال ، وفى الوقت نفسه أرادت أن تخفى هذا الانحلال . كان روبنس مفتونا ! كأنه حتى هذا الوقت لم ير شيئا أرق أو أجمل أو أكثر إثارة . وبعد ذلك دوى التانجو ، التصق كل زوج من الراقصين ببعضهما البعض . لم يستطع مقاومة هذه الإثارة ، فوضع يده على

ثدى الفتاة . شعر هو نفسه بالخوف . ماذا ستفعل الفتاة ؟ لم تفعل شيئاً . استمرت فى الرقص ، ويده على ثديها ، وكانت تنظر أمامها . سألتها بصوت مضطرب تقريبا : هل لمس أحد ثديك من قبل ؟ "أجابت هى بنفس الصوت المضطرب (كان هذا حقا كما لو أن أحدا لمس بخفة أوتار العود) : "لا" . لم يرفع يده عن ثديها ، وأحس بـ "لا" هذه كأنها أجمل كلمة فى العالم ؛ كان مفتونا ، بدا له أنه يرى الخجل عن قرب ؛ أنه يرى الخجل كما هو ، أنه قد يمكن أن يلمسه (بالإضافة إلى أنه لمسه ؛ فخجلها انصرف إلى ثديها ، سكن فى ثديها ، أخذ شكل ثديها) .

لماذا لم يلتق بها بعد ذلك مرات أخرى ؟ لو أنه أتعب رأسه أكثر ، لا يعرف . لم يعد يتذكر .

(١١)

كتب "آرثر شنييتسلر" الكاتب الفينى الذى عاش ما بين نهاية القرن الماضى ، وبداية القرن الحالى حكاية قصيرة تحت اسم الأنسة "ألسا" إن البطلة فتاة والدها مثقل بالديون ، ومهدد بتشويه سمعته ، وعد الدائن بإسقاط الدين عن أبيها ، عندما تظهر له ابنته عارية . وبعد صراع نفسى طويل توافق ألسا على هذا ، ولكنها تخجل إلى درجة أنها أثناء عرضها لنفسها تجن ، وتموت . وحتى لا يحدث

التباس : هذه ليست حكاية تهذيب للأخلاق هدفها إدانة الثرى الشرير الفاسد ! لا ، هذه حكاية جنسية ، نكتم خلالها الأنفاس : تجعلنا ندرك القوة التي كانت للعري في وقت ما : العري الذي كان يعنى بالنسبة للدائن مبلغًا هائلًا من المال ، وللفتاة خجل لا نهاية له ، ومنه تتدفق الإثارة ، التي تجاوز الموت .

إن حكاية شنيتسلر تشير إلى لحظة مهمة في الميناء الأوربي : فالتحريم الجنسي كان في نهاية القرن التاسع عشر المتزمت ما يزال ذا قوة ، ولكن انحلال الأخلاق أحيًا بنفس القدر رغبة قوية في خرق هذا التحريم ، فالخجل ، والوقاحة يتقاطعان معا في اللحظة التي كان لكل منهما نفس القوة . كانت هذه لحظة إثارة جنسية غير عادية ، عرفتھا " فينا " مع إشراقة قرن جديد . هذه اللحظة لن تتكرر .

الخجل يعنى أننا نمتنع عما نريده ، نشعر بالعار أننا نريد ما نمتنع عنه كان روبنس يتنمى إلى الجيل الأخير في أوروبا الذي تربى على الخجل . ولذلك فقد شعر كثيرا بالإثارة عندما وضع يده على صدر الفتاة ، وحرك خجلها . عندما كان طالبا في المدرسة الثانوية تسلس ذات مرة إلى الممر ، حيث كان من الممكن من هناك رؤية الحجرة التي تجمعت فيها زميلاته اللاتي ينتظرن وهن عاريات حتى منتصفهن لعمل أشعة الرئتين . رآته إحداهن فبدأت تصرخ ، ألقت الأخريات المعاطف على بعضهن ، وانطلقن إلى الممر وهن يصصرخن ويدأن يطاردنه . عاش روبنس لحظة من الرعب ؛ ففجأة لم يعدن

زميلات الدراسة والرفيقات ، والصديقات اللاتي كن مستعدات للمزاح ، والغزل . كان في وجوههن غضب حقيقي ، غضب مضاعف بعددهن ، غضب جماعي قرر أن يطارده ، فرمنهن ، ولكنهن واصلن مطاردتهن وأبلغن عنه إدارة المدرسة . عوقب بالتأنيب العام أمام كل الفصل أطلق عليه مدير المدرسة وفي وصوته كراهية حقيقية بالمتلصص .

كان عمره أربعين عاما عندما أصبحت النساء يتركن في أدراج خزانة الملابس حمالات الثديين ويظهرن صدورهن لكل العالم وهن مستلقيات على الشواطئ . سار على شاطئ البحر وقد تجنب النظر إلى عريهن المفاجئ ، لأن الفرمان القديم كان راسخا فيه بقوة : لا تجرح خجل المرأة ! فعندما كان يلتقي بإحدى معارفه التي لا ترتدى حمالة للثديين ، كزوجة صديق أو زميلة ، كان يتأكد بدهشة أنه هو الذي يخجل وليست هي . كان يرتبك ، ولا يعرف ماذا يفعل ، وماذا يفعل بعينه . حاول أن يتجنب النظر إلى الصدر ، ولكن لم يكن هذا ممكنا ، لأن النهود العارية يمكن رؤيتها حتى عندما ينظر الرجل إلى يدي أو عيني المرأة . ولذلك فقد حاول أن ينظر إلى صدورهن بنفس الطبيعية ، التي ينظر بها إلى ركبتهم أو جبهتهم . ولكن هذا لم يكن بالأمر الهين ، لأن الثدي ليس جبهة أو ركة ، وأيا كان ما فعل ، فقد بدا له أن تلك النهود العارية تتهمه شاكية بأنه لا يوافق بشكل كافٍ على عريها . وكان لديه إحساس قوي أن النساء اللاتي يلتقي بهن على الشاطئ هن أنفسهن اللاتي أبلغن عنه المدير

بسبب التلصص : نفس النساء العدوانيات ، والمجتمعات فى زمرة
والمطالبات وبنفس العدوانية المضاعفة بعددهن ، بأن يعترف بحقهن فى
أن يظهرن عاريات وفى النهاية تسامح إلى حد ما مع النهود العارية ،
ولكن لم يستطع أن يتخلص من الإحساس بأن شيئاً خطيراً حدث :
ففى ميناء أوربا دقت الساعة من جديد الواحدة : اختفى الخجل ولم
يختف فقط ، ولكن اختفى بسهولة ، تقريباً خلال ليلة واحدة ، وبدا
أنه فى الواقع لم يكن موجوداً أبداً . وأن الرجال اخترعوه فقط عندما
وقفوا وجهها لوجه مع النساء . إن الخجل كان توهمهم . كان حلمهم
المثير جنسياً .

(١٢)

عندما انفصل روبنس عن زوجته وجد نفسه فجأة ، كما قلت
من قبل ، نهائياً "خلف حدود الحب" . أعجبه هذه الصيغة وغالباً
ما كان يردد فى نفسه (أحياناً بحزن وأحياناً بسعادة) : سأعيش حياتى
"خلف حدود الحب" .

لكن المنطقة التى أسماها "خلف حدود الحب" ، لم تكن تشبه
الحوش الظليل غير المنظم لقصر رائع (قصر الحب) ، لا ، إن هذه
المنطقة مترامية الأطراف ، غنية ، جميلة ، ومتنوعة إلى ما لا نهاية ،
وربما أكبر وأجمل من قصر الحب . فى هذه المنطقة كانت تتحرك

نساء مختلفات ، ، بعضهن لم يثرن اهتمامه ، والبعض الآخر روحن عنه ، ولكنه وقع فى غرام بعضهن . من الضرورى إدراك هذه المفارقة الواضحة : خلف حدود الحب يوجد الحب .

إن هذا الذى أزاح مغامرات روبنس الجنسية إلى "خلف حدود الحب" لم يكن نقص الإحساس ، ولكنه الإصرار على قصرها على المجال الجنسى المحض فى الحياة ، ومنعها من أى تأثير على مجرى حياته . فلنعرف الحب بأى طريقة ، فدائما يتبع هذا التعريف أن الحب هو شىء جوهري ، إنه يحول الحياة إلى قدر : فالأحداث التى تجرى "خارج نطاق الحب" ، وحتى لو كانت أكثر جمالا فى حد ذاتها ، فإنها نتيجة لذلك تصبح حتما عرضية .

بالطبع أكرر : ورغم أنه قد تم استبعادهن إلى "خلف حدود الحب" فى المنطقة العرضية ، كان بين نساء روبنس هؤلاء اللاتى شعر تجاههن بالود وفكر فيهن باستحواذ ، واللاتى سببن له تعاسة عندما فررن منه ، أو شعورا بالغيرة عندما فضلن عليه شخصا آخر . أو بمعنى آخر ، فحتى خلف حدود الحب توجد أنواع من الحب ، ولأن كلمة الحب كانت محرمة ، فقد كان هذا كله أنواعا مستترة من الحب ، وهى لذلك كانت أكثر إثارة .

عندما جلس على المقهى فى الهواء الطلق فى حديقة بورجيس فى مقابل المرأة التى أسماها بالعوادة ، عرف على الفور أنها ستكون "معشوقة خلف حدود الحب" . عرف أنه لن يهتم بحياتها ،

ولا بزواجها ، لا بأسرتها وهمومها ، عرف أنهما سيلتقيان نادرا جداً ، ولكنه عرف أيضا أنه سيشعر تجاهها بود غير عادى .

قال لها : "أتذكر أيضا اسماً آخر أطلقته عليك . أسميتك بالفتاة القوطية ."

" أنا ؟ فتاة قوطية ؟ "

لم يطلق عليها أبدا هذا الاسم ، خطرت له هذه الكلمات منذ لحظة عندما سارا متجاورين فى الطريق إلى المقهى ، جعلته مشيتها يتخيل صور الطراز القوطى التى تفقدها بعد الظهر فى قصر باربرينى .

أكمل حديثه : " تكون بطون النساء فى الصور القوطية عندما يسرن بارزة للأمام . ورؤسهن منكفئة إلى الأرض . إن مشيتك هى مشية عذراء قوطية . مشية عازفات العود من الفرق الموسيقية الملائكية . فنهذاك يتجهان إلى السماء ، ويطنك تتجه إلى السماء ، ولكن رأسك التى تعرف عبث كل شىء تنظر إلى التراب . "

سارا عائدتين فى نفس الطريق المحاط بالتمائيل الذى تقابلا فيه ، فالرؤوس المقطوعة لمشاهير الموتى تم وضعها على أعمدة ، وبدت معتزة بنفسها بلا حدود .

ودعته عند مخرج الحديقة ، واتفقا أن تحضر إليه فى باريس . أخبرته باسمها (اسم زوجها) ، وبرقم الهاتف وأوضحت له الوقت

الذى تكون فى أمان بمفردها فى المنزل ، بعد ذلك وضعت بابتسامة النظارة السوداء على وجهها : "الآن يمكننى أن أضعها ؟"
قال روبنس "نعم" وراقبها طويلا وهى تبتعد .

(١٣)

كل هذه اللهفة المؤلمة التى أصابته أثناء التفكير فى أنه فقد زوجته للأبد أدى إلى استحواذ العوادة على تفكيره . فكر فيها فى الأيام التالية تقريبا بلا انقطاع . حاول من جديد أن يتذكر كل ما تبقى فى ذاكرته عنها ، لكنه لم يجد شيئا غير هذا المساء فى الملهى الليلى . استدعى إلى مخيلته للمرة المائة نفس الصورة : كانا بين أزواج الراقصين ، وهى تبعد عنه بخطوة . كانت تنظر بعيدا عنه إلى الفراغ . كما لو أنها لم ترد أن ترى شيئا من العالم الخارجى ، ركزت فقط على نفسها وكأنه لم يكن هو الذى يقف على بعد خطوة منها ، بل مرآة تراقب نفسها فيها ، تراقب فيها جنبها كيف يتحركان بالتبادل للأمام ، كانت تراقب ذراعيها وهى ترسم دوائر أمام صدرها ووجهها ، كما لو أنها أرادت بذلك أن تخبئتهما ، كما لو أنها أرادت بذلك أن تزيلهما . كما لو أنها أزالتهما ثم تركتهما يبرزان من جديد ، وهى تنظر أثناء ذلك إلى نفسها فى مرآة الخيال ، مشارة بخجلها . كان رقصها عبارة عن تمثيل إيمائى للخجل : إشارة مستمرة إلى العرى المستتر .

وبعد أسبوع من لقائهما فى روما كان لهما لقاء فى ردهة فندق كبير فى باريس ممتلئ باليابانيين ، أتاح لهما وجودهم إحساساً عذبا بأنهما غير معروفين وليست لهما جذور . وعندما أغلقا باب الغرفة تقدم إليها ووضع يده على صدرها : قال " هكذا لمستك عندما رقصنا معاً ، أتذكرين ؟ "

قالت " نعم " وكان هذا مثلما ينقر أحد بخفة على جسم العود .
هل خجلت كما حدث قبل خمسة عشر عاماً ؟ وهل شعرت بالخجل قبل خمسة عشر عاماً ؟ وهل شعرت باتينا بالخجل عندما لمس جوته صدرها فى مصحات الاستشفاء فى تبليتسه ؟ هل كان خجل باتينا مجرد حلم لجوته ؟ هل كان خجل العوادة مجرد حلم لروبينس ؟ فليكن ما كان ، فهذا الخجل ، وحتى ولو كان تخيلاً للخجل ، حتى لو كان ذكرى تخيل للخجل ، كان هنا ، كان معهما فى هذه الحجرة الصغيرة فى الفندق ، فتنهما بسحره ، وأعطى لكل شىء معنى .
جردها من ملابسها ، وكأنه أخذها فى الحقيقة من الملهى الليلى إلى شبايهما . ضاجعها ورآها وهى ترقص : كانت تخفى وجهها خلف الحركات الدائرية لبيديها ، وتنظر أثناء ذلك إلى نفسها فى مرآة الخيال .

استلقيا بلهفة فى أمواج هذا التيار الذى يمر بكل النساء والرجال ، هذا التيار الغامض لهذه التخيلات الفاحشة حيث تشبه كل امرأة

الأخرى ، لكن الوجه المختلف يعطى لنفس التخيلات ، والكلمات قوة ونشوة مختلفين ، سمع ما تقوله العوادة ، سمع ما يقوله هو ، نظر إلى الوجه الرقيق للعدراء القوطية ، إلى الشفتين الرقيقتين اللتين تنطقان بكلمات وقحة ، وشعر كلما مر الوقت بأنه أكثر ثمالة .

أصبح الزمن اللغوى لحلمهما الفاحش هو المستقبل : فى المرة القادمة سنفعل كذا وكذا سنشكل هذا وهذا الموقف . . زمن المستقبل اللغوى هذا يحول الحلم إلى عهد مستمر (العهد الذى يتوقف سريانه فى لحظة التحرر من الوهم ولأنه لا ينسى أبدا فإنه يصبح مرة ثانية وثانية عهدا) . ولذلك كان لابد أن يصل الأمر إلى أنه انتظرها ذات مرة فى ردهة أحد الفنادق مع صديقه (M) . صعد الثلاثة إلى الغرفة ، شربوا ، وتسامروا ، وبعد ذلك بدءا يجردانها من ثيابها ، وعندما نزعا عنها حمالة الثدي ، أمسكت بيديها صدرها محاولة تغطيته كله براحتى يديها ، أخذها بعد ذلك (كانت ترتدى فقط سروالاً قصيرا) إلى المرأة (مرأة مقشرة على باب صوان الملابس) كانت تقف بينهما ويدها اليسرى على ثديها الأيسر ويدها اليمنى على ثديها الأيمن ، وتنظر مفتونة إلى المرأة . لاحظ روبنس جيدا أنها لم تكن تراهما وهما ينظران إليها ، إلى وجهها ويديها اللتين تغطيان صدرها إنها تراقب نفسها كالمنومة مغناطيسيا .

(١٤)

الحادثة العرضية فى القصيدة هى تعبير مهم من الناحية الشعرية عند "أرسطو" . فمن وجهة نظره أن أسوء الأحداث (من منظور الشعر) هى الأحداث العرضية . فالحادثة العرضية ليست نتيجة ضرورية لما سبقها ، ولا سببا لما بعدها ؛ فهى توجد خارج التسلسل السببى للأحداث ، التى هى القصة . فإنها مجرد صدفة عقيمة يمكن أن تترك بدون أن تفقد القصة بذلك ترابطها المفهوم ، وليس فى استطاعتها أن تترك أثرا مستمرا فى حياة الشخصيات . تذهب بالمثرو للقاء امرأة العمر ، وقبل أن تنزل بلحظة ، تصاب فتاة لا تعرفها ، والتى لم تنبته إليها قبل الآن (فقد كنت ذاهبا طبعاً للقاء امرأة العمر ، ولم تلاحظ شيئا آخر) بتوعك مفاجئ ، تفقد الوعى ، وتبدأ فى الانهيار على الأرض ، ولأنك تقف بجوارها تمسك بها ، وتبقىها لعدة ثوان فى حضنك قبل أن تفتح عينيها . تجلسها على المقعد الذى أخلاه شخص ما لها ، ولأنه فى هذه اللحظة بدأ القطار يفرمل تخلع نفسك منها تقريبا بلا صبر لكى تنزل ، وتفر إلى امرأة العمر . فى هذه اللحظة تصبح الفتاة التى كانت من لحظة بين ذراعيك منسية . هذه الواقعة هى حادثة عرضية نموذجية . فالحياة محشوة بالأحداث العارضة كالوسادة بالوبر ، لكن الشاعر (طبقاً لأرسطو) ليس منجدا ، ولا بد أن يستبعد بعناية كل الحشو من الحدث ، رغم أن الحياة الحقيقية لا تتكون حقيقة إلا من هذا الحشو .

إن لقاء باتينا كان بالنسبة لجوته حادثة عرضية ليس لها معنى ؛
ليس فقط لأنها شغلت مكانا ضئيلا من حيث الكم فى مجرى حياته ،
ولكن لأنه جوته حاول بكل ما فى وسعه ألا تقوم فيه بدور السبب ،
وأبقى عليها بدقة خارج سيرته الذاتية . ولكن حتى هنا نلاحظ نسبية
مفهوم الحادثة العرضية ، النسبية التى لم يكمل أرسطو التفكير فيها :
لا أحد يمكنه أن يضمن أن حادثة عرضية كلية ليس فى داخلها قوة
كامنة ، قد تسبب أنه فى ذات مرة ، وعلى غير انتظار تصبح رغم
ذلك سبباً لأحداث أخرى . إذا قلت مرة يمكن أن يحدث هذا حتى
بعد الموت ، وهذا ما كان يمثل فى الحقيقة انتصار باتينا التى أصبحت
حكاية عمر جوته بالفعل بعد وفاته .

بالتالى يمكننا أن نكمل تعريف أرسطو للحادثة العرضية ونقول :
إنه لا توجد حادثة عرضية يتم الحكم عليها مسبقا بأن تظل للأبد
حادثة عرضية ، لأن كل حدث ، حتى الأكثر تفاهة يوجد فى داخله
إمكانية خفية لأن يصبح إن عاجلا أو آجلاً سبباً لأحداث أخرى ،
ويتحول إلى قصة أو مغامرة . فالأحداث العارضة كالألغام . غالبيتها
لا تنفجر أبدا ، ولكن حقيقة فإن هذا الأكثر تجاهلا يتحول ذات يوم
إلى قصة تصبح بالنسبة لك مصيرية . ستسير فى الشارع فى الاتجاه
المقابل لك فتاة ، وستنظر من بعيد فى عينك نظرة ستبدو لك مجنونة
إلى حد ما . وبمجرد أن تقترب منك ، ستبطل من خطواتها
وستتوقف وتقول لك : "أهو أنت ؟ إننى أبحث عنك منذ فترة

طويلة!" وتعلق برقبته . إنها هذه الفتاة التي سقطت مغشياً عليها بين ذراعيك عندما كنت ذاهباً بالمترو للقاء رفيقة عمرك ، والتي تزوجت منها خلال هذه الفترة ، ، وأنجبت منها طفلاً . ولكن هذه الفتاة التي التقت بك صدفة في الشارع ، كانت قد اعتزمت أن تحب منقذها ، واعتبرت لقاءك العرضي بها كأنه بشارة من القدر . ستتصل بك هاتفياً خمس مرات في اليوم ، ستكتب لك خطابات ، وستزور زوجتك ، وتشرح لها طويلاً أنها تحبك ، وأن لها حقاً فيك ، حتى تفقد رفيقة عمرك صبرها ، تنام من الغضب مع جامع القمامة ، وبعد ذلك تفر من المنزل مع الطفل . ولكي تهرب أنت من هذه الفتاة العاشقة ، التي حملت إلى شقتك في خلال هذه الفترة محتويات خزان ملابسها ، سترحل إلى ما وراء البحار ، حيث ستموت هناك في يأس وبؤس فلو كانت حياتنا لانتهائية كحياة الآلهة في العصور السحيقة ، لفقد مفهوم الحادثة العرضية معناه ، لأنه في اللانتهائية قد تجد كل ، وحتى أقل حادثة من حيث القيمة نتيجة لها، وقد تتطور إلى قصة .

كانت العوادة التي رقص معها وهو في السابعة والعشرين من عمره بالنسبة لروبنس حادثة عرضية ، حادثة عرضية كبيرة ، حادثة عرضية متكاملة حتى اللحظة التي التقى بها فيها بعد خمسة عشر عاماً في الحديقة في روما . عندئذ تحولت هذه الحادثة العرضية المنسية فجأة إلى قصة صغيرة ، ولكن حتى هذه القصة ظلت بالنظر إلى حياة

روبنس قصة عرضية تماما . لم يكن لديه أدنى أمل فى أن تتحول إلى جزء من هذا الذى يمكننا أن نسميه بسيرته الذاتية .

السيرة الذاتية : سلسلة الأحداث التى تعتبرها مهمة لحياتك . ولكن ما هو المهم ، وما هو غير المهم ؟ ولأننا نحن شخصا لا نعرف (وحتى لم يخطر لنا أن نطرح على أنفسنا هذا السؤال الساذج إلى درجة الغباء) فإننا نعتبر شيئا مهما هذا الذى يعتبره الآخرون مهما ، مثل رب العمل ، نملاً قائمة الأسئلة : الميلاد ، الوظيفة ، الوالدين ، الدراسة ، تغيرات الوظيفة ، ومحل الإقامة ، وعدد مرات الزواج ، وعدد مرات الطلاق ، ميلاد الأطفال ، الأمراض الخطيرة ، النجاحات ، الإخفاقات . هذا شيء فظيع ، ولكنه هكذا : لقد تعلمنا أن نرى حياتنا الشخصية بعيون الموظفين أو استجابات الشرطة . ويعتبر تمرداً صغيراً إذا أدخلنا فى سيرتنا الذاتية امرأة أخرى غير الزوجة ، ولكن حتى الاستثناء يمكن أن يقبل ، فقط بشرط أن تكون هذه المرأة لعبت فى حياتك بصفة خاصة دورا دراميا ، وهذا ما لا يستطيع أن يقوله روبنس مطلقا عن العوادة . وبخلاف ذلك كانت العوادة تتفق بكل مظهرها وسلوكها مع تصور المرأة الحادثة العرضية : كانت أنيقة ، ولكن لافتة للنظر ، جميلة بدون أن تفتن ، مستعدة للحب الجسدى ، ولكنها رغم ذلك خجولة ؛ لم تزعج أبداً روبنس باعترافاتها عن حياتها الخاصة ، ولكنها أيضا لم تصور أبداً صمتها المتحفظ بطريقة درامية ، ولم تحوله إلى سر مزعج . كانت أميرة حقيقية للحادثة العرضية .

كان لقاء العوادة مع رجلين فى الفندق الباريسى الكبير شىء جارف . هل مارس ثلاثهم الحب حيثئذ ؟ لا ننسى أن العوادة أصبحت بالنسبة لروبينس "معشوقة خارج حدود الحب " ؛ استيقظ من جديد الفرمان القديم عن إبطاء تطور الأحداث حتى لا تستنزف الذخيرة الجنسية للحب بسرعة كبيرة . فقبل أن يأخذها إلى الفراش بقليل وهى عارية ، أعطى إشارة لصديقه لكى يغادر الحجرة فى هدوء .

دار حديثهما من جديد أثناء الجماع فى زمن المستقبل اللغوى ، وكأنه عهد لم يتحقق بالطبع أبداً : اختفى الصديق (M) بعد ذلك بقليل من الصورة ، ظل اللقاء الجارف لرجلين مع امرأة واحدة حادثة عرضية لم تكتمل . كان روبينس يلتقى بعد ذلك بمفرده مع العوادة مرتين أو ثلاث مرات فى العام ، عندما كانت تتاح له الفرصة لزيارة باريس . حدث بعد ذلك أنه لم تتح له هذه الفرصة ، ومرة أخرى اختفت تقريباً من ذاكرته .

(١٥)

وبعد مرور سنوات كان يجلس ذات يوم مع أحد معارفه فى مقهى بمدينة "بود ألبنى" السويسرية حيث يسكن . رأى عند الطاولة المقابلة فتاة تنظر إليه . كانت جميلة ، لها شفتان ممدودتان للشهوة

(اللتان قد يحب أن يقارنهما بأفواه الضفادع ، لو أمكن القول إن الضفادع جميلة) ، وبدا له أنها هى بالضبط المرأة التى كان دائما يهفو إليها . وحتى من على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار كان جسدها بالنسبة له محبباً للمس ، وفضله فى هذه اللحظة على جميع أجساد النساء . كانت تنظر إليه وهى محدقة . تملكته بنظرتها ، لدرجة أنه لم يعرف ما يقوله له رفيقه ، كل ما فكر فيه وهو يتألم أنه سيفقد هذه المرأة للأبد بعد عدة دقائق عندما يغادر المقهى .

ولكنه لم يفقدها ، لأنه فى اللحظة التى دفع فيها ثمن فنجانين من القهوة ، ثم نهض واقفاً ، وقفت هى أيضاً وتوجهت مثل الرجلين إلى المبنى المقابل حيث سيقام فى اللحظات التالية مزاد لبيع اللوحات . وجدت نفسها وهم يعبرون الشارع قريبة من روبنس إلى درجة أنه كان من غير الممكن ألا يتحدث إليها . تصرفت كأنها كانت تنتظر ذلك ، وأخذت تتحدث معه ولم تعر انتباها لصاحبه الذى كان يسير بجوارهما صامتا ومضطربا وهو يتجه إلى صالة البيع . وعندما انتهت جلسة المزاد وجدا نفسيهما معا فى نفس المقهى . ليس لديهما أكثر من نصف ساعة من الوقت ليقضياها معا ، أسرعاً ليقول كل منهما للآخر كل شىء يمكن قوله . ولكنه اتضح بعد ذلك أنه ليس لديهما الكثير ليقولانه ، واستغرق نصف الساعة أكثر مما توقع . كانت الفتاة طالبة أسترالية ، كان ربع أصلها من دم زنجى (لم يكن هذا واضحاً عليها ، لكنها فضلت أن تتحدث عن ذلك) ، كانت تدرس علم رموز الرسم

عند أستاذ من زيورخ ، وكانت تتربح لفترة معينة فى استراليا من الرقص نصف عازية فى ملهى ليلى . كانت كل هذه المعلومات شيقة ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه غريبة بالنسبة لروينس (لماذا كانت ترقص نصف عازية فى استراليا ؟ لماذا كانت تدرس علم الرموز فى سويسرا) إلى درجة أنها أرهقته بدلا من أن تثير فضوله كأنها عقبة لا بد وأن يتغلب عليها . لذلك كان مسرورا عندما انقضى نصف الساعة ؛ وفى هذه اللحظة تجدد حماسه السابق لأنها مازالت تعجبه واتفق معها على لقاء فى الغد .

فى هذا اليوم لم يحالفه الحظ فى أى شىء : استيقظ بألم فى الرأس ، حمل له ساعى البريد خطابين بهما أخبار سيئة ، وأثناء محادثة هاتفية مع إحدى المصالح رفض صوت نسائي ضيق الخلق أن يفهم ما يطلبه . وعندما ظهرت الفتاة عند عتبة الباب تأكد إحساسه السيئ : لماذا كانت هيئتها مختلفة تماما عن الأمس ؟ كانت ترتدى فى قدميها حذاء رياضيا ضخما ، وأعلى الحذاء الرياضى كان يظهر جورب سميك ، وفوق الجورب سروال من الكتان رمادى اللون ، صغير القوام بشكل غير عادى ، فوق السروال جاكيت : ثم تمكن أخيراً أن يستقر بنظره وهو سعيد على فمها الذى يشبه فم الضفدعة ، الذى ما يزال جميلاً ، وبشرط أن يستبعد من تفكيره كل ما يراه تحته .

ألا تناسبها هذه الملابس أم لم تكن وقورة (لم يستطع هذا أن يغير شيئاً فى كونها جميلة) ، وما أثار قلقه أكثر أنه لا يفهمها : لماذا

لا ترتدى الفتاة التى تذهب للقاء رجل تريد أن يضاجعها بشكل يجعلها تعجبه ؟ أتريد أن تعطيه إشارة إلى أن الملبس هو شىء خارجى لا يتوقف عليه الأمر ؟ أم أنها تعتبر الجاكيت أنيقا وحذاءها الرياضى الضخم شيئا مغريا ؟ أم أنه ببساطة لا تلقى بالا للرجل الذى تذهب للقاءه ؟

أخبرها أن حظه اليوم سيء ، ربما لكى يلمس لنفسه العذر مسبقا ، إذا لم تحقق مقابلتها جميع الوعود ، عدد لها ، وهو يحاول أن يتحدث بنغمة مازحة ، جميع الأحداث السيئة التى حدثت له منذ الصباح . فابتسمت بشفتيها الجميلتين الممدوتين : " الحب دواء لكل النذر السيئة " . شدته كلمة الحب التى أقلق عنها . لم يعرف ماذا تقصد بذلك ، هل كانت تقصد الفعل الجسدى للمعاشرة الجنسية؟ أم إحساس الحب ؟ وبينما هو يفكر فى ذلك ، نزعته ملابسها سريعا فى جانب الحجرة وتسلمت إلى الفراش تاركة خلفها على المقعد سروالها الكتانى ، وتحت المقعد حذاءها الرياضى الضخم مع الجوارب السميك الذى حشرته فيه ، الحذاء الرياضى الذى توقف هنا فى شقة روبنس فى طريق طوافه الطويل بالجامعات الاسترالية والمدن الأوروبية .

كان جماعا هادئا وصامتا بصورة لا تصدق . قد أقول إن روبنس عاد مرة واحدة إلى مرحلة الخرس الرياضى ، ولكن كلمة " الرياضى " هنا ليست فى مكانها بالضبط ؛ لأنه فقد منذ فترة طويلة طموح

الشباب فى ذلك الوقت لإثبات قدرته الجسدية والجنسية ؛ إن النشاط
الجنسى الذى انغمسا فيه ، بدأ أن له سمة رمزية أكثر من كونها
رياضية . لكن لم يكن لدى روبنس أى فكرة عما يجب أن ترمز له
الحركات التى قاما بها . هل ترمز للحنان ؟ للحب ؟ للصحة ؟ لمتعة
الحياة ؟ للرزيلة ؟ للصداقة ؟ للإيمان بالله ؟ لالتماس عمر مديد ؟
(كانت الفتاة تدرس علم الرموز ، ألا ينبغى عليها أن تخبره أولاً
بشئ عن علم رموز الحب الجسدى ؟ كان يفعل حركات فارغة ،
ولأول مرة يدرك أنه لا يعرف لماذا يفعلها .

وعندما كان يأخذان أثناء الجماع فترة قصيرة للراحة (خطر لروبنس
أن أستاذها فى علم الرموز يعطى بالتأكيد أيضا فى منتصف الحلقة
الدراسية التى تستمر لساعتين عشر دقائق فترة للراحة) كانت تقول
(باستمرار بنفس الصوت الهادئ الرزين) جملة توجد بها مرة أخرى
كلمة "حب" غير المفهومة ؛ خطرت لروبنس هذه الصورة الخيالية :
ستهبط إلى الأرض من أعماق الفضاء نماذج لنساء رائعات . ستشبه
أجسامهن أجسام نساء الأرض ، بالطبع سيكون فى غاية الجمال ، لأن
الكوكب الذى يأتون منه لا يعرف الأمراض ، الأجسام هناك بلا
عيوب . ولكن رجال الأرض الذين يلتقون بهن ، لن يعرفوا أبداً شيئاً
عن ماضيهن بعيداً عن الأرض ، ولذلك لن يكون فى استطاعتهم أن
يفهموا على الإطلاق ؛ لن يعرفوا أبداً أى أحاسيس تختبئ خلف
وجوههن الجميلة . قال روبنس لنفسه : قد يكون من المستحيل

مضاجعة نساء غير معروفات إلى هذا الحد . بعد ذلك صحح لنفسه :
من الممكن أن الناحية الجنسية تحولت إلى ميكانيكية إلى درجة أنها قد
تتيح فى نهاية المطاف الحب الجسدى حتى مع نساء من الفضاء ،
ولكن قد يكون هذا حباً بعيداً عن أى إثارة ، فعل جنسى تحول إلى
مجرد تمرين جسدى بسيط للإحساس ، والرديلة .

انتهت فترة الراحة ، كان ينبغي أن يبدأ الجزء الثانى من حلقة
الدراسة الجنسية بين لحظة وأخرى ، وكان يشتاق ليقول شيئاً ، كلمة
بذيئة قد تذهلها ، لكنه عرف أنه لن يقرر هذا . كان كالأجنبى الذى
لا بد أن يتشاجر بلغة يعرفها بصورة رديئة : لا يمكن أن يصرخ حتى
بأى شتم ، لأن خصمه ، الذى يهاجم قد يسأله ببراءة : " ماذا تريد
أن تقول أيها السيد ؟ إننى لم أفهمك ؟ " وهكذا لم يقل أى كلمة
بذيئة ، ضاجعها مرة أخرى فى وقار أخرس .

بعد ذلك اصطحبها إلى خارج المنزل (لم يعرف إذا كانت راضية
أم مصابة بخيبة أمل ، ولكنها بدت بالأحرى راضية) وكان قد قرر أنه
لن يلتقى بها أبداً بعد ذلك ؛ عرف أنه سيجرحها بذلك ، لأنها
ستفسر فقدانه المفاجئ للاهتمام بها (لا بد أنها عرفت رغم ذلك كيف
أنه كان مفتونا بها حتى أمس فقط) على أنه هزيمة ، هذا هو
الأسوأ ، أو غير المفهوم أكثر . عرف أنه بذنبه يطوف الآن حذاؤها
الرياضى العالم ، ولكن بخطوة أكثر حزناً حتى الآن . ودعها فى
اللحظة التى توارت فيها منه خلف ناصية الشارع . انتابه حين قوى

وموجع للنساء اللاتي ملكهن حتى الآن . كان هذا قاسيا ، ولا
يحتمل الانتظار كالمرض الذى ينفجر فى ثانية واحدة وبلا سابق إنذار .

بدأ يدرك ببطء ما يحدث . ففى الميناء لامس المؤشر رقما
جديداً . سمع الساعة تدق ، ورأى كيف تفتح النافذة الصغيرة فى
الساعة التاريخية الكبيرة ، وبفضل تقنية العصور الوسطى الغامضة
تخرج منها امرأة ترتدى حذاء رياضياً كبيراً . كان ظهورها يعنى أن
رغبته استدارت تماماً للخلف ؛ لن يهفو ثانية إلى نساء جديدات ؛
سيشتاق فقط للنساء اللاتي ملكهن ؛ إن رغبته ستكون من اليوم أسيرة
للماضى .

كان يرى النساء الجميلات يسرن فى الشوارع ، وكان مندهشا من
أنه لا ينتبه إليهن . حتى أننى أعتقد أن الكثيرات منهن انتبهن إليه ،
وهو لم يعرف ذلك ، ففى السابق كان يهفو فقط لنساء جديدات ،
كان يهفو لهن إلى درجة أنه ضاجع بعضهن مرة واحدة لا أكثر . كأنه
ينبغى أن يدفع مقابل تملك الجديد منهن ، مقابل هذا التجاهل لكل ما
كان دائما ومستمرا ، مقابل عدم صبره السخيف الذى كان يسوقه
للأمام ، يريد الآن أن يستدير للخلف ، أن يجد نساء ماضيه ، أن
يعاود مضاجعتهم ، أن يواصلها ، أن يستخرج منها ما لم يتم
استخراجه . أدرك أنه من اليوم توجد الإثارات الجنسية الكبيرة فقط
فى الخلف ، إذا كان يريد أن يجد إثارات جديدة فعليه أن يذهب من
أجلها إلى الماضى .

(١٦)

عندما كان حديث السن كان خجولا ، وكان يحاول أن يكون الجماع فى الظلام . ولكن فى الظلام كانت عيناه مفتوحتين عن آخرهما ، لكى يرى على الأقل شيئا بفضل الشعاع الضعيف الذى كان يضىء من تحت الستارة المعدنية المشدودة . ولكن بعد ذلك لم يعتد فقط على الضوء ، ولكنه كان يطالب به . وعندما كان يتأكد أن رفيقته عيناه مغلقتان ، كان يجبرها أن تفتحهما . وذات يوم أدرك بدهشة أنه يمارس الجنس فى الضوء . ولكن عيناه مغلقتان . مارس الجنس وتذكر .

ظلام وعينان مفتوحتان .

ضوء وعينان مفتوحتان .

ضوء وعينان مغلقتان .

ميناة الحياة .

(١٧)

جلس وأمامه قصاصة من الورق ، وحاول أن يكتب فى عمود قائمة بأسماء النساء اللاتى ملكهن على الإطلاق . اعترف فى هذه اللحظة فقط بأول هزيمة . فعند قليل منهن فقط تذكر الاسم واللقب ،

وعند البعض الآخر لم يتذكر ، ولا حتى اسماً واحداً . صارت النساء (بلا وضوح وبتجاهل) نساء بلا أسماء . ربما لو كان يتراسل معهن فى أحيان كثيرة ، لبقيت أسماؤهن فى ذاكرته ، فلا بد أنه كان سيكتبها باستمرار على الظرف ، ولكن "خلف حدود الحب" لا تزدهر أى مراسلة غرامية . ربما لو كان معتاداً أن يخاطبهن بالاسم الأول لتذكره ، ولكنه قرر منذ القصة التعسة فى ليلة زفافه أنه سوف يدعو بعد ذلك جميع النساء بكنيات معتادة رقيقة، والتي يمكن أن تتقبلها بلا ريبة أى واحدة منهن فى أى وقت على أنها تخصها .

كتب نصف صفحة (التجربة لم تتطلب أن تكون القائمة كاملة) ، ويعوض فى الغالب الاسم المنسى بأى صفة ("ذات النمش" أو "مدرسة" وما شابه ذلك) ، وحاول بعد ذلك أن يتذكر مع كل واحدة تاريخ حياتها . كانت هذه هزيمة أسوأ ! لم يكن يعرف عن حياتهن شيئاً على الإطلاق ! سهل لنفسه عندئذ المهمة ، وقصرها على سؤال واحد فقط : من هما أبواها ؟ باستثناء حالة واحدة (عرف الأب قبل أن يعرف ابنته) لم يكن لديه أدنى تصور عنهما . ورغم ذلك فلا بد أن الأبوين فى حياة كل منهن كان يشغلان مكانة كبيرة ! لابد أنهن حكين له الكثير عنهما ! أى قيمة إذا كان يضعها الحياة صديقتاه ، وهو لم يكن مستعداً أن يتذكر عنهن حتى البيانات الأكثر أهمية .

اعترف (حتى لو بنوع من الحياء) أن النساء لم يكن يعنين بالنسبة له أكثر من تجربة جنسية . حاول أن يتذكر على الأقل هذه التجربة .

توقف بالصدفة عند امرأة (بلا اسم) التى أشار إليها بـ "الدكتورة" .
ماذا حدث عندما ضاجعها لأول مرة ؟ برزت إلى مخيلته شقيقته فى
ذاك الوقت . دخلا إليها ، وبحثت هى فوراً عن الهاتف ؛ اعتذرت
بعد ذلك فى حضور روبنس لشخص غير معروف أنها مشغولة بمهمة
عارضة ، ولا تستطيع الحضور . ضحكا ، وبعد ذلك ضاجعها
لم يحتفظ بشيء . أين حدث ذلك ؟ على السجادة ؟ على الفراش ؟
على الكنبه ؟ كيف كانت تبدو أثناء ذلك ؟ وكم مرة التقيا بعد ذلك ؟
ثلاث مرات أو ثلاثون مرة ؟ كيف حدث أن توقف عن الاتصال بها ؟
هل يتذكر على الأقل مقتطفات من أحاديثهما ، التى لا بد وأنها ملأت
على الأقل حيزا بلغ عشرين أو ربما مائة من الساعات ؟ تذكر بصعوبة
أنها كانت تحكى له عن خطيبها (نسى بالطبع مجمل هذه المعلومات) .
الشىء الغريب هو أنه : لم يتبق فى ذاكرته شىء عنها إلا أنه كان لها
خطيب . كان فعل الحب بالنسبة له أهمية من هذه الجزئية الفرعية
الحمقاء التى تحتوى على مديح له فى أنها من أجله خدعت
شخصا آخر .

فكر بحسد فى "كازانوف" . ليس بسبب مغامراته الجنسية والتى
يقدر عليها فى النهاية العديد من الرجال ، ولكن بسبب ذاكرته التى
ليس لها مثيل . تقريبا مائة وثلاثين امرأة تم إنقاذهن من النسيان ،
بأسمائهن ووجوههن وإيماءاتهن وبمقولاتهن ! كازانوف : مثالية الذاكرة .
كيف أن رصيد روبنس بالمقارنة به هو رصيد بائس ! كان منذ فترة

طويلة ، فى بداية سن البلوغ عندما هجر الرسم ، يعزى نفسه بأن معرفة الحياة تعنى له أكثر من الصراع على السلطة . وكانت تبدو له حياة زملائه اللاهثين وراء النجاح عدوانية كما أنها رتيبة وخاوية فى الوقت نفسه . صدق أن المغامرات الجنسية ستأخذه مباشرة إلى صميم الحياة الكامل الحقيقى ، والسخى والغامض والساحر المحسوس ، الذى كان يهفو لأنه يعانقه . وفجأة يعرف أنه أخطأ : فرغم كل المغامرات الجنسية فإن معرفته بالناس تظل كما هى تماما مثلما كان فى الخامسة عشرة من عمره . فطوال هذه الفترة يرعى فى نفسه تأكيدا بأنه عاش حياة خصبة ؛ ولكن كلمتى "حياة خصبة" كانتا فقط تأكيدا مجردا ؛ فعندما حاول أن يبين ما هو الشئ المادى الذى تحويه ، وجد مجرد صحراء تصرصر فيها الريح .

جعله المؤشر فى الساعة التاريخية يأخذ فى اعتباره أنه سيكون منذ اليوم أسيرا للماضى فقط . ولكن كيف يمكن أن يكون أسيرا للماضى الذى يرى فيه فقط صحراء ، ويرعى فيها الريح بعض القصاصات من الذكريات ؟ بالإضافة إلى ذلك فلا نبالغ لو قلنا : حتى رغم أنه لم يتذكر شيئا ذا قيمة عن الدكتورة ، فإن نساء أخريات وقفن أمام عينيه فى تزاخم شديد .

فعندما أقول إنهن وقفن أمامه ، فكيف يتخيل هذا الوقوف ؟ أدرك روبنس شيئا غريبا : إن الذاكرة لا تصور تصويرا سينمائيا ،

الذاكرة تصور تصويراً فوتوغرافياً . فإن هذا الذى احتفظ به من كل واحدة منهم كان فى أفضل الحالات بضع صور ذهنية . لم ير أمامه الحركات المتواصلة لهؤلاء النساء ، ولا حتى الإيماءات الخاطفة فى كل مسارها الانسيابى ، لكن فقط ثمانية واحدة فى لحظة سكون . إن ذاكرته الجنسية أتاحت له ألبوماً صغيراً من الصور الإباحية ، ولكن ولا فيلم إباحى واحد . وإذا قلت ألبوم صور فإن هذه تعتبر مبالغة ، لأنه بقى له كلية سبع أو ثمانى صور : كانت هذه الصور جميلة ، فتنه ، لكن كان عددها رغم ذلك محدوداً لدرجة محزنة : سبعة أو ثمانية أجزاء من الثانية اختصرت فيها كل حياته الجنسية فى شكل ذكريات ، قرر منذ وقت طويل أن يكرس لها كل طاقاته وموهبته .

إننى أرى روبنس يجلس عند الطاولة ورأسه متكئة على راحته ، ويبدو كمفكر الأسرة . فيما يفكر ؟ فإذا كان قد استسلم لأن حياته اقتصرت على التجارب الحسية ، والتي بدورها اقتصرت فقط على سبع مناظر جامدة ، سبع صور ، فهو يريد ، أو على الأقل يتمنى أن تكون الصورة الثامنة والتاسعة والعاشرة منسية فى ركن ما من الذاكرة . لذلك يجلس مستنداً ورأسه فى راحته . أخذ يتخيل من جديد النساء منفردات ، ويحاول أن يجد لكل واحدة منهم صورة ما منسية .

وأثناء ذلك يتيقن من شىء آخر مثير للاهتمام : كانت بعض عشيقاته يتميزن بالجرأة فى مبادراتهن الجنسية بصفة خاصة ، وبخلاف ذلك فهن مؤثرات جدا بطلعتهن ؛ ورغم ذلك تركن فى نفسه صورة

مثيرة لدرجة صغيرة جدا أو ليست مثيرة على الإطلاق . جذبته فى الذكريات بصورة أكبر النساء اللاتى كانت مبادراتهن الجنسية باهتة ، وطلعتهن غير لافتة للنظر : هؤلاء اللاتى قلل من قدرهن نوعا ما فى ذلك الوقت . كأن الذاكرة (والنسيان) قاما بإعادة تقييم جذرى لكل القيم ؛ فما كان فى حياته الجنسية يستحق بأن يكون مرغوبا ، ومدروسا ، ومبهرجا ، ومخططا قد فقد قيمته ، وعلى العكس من ذلك ، فإن المغامرات التى حدثت على غير انتظار ، والتى لم تظهر على أنها شىء غير عادى ، أصبحت فى الذكرى شىء لا يقدر بثمن .

فكر فى النساء اللاتى فضلتهن ذاكرته : واحدة منهن بالتأكيد قد تخطت مرحلة الشباب ، إذا كان مازال يرغب بأن يلتقى بها الآن ، فأخريات عشن فى ظروف جعلت مقابلتهم أكثر صعوبة . ولكن كانت هنا العوادة . لم يرها منذ ثمانى سنوات . قفزت إلى مخيلته ثلاث صور ذهنية . فى أول واحدة كانت تقف على بعد خطوة أمامه ، كانت يدها أمام وجهها متحجرة فى منتصف حركتها ، والتى بدت كأنها تمحو بها قسماتها . الصورة الثانية التقطت اللحظة التى سألها فيها وهو يضع يده على صدرها إذا كان أحد قد أمسك بها بهذا الشكل ، وقالت بصوت هادىء وهى محدثة بنظرها فيما أمامها "لا" ! ، وفى النهاية رآها (هذه الصورة كانت الأكثر سحرا من كل الصور) تقف بين رجلين أمام المرأة وراحتها على نهديها العاريين . كان شيئا غريبا أنه فى جميع هذه الصور الثلاث كان لوجهها الجميل غير المتحرك نفس النظرة محمقة فيما أمامها ، روينس ينتحى جانبا .

بحث على الفور عن رقم هاتفها الذى كان محفوظا فى الماضى فى ذاكرته . تحدثت معه كأنهما قد افترقا بالأمس . حضر إليها فى باريس (فى هذه المرة لم يحتج لأى مناسبة ، جاء فقط من أجلها) التقيا فى الفندق نفسه ، الذى وقفت فيه منذ سنوات طويلة بين رجلين أمام المرأة ، وغطت بيدها صدرها .

(١٨)

كان للعودة باستمرار نفس الظل نفس سحر الحركات ، لم تفقد ملامحها شيئا من نبلها ، فقط شيء واحد تغير : فعند النظر إليها عن قرب لم تعد بشرتها مفعمة بالحياة . لم يمكن لهذا أن يمر على روبنس ؛ ولكن كان شيئا غريبا أن اللحظات التى فطن فيها لذلك كانت قصيرة بشكل غير عادى ، استمرت بصعوبة بضع ثوان ؛ فبعد ذلك عادت العودة مرة أخرى سريعا إلى صورتها ، إلى هذه التى رسمتها ذاكرة روبنس منذ فترة طويلة : اختبأت خلف صورتها .

الصورة : يعرف روبنس منذ فترة طويلة ماذا يعنى ذلك . رسم روبنس سرا رسما كاريكاتيريا للمدرس وهو محمى بجسد زميله الذى يجلس فى المقعد الذى أمامه فى الفصل . بعد ذلك رفع عينيه من على الرسم ، كان وجه الاستاذ فى حركة إيمائية مستمرة ، ولم يشبه الرسم . وبرغم ذلك فعندما ابتعد الاستاذ عن مجال رؤيته لم يستطع (عندئذ

أو حتى اليوم) أو يتخيله فى صورة أخرى غير صورة رسمه الكاريكاتيرى . لقد فقد الأستاذ للأبد خلف صورته .

رأى فى معرض لمصور مشهور صورة لشخص يهم بالنهوض من على الرصيف ووجهه ملطخ بالدماء . صورة لا تنسى وغامضة ! من كان هذا الشخص ؟ ماذا حدث له ؟ قال روبنس لنفسه ربما أنها حادثة فى الشارع ليس لها معنى ؛ عثرة ، سقوط ، وحضور غير متوقع من أحد لمصور ما . نهض هذا الشخص عندئذ وهو لا يرتاب فى شىء غسل وجهه فى الحانة المقابلة وذهب إلى المنزل لزوجته . وفى اللحظة نفسها التى كان نشوان فيها بميلاده الجديد ، انفصلت صورته عنه ، ورحلت بالضبط فى الاتجاه المعاكس وراء مغامرتها الخاصة ، وراء قدرها .

فالإنسان يمكن أن يختبئ خلف صورته ، يمكن أن يضيع للأبد خلف صورته ، يمكن أن يفصل تماما عن صورته :

فالإنسان ليس أبدا صورته ، فبفضل ثلاث صور ذهنية فقط اتصل هاتفيا بالعودة بعد ثمانى سنوات لم يرها فيها . من هى العودة فى ذاتها ، خارج صورتها ؟ إنه يعرف القليل عن ذلك ، ولا يريد أن يعرف أكثر . أتخيل لقاءهما بعد ثمانى سنوات : يجلسان فى مواجهة بعضهما فى ردهة الفندق الباريسى الكبير . عم يتحدثان ؟ بالطبع عن كل شىء ما عدا عن الحياة التى يعيشها كل منهم . لأنه لو عرف كل منهما الآخر بثقة رائدة ، لقام بينهما حاجز من المعلومات

غير الضرورية ، التى قد تبعد كل منهما عن الآخر . يعرف كل منهما
عن الآخر الحد الأدنى ، وهما تقريبا فخوران بأن كلاً منهما يخفى
عن الآخر حياته فى الظل ؛ لكى تكون مقابلاتهما مغمورة أكثر
بالضوء ، ومنفصلة عن الزمن ، وعن جميع الظروف المحيطة :

ينظر للعادة وهى ممتلئة باللفظ ومسرواً لأنها مازالت باستمرار
قرية لصورتها رغم أنها تقدمت فى السن نوعاً ما ، يقول لنفسه بنوع
من الكليية : إن قيمة العادة الحاضرة جسدياً يكمن فى أنها قادرة
باستمرار على الامتزاج بصورتها ويتلف إلى أنه بعد لحظة قصيرة
ستعير العادة لهذه الصورة جسدها المقعم بالحوية .

(١٩)

التقيا من جديد كما كان يحدث فى الماضى مرة أو مرتين
أو ثلاث مرات فى العام . ومن جديد مرت الأعوام . وذات يوم
هاتفها لكى يخبرها أنه سيكون فى باريس بعد أربعة عشر يوماً .
قالت له إنه لن يكون لديها وقت .

قال روبنس " يمكننى أن أؤجل سفرى لمدة أسبوع . "

" لن يكون عندى وقت أيضاً . "

إذا فمتى يناسبك ؟ "

قالت بارتباك ملحوظ " فى الوقت الراهن لا ، فى الوقت الراهن
ولفترة طويلة لا . . . "

" هل حدث شىء ؟ "

" لا ، لم يحدث شىء . "

كان كلاهما مرتبكا . بدا أن العوادة لا تريد أن تراه ثانية أبداً ،
وبالنسبة لها من غير المقبول أن تقول له ذلك بشكل مباشر . فى
الوقت نفسه فإن هذا الافتراض بالطبع كان مستبعدا (فقد كانت
لقاءاتهما دائما جميلة ، وبدون أدنى غموض) إلى درجة أن روينس
طرح عليها أسئلة أخرى ليفهم سبب رفضها . ولكن لأن علاقتهما
كانت منذ البداية قائمة على عدم العداونية المطلقة والمتبادلة ، استبعد
فى النهاية حتى أى إلحاح ، ومنع نفسه من مضايقتها أكثر من ذلك ،
وحتى لو كان ذلك بالأسئلة فقط .

أنهى عندئذ مكالمته ولكنه فقط أضاف : " ولكن هل أستطيع
الاتصال بك بعد ذلك ؟ "

" بالطبع ، ولم لا ؟ "

هاتفها بعد شهر "أما زال ليس لديك وقت ليرى كل منا
الآخر؟"

قالت " لا تغضب منى . ليس هناك شىء ضدك . "

طرح عليها نفس السؤال مثل المرة الأخيرة : "هل حدث شيء؟"

قالت "لا" ، لم يحدث شيء .

سكت ، لم يعرف ماذا يقول ، ثم قال وهو يبتسم أثناء ذلك بحزن فى سماعة الهاتف : "هذا أسوأ"

"حقيقة لا يوجد شيء ضدك ، الموضوع لا يتعلق بك على الإطلاق . إنه يخصنى أنا فقط" .

صار لديه شعور بأن هذه الكلمات تعطيه نوعاً من الأمل :
"ولكن بعد ذلك فكل شيء عبث ! فى هذه الحالة لابد أن نلتقى !"
قالت رافضة "لا" .

"إذا كنت متأكدة أنك لا تريدین رؤيتى فلن أتفوه بكلمة واحدة .
ولكن تقولين أن هذا من أجلك ! ماذا يحدث لك ؟ لابد أن نلتقى !
لابد أن أتحدث معك !"

ولكن بمجرد أن نطق بذلك قال لنفسه : "آخ ، لا ، إنه تعقلها فقط هو الذى يرفض أن يقول له السبب الحقيقى ، السبب البسيط جداً: لن يعيره اهتمام . إنها محتارة لأنها رقيقة جداً . ولذلك لا يجوز له أن يجادلها ، فقد يصبح بذلك مزعجاً لها ، ويخرق

بذلك الاتفاق غير المكتوب بينهما ، الذى فرض عليهما أن لا يطلب أبدا أحدهما من الآخر مالا يرغب فيه . ولذلك فعندما قال " من فضلك ، لا ، لم يلح عليها أكثر .

وضع السماعه ، وتذكر فجأة الطالبة الاسترالية ذات الحذاء الرياضى الضخم . لقد رفضها كذلك لأسباب لم تتمكن من فهمها . فلو أنها كانت قد أعطته فرصة لذلك ، لكان هداها بنفس الكلمات : " ليس هناك شىء ضدك . هذا الشىء ليس له علاقة بك . إنه يخصنى أنا فقط " . وفجأة أدرك بإحساسه أن حكايته مع العوادة قد انتهت ، وهو لن يعرف أبداً السبب تماماً مثل أن الطالبة الاسترالية لن تعرف أبداً لماذا انتهت قصتها . سوف يسير حذاؤه عبر العالم . ولكن بكآبة أكبر من التى صادفها حتى الآن . تماماً مثل الحذاء الرياضى الكبير للفتاة الاسترالية .

(٢٠)

مرحلة الخرس الرياضى ، مرحلة الكنايات ، مرحلة الحقيقة القدرة ، مرحلة المراسلة الهادئة ، مرحلة الغموض ، كل هذا أصبح وراء ظهره من زمن . طافت العقارب سريعاً بميناء حياته الجنسية ، وفجأة وجد نفسه خارج زمن الميناء . أن يجد الإنسان نفسه خارج

زمن الميناء لا يعنى ذلك النهاية ، ولا الموت . ففى ميناء الرسم الأوروبى دقت الساعة أيضا منتصف الليل ، ورغم ذلك مازال الرسامون يرسمون باستمرار . أن تكون خارج زمن الميناء يعنى فقط أنه لن يحدث بعد ذلك شىء جديد أو حتى مهم . مازال روبنس يتصل باستمرار بالنساء ، ولكن لم يعدن يمثلن بالنسبة له أية أهمية . كان غالبا ما يتذكر المرأة الشابة (G) التى كانت تتميز بأنها تستخدم بحب فى حديثها كلمة بذئثة . استخدمتها كثير من النساء . كان هذا تمشيا مع روح العصر . كن يقلن : " خراء " ، هذا شىء مقرف ، " ضاجع " ، وأعطين بذلك إشارة إلى أنهن لا يتمين إلى الجيل القديم ، إلى التربية المحافظة ، إنهن طليقات ، متحررات ، عصريات ، ورغم ذلك ففى اللحظة التى لمسها فيها ، تحجر نظر (G) وتحولت إلى قديسة . كانت مضاجعتها دائما طويلة وتقريبا لا نهائية ، لأنها كانت تصل إلى نشوتها الجنسية التى كانت تهفو إليهم بنهم بشق الأنفس . كانت تستلقى على ظهرها ، وعيناها مغلقتان وتبذل جهدا والعرق يتصبب من جسدها ، وجبهتها . وقد تصور روبنس تقريبا هذا الاحتضار : إنسان يعانى من الحمى لا يغرب فى شىء إلا أن تأتى أخيرا النهاية ، ولكن هذه النهاية لا ولن تأتى . وقد حاول فى لقاء أو لقاءين أو ثلاثة أن يقرب النهاية بأن يهمس لها بكلمة وقحة ، ولأنها كانت أثناءه دائما تدير وجهها كأنها تحتج على ذلك ، فقد ظل فى المرات القادمة صامتا . وفى المقابل كانت هى تقول دائما بعد

عشرين أو ثلاثين دقيقة من الجماع (وكان يبدو صوتها لروبينس غير راض ومتعجلاً) : "أقوى ، أقوى ، أكثر أكثر !" أما هو فقد تأكد عندئذ فقط أنه لا يستطيع المواصلة ، وأنه يضاجعها لفترة طويلة جداً ، وفى إيقاع سريع جداً ، وبدلاً من أن يستطيع زيادة دفعاته أكثر ، انزلق من عليها ، ولجأ إلى الوسيلة التى كان يعتبرها استسلاماً ، وفى الوقت نفسه براعة تكتيكية ، وبراءة اختراع مفضلة: أدخل يده فيها ، وحرك إصبعه بقوة من أسفل إلى لأعلى ؛ تدفق ماؤها ، صار كل شىء مبتلاً ، أما هى فاحتضنته ، وأمطرته بوابل من الكلمات الرقيقة .

الأمر المحير أن أوقاتها الخاصة كانت تتم بلا توافق زمنى : عندما كان قادراً على أن يكون رقيقاً ، كانت هى تتحدث ببذاءة ؛ وعندما كان يرغب فى التحدث ببذاءة ، كانت تصمت بعناد ؛ وعندما كان يرغب فى أن يصمت ، وينام ، كانت تصبح فجأة رقيقة ، وبغزارة فى الحديث .

كانت جميلة ، وأصغر منه بكثير ! تصور روبينس (بتواضع) أن هذا فقط بسبب براعته اليدوية ، التى تأتى إليه (G) دائماً من أجلها عندما تنادىها . كان يشعر أنه مدين لها بالفضل لأنها تسمح له بأن يحلم ، وعيناه مغلقتان خلال اللحظات الطويلة من الصمت ، والعرق التى يقضيها فوق جسدها .

وصل إلى يد روبنس ألبوم صور قديم للرئيس الأمريكى "جون كينيدي" : كلها صور ملونة كان عددها خمسين على الأقل وكان الرئيس يضحك ! كان فمه مفتوحا وأسنانه مكشوفة . لم يكن فى هذا شىء غير معتاد ، فالصور اليوم كذلك ، ولكن لعل هذا الذى صدم روبنس أن كيندى كان يضحك فى جميع الصور ولم يكن فمه مغلقا حتى فى واحدة منها . بعد ذلك بعدة أيام كان بالصدفة فى فلورنسا . وقف أمام تمثال "دافيد" لـ "ميكيل أنجلو" وتخيل أن هذا الوجه الرخامى يضحك مثل كينيدي . إن "ديفيد" ، هذا المثال لوسامة الرجال بدا فجأة كأنه شخص معتوه ! كان غالبا ما يتخيل منذ هذه الفترة شخصيات فى صور مشهورة بأفواه ضاحكة ؛ كانت هذه تجربة مثيرة للاهتمام : إن لى "قسمات الوجه من الضحك قادر على تدمير أى صورة ! تخيلوا صورة الموناليزا كيف تتحول ابتسامتها التى نلاحظها بصعوبة إلى ضحك يكشف عن أسنانها ، ولثتها .

ورغم أنه لم يقض فى أى مكان وقتا كالذى قضاه فى معارض الصور ، فقد كان لابد أن يقف عند صور كينيدي ليدرك هذا الشىء البسيط : لقد تجنب الرسامون والنحاتون العظماء منذ القدم وحتى "رافائيل" وربما "أنجز" تجنبوا تصوير الضحك وحتى الابتسامة . بالطبع فإن شخصيات التماثيل التوساكنية تبسم جميعها ، ولكن هذه الابتسامة ليست رد فعل إيمائى على موقف لحظى ، بل هى حالة

دائمة تعبر عن الغبطة الخالدة . فبالنسبة للنحات القديم ، وحتى لرسامي الفترات المتأخرة ، كان الوجه الجميل ممكنا فقط فى حالة اللاحركة .

فقدت الوجوه جمودها ، وفتحت الأفواه فقط عندما أراد الرسام أن يعبر عن الشر . إما شر المرض : وجوه النساء المنكبة على جثمان المسيح ؛ الفم المفتوح للأم فى لوحة "بوسان" قتل الأبرياء . أو شر الرذيلة : لوحة "هولين" "آدم وحواء" . إن لحواء وجهها متفتحاً وفماً مفتوحاً ، ولذلك فيمكن رؤية أسنانها التى قضمت لتوها التفاحة . مازال آدم الواقف بجوارها إنساناً بلا ذنوب : يبدو جميلاً ، فى وجهه هدوء ، وفمه مغلق . فى لوحة "كوريدجو" المسماة بـ "رمز الرذيلة" الكل يبتسم ! فلا بد للرسام لكى يعبر عن الرذيلة أن يزيح الهدوء البريء للوجه ، يمد الأفواه ، ويشوه الملامح بالابتسامة . الشخصية الوحيدة التى تضحك فى اللوحة هى : الطفل ! ولكن هذا ليس ضحك السعادة ، الذى يظهره الأطفال فى صور إعلانات الحفاضات أو الشيكولاته ! هذا الطفل يضحك لأنه أصيب بالعدوى .

فقط عند الهولنديين يصبح الضحك بريئاً : فمثلاً لوحة المهرج لـ "هالس" أو لوحة العجورية . فالرسامون الهولنديون للوحات من الحياة اليومية هم أول المصورين . فالوجوه التى يرسمونها بعيدة عن القبح ، والجمال . أخذ روينس يفكر فى العوادة عندما تجول فى قاعة الهولنديين ، قال لنفسه : إن العوادة لا تصلح كموديل لـ "هالس" ؛

إن العوادة هي موديل للرسمين الذين كانوا يبحثون عن الجمال في السطح الجامد للقسمات . وبعد ذلك اصطدم به بعض الزائرين ؛ كانت كل المتاحف ممتلئة بجموع الفضوليين مثلما كانت حديقة الحيوان في وقت سابق ؛ كان السياح يشاهدون ، في نهم للأشياء الجذابة اللوحات كأنها وحوش في القفص . قال روبنس لنفسه إن الرسم ليس في مكانه في هذا القرن ، تمامًا كما أن العوادة هنا ليست في مكانها ؛ إن العوادة تنتمي إلى العالم البائد منذ زمن طويل ، العالم الذي كان الجمال فيه لا يعرف الضحك .

ولكن كيف يمكن تفسير أن الرسامين العظماء استبعدوا الضحك من مملكة الجمال ؟ يقول روبنس لنفسه : بلا شك أن الوجه يكون جميلًا لأن وجود التفكير واضح فيه ، بينما في لحظة الضحك يتوقف الإنسان عن التفكير . ولكن هل هذه هي الحقيقة ؟ أليس الضحك هو وميض الفكرة التي فهمت في وقتها بشكل كوميدي ؟ يقول روبنس لنفسه : لا ، ففي اللحظة التي يدرك فيها الإنسان شيئًا بشكل كوميدي لا يضحك ، فالضحك يأتي على الفور بعد ذلك كرد فعل جسدي ، كتنج لا يمكن للإنسان أن يسيطر على نفسه ، يقع تحت سلطة شيء لا هو بالإرادة ولا هو بالعقل . وهذا هو سبب لماذا لم يجسد النحات القديم الضحك . فالإنسان الذي لا يتحكم في نفسه (الإنسان البعيد عن العقل والإرادة) كان لا يمكن اعتباره جميلًا .

إذا كان عصرنا قد جعل من الضحك ، ضد رغبة الرسامين العظماء ، السمة المميزة للوجه ، فإن هذا يعنى أن غياب العقل والإرادة أصبح هو الوضع الأمثل للإنسان . يمكن محاجة ذلك بأن التشنج الذى ترينا إياه الصور الفوتوغرافية هو تشنج مصطنع ، وفى هذه الحالة يصبح عقلانيا وإراديا : إن كينيدي الذى يضحك أمام عدسة التصوير لا يتفاعل مع موقف مضحك ، ولكنه يفتح فمه ، ويكشف أسنانه عن قصد تام . إن هذا يشير فقط إلى أن تشنج الضحك (حالة البعد عن العقل والإرادة) قد علا شأنه ، بفضل أناس الزمن الحالى إلى صورة مثالية قرروا الاختباء خلفها . .

قال روبنس لنفسه : إن الضحك هو الأكثر ديمقراطية من كل تعبيرات الوجه ؛ فإننا نفرق بين واحد وآخر بلامحه الجامدة ، ولكننا نتساوى جميعا فى حالة التشنج .

إن تمثال نصفى لـ "يوليوس قيصر" وهو مستغرق فى الضحك شىء غير ممكن ، ولكن الرؤساء الأمريكين يتصرفون إلى الخلود مختبئين خلف التشنج الديمقراطى للضحك .

(٢٢)

كان مرة أخرى فى روما . وفى معرض للصور مكث لفترة طويلة فى قاعة لصور من الطراز القوطى ، ظل واقفا أمام واحدة

منها ، وهو مشدوهاً . كانت لوحة الصلب . ماذا رأى ؟ رأى بدلا من المسيح امرأة صلبوها لتوهم . وكالمسيح كانت فقط ترتدى قماشاً أبيض ملفوفاً حول أكتافها . سندت باطنى قدميها على جذع خشبى بينما ربط الجلادون كاحليها بقيود سميكة إلى جذع شجرة . نصب الصليب على قمة ربوة بحيث يمكن رؤيته من مسافات بعيدة ، ومن كل الاتجاهات . كان حوله جموع من الجنود ، من رجال ونساء الشعب ، ومن الفضوليين الذين كانوا يشاهدون جميعا المرأة المعروضة لنظرهم . كانت هذه المرأة هى العوادة . أحست بكل هذه النظرات على جسدها فخبأت براحتيها نهديها . كانا منصوباً عن يمينها ، وعن شمالها ، صليبان آخران وموثق إلى كل منهما مجرم ، مال الأول تجاهها ، وأمسك بيدها ، ونزعها من على نهدها ، وشد ذراعها حتى لامس طرف يدها نهاية الذراع الأفقى للصليب . أما الوغد الثانى فقد أمسك بيدها الثانية ، وفعل بها نفس الشيء ، وهكذا أصبحت يدا العوادة مفرودتين . ظل وجهها كما هو بلا حراك . كانت عيناها محمقتين فى الأفق ، ولكن روبنس كان يعرف أنها لا تنظر للأفق وإنما إلى مرآة خيالية هائلة موضوعة أمامها بين السماء والأرض . ترى فيها صورتها ، صورة المرأة المصلوبة بيديها المفرودتين ، ونهديها العاريين . إنها معروضة للجمهور الغفير ، الهادر ذى الرغبة الحيوانية ، بينما تنظر هى معهم إلى نفسها ، وهى تشعر بالإثارة . . .

لم يستطع روبنس أن يرفع عينيه عن هذا المشهد . وعندما رفع عينيه قال لنفسه : هذه اللحظة يجب أن تدخل إلى تاريخ الديانات تحت اسم : رؤية روبنس فى روما . كان حتى المساء تحت تأثير هذه اللحظة الغامضة . فمئذ أربع سنوات لم يتصل هاتفيا بالعوادة ، ولكن فى هذا اليوم لم يستطع المقاومة . طلب رقمها على الفور بمجرد أن عاد إلى الفندق . على الجانب الآخر من الخط أجاب صوت نسائي غير معروف .

قال بتردد : " هل أستطيع التحدث مع السيدة . . ؟ " دعاها باسم زوجها .

قال الصوت النسائي على الجانب الآخر نعم ، إنه " أنا " .
نطق الاسم الأول للعوادة فأجابه الصوت النسائي إن المرأة التى يطلبها قد ماتت .

صعقته المفاجأة " ماتت " ؟

" نعم أجنس ماتت . من المتحدث ؟ "

" أنا صديقها " .

" هل يمكننى أن أعرف اسمك ؟ "

" لا " قال هذا ثم وضع السماعة .

عندما يموت أحد على شاشة السينما فإنه تدوى على الفور موسيقى حزينة ، ولكن عندما يموت فى حياتنا شخص من هؤلاء الذين عرفناهم ، فإننا لا نسمع أية موسيقى . إنها فقط مرات قليلة بالفعل من الموت هى التى يكون لديها القدرة على أن تزلزلنا من الأعماق ، مرتين أو ثلاثاً فى العمر ليس أكثر . إن موت المرأة الذى كان فقط مجرد حادث فاجأ روبنس ، وأحزنه ، ولكنه لم يستطع أن يزلزله وذلك بالأرجح لأن هذه المرات خرجت من حياته بالفعل منذ أربع سنوات ، كان لابد عليه فى ذلك الوقت أن يرضخ لذلك .

رغم أنها لم تصبح فى حياته أكثر غياباً من ذى قبل ، إلا أن موتها غير كل شىء . فكل مرة عندما كان يتذكرها ، كان لابد أن يفكر فيما حدث لجسدها . هل وضعوه فى تابوت فى باطن الأرض ؟ أم أنهم أحرقوه؟ تذكر وجهها الجامد الذى يشاهد نفسه فى مرآة الخيال بعينين كبيرتين . رأى كيف تقفل ببطء جفون هذه العيون ، وأصبح هذا الوجه فجأة ميتاً ولأن هذا الوجه كان هادئاً فإن الانتقال من الحياة إلى الموت كان سلساً ، ومتناغماً وجميلاً . ولكنه بعد ذلك بدأ يتخيل ما حدث لهذا الوجه وكان هذا شيئاً بشعاً .

حضرت إليه (G) ، وبدءا كالمعتاد فى المضاجعة الطويلة الصامتة ، وكالمعتاد ظهرت فى داخله العوادة : كانت تقف كما هو الحال دائماً أمام المرأة بنهدين عاريين ، وتنظر أمامها نظرة جامدة ، فى

هذه اللحظة فكر روبنس فى أنه ربما قد مر عامان أو ثلاثة على وفاتها: أن شعرها قد تساقط من جلدها ، وأن مقلتيها قد سقطتا . أراد أن يتخلص من هذا التصور لأنه عرف أنه بدون ذلك لن يكون قادراً على الاستمرار فى الجماع . أبعد عن عقله التفكير فى العوادة، وأرغم نفسه على التركيز مع (G) ، مع نفسها المسرع ولكن الأفكار لم تطاوعه ، وكأنها متعمدة . دفعت له بصور لم يرغب فى رؤيتها . وعندما قبلت أن تصغى إليه ، ولا تريحه العوادة فى التابوت ، أرتته إياها بين ألسنة اللهب وكان هذا بالضبط نفس ما سمعه يحكى فى فترة ماضية : جسد مشتعل (لفضل قوة ما طبيعية لم يفهمها) يرتفع لأعلى ، وهكذا جلست العوادة فى التنور . وفى منتصفه تخيل هذا الجسد الجالس المشتعل صدر صوت ساخط وملح : "أقوى ! أقوى ! أكثر ! أكثر !" كان لابد أن يوقف المضاجعة . اعتذر لـ (G) ، أنه فى حالة سيئة .

بعد ذلك قال لنفسه : لقد بقى لى من كل ما عشته صورة واحدة فقط ، كأنها تحوى فى داخلها أكثر الأشياء المخبأة ألفة وغموضا فى حياتى الجنسية ، كأنها احتوت على خلاصتها . ربما أننى فى الفترة الأخيرة كنت أعاشر فقط لكى تحيا هذه الصورة فى خاطرى . والآن فإن هذه الصورة بين ألسنة اللهب ، والوجه الجميل الجامد يتلوى ، يذبل ، يسود ، وفى النهاية يتحلل إلى رماد .

كان يجب أن تحضر (G) بعد أسبوع ، وقد خاف روبنس مسبقا هذه التخيلات التي ستهاجمه أثناء الجماع . وقد أراد أن يطرد العوادة من تفكيره ، جلس من جديد إلى المنضدة ، ورأسه متكئة على راحته أخذ يبحث في ذاكرته عن صور أخرى يمكنها أن تحل محل صورة العوادة . وجد بعضًا منها حتى أنه تعجب بسعادة من أنها مازالت باستمرار جميلة ومثيرة . ولكنه كان متأكدًا في قرارة نفسه أنه عندما يضاجع (G) سوف ترفض ذاكرته أن تريه إياها وستدفع له بدلا منها بصورة العوادة الجالسة وسط النيران كدعابة سيئة ، ومرعبة . لم يخطئ وكان عليه حتى في هذه المرة أن يعتذر لـ (G) في منتصف الجماع .

بعد ذلك قال لنفسه إنه لن يضر إذا قطع علاقاته بالنساء لبعض الوقت . وكما يقول حتى تكون هناك أخرى . ولكن فترة الراحة هذه امتدت من أسبوع لأسبوع ، ومن شهر لشهر ، وذات يوم أدرك أنه لن تكون هناك أية "أخرى" .

الجزء السابع

الاحتفال

(١)

تعكس المرأة الموجودة في صالة الرياضة البدنية وعلى مدى عدة أعوام حركات الأذرع والأرجل ، منذ ستة أشهر وتحت إصرار الإيميجولوجيين دخلت أيضاً إلى داخل صالة حمام السباحة ، كنا محاطين من ثلاث جهات بالمرايا ، أما الجهة الرابعة فكانت عبارة عن نافذة زجاجية ضخمة تشرف على أسطح منازل باريس . جلسنا مرتدين المايوهات عند مائدة بجوار الحمام حيث يلهث السباحون . وقفت بيننا زجاجة من النبيذ : أمرت بإحضارها للاحتفال بالذكرى السنوية .

لم يتمكن أفيناريوس من السؤال عما يحتفل به ؛ لأنه كنا مشدودا بفكرة جديدة : " تخيل أن عليك أن تختار بين إمكانيتين . أن تقضى ليلة عاطفية مع إحدى جميلات العالم مثل " بريجيت باردو " أو " جريتا جاربو " ولكن بشرط أن لا يعرف أحد بهذا الأمر ، أو تسير متأبطا ذراعها عبر شارع في مدينتك ، ولكن بشرط أن لاتنام معها . أود أن أعرف النسبة الدقيقة للأشخاص الذين قد يختارون الإمكانية الأولى أو الثانية . إن هذا يتطلب طريقة إحصائية ، لهذا توجهت إلى عدة مكاتب تجرى استطلاعا للرأى العام ، ولكنهم جميعا رفضوا " .

" أنا لا أفهم أبداً بشكل تام إلى أى مدى يجب أن آخذ ما تفعله مأخذ الجد " .

" أن تأخذ كل ما أقوم به على نحو جاد بصورة مطلقة " .

واصلت حديثي قائلاً : أتخيلك مثلاً وأنت تشرح لعلماء البيئية خطتك لتدمير السيارات . غير أنك لم تستطع أن تتوقع موافقتهم على هذا ! " .

قال أفيناريوس : " كلا ، لم أتوقع " .

" لماذا إذن عرضت اقتراحك ؟ ألكى تكشف النقاب عنه ؟ أم من أجل أن تثبت لهم أنهم رغم كل إيماءاتهم النضالية فهم فى الواقع جزء مما تسميه " ديابولوم " ؟ " .

قال أفيناريوس : " ليس هناك أفضل من أن تبغى إثبات شىء ما للأغبياء " .

" يبقى إذن تفسير واحد : أنت أردت المداعبة . غير أن تصرفك فى هذه الحالة يبدو لى غير منطقى . فأنت لم تأخذ فى اعتبارك أنه سيظهر من بينهم شخص يفهمك ثم يضحك ! " .

هز أفيناريوس رأسه وقال بحزن واضح : كلا ، لم آخذ هذا فى اعتبارى . إن الديابولوم يتميز بافتقاره التام لروح الدعابة . إن الدعابة رغم أنها موجودة ، إلا أنها صارت غير مرئية . إن المداعبة صارت بلامعنى . " ثم أضاف بعد ذلك : " لقد اعتقدت على عكس هذا أنه لا يوجد أحد يأخذ أى شىء مأخذ الجد ! الجميع يريد فقط أن يلهو " .

" الأمر سواء . فعندما يضطر الحمار الكبير إلى الإعلان في الأخبار عن نشوب حرب نووية ، أو حدوث زلزال في باريس ، سوف يحاول عندها بالتأكيد أن يكون مرحا . من الجائز أنه من الآن يبحث لمثل هذه المناسبات عن دعاة ، غير أن هذا لعللاقة له بروح الدعاة . لأن من يكون مرحا في مثل هذه الحالة ، هو إنسان يبحث عن دعاة للإعلان عن الزلزال ، ويأخذ بحته هذا بجدية تامه ولا يخطر على باله مطلقا أنه مضحك . إن الدعاة يمكن أن توجد فقط حيث يضع الناس حدا ما بين ما هو مهم وما هو غير مهم . صار هذا الحد في أيامنا هذه غير واضح " .

أنا أعرف صديقي جيدا ، وغالبا ما أسعد وأنا أقلد طريقته في الكلام ، وأتبنى أفكاره وخواطره . ولكنه في الوقت نفسه يهرب مني ، إن تصرفه يعجبني ، ويجذبني ، ولكن لا يمكن أن أقول إنني أفهمه تماما ، شرحت له في وقت من الأوقات أن جوهر هذا الإنسان أو ذاك يمكن وصفه فقط عن طريق المجاز . من خلال الوميض الكاشف للمجاز . طوال فترة معرفتي بأفيناريوس وأنا أبحث عبثا عن المجاز الذي أصفه به ، وأفهمه من خلاله .

بما أن هذا لم يكن للدعاة ، فلماذا إذن قدمت اقتراحك ؟ لماذا ؟ وقبل أن يتمكن من الإجابة قاطعنا نداء مفاجئ : " بروفيسور أفيناريوس ! هل هذا ممكن ؟ "

تقدم نحونا من جهة المدخل رجل رشيق ، يرتدى المايوه ،
يتراوح عمره بين الخمسين والستين . قام أفيناريوس . بدا كلاهما
متأثراً وتضافحا طويلاً .

بعد ذلك قدم أفيناريوس كل منا للآخر . أدركت أنى أرى
أمامى بول .

(٢)

جلسنا معاً ، وأشار له أفيناريوس صوبى بإيماءة عريضة :
" ألا تعرف رواياته ؟ " الحياة فى مكان آخر . " لابد أن تقرأها ! "
فزوجتى تؤكد أنها رائعة ! "

فهمت على الفور بجلاء أن أفيناريوس لم يقرأ روايتى على
الإطلاق ، فعندما أجبرنى منذ فترة أن أحضرها له ، فلم يكن هذا
إلا لأن زوجته التى تعاني من عدم الاستواء فى شخصيتها تريد أن
تفحص فى الفراش كيلو جرامات من الكتب . حزنت لهذا .

قال بول : " جئت لكى أبرد رأسى فى المياه " ثم لمح النبيذ على
الطاولة ؛ فنسى على الفور الماء وقال : " ماذا تشربون ؟ " تناول
الزجاجة بيديه وتفحص اللصيقة باهتمام ، ثم أضاف : أنا اليوم
أشرب منذ الصباح . "

نعم ، كان هذا واضحاً عليه ، وقد أدهشنى هذا . لم أتوقع على الإطلاق أن يكون من مدمنى الخمر . ناديت على النادل وأمرته أن يحضر كأساً ثالثاً .

بدأنا نتحدث عن كل شىء . نوه أفيناريوس عدة مرات عن رواياتى التى لم يقرأها ، استفز بذلك بول للتعليق ، وقد أدهشنى غلظته : " أنا لا أقرأ الروايات . إن المذكرات أو السير الذاتية تجلب لى متعة ومعرفة أكثر ، لقد قرأت فى الفترة الأخيرة كتباً عن " سالينجر " و " ردوين " ، غراميات " فرانز كافكا " ، وسيرة " هيمنجواى " الرائعة . آه ، ياله من غشاش وكاذب ومصاب بجنون العظمة . ابتسم بول بسعادة ثم قال : " هذا المصاب بالعجز الجنىسى ، السادى ، الشهوانى عدو المرأة " .

سألته : " بما أنك كمحام مستعد لدفاع عن القتلة ، لماذا لاتهتم بالكتب الذين لم يقترفوا أى ذنب سوى كتابة كتبهم ؟ " .

قال بول بسعادة " لأننى لا أطيقهم " ثم صب النبيذ فى الكأس الذى وضعه أمام النادل .

قال بعد ذلك : " إن زوجتى تحب " ماهلير " . لقد حكى لى كيف أنه حبس نفسه قبل العرض الأول لسيمفونيته السابعة بأسبوعين فى حجرة بفندق ، وأخذ ينقح اللحن طوال الليل .

أجبت : " نعم ، كان هذا فى براغ ، عام ١٩٠٦ . كان اسم الفندق " عند النجمة الزرقاء " .

واصل بول حديثه دون أن يسمح بالمقاطعة : " أتخيله فى حجرته بهذا الفندق ، وقد أحاطت به أوراق النوتة . كان مقتنعاً أن عمله بالكامل سيفشل إذا عزف فى الجملة الثانية لحن بالكلارينت بدلا من المزمار .

قلت وأنا أفكر فى روايتى : " هذا ما حدث تماماً " .

واصل بول حديثه : " أود أن تقدم هذه السيمفونية أمام جمهور من كبار المتخصصين مرة بالتعديلات التى تمت فى الأسبوعين الأخيرين ، ومرة أخرى بدونها . أنا على ثقة أن أحداً لن يستطيع أن يفرق نسخة عن الأخرى . مع العلم أنه من المثير للدهشة أن الفكرة الرئيسية التى يعزفها الكمان فى الجملة الثانية تعزف بواسطة الناي فى الجملة الأخيرة . تم الإعداد لكل شىء والتفكير به ومعايشته ، لم يترك شىء للصدف ، ولكن هذا الكمال العظيم يتجاوز إمكاناتنا ، وقدرة ذاكرتنا ، يتجاوز قدرتنا على التركيز ، وعليه فالمستمع الأكثر إنصاتاً لن يستوعب من هذه السيمفونية أكثر من واحد فى المائة ، وهذا بالتأكيد أقل مما توقعه " ماهلير " .

إن رأيه الصحيح بلا جدال جعله يبتهج ، فى الوقت الذى تزايد فيه حزنى ، فلو أن أحد قرائى ترك جملة من روايتى ، فلن يفهمها ،

ولكن أيجاد قارئ في العالم لا يترك جملة ؟ أأست أكثر القراء الذين
يتركون سطوراً وصفحات ؟

استدرك بول قائلاً : " أنا لا أحتج على كمال هذه السمفونيات ،
ولكنى أحتج فقط على أهمية هذا الكمال . إن هذه السمفونيات
الثرينة ليست إلا كاتدرائيات عديمة الفائدة . إنها صعبة المنال بالنسبة
للإنسان ، وغير إنسانية . لقد بالغنا فى أهميتها . شعرنا أمامها
بالدونية . لقد اختزل الأوروبيون أوروبا فى خمسين عملاً نابغا
لم يفهموها يوماً . تصوروا هذا الظلم الغاشم : ملايين الأوروبيين
الذين لا قيمة لهم فى مقابل خمسين اسماً يمثلون كل شىء ! إن الظلم
الطبقى يعتبر سهواً بسيطاً بالمقارنة بهذا المجاز المهيمن من الظلم الذى
يحول مجموعات إلى حبات رمل ويبرز الآخرين على أنهم غاية
الوجود ! " .

فرغت الزجاجاة . ناديت لإحضار أخرى . ومن هنا بدأ بول
يفقد السيطرة على نفسه .

استدرجته قائلاً : " لقد تحدثت عن السير الذاتية " .

قال متذكراً : " آه - ها " .

" لقد أعلنت سعادتك بأنك تمكنت أخيراً أن تقرأ المراسلات
الخاصة بالموتى " .

قال بول وكأنه يريد أن يتجنب اعتراضات الجانب الآخر :
" أؤكد لك أنه شيء معيب أن تفتش عن المراسلات الخاصة بشخص ما ، والاستماع إلى غرامياته السابقة ، والتودد إلى الأطباء لكي يفشوا سره الطبي . إن مؤلفي السير الذاتية ما هم إلا رعاع ، ولا يمكنني أن أجلس معهم على طاولة واحدة ، كما أجلس معكم الآن . إن " رويس بيار " لن يجلس هكذا على طاولة مع هؤلاء الرعاع الذين ينهبون ، ويحصلون على النزوة الجنسية الجماعية ، وهم يفترسون الحقائق بعيونهم . ولكنه لم يكن يعرف أنه لا يمكنه الاستغناء عنها . إن الغوغائية أداة للكراهية الثورية العادلة " .

قلت له : " وما الثورى فى كراهية " هيمنجواى " ؟

" أنا لا أتحدث عن كراهية هيمنجواى ! أنا أتحدث عن عمله ! أتحدث عن مؤلفه ! كان من الضرورى أن نقول بصوت عال إن قراءة عمل عن " هيمنجواى " أكثر متعة وفائدة بآلاف المرات من القراءة لـ " هيمنجواى " نفسه . من الضرورى توضيح أن عمل " هيمنجواى هو حياة هيمنجواى مشفرة ؛ وأن هذه الحياة كانت تعسة ، وتافهة مثل حياتنا جميعا ، كان يجب قص سيمفونية " ماهلير " إلى قطع واستعمالها كخلفية موسيقية للدعاية عن ورق الحمام . كان من الضرورى فى يوم من الأيام الكف عن إرهاب الخالدين ، والإطاحة بسلطة السمفونية التاسعة ، وسلطة " فاوست " ! نهض بول مترنحا باعتراف أنه مخمور ، ثم رفع الكأس إلى أعلى وقال : " أشرب نخب نهاية العصور السحيقة ! "

كان بول يبدو فى المرايا التى تنعكس كل منها على الأخرى أكبر بسبعة وعشرين مرة ، وأخذ الحاضرون على الطاولة المجاورة ينظرون بفضول إلى ذراعه المفرودة وبها الكأس . توقف رجلان ممتلئان بعد خروجهما من الحمام الصغير حيث يوجد به التدليك المائى ، وظلا ينظران إلى أذرع بول السبعة والعشرين المتسمرة فى الهواء . اعتقدت فى البداية أنه وقف هكذا لكى يضيف على كلماته نوعاً من الشفقة الدرامية . ثم لاحظت سيدة ترتدى مايوها وقد دخلت من توها إلى الصالة ، سيدة فى الأربعين من عمرها ذات وجه جميل وسيقان جميلة رغم قصرها ، ومؤخرة كبيرة نسبياً ، ولكنها معبرة ومتدلّية إلى الأرض مثل السهم السميك . عرفتُها على الفور من هذا السهم .

فى البداية لم ترنا ، وتوجهت مباشرة صوب الحمام . غير أن أعيننا كانت مصوبة ناحيتها للدرجة لفتت نظرها إلينا . احمر وجهها تبدو المرأة جميلة عندما يحمر وجهها ، فهى فى هذه اللحظة لا تشعر بجسدها ، ولا تتحكم فيه ، وتصير هى عبئاً عليه ، آه ، ماذا أجمل من النظر إلى امرأة يغتصبها جسدها ! بدأت أفهم ضعف أفيناريوس تجاه لاورا . التفت إليه : كان وجهه كالجمان . خيل إلى أن هذا التحكم فى النفس قد خانته أكثر من الخجل الذى خان لاورا .

تملكت نفسها ، ابتسمت ابتسامة مجاملة ، ثم حضرت إلى طاولتنا ، وقفنا ، وقدم لنا بول زوجته . كنت مازلت أراقب أفيناريوس . هل كان يعرف أن لاورا هي زوجة بول ! اعتقدت أنه لا يعرف . فكل ما عرفته أنها نامت عنده مرة واحدة ولم يرها منذ ذلك اليوم . غير أنني لم أكن متأكدا من هذا ، ولم أكن متأكدا من شيء على الإطلاق . انحنى وهو يصافح لاورا ، كأنه يراها أول مرة في حياته . انصرفت لاورا (يمكنني أن أقول إنها انصرفت بسرعة كبيرة) ثم قفزت في الحمام .

اختفت من على بول كل علامات البهجة مرة واحدة . قال بكآبة : " أنا سعيد أنكما تعرفتما عليها ، إنها كما يقال ، المرأة التي كنت أحلم بها . على أن أهني نفسي بهذا . إن الحياة قصيرة ، وغالبية البشر لا يتمكن من العثور على المرأة التي تحلم بها . "

أحضر النادل زجاجة جديدة ، فتحها أمامنا ، صب النبيذ في كل كأس وعاد بول من جديد ليفقد سيطرته على نفسه .

استدرجته بعد أن ابتعد النادل قائلاً : " كنت نتحدث عن امرأة العمر " .

قال : نعم عندي ابنة في الشهر الثالث من عمرها ، وعندي ابنة من زوجتي الأولى أيضاً ، تركت المنزل منذ عام ، بدون وداع : كنت حزينا لأنني أحبها . غابت أخبارها عني لفترة طويلة ثم عادت منذ

يومين ؛ وذلك لأن عشيقها غرق . أنجبت منه قبل ذلك طفلا ، ابنة ،
يا أصدقائي ، أنا عندي حفيدة ! وأنا الآن محاط بأربع نساء ! " كأن
فكرة الأربع نساء مدته بالحياة " لهذا السبب أنا أشرب منذ الصباح !
أشرب من أجل اللقاء ! أشرب في صحة ابنتي وحفيدتي ! " كانت
لاورا تسبح أمامنا مع أربعة سباحين آخرين ، وبول يتسجم . كانت
هذه ابتسامة متعبة ، جعلتني أتأسف على حاله . بدالى أنه صار مسنًا
صارت خصلات شعره فجأة تشبه تسريحة سيدة عجوز . قام مرة
أخرى وهو يحمل الكأس في يده ، وكأنه أراد أن يجابه تزايد الضعف .

أثناء ذلك صدرت من أسفل ضربات أذرع على سطح الماء .
كانت لاورا تسبح بإيقاع سريع ورأسها فوق سطح الماء ، بطريقة غير
ماهرة وغير مناسبة ، وغاضبة . .

بدت لى وكأن كل ضربة من تلك الضربات تسقط على رأس
بول ، وكأنها عام آخر من حياته : صار وجهه عجوزًا بصورة واضحة
أمام أعيننا . صار وكأنه فى السبعين بل فى الثمانين من عمره ، وقف
ثم مد الكأس إلى الأمام وكأنه يريد أن يوقف هنا مرور السنين التى
تندفع إليه ، ثم قال بصوت عال : أتذكر جملة خالدة من أيام
الطفولة " ثم أضاف بصوت منخفض : " إن المرأة هى مستقبل
الرجل . من قال هذا الكلام ؟ لم أعد أعرف . أهو " لينين " ؟
أو " كينيدى " ؟ كلا ، كلا . ربما أحد الشعراء " .

أجبتة : " إنه أراجون "

قال أفيناريوس بغير ترحيب : " ما هو المقصود بأن المرأة هي مستقبل الرجل ؟ هل يعنى أن الرجال سيتحولون إلى نساء ؟ أنا لا أفهم هذه الجملة الغبية ! " .

دافع بول قائلاً : " هذه ليست جملة غبية ! بل هي جملة شاعرية ! " .

قلت : " أسيندثر الأدب ، وتظل الجمل الشعرية البلهاء تجوب العالم ؟ " .

لم يول بول بالاً لكلماتي . فقد رأى صورته المكبرة سبعا وعشرين مرة في المرايا ، ولم يستطع أن يصرف عنها نظره . أخذ يلتفت إلى كل وجوهه في المرايا ، ثم تحدث بصوت عال ، وضعيف و كصوت سيدة عجوز قائلاً : " المرأة هي مستقبل الرجل . هذا يعنى أن العالم الذى خلق يوما من الأيام لصورة الرجل سيصبح الآن شبيها لصورة المرأة . وكلما صار أكثر تقنية وميكانيكية وأكثر حديدية وبرودة كانت هناك ضرورة للحرارة التى تعطىها له المرأة وحدها . فإذا أردنا أن ننقذ العالم فعلينا أن نتوافق مع المرأة ، وأن نأتمر بأمرها ، وبقدر ما نكون منصاعين لـ " أويج وييلسش " بقدر ما نكون نسائين ! " .

كان بول وكأنه تقدم فى السن عشر سنوات أخرى ، وكان كلمات التنبؤ هذه قد أنهكته ؛ فصار ضعيفا جدا وعجوزا خائرا ،

يتراوح عمره بين مائة وعشرين ومائة وخمسين عاما . لم يكن حتى قادرا على الإمساك بالكأس . ارتقى على الكرسي ، ثم قال بحزن وبصراحة : " لقد عادت بدون سابق إنذار . إنها لاتحب لاورا . كذلك لاورا لاتحبها . لقد دفعتهما الأمومة إلى الصراع . من إحدى الغرف انطلقت من جديد موسيقى لـ " ماهلير " ومن الغرفة الثانية موسيقى " الروك " . مرة ثانية يريداننى أن أختار . مرة أخرى توجهان إلى إنذارات نهائية . انخرطنا فى الصراع . وعندما تبدأ النساء فى الصراع لا يتوقفن " . ثم انحنى بول علينا ، قال بصوت لطيف : " أصدقائى ! لاتأخذوا ما أقوله مأخذ الجد ! وما سأقوله لكما الآن ليس حقيقيا " . خفض صوته وكأنه يريد أن يخبرنا عن سر كبير : " لقد كنا سعداء الحظ بأن الحروب قام بها حتى الآن الرجال فقط . فلو قامت بها النساء لما بقى على وجه الأرض إنسان واحد من وحشيتها المتناهية " . بعدها خبط بقبضة يده على الطاولة وكأنه أرادنا أن ننسى على الفور ما قاله ، ثم رفع صوته قائلاً : " أتمنى يا أصدقائى أن تختفى الموسيقى . أتمنى لو أن والد " ماهلير " فاجأ ابنه وهو يمارس العادة السرية ، وخبطه على أذنه حتى يصير أصم طيلة حياته ؛ لايفرق بين الطبله والكمان . كما أتمنى أن ينزع أحدهم التيار الكهربائى من كل الجيتارات الكهربائية ، ويتم توصيله بمقاعد أوثق بنفسى كل عازفى الجيتار عليها " . ثم أضاف بصوت منخفض تمامًا : أريد يا أصدقائى أن أكون ثملا عشرة أضعاف ما أنا عليه .

(٤)

جلس إلى الطاولة وهو منهار ، كان هذا الموقف محزنا لدرجة أننا لم نستطع النظر إليه ، قمنا وتقدمنا منه وأخذنا نربت على ظهره . وبينما نحن كذلك رأينا فجأة أن زوجته تخرج من الماء ، وتمر بجوارنا ، وتغادر الصالة . وتظاهرت بأنها لا ترانا .

ألهذه الدرجة كانت غاضبة من بول ، ولم ترغب حتى في النظر إليه ؟ أم أن لقاءها بأفيناريوس كان مازال يربكها ؟ أيا كان هذا ، فقد كانت لمشيئها وهي تمر بنا جاذبية ، وقوة ، جعلتنا نتوقف عن ملاطفة بول ، وأخذنا نحن الثلاثة نتطلع إليها .

حدث شيء غير متوقع عندما كانت عند الباب المتحرك الذي يؤدي إلى غرفة تغيير الملابس : استدارت برأسها صوب الطاولة ، وألقت بذراعها في الهواء بحركة خفيفة وساحرة وانسيابية ، تخيلناها على أثرها وكأنها تلقى من بين أصابعها بكرة ذهبية إلى أعلى ظلت مزدهرة فوق الباب .

وكست وجه بول الابتسامة فجأة وأمسك يد أفيناريوس بشدة وقال : " أرايتما " ؟ أرايتما هذه الإيماءة ؟ " .

" أجل " قال أفيناريوس وهو ينظر مثلى ومثل بول إلى الكرة الذهبية المضيئة تحت السقف كذكرى للآورا .

كان واضحاً لى تماماً أن الإيماءة لم تكن موجهة للزوج الشمل .
لم تكن هذه إيماءة تلقائية للوداع اليومى ، بل كانت إيماءة خاصة مليئة
بالمعانى . قد تكون موجهة لـ " أفيناريوس " .

لم يشك بول بالطبع فى شىء . وكانت السنين بدأت تتساقط عنه
فجأة ، صار من جديد رجلاً فى الخمسين من عمره ، حسن الطلعة
فخوراً بشعره الأمامى الأشيب . كان مازال ينظر نحو الباب الذى
تضىء فوقه الكرة الذهبية فقال : " آه ! لاورا ! إنها هى ! آه ! هذه
الإيماءة ! إنها لاورا ! " ثم أخذ يقول بصوت متأثر : " إن أول مرة
أومأت لى بهذه الإيماءة كانت عندما ذهبت معها إلى مستشفى
الولادة . قامت قبلها بإجراء عمليتين حتى تستطيع الإنجاب . كنا
خائفين من هذه الولادة . ولكى تخفف عني منعتني من مرافقتها إلى
الداخل . وقفت بجوار السيارة وتقدمت هى ناحية البوابة ، وعندما
وصلت إليها ، أدارت رأسها كما فعلت منذ قليل ، ثم لوحت لى .
عندما عدت إلى البيت ، أصابنى الحزن ، شعرت بالحنين إليها .
ولكى أستحضر صورتها حاولت أن أحاكيها بنفسى الإيماءة الجميلة
هذه التى سحرتنى . لو كان رأتى شخص ما وقتها كان لابد أن
يضحك . وقفت وأدريت ظهري ناحية المرأة ، ألقيت ذراعى فى
الهواء ، وأخذت أضحك من نفسى وأنا أنظر إلى المرأة من فوق كتفى .
فعلت هذا حوالى ثلاثين أو خمسين مرة وأنا أفكر فيها . لقد كنت
لاورا التى تلقى على التحية ، وفى الوقت نفسه أنا ذاتى الذى ينظر

كيف تلقى على لاورا التحية . غير أنه كان هناك شيء غريب : لم تكن هذه الإيماء تناسبني ، كنت أبدو في هذه الإيماء مضحكا ، وغير موفق بصورة لا تحتمل ، " قام وأدار لنا ظهره . ثم رفع ذراعه إلى أعلى ، وأخذ ينظر إلينا من وراء كتفه . نعم ، كان على حق ، لقد كان مضحكا ، ضحكنا عليه . دفعته ضحكاتنا إلى أن يكرر الإيماء عدة مرات ، وصار مضحكا أكثر وأكثر .

بعد ذلك قال : " أتعرفون أن هذه الإيماء ليست للرجال ، بل هي للنساء ، إن المرأة تدعونا بهذه الإيماء وتقول : هيا ! اتبعني ! وأنتم لاتعرفون إلى أين تدعوكم ، ولا تعرف هي الأخرى إلى أين ولكنها تدعوكم وهي على قناعة أن الأمر يستحق أن تذهبوا إلى حيث تدعوكم . لذلك أقول لكم : إما أن تكون المرأة مستقبل الرجل ، وإلا ستفنى البشرية ؛ لأن المرأة وحدها قادرة على أن تزرع في نفسها أملاً زائفاً ، وأن تدعوكم إلى مستقبل زائف لم تكن لنؤمن به من دون المرأة . لقد كنت طيلة حياتي مقتنعا بأن أستجيب لندائهن رغم أنه نداء مجنون ، غير أنني رغم كل شيء لست بمجنون . ولكن ليس هناك أجمل من أن يذهب هذا الشخص غير المجنون إلى المجهول وراء نداء مجنون ! " ثم أخذ يردد بصوت احتفالي عدة كلمات بالألمانية ! **Das Ewigweibliche zieht hinan** " هذا الشيء النسائي الخالد يأخذنا إلى أعلى ! "

رفرف شعر جوته كالإوزة البيضاء المتفاخرة بجناحيه تحت قبة حمام السباحة ، انصرف بول وصورته تنعكس على أسطح المرايا

الثلاث صوب الباب المتحرك الذى كانت الكرة الذهبية مازالت تضىء فوقه . رأيته لأول مرة وهو سعيد فعلا . تقدم عدة خطوات ، ثم أدار رأسه ناحيتنا من وراء كتفه ثم ألقى بذراعه فى الهواء . ابتسم . استدار مرة أخرى ولوح من جديد . ثم قام مرة أخرى بعرض هذه النسخة الرجالية غير الموفقة من الإيماءة النسائية الجميلة ، ثم اختفى وراء الباب .

(٥)

قلت : " لقد تحدث بصورة طيبة عن هذه الإيماءة . ولكنى أعتقد أنه مخطئ . فلاورا لم تستدرج أحداً إلى المستقبل ، ولكنها أرادت أن تخبرك أنها ، هنا وأنها هنا من أجلك " .

صمت أفيناريوس ولم ينم وجهه عن أى رد فعل .

قلت له معاتبا : " ألا تتأسف لحاله ؟ "

قال أفيناريوس : " بل أتأسف . إننى أحبه حبا صادقا . إنه إنسان ذكى وظريف . إنسان معقد وحزين ، ولكن الأهم هو أنه ساعدنى ! لا تنسى هذا ! " ثم انحنى على ، وكما ولو أنه لا يريد أن يترك معاتبتي له بدون إجابة فقال : " لقد حدثتكَ عن اقتراحى بإجراء استفتاء عام : من يريد أن ينام مع " ريتا هاى وورث " فى السر ومن يفضل أن يظهر معها على الملأ . إن النتيجة معروفة سلفا :

سيؤكد الجميع من أكبر صعلوك فيهم أنهم يرغبون في أن يناموا معها .
لأنهم جميعا يريدون أن يظهروا أمام أنفسهم وأمام زوجاتهم وحتى
أمام القائم باستطلاع الرأي الأصلح كنصراء لمذهب اللذة . إلا أن هذا
وهم وكوميديا . فتصراء مذهب اللذة لم يعد لهم وجود " .
واستطرد قائلاً ؟ : " ليقولوا ما يقولون ، ولكن إذا واتتهم الفرصة
في الاختيار الحقيقي فسوف يفضلون جميعا ،ؤكد لك هذا ، أن
يسيروا معها في الميدان . لأنهم جميعا يهتمهم الإعجاب وليس
الشهوة ، المظهر وليس الحقيقة . فلم تعد الحقيقة تعنى شيئاً لآى
إنسان على الإطلاق .

لم تمثل للمحامى أية قيمة . " ثم قال برقة : " ولذلك يمكننى
أن أعدك بثقة أنه لن يضره شيء ، وأن القرون التى يحملها ستبقى
غير مرئية . ستكون زرقاء فى طقس جميل ، ورمادية اللون عندما
تمطر السماء " . ثم أضاف : " ولن يشك أى رجل فى الإنسان الذى
نعرف أنه يغتصب النساء ويبيده سكين ، لن يشك فى أنه يحب
زوجته ، هاتان الصورتان لا تجتمعان معاً " .

قلت له : " انتظر ! هل هو يعتقد فعلاً أنك أردت أن تغتصب
النساء ؟ "

" لقد أخبرتك . "

" لقد اعتقدت أنك تمزح " .

قال : " لا أريد أن أفشى سرى " ثم أضاف : " لو كنت أخبرته بالحقيقة لما صدقنى . وحتى لو صدقنى لتوقف فوراً عن الاهتمام بقضيتى . لقد كانت قيمتى بالنسبة له أننى مغتصب . لقد حظيت بحب منه غير مفهوم ، الحب الذى يشعر به كبار المحامين تجاه عتاة المجرمين " .

" ولكن كيف فسرت لهم ما حدث ؟ "

" لم أفسر لهم شيئاً . لقد أطلقوا سراحى لعدم كفاية الأدلة " .

" لعدم كفاية الأدلة ، كيف ! والسكين ؟ "

" لا أنكر أن هذا كان شيئاً قاسياً " قال أفيناريوس ، وقد أدركت أننى لن أعرف المزيد .

سكت لحظة ثم قلت : " ألم تعترف تحت أى ظروف بشغب الإطارات ؟ "

هز رأسه .

امتلكنى شعور غريب : " كنت مستعداً لأن يسجنوك كمغتصب للنساء كى لا تفشى سبر اللعبة . . . " .

فى هذه اللحظة فهمته : مادماً غير قادرين على أن نعترف بأهمية العالم الذى يعتبر مهماً ، مادامت ضحكاتنا لا تجد أى صدى داخل هذا العالم يبقى لنا شىء واحد : أن نعتبر العالم كلاً لا يتجزأ ، ونجعل منه موضوعاً للعبتنا ، نجعله لعبة ، أفيناريوس يلعب ، وأكثر

شيء يهمله في عالم لا يهتم بشيء هو بالنسبة له اللعبة . ولكنه يعرف أنه بهذه اللعبة لن يجعل أحداً يضحك . فعندما شرح لمتخصصي البيئة خطته ، لم يكن يريد أن يسرى عن أحد . بل أراد أن يروح عن نفسه .

قلت له : " إنك تلعب بالعالم كالطفل الحزين الذى ليس له شقيق " .

أجل ، هذه هى استعارة من أجل أفيناريوس ! أبحث عنها منذ أن عرفتة ! أخيراً .

ضحك أفيناريوس مثل الطفل الحزين ، ثم قال : " ليس عندى أشقاء ولكن عندى نفسى " .

وقف ووقفت أنا كذلك ، وكان يبدو أنه بعد كلمات أفيناريوس الأخيرة لم يبق لنا سوى أن نتعاق ، ثم أدركنا أننا نرتدى المايوهات ، أصابنا الحياء من التلامس المباشر لبطوننا العارية . ضحكنا فى اضطراب وذهبنا إلى غرفة تغيير الملابس ، حيث يصدر من المكبر صوت نسائي يصرخ يصاحبه الجيتار ، ولهذا لم نرغب فى مواصلة الحوار . دخلنا إلى المصعد ، ذهب أفيناريوس إلى الطابق السفلى ، حيث كانت تقف سيارته المرسيديس ، أما أنا فتركته فى الطابق الأرضى . كانت تبسم لى خمسة وجوه على خمس ملصقات معلقة فى الصالة وهى تظهر أسنانها المتساوية . انتابنى الخوف من أن تعضنى ، فهرولت إلى الشارع .

كان الطريق مزدحما بالسيارات التى تطلق آلات التنبيه بلا انقطاع .
أما الدراجات النارية فقد صعدت على رصيف المشاة وتتلوى بين
المشاه . تذكرت أجنس . لقد مر عامان تماما منذ أن تخيلتها لأول مرة
وأنا أنتظر أفيناريوس فى الطابق العلوى مستلقيا على الأريكة .

لهذا السبب أمرت اليوم بإحضار زجاجة شمبانيا ، لقد أتممت
اليوم كتابة الرواية ، وأردت أن أحتفل بهذا الحدث فى نفس المكان
الذى ولدت فيه أول فكرة .

كانت السيارات تطلق آلات التنبيه ، وكنت أسمع صراخ الناس
الغاضبين . كانت أجنس يوما ما تتمنى فى هذه الظروف أن تشتري
صحبة ورد ، أو زهرة واحدة منها ، تمت أن تضعها أمام عينيها كآخر
أثر تكاد تراه للجمال .

تمت كتابتها فى ديسمبر ١٩٨٨ فى ريكيافيك

الشيطان يقود حفلاً راقصاً (*)

ما الرواية الكبيرة ؟ إنها كائن نابض بالحياة يحتاج الوقت الكافى لحركته البطيئة ، لكنه فى الوقت نفسه لا يتركنا مهملين ولو لدقيقة واحدة . إنها وحدة تشكلها ثلاث نهايات تمت بصورة متقنة ؛ كل تفاصيلها تعبر عن نفسها . إنها رواية للجميع (وماذا بعد ؟ ماذا سيحدث للشخصية) ولصفوة الصفوة (كيف يصوغ الكاتب القصة ؟ ما هى أهدافه الخفية ؟) . كل هذا نجده فى رواية الخلود ، الرواية التى هى بلا شك أعمق وأجراً رواية لميلان كونديرا . لقد حظى بهذه الجراءة حتى وهو ببساطة يعتمد على استمرار شهرته الراسخة والمتينة . غير أن هذا لم يؤد إلى وقوعها فى فخ صورته الشخصية . لقد أفلت منها جميعاً . بالتأكيد أخذوا يبحثون عنه فى المكان الخطأ . بهلوان لعين ! فى وسط باريس ! بيد فارغة وجيوب خاوية . ليس معه سوى آلة طباعة ، وهو فضلاً عن ذلك يصر على أن نقرأ أعماله من أول سطر إلى آخر سطر . وهو ما حدث بالفعل .

الخلاصة : إنه *ched - d'oeuvre* هل هى غيرة خفية شريرة فى عالم الناشرين والصحفيين ؟ هذا جائز ، ولكن هكذا تسير الأمور :

(*) تعقيب على الرواية من فيليب سوليرز - بالفرنسية ونقل إلى التشيكية ، ضمن الطبعة المعتمدة فى الترجمة (المترجم) .

وإليكم أول الأخبار الجيدة : ليس عند ميلان كونديرا أية نية أن يرضى بكونه ميلان كونديرا ، لقد وقع باسم ميلان كونديرا على الرواية الشيطانية " الفرنسية " المعجزة . وكأن " كافكا " يعود إلينا وهو يضرب بكل العبارات المبتذلة وكل الدراسات التي كتبت عنه عرض الحائط ، لكى ينقض علينا بأبسط العبارات وأسهلها . تدور الأحداث بنفس البساطة فى " مونت بارناس " الحديثة كما دارت فى براغ فى وقت من الأوقات . لكن تصوروا أن " بروست " تجرباً هنا وأمام الجميع وبواقعية اليوم ، أن يكون مجرد " مارسيل بروست " ، رافضاً بأن يكون " بروست " المخدر بأطنان من التعليقات . يالها من أمور فى غير محلها ، وبلبلة فى أخبار التليفزيون المسائية ! فى رواية الخلود مات " جوته " و " هيمنجواى " منذ زمن ، مات من سمحوا لأنفسهم بالتعبير عن رأيهم فيما فعلت بهم عبثية العالم الحالى الذى تحول إلى مشهد استعراضى ، إنهما فى العالم الآخر يثرثران سوياً حول تفاهات جسيمية وخبيثة تمثل لهما هدفاً ثانياً . يفكرون فينا ولا يحزنهم شيء . ولكن لنعود إلى موضوعنا .

نرى الراوى فى بداية الرواية يستجم فى نادٍ لألعاب القوى به حمام سباحة ومرايا ، يطل على باريس ، يراقب سيدة بين الستين والخامسة والستين من عمرها ، أنهت من توها درساً فى السباحة المشهد مؤلم ومضحك . السيدة تنصرف ، تستدير وتلوح بمودعة مدرب السباحة الذى يسخر منها . هذه الإيماءة محيرة وساحرة وفتية

ومؤثرة ومتألقة . ستعود إليها الرواية كخط رئيسى يتخلل هذه القصة المتشعبة (إنها إذن رواية تغيرات فى حركات الجسد) . هذه الرواية تبعث على الخيال الذى تولد منه الشخصيات الرئيسية : أجنس وأختها لاورا ، وأبوهما ، وعاشق السرية ، وبول زوج الأخت الأولى الذى يتزوج فى فترة لاحقة بالأخت الثانية (إنها دراسة عن انفصال ثنائى عن بعضه) .

مصدر آخر للإلهام : الإذاعة ، يستمع الكاتب إليها فى الصباح ، وهو بين النوم واليقظة : تيار متصل ومضطرب ، خلاصة الأصوات المتشعبة لسادة العالم الجدد . يوجد هنا أموات مشهورون ، وهم فى الوقت نفسه عزل ، ثم هنا أيضاً أحياء مرتبكون تماماً يتحكم فيهم باستمرار الوهم الذى يصنعه لهم العالم الحديث . كثير من الناس ، قليل من الإيماءات ، هكذا يقول كونديرا . ويقول أيضاً : كثير من الناس ، قليل من الأفكار . وكأن حياة البشر تتقدم إلى الأمام على مرأى من الإله - حامل الكاميرا الذى اتصف بالرعونة الدائمة . إن من يتناقص عددهم يوماً بعد يوم يعانون فى قرارة أنفسهم من هذا العرض الفاحش والتافه للجميع أمام الجميع (أجنس ، أبوها) وشارك آخرون فى كل هذه الفوضى العامة بمشاهد انتحار استعراضية (لاورا ، عشيقها برنارد ، بول) وفى النهاية تقاوم القلة القليلة بثبات .

وتتحول الصور **les images** فى كل مكان إلى أوامر ، أصوات شعارات الإعلانات التى تحكم ما يطلق عليه كونديرا

بالإيميجولوجيا (سوف نردد جميعا فى الأشهر القادمة هذه الكلمة) :
إن تصفية الإيدولوجيات السلطة (وهذا ما أكدته التاريخ منذ وقت
قريب) لصالح الإيميجولوجيين الذين حلوا محلهم مهمة كبيرة . إن
تصفية الإيديولوجيا (الخرقاء إلى حد كبير والبالية ، هتلر ، ستالين ،
موسوليسى ، شاوشيسكو ونظرائهم) تصاحبها منذ الآن رقابة عامة
تظهر لنا على هيئة حرية خيرية ، حميمة ولطيفة ، والأهم من هذا
أنها لها هدف واحد ، فهى موثقة فورا باستطلاعات الرأى العام ،
وسيلة الحكم الديموقراطى التى لا يمكن المساس بها . الإيميجولوجيون؟
إنهم أقوى من السياسيين ، إنهم دعاة اختفاء الحقيقة الذين لا يمكن
لأحد أن يمنعهم . يسير وراءهم فى الصف جميع الموظفين فى كل
صور الإعلام : ألعاب التسلية ، الجرائم المصورة وقت قوعها ،
الدبابات ، المسارح ، عصير المشاعر ، انطلاق الضحكات المسجلة
على شريط .

فى الوقت الذى أكتب فيه هذه السطور أرى أمام بيتى لوحة كبيرة
رسم عليها طفل يبكى وفمه مفتوح عن آخره وقدمه فى الجبس .
تقول اللافتة : " شكرا على تدخلكم فيما لايعنيكم " من يستطيع أن
يقف أمام هذه الحملة الصليبية المقدسة من أجل حقوق الأطفال القتلى
بطريقة جبانة ؟ لا أحد . ولكن ما هو مهم هنا ليس المسألة العادلة
جدا لحماية الطفولة ، بقدر ما هى إشارة إلى التدخل فى الحياة الخاصة
للآخرين ، والنسب هو : لماذا لا أهتم بسعادة جيرانى حتى رغما

عنهم ؟ هل السيدة التى تقيم فى الطابق السفلى سعيدة ؟ أليس من واجبى المقدس أن أتدخل فى شئونها ؟ ألسنت مدعوا للتدخل فيما لايعنينى لأن ما يعنينى يزعجنى ويرهقنى ويثير أعصابى ؟ من ناحية أخرى ، ألم تأت رواية كونديرا متناسبة مع ما نحن عليه تماما ؟ إلا يعتمد بدهاء إلى أن ينزع منا الأمل فى الديمقراطية ومستقبلها الذى لايقاوم ؟ لماذا ألبس تأليه حقوق الإنسان تاج خلود هيكمل جميع الآلهة الشاذ ؟

يمكن تلخيص فن كونديرا حسب اعتقادى فى سمتين رئيسيتين : أولهما أن كونديرا يحب أن يخلط الحدث التاريخى الكبير بالأحداث التاريخية الصغيرة (الأحداث الأوروبية فى العقدين الأخيرين والحياة العامة فى باريس المعاصرة) ويشرح أحدهما بالآخر ، ثانيا : تولد عنده ببساطة فائقة فكرة مستفزة من مشهد واقعى . (رجل يلخص حياته الجنسية ويدرك أنه نسى منها كل شئ) أو بالعكس يولد المشهد المفاجئ من الرؤية الفلسفية . إن رواياته وهذه الرواية خاصة ، عبارة عن مفرش يمكن بسطه على الوجهين ، عرض لدورة فى علم الرياضيات الوجودى (ذلك العلم السحرى الجديد) أتابع المغامرات الكوميدية التراجيدية لأجنس وبول ولاورا وأيضا فى الوقت نفسه القصة الكوميدية المؤثرة لـ " جوته " و " بيتينا فون أرنيتم " (أو كيف يصير الرجل الكبير ضحية لحب كبير ، تصنعه المرأة لنفسها ، الأسلوب : إن الهستريا تدين بالفضل للرجال العظام) .

سأظل أفكر فى الجولات الليلية للبروفسيور الغريب أفيناريوس ، ذلك الفوضوى ذو الطبيعة الطيبة الذى يقوم بثقب إطارات السيارات بسكين المطبخ ، سأظل متفهما فى الوقت نفسه كيف ولد فى مطلع القرن التاسع عشر الإنسان الذى يطلق عليه كونديرا " إنسان العواطف " ، سأظل أفهم الرومانسية ، " الحب شديدة الشهوانية " ، " ضخامة الروح " ، التقدم النرجسى ، فتنة الروح الخالدة ، ثم الشمولية ، وفى النهاية التجارة بالصور الشرسة (images) ، الأمية الجديدة ، تراجع العقل والإرادة ، البرودة الوقحة والفوران العاطفى لقلب مهمل - كل هذا مغلفا بـ " التشنج الديمقراطى للضحك " .

إن الشيطان وحده هو الذى يقود هذه الحفلة الراقصة ، ولكن أسوأ ما فى الأمر هو أنه يفتقر تماما إلى روح الدعابة فى المواقف الكوميديية . لقد تحول الإله إلى حامل كاميرا متواجد فى كل مكان ، الشيطان و " السديابولوم " ، منع الجنس وكل ما هو متعدد الدلالات ، الطريق المسدود بين الجنسين والذى يؤدى بالنساء والرجال إلى اكتئاب قاس ومفزع (لأن هذا الشئ النسائى الخالد للمسكين " جوته " يؤدى بنا إلى مزيد من فقدان الجمال والشهوة) ، لحظة ! ولكن ما هو الشئ الكبير والسعيد والخيث والخطير الذى ينتظرنا فى هذه الرواية . " روبنس " واحدة من أقوى شخصيات الرواية ، يتحول إلى مشاهد لحياته الجنسية الخاصة التى صارت عبثية . لقد أدهشه أنه لايتذكر شيئا من حياته الجسدية التى ارتبط بها كثيرا فى

وقت ما ، أدهشه أيضاً وبنفس القدر أن شريكته فى ألعاب القوى الجنسية لم تلحظ شيئاً . هزيمة الرغبة فى كل مكان ، وانتصار بهيج للموت . وكأن برنامج الحاسب الآلى الذى أعلن عنه فى وقت ما فيلسوف المطلق البديهي الذى أسىء فهمه قد صار مسلماً به فى المرات القادمة : " سيحصل الموت عند نهاية التاريخ حياة البشر . " ألا يمكننا على الأقل أن نأمل فى أن نستيقظ ؟ أجل ، مثلاً ونحن نقرأ هذه الرواية .

فيليب سوليرز

باريس يناير ١٩٩٠

ترجمها عن الفرنسية ف . هـ .

تعقيب المؤلف (*)

عندما بحثت لأول مرة في ديسمبر من عام ١٩٨٩ مع دار نشر "أتلانتس" الطريقة التي أنشر بها كتيبي ، تمكنت أن تصدر بنفس الترتيب الذي ظهرت به ، ولكنني مضطر الآن لعمل استثناء ، وإصدار روايتي الأخيرة ومعزوفتي السابعة ، خارج الترتيب ، وبعد روايات "مزحة" " غراميات مضحكة " ، و " يعقوب وسيدته " " مباشرة ، وكان هذا في وقت واحد في أتلانتس ، وفي دار نشر Sixty Eight Publishers - الكندية . توقف هذا الدار التي يقودها " زدينا " ، و " يوسف شكفوريتسكى " نشاطها بعد اثنين وعشرين عاما . نشرت عند شكفوريتسكى حتى الآن جميع أعمالى الثرية الستة ، وأردت (وكذلك شكفوريتسكى) ألا يغيب أيضاً العمل السابع . لقد قلت فى مكان ما منذ سنوات عديدة : إنه لم يفعل أحد للأدب التشيكي فى فترة الاحتلال الروسى أكثر مما فعلته عائلة شكفوريتسكى عندما أسست على الفور بعد الغزو دار نشر فى كندا . ويفضلهم تمكنت الأعمال الأدبية الممنوعة من استمرار وجودها فى شكلها المطبوع ، وأن تقوم فى حينها بدورها فى المجتمع التشيكي ، ولكى تترجم أيضا ، وتدخل إلى مكتبات جامعات العالم ، ويتم دراستها .

(*) هو مؤلف الرواية .

إن ردينا التي كانت هي نفسها كاتبة موهوبة جداً ، ضحت من أجل دار النشر بكل طاقاتها . ضحت بإبداعاتها من أجل إبداع الآخرين ، مما يعتبر حالة فريدة تماماً بالنظر إلى الأنانية التي يضرب بها المثل لدى الكاتب كجنس بشري . إنني أريد مرة أخرى أن أعبر بهذه المناسبة عن شكرى لها وليوسف .

بالنسبة لرواية الخلود : أنهيت تأليف " كتاب الضحك والنسيان " فى عام ١٩٧٨ ، كان كتاب الحنين إلى التشيك ، ولكنى فى ديسمبر من عام ١٩٨٢ عندما أنهيت كتاب " بساطة الوجود غير المحتملة " كان لدى إحساس قوى بأننى لن أعود أبداً إلى موضوعات من التاريخ التشيكى المعاصر . فى عام ١٩٧٨ سحبت منى الجنسية التشيكوسلوفاكية ، مما يعنى منع التشيكيين من أى اتصال بى وإغلاق الحدود التشيكية أمامى . لم أشك أبداً فى أن هذا سيكون للأبد . فى عام ١٩٨١ حصلت على المواطنة الفرنسية " nationalité française " (إن مواطن وسط أوروبا قد يقول : الجنسية الفرنسية " citoyenne " ، ولكن المفهوم الفرنسى للأمة مختلف : فمواطن الدولة الفرنسية هو المواطن الفرنسى) . أعلن هذا فى احتفال عام ، وقد شعرت ببالغ التأثير ، وبالعرفان بالجميل لهذا البلد الذى قدم لى كوطنى الجديد . وكلما مر الوقت أصبحت مشدوداً للغة الفرنسية ، ترجمت إليها مسرحيتى " يعقوب وسيدة " ثم أعددت كتاب المقالات المكتوبة بالفرنسية . وفى كراسات الملاحظات زادت ملاحظاتي عن فرنسا،

واختفت الذكريات عن التشيك . وعندما ماتت أمي في عام ١٩٨٤ في مدينة برنو (في برنو التي كانت في ذلك الوقت بعيدة جدا) ، انقطع بذلك الحيط الأخير الذي كان يربطني بوطني السابق عن طريق المراسلة المنتظمة . (في نوفمبر من عام ١٩٨٩ شعرت بإحساس غامر بالسعادة لانتهاء الاحتلال - وبالحزن في نفس الوقت : فالنسبة لي جاء هذا التغيير متأخرا جدا ؛ متأخرا جدا قبل أن أكون قادراً - وأريد - أن أقلب حياتي مرة أخرى ، أن أغير وطني مرة أخرى) .

لا أرى أى تباعد بين " الخلود " ورواياتي السابقة . فرواية " الحياة في مكان آخر " ترجع إلى عام ١٩٤٨ ، إلى فترة الاستالينية المجنونة ، لم يكن مطمعى هو انتقاد نظام الحكم ! فإن انتقاده في عام ١٩٦٩ عندما أنهيت كتابة الرواية ، كان سيصبح كمن قام بعمل لاطائل ، منه ، يدور موضوع الرواية حول الوجود : إنه موضوع الغنائية في الشعر . أثارت اهتمامي الغنائية الثورية للإرهاب الشيوعي لأنها ألقت بضوء خفي ، وغير متوقع على الميل الغنائي الموروث للإنسان ، كان ذلك أيضاً كموضوع الخلود الذي لم يرتبط بالعالم المعاصر ، الديابلوم كما يسميها " أفيناريوس " أو **société du spectacle** المجتمع الذي تحول إلى استعراض كما يسميه الآخرون . فالإنسان يعرض ، ويظهر ، ويقدم للاستعراض منذ الأزل ، إنه يحمل في داخله منذ القدم بذرة **société du spectacle** الذي يعرض المشكلة الوجودية الأبدية الخاصة بصورة الإنسان في عيون الآخرين إلى أبعاد اجتماعية كبيرة ، المشكلة التي أتبعها منذ كتابي الأول .

جمعت الأفكار الرئيسية للخلود على شكل ملحوظات بعد فترة قصيرة من إقامتي في فرنسا . أما الكتابة نفسها فقد بدأت فيها في عام ١٩٨٧ ، وأعتبر الرواية منتهية في ديسمبر من عام ١٩٨٨ . وابتداء من يناير ١٩٨٩ عملت بشكل مكثف مع مترجمتي " إيفا بلوخ " . بدا العمل أصعب مما توقعت (ولأنني أصبحت أجيد الفرنسية أكثر بكثير عما مضى ، فإنني أنقح كل صياغة بشكل متواصل) . انتهت الترجمة خلال شهر سبتمبر من عام ١٩٨٩ ؛ وأنا أغير في النص حتى آخر بروفة مطبعية في ديسمبر . صدرت الطبعة الفرنسية للخلود عن دار نشر جاليمار في يناير ١٩٩٠ ، وبعد شهرين صدرت ترجمتها في ميلانو ومدريد باللغة الإيطالية والأسبانية ، كنت أتابع عن بعد باهتمام وفي الوقت نفسه نص الترجمة ، بعد أن نفذت الطبعة الأولى سريعاً ، أدخلت في نفس العام على النسخة الفرنسية من الخلود أربع عشرة إضافة مطبعية : كنت أقوم في كل منها بعمل تغييرات جديدة وجديدة ، بلغ عددها معا (كما تأكدت في أرشيف جاليمار من باب العلم بالشئ) مائة وسبعة . جزء منها يتعلق فقط باللغة الفرنسية ، والجزء الأكبر يمثل تدخلا في النص الأصلي . ولكن لأن الخلود كانت تترجم أثناء ذلك (في عام ١٩٩٠) إلى الكثير من اللغات الأخرى ، كنت مضطراً لأن أرسل إلى المترجمين جميع التعديلات أولاً بأول ، الأمر الذي يصعب من عملهم بشكل غير مقبول . التقيت أيضاً مع " سوزانا روس " في باريس لكي تعمل في الترجمة الألمانية ، وبعد ذلك (الفترة ليست بقصيرة) التقيت " بيتر كوزيم " الذي يترجم

الرواية إلى الإنجليزية . شعرت فقط عند نهاية عام ١٩٩٠ إن الخلود
أخيراً أصبحت تماماً وراء ظهري . سيدرك القارئ التشيكي من هذا
الوصف للعمل خصوصية موقفي : كتبت روايتي (في أفضل ظروف
في عام ونصف ؛ وكurst لترجماتاتها (في إرهاق وبلا راحة)
مدة عامين .

وعندما طلبت مني منذ عام دار نشر أتلتس أن أسلمها في أسرع
وقت ممكن الأصل التشيكي ، كان لابد أن يبدو لهم ردى عبثيا :
فالأصل التشيكي غير موجود ! سأقول ذلك بشكل أدق : كان في
حالة تتطلب على الأقل شهراً لكي أتمكن من تنظيمه . كان من
الضروري قراءته بتأن جملة بجملة ، وأن أدخل عليه التغييرات التي
قمت بها أثناء عملي في الترجمات المختلفة . ولكن من أين لي بهذا
الشهر ؟ ومن أين لي بالرغبة في هذا العمل ؟ لقد كنت بالفعل متعبا
بسبب روايتي ؛ لدرجة أنني لم أستطع حتى النظر إليها . وهكذا
اضطرت الآن إلى الجلوس إليها مرة أخرى بعد عام آخر . هل هو
خضوع مغالي فيه للترجمات ؟ لا أستطيع أن أقول ذلك . فعندما
يكتب " كارلوس فيونتس " رواية فإنه يعرف أن ثمانين في المائة من
جمهوره سيقرونها بلغتها الأصلية ، اللغة الأسبانية ؛ ويمكنه بهدوء
أن لا يشغل نفسه بهذه الترجمات ، ولكن القراء التشيكي شكلوا بعد
الاحتلال الروسي واحداً في المائة من جمهوري ، وفي الثمانينات لم
يزد حتى عن واحد في الألف ، كان هذا شيئاً شاذاً ومحزناً ،

ولكن كان لزاماً علىّ أن أرضخ لذلك . عاشت كتبي حياتها كتراجم ، كتراجم قرأها الناس ، انتقدوها ، حكموا عليها ، قبلوها أو رفضوها ، لم أستطع ألا أهتم بالترجمة ، وخاصة بالترجمة الفرنسية . بدأت فى عام ١٩٨٥ تقريبا فى مراجعة دقيقة لكل الترجمات الفرنسية ، وأخذت من الجهد ما يأخذه منى تأليف كتابين جديدين . كان يهمنى بشكل غير عادى أن أقف بشكل مطلق خلف واحدة على الأقل من الصيغ المكتوبة بلغات أجنبية لرواياتى ، لكى يمكننى أن أعتبرها تخصنى تماماً ؛ صار عندى شعور بالانتصار عندما تمكنت أن أطبع منذ عام ١٩٨٧ فى جميع كتبي الصادرة عن دار نشر جاليمار تعليقاً يفيد أن الترجمة الفرنسية لها نفس قيمة الأصل التشيكى .

يمكننى أن أشكو ، لكنى لن أغير فى الأمر شيئا : إن رواياتى تعود اليوم إلى التشيك ولكن ليس كجزء من الأدب التشيكى المعاصر ، ولكن كصدى ضال منذ عشرين عاما بقى ، بعد فترة كريمة متلاشية ، بلا رجعة ، أتمنى ألا يشك أحد فى أننى أبالغ فى تقدير الدور الذى يمكن أن تلعبه اليوم فى وطنى السابق ، أو بعد عشر ، عشرين أو حتى ثلاثين سنة من قيامه . لست متأكدا على الإطلاق إذا كانت أيضا تستحق أن أعيدها للحياة . فإذا حدث هذا (على الأقل لفترة) ، فمما يغفرلى أننى أضع صيغتها التشيكية فى ترتيبها النهائى ، ستحدث لدار النشر ، ولى مشاكل لم أقدرها فى البداية حق تقديرها . بداية بروايتى ؛ الحياة فى مكان آخر " توجد كتبي فى ثلاثة

أشكال . أولاً وقبل كل شيء النص الأصلي الذى انبثقت عنه كل الترجمات ، ثانيا الطبعة المنشورة فى دار نشر شكفوريتسكى ، التى تختلف عن الأصل فى أشياء صغيرة متباينة : أولاً لأننى قمت أيضا ببعض التغييرات البسيطة هنا وهناك فى بروفات الطبع ، وثانياً لأنه لم يكن لدى شكفوريتسكى مصححون ، وقد ثبت لى أننى قارئ مستهتر لبروفات الطبع ؛ ولذلك يوجد فى طبعة تورنتو الكثير من الأخطاء (لم أقرأ أبدا كتيبى بعد كتابتها ، وكنت أكتشف الأخطاء فقط بطريق الصدفة : ففى رواية " كتاب الضحك والنسيان " على سبيل المثال دونت أسماء أجزاء الكتاب المنفردة بشكل خاطئ ، وغابت الفترة الأخيرة عن الجزء الرابع ؛ ويوجد فى كتاب " الحياة فى مكان آخر " الكثير من الجمل المغلفة ؛ وهكذا) ثالثا : توجد هنا النسخة الفرنسية التى عندما راجعتها بعد عام ١٩٨٥ قمت بهذه المناسبة بعمل الكثير من التعديلات ، والحذف ، والتصويب ، ولم تتح لى الفرصة أبدا لنقلها إلى النسخة التشيكية . فقط عندما أقوم بمقارنة هذه النسخ الثلاث ، وأعد منها نسخة نهائية (الأمر الذى يتطلب عملا دقيقا ومكثفا) سوف توجد فى التشيك طبعة معتمدة لرواياتى . حتى هذا الوقت فإن النسخة الفرنسية ستظل هى النسخة الوحيدة والمعتمدة لرواياتى السبع كلها .

ومن وجهة النظر هذه ، فليس سيئا أن تصدر الخلود الآن باللغة التشيكية . فإذا كان إصدار الروايات الأخرى قد تأخر بذنب منى

(ذنب نقص الوقت والطاقة) ، فإن هذا يمكن أن يعطى للقارئ التشيكي أفضل تصور لما كنت أهدف إليه ككاتب روائي . إننى أريد بذلك أن أقول إننى تمكنت بثبات فى الخلود ، أكثر من أى رواية أخرى ، من أن أحقق شعرية روائية معينة ، والتي تتبعتها (أولا بشكل تلقائى ثم بعد ذلك تدريجيا بشكل أكثر إدراكا) منذ رواية " مزاح " .

ماذا كنت أتبع : أن أجعل التفكير (التأمل ، التبصر) جزءاً طبيعياً من الرواية ، وأن أكون فى الوقت نفسه مثل هذه الطريقة من التفكير التى تعتبر روائية خالصة (هذا يعنى أنها ليست مجردة ، ولكنها مرتبطة بمواقف الشخصيات ؛ ليست قاطعة ، نظرية ، جادة ، ولكن ساخرة ، مستفزة ، استفهامية ، وربما مضحكة) ؛ أن أوسع بشكل جذرى زمن الرواية لكى تكون قادرة على استيعاب " الزمن الأوربى " فى مقارنة الفترات الزمنية المختلفة (ففى رواية " مزحة " يشهد بالفعل على هذه المحاولة البعيدة عن الوعي الرحلة إلى ماضى الموسيقى البشرية) ؛ أن أجرد الرواية من صيغة أمر الاحتمالية التى تثقلها ، أن أعطيها روح المرح لكى يستطيع القارئ أن يرى أيضا أمامه الشخصيات " كأنها حية " (لا أستطيع أن أتخيل رواية بلا شخصيات تلتصق بذهن القارئ ، ولذلك فقد كنت فى الحقيقة دائماً من المعارضين لنزعات ما يسمى " بالرواية الجديدة ") ، ولكن لكى لا ينسى القارئ فى خلال ذلك أن " حيويتهم " هى فقط مجرد تخيل ، سحر ، فن ، جزء من اللعبة ، ألعاب روائية ، ولكى يكون قادرا على أن يسعد من هذه اللعبة .

يوجد روائيون ينتقلون من الجزئيات إلى الكل ، من جزء إلى الآخر ، تاركين أنفسهم ليفاجأوا بتطور الرواية ، مثل عابر السبيل الذي يسير إلى مكان غير معلوم . وبعد ذلك يوجد هؤلاء الذين يهيئون الرواية من الخارج كما يفعل النحات بالتمثال ، هذا يعنى أنه ينظر إليه على الفور منذ البداية ككل ، بالتبادل من جميع الجوانب (وعندما يتركز الدافع فى الجزء الأخير ، فلا بد أن يتغير شىء ما حتى فى البداية وهكذا) إننى أنتمى لهؤلاء الآخرين . فتصور البناء الكلى يعتبر عندى جزءاً من الفكرة الأولى التى تولد منها الرواية ؛ ليس كأداء عقلاى ، ولكن كتخيل اضطرارى . تماماً كما يحدث خلال العمل فإن بعض الموضوعات الموجود مثلها ، أو بعض أنماط الشخصيات تفرض نفسها تقريباً على الكاتب ضد إرادته ، وهكذا يظل خلف بناء جميع رواياتى صيغة أولية معينة مشتركة باستثناء رواية " رقصة الفالس الأخيرة " التى تخرج من طراز أولى مختلف . إنها تركيبة مكونة من سبعة أجزاء ، وكل منها يميل إلى أقصى درجة من الاستقلالية ، والاختلاف ، وأيضاً تُميل الفصول التى تتكون منها الأجزاء المستقلة إلى أقصى درجة ممكنة من الاستقلالية . من هنا تأتى النتائج المطبعية : يتم طبع المضمون فى مقدمة الكتاب (لكى يكوى لدى القارئ منذ البداية تخيل عن الخطة الكلية للرواية - كالمسافر الذى يتعرف / أولاً فى عجالة على خريطة المدينة التى سيزورها فى الغد) ، وكل فصل يبدأ فى صفحة جديدة (لكى يكون القارئ مضطراً للتوقف عند نهاية الفصل كما نتوقف عند نهاية القصيدة) .

وتختلف الأجزاء المستقلة فى إيقاع ، وطريقة سرد الرواية .

ففيما يتعلق بالإيقاع : فهو الزمن البطيء لـ " شتارن " ، أو " جويس " : ثماني عشرة ساعة من السرد على طريقة " بلوما " لكل ألف صفحة ، أو العكس كل الحياة يتم سردها فى ست فقرات فى قصة " هيمنجواي " القصيرة . فهذه ليست مسألة براعة فى الصياغة ؛ فالإيقاع المختلف يكشف عن مشكلة مختلفة للعالم : يبين الصورة الميكروسكوبية لثانية من حياة الفرد أو الصورة التلسكوبية لرواية التاريخ الجماعية . فمنذ رواية " مزاح " كنت أميل إلى أن تدور الساعة التاريخية فى كل جزء بسرعة مختلفة . . ففى الخلود نجد أن تبديل الإيقاعات تم تنفيذه بقدر المستطاع : ففى الجزء الأول (الوجه) ست عشرة ساعة على خمسين صفحة ، فى الجزء الرابع (الإنسان العاطفى) مائتا عام على أربعين صفحة ، فى الجزء السابع (الاحتفال) تقريباً ساعة على خمس عشرة صفحة ، وهكذا .

فكل جزء يتم سرده بطريقة مختلفة : الوجه : السرد المتمسك بالتتابع السببى للفصول . الخلود : سيرة ذاتية تاريخية مع استطرادات إنشائية . الصراع : سرد مع خرق بسيط للتتابع السببى للفصول مع استطرادات إنشائية . الإنسان العاطفى : مقال روائى . المصادفة : تعدد الأصوات الثلاثى (من وجهة النظر الشكلية هو أكثر جزء متعة ، لأن الرواية هنا تتخلص بشكل أساسى من أى تصور للاحتمالية ، ولتصبح بشكل واضح لعبة الخيال : ثلاثة " أصوات " :

- ١ - اليوم الأخير ، أجنس تعود فى المساء بالسيارة إلى باريس .
- ٢ - لقاء الأستاذ أفيناريوس مع الكاتب الذى يكتب فى ذلك الوقت الجزء الخامس من الرواية ، ويحكى لصديقه عن بطله روايته . قصة المتحرة الشابة التى سمعها الكاتب من المذياع فى الجزء الثالث وجعلها تدخل إلى الرواية ؛ فلكى تتفادها أجنس ينتهى بها الأمر فى حفرة بجوار الطريق ، وتلقى حتفها) . ميناء الساعة : السرد الأحادى المتقطع (أى السرد الذى ينقطع فيه التواصل السببى بين نهاية فصل ، وبداية الفصل الذى يليه) . الاحتفال : الوصف المتواصل لمشهد واحد .

كلما استندت الرواية بشكل أقل على الوحدة الصارمة للحدث ارتبطت أكثر بوحدات أخرى : فبخلاف وحدة الشخصيات المشتركة وخاصة وحدة الموضوعات التى يتم تداولها فى كل الأجزاء : فى الخلود يوجد موضوعان أساسيان : ١ - علاقة الإنسان بصورته . و ٢ - الإنسان العاطفى " : وينضم إليهما الكثير من الموضوعات الفرعية ، والتى يشار إليها بأسماء الأجزاء المختلفة . الرواية مترابطة حتى بالدوافع المتكررة : على سبيل المثال دافع النظارة التى سقطت على الأرض ، دافع يد الرجل الموضوعة على ثدى الفتاة ، دافع الإيماءات الأربع المختلفة التى تنتقل من شخصية إلى أخرى وهكذا .

تضع شعرية الرواية هذه آمالاً غير عادية على الوعى فى القراءة ، وعلى ذاكرة القارئ ؛ لأن الدوافع ، والأفكار ، والمواقف المنفردة

توافق ، ويوضح كل منها الآخر رغم أنه يفصل بينها الكثير من الصفحات ، والفصول أو الأجزاء : فعلى سبيل المثال ، فى الجزء السادس يكتشف القارئ بالتدريج فى العوادة غير المعروفة أجنس ، فالعوادة ترتدى نظارة سوداد تمامًا كما كانت ترتديها أجنس فى الجزء الثالث ، ولها نفس طريقة المشى كما وصفها الكاتب لـ "أفيناريوس" فى الجزء الخامس : رأسها منحنية قليلاً ، وبطنها بارزة قليلاً ، فخلال محادثتهم الأخيرة تخبر العوادة روبنس أنها لا تريد أن تلتقى به بعد الآن . هذا الرفض غير المبرر يمكن استيعابه فقط عندما نتذكر أنه فى الجزء الثالث ، أى قبل مائتى صفحة تقريباً ، مارست أجنس الجنس مع عشيق غير معروف ، وهى تنظر أثناء ذلك إلى المرأة، وقد شعرت بالفزع من العلامات الجسدية للشيخوخة فقد قررت حينئذ أن تضع نهاية لمغامراتها العاطفية . أتفهمون الآن زفرة الكاتب فى الجزء السابع : " إذا ترك قارئى جملة واحدة فى الرواية فلن يفهمها ، ولكن أين يوجد هذا القارئ الذى يترك سطرًا واحدًا ؟ أأست أنا نفسى أكبر تارك للسطور ، والصفحات ؟

فليغفر لى القارئ هذا (رغم أنه مختصر جدًا) التفسير الفنى . " إننى أرفض تمامًا أن أفسر رواياتى ، أو أجيب على سؤال " ماذا أراد الكاتب أن يقول " ، لأن كل ما أراد أن يقوله قاله فى الرواية ، وإذا لم يقل شيئًا ما ، فهذا لأنه لم يرد أن يقوله . ومن ناحية أخرى فإننى دائماً ، وعن طيب خاطر أترك نفسى أستدرج لأتحدث عن

شعريتى . لعل هذا هو ميراث ماضى الموسيقى . فإنه يتبع الممارسة الأساسية للموسيقين أن المقطوعة تسمع بشكل أسهل وبمتعة أكبر ، وبذلك يتعرف المستمع بثقة على تركيبها الشكلية . غالبًا ما أرجع إلى كتاب **Technique de mon langage musical** ، والذي يفسر فيه "أوليفير مسيان" إيقاعاته وتناغماته ، فمنذ هذا الوقت الذى تعرفت فيه بهذه الطريقة على نظريته التطبيقية فى المقطوعة الموسيقية ، أعرف أكثر فى موسيقاه ، وأحبها أكثر ، ولكن هل ينطبق هذا على قراء الروايات ؟ ألا يجرد كاتب الرواية عمله من السحر إذا كشف عن طريقته ؟ ما هو بالضبط " سحر " العمل الأدبى ؟ إننا لانبدله بسحر سحرة التسلية الذين يخفون حيلتهم لكى يبهرونا . إن سحر الفن هو جمال الصياغة والصياغة ليست مخادعة ، ولكنها الشفافية ، والوضوح ، التفسير ، والإدراك ، وهذا يكون حتى فى حالة الصيغ المعقدة مثل موسيقى " مسيان " أو الاثنى عشر صوتًا عند " شونبرج " أو مقطوعات اكسناكس الموسيقية . إن الموسيقى هى السعادة من الصياغة ، وهى لاتشكل فى هذا الاتجاه أى استثناء بين الفنون ، بل على العكس فإنها حقيقة فى هذا الاتجاه مثال ، ونموذج لكل الفنون .

صدرت الخلود مترجمة عن اللغة التشيكية بالفرنسية ، والإيطالية والأسبانية ، والكتلانية ، والنرويجية ، والهولندية ، والعبرية ،

والدنمركية ، والفنلندية ، والإنجليزية (فى طبعتين مختلفتين : فى أمريكا وإنجلترا) ، وبالكرواتية ، والسلوفينية . وترجمت من الفرنسية إلى التركية ، والبرتغالية ، والبرتغالية البرازيلية ، واليونانية ، والأيسلندية ، والكورية ، والسويدية ، والصينية ، واليابانية ، وترجمت إلى اللغة الهندية الملايلم من الإنجليزية . وفى إنجلترا حصلت على جائزة جريدة الإندبندنت ، وقد صدر عن الرواية فى التشيك (على أساس الترجمة الفرنسية أو الإيطالية) بعض التحليلات الرائعة . وإذا كنت أختار لهذه الطبعة الصادرة عن دار نشر أتلنتس كخاتمة للرواية نص " فيليب سوليرس " المنشور فى نوفيل أوبرزفاتير (قام سوليرس بتفقدده لغرض النشر فى النسخة التشيكية) ، فإننى أعترف أن هذا تقريرا لأسباب وجدانية . فعندما أصدرت فى عام ١٩٦٣ الكراسة الأولى " لغراميات مضحكة " (الكتاب الذى بدأت به طريقى ككاتب للنشر) نشرت على غلاف جلدة الكتاب الورقى نصا قصيرا حاولت أن أعرف فيه ميولى الأدبية : " إن دقة الفكرة تجذبني أكثر من دقة الوصف : أحب الفكر الواضح ، وإن ظهر ذلك عن طريق المداولة أو التحليل أو السخرية أو عن طريق لعبة " المزج " ومشيرا إلى الكتاب الذين كانت تصل أعمالهم فى ذلك الوقت إلى التشيك ، أضفت أن فيليب سوليرس أقرب إلى من " nouveau roma " ، وأن " توماس مان " ، و " روبرت موسيل "

أقرب من الأدب الأميركي الحديث . كان هذا قبل تسعة وعشرين عامًا . لم يكن في ذلك الوقت يعرف عني شيئًا على الإطلاق وأنا لم أكن أعرف تقريبًا عنه شيئًا . وعندما قرأت في باريس في يناير من عام ١٩٩٠ مقالة ساورنى من جديد هذا الإحساس الغريب (والذي يسارونى دائمًا فى كثير من الأحيان) بأنه تغلق خلفى الدوائر .

فى أجوبا - بولون ، مارتينك ، ديسمبر ١٩٩٢ .

المؤلف :

" ميلان كونديرا " واحد من أشهر الكتاب الروائيين على مستوى العالم وهو أشهر كاتب تشيكى على الإطلاق ؛ فهو كاتب روائى ومسرحى وشاعر ومترجم وكاتب مقالات . ولد " ميلان كونديرا " عام ١٩٢٩ فى مدينة " برنو " التشيكية التى تعد المدينة الثانية بعد العاصمة براج . وبعد انتهائه من دراسته الثانوية فى برنو عام ١٩٤٨ بدأ الدراسة فى كلية الفلسفة جامعة شارل فى براج ولكنه لم يكمل دراسته بها وفضل دراسة التأليف الموسيقى ، وتخرج فى كلية السينما التابعة لأكاديمية الفنون التى قام فيها بتدريس الأدب العالمى بين عامى ١٩٥٨ و ١٩٧٠ ، وفى عام ١٩٧٥ رحل إلى فرنسا حيث عرض عليه أن يعمل أستاذاً زائراً فى جامعة " رينيه " وفى عام ١٩٧٩ سحبت منه الجنسية التشيكوسلوفاكية من قبل النظام الشيوعى الحاكم ولكنها ردت إليه بعد قيام الثورة المخملية عام ١٩٨٩ ، وهو يعيش الآن فى باريس بفرنسا ويعود إلى الجمهورية التشيكية من وقت لآخر .

المترجمان :

د . خالد أبو اليزيد البلتاجى ، من مواليد محافظة الغربية فى جمهورية مصر العربية نال درجة الدكتوراه من جامعة شارك فى براغ بالجمهورية التشيكية فى موضوع " وجه الفعل والزمن " دراسة مقارنة بين اللغة التشيكية والعربية ، ويعمل حالياً مدرساً للغة التشيكية بكلية الألسن جامعة عين شمس بالقاهرة .

د . عمرو أحمد شطورى صابر ، من مواليد محافظة أسيوط فى جمهورية مصر العربية نال درجة الدكتوراه من جامعة شارل فى براغ بالجمهورية التشيكية فى موضوع " لغة وأسلوب الصحافة المكتوبة " دراسة مقارنة بين اللغة التشيكية والعربية ، ويعمل حالياً مدرساً للغة التشيكية بكلية الألسن جامعة عين شمس بالقاهرة .

المشروع القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التي حققتها مشروعات الترجمة التي سبقته في مصر والعالم العربي ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية في المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التي أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعي في الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التي تضع القارئ في القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو باتيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣ - التراث المسروق	جودج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أنثرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد مقصم وعبد الجليل الأزنى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب غلوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إتوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثيلة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عثمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بنوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يعنى طريف الخولى / بنوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وآلف خوخة	صعد بهرنجى	ت : ماجدة العناني
٢٢ - منكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارنر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦ - بين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سته
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو باتيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كايين	ت : عبد الستار الطوجى / عبد الوهاب غلوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هويكنز	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حمزة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداث	بول . ب . نيكسون	ت : خليل كلفت

٢٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٢٧ - راحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٢٨ - نقد الحداثة	ألن تورين	ت : أنور مغيث
٢٩ - الإفريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين بارير	ت : أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزوج	أوكتاڤيو پات	ت : المهدي أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغفور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - مشرون قصيدة حب	يابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج١	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	قرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ - الإسلام في البلقان	ه . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برانة وعثمان الميلى ويوسف الأتلى
٥١ - مسار الرواية الإسبانية الأمريكية	داريو بيانونيا و خ . م بينيا يستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسى التدميى	بيتر . ن . نوقا ليس وستيفن . ج . روجسيفيتز و روجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرdash
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . النجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ - ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونيث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتن	ت : صبرى محمد عبد الفنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ - لغة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٢	ريفيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	الان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العلم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهريدا محمد فهمى
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسى العجوز ت . س . إليوت
- ٧٣ - نقد استجابة القارئ جين . ب . توميكنز
- ٧٤ - صلاح الدين والمالِك في مصر ل . ا . سيمينوفا
- ٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية أندريه موروا
- ٧٦ - چاك لاكان واغواء التحليل النفسى مجموعة من الكتاب
- ٧٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢ رينيه ويليك
- ٧٨ - العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية رونالد روبرتسون
- ٧٩ - شعرية التأليف بوليس اوسبنسكى
- ٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع» ألكسندر بوشكين
- ٨١ - الجماعات المتخيلة بندكت أندرسن
- ٨٢ - مسرح ميغيل ميغيل دى أرنامون
- ٨٣ - مختارات فوتفريد بن
- ٨٤ - موسوعة الأدب والنقد مجموعة من الكتاب
- ٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية) صلاح زكى أقطاي
- ٨٦ - طول الليل جمال مير صادق
- ٨٧ - نون والقلم جلال آل أحمد
- ٨٨ - الابتلاء بالغرب جلال آل أحمد
- ٨٩ - الطريق الثالث أنتونى جينز
- ٩٠ - وسم السيف (قصص) نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية
- ٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق باربر الاسوستكا
- ٩٢ - أساليب ومضامين المسرح كارلوس ميغيل
- الإسبانيون أمركى المعاصر
- ٩٣ - محدثات العولمة مايك فيذرستون وسكوت لاش
- ٩٤ - الحب الأول والصحبة صمويل بيكيت
- ٩٥ - مختارات من المسرح الإسباني أنطونيو بويرو بايخو
- ٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة قصص مختارة
- ٩٧ - هوية فرنسا (المجلد الأول) فرنان برودل
- ٩٨ - الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى نماذج ومقالات
- ٩٩ - تاريخ السينما العالمية ديفيد روبنسون
- ١٠٠ - مساملة العولمة بول هيرست وجراهام تومبسون
- ١٠١ - النص الروائى (تقنيات ومناهج) بيرنار فاليم
- ١٠٢ - السياسة والتسامح عبد الكريم الخطيبى
- ١٠٣ - قبر ابن عربى يليه آباء عبد الوهاب المؤيد
- ١٠٤ - أوربا ما هو جنى بروتات بريشت
- ١٠٥ - منخل إلى النص الجامع جيرارچينيت
- ١٠٦ - الأدب الأندلسى د. ماريا خيسوس روبييرامتى
- ١٠٧ - مسيرة الفنان لى الشعر الأمريكى المعاصر نخبة
- ت : فؤاد مجلى
- ت : حسن ناظم وعلى حاكم
- ت : حسن بيومى
- ت : أحمد درويش
- ت : عبد المقصود عبد الكريم
- ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ت : أحمد محمود ونورا أمين
- ت : سعيد الغانمى وناصر خلاوى
- ت : مكارم الغمرى
- ت : محمد طارق الشرقاوى
- ت : محمود السيد على
- ت : خالد المعالى
- ت : عبد الحميد شيحة
- ت : عبد الرزاق بركات
- ت : أحمد فتحى يوسف شتا
- ت : ماجدة العنانى
- ت : إبراهيم الدسوقى شتا
- ت : أحمد زايد ومحمد محبى الدين
- ت : محمد إبراهيم مبروك
- ت : محمد هناء عبد الفتاح
- ت : نادية جمال الدين
- ت : عبد الوهاب علوب
- ت : فوزية العشماوى
- ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
- ت : إتيوار الخراط
- ت : بشير السباعى
- ت : أشرف الصباغ
- ت : إبراهيم قنديل
- ت : إبراهيم فتحى
- ت : رشيد بنحو
- ت : عز الدين الكتانى الإبريسى
- ت : محمد بنيس
- ت : عبد الغفار مكاوى
- ت : عبد العزيز شبيب
- ت : أشرف على دكتور
- ت : محمد عبد الله الجعيدى

- ١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر النثاسي مجموعة من النقاد
١٠٩ - حروب المياه جون بولوك وعادل درويش
١١٠ - النساء في العالم النامي حسنة بيجوم
١١١ - المرأة والجريمة فرانسيس هيندسون
١١٢ - الاحتجاج الهادي أرلين علوي، ماكليود
١١٣ - راية التمرد سادي پلانك
١١٤ - مسرحيات حماد كهنج وسكان المستنقع رول شوينكا
١١٥ - غرفة تخص المرأة وحده فرجينيا وولف
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق) سينثيا تلسون
١١٧ - المرأة والجنوسة في الإسلام ليلى أحمد
١١٨ - النهضة النسائية في مصر بيث يارون
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق أميرة الأزهرى سنيل
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط ليلى أبو لغد
١٢١ - الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية فاطمة موسى
١٢٢ - منظم العبودية القديم ونموذج الإنسان جوزيف فوجت
١٢٣ - الإمبراطورية العشائية وعلاقاتها الدولية نيدل الكسندر وفنابولينا
١٢٤ - الفجر الكاذب جون جراي
١٢٥ - التحليل الموسيقى سيدريك ثورپ ديفي
١٢٦ - فعل القراءة ثولفانج إيسر
١٢٧ - إوهاب صفاء فتحي
١٢٨ - الأنثى المقارن سوزان باسنيت
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة ماريا تولوروس أسيس جاروت
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية أندريه جوندز فرانك
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي) مجموعة من المؤلفين
١٣٢ - ثقافة العمولة مايك فينرستون
١٣٣ - الخوف من المرايا طارق على
١٣٤ - تشريح حضارة باري ج. كيمب
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء) ت. س. إليوت
١٣٦ - فلاحو الباشا كينيث كرونو
١٣٧ - منكرات ضابط في الحملة الفرنسية جوزيف ماري مواريه
١٣٨ - عالم التلفزيون بين الجمال والعنف إيفيلينا تاروني
١٣٩ - باريسغال ريشارد فاچنر
١٤٠ - حيث تلتقي الأنهار هريبرت ميسن
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل أ. م. فورستر
١٤٣ - قضايا التنظير في البحث الاجتماعي ديريك لايدار
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة كارلو جولونوي
- ت : محمود على مكي
ت : هاشم أحمد محمد
ت : منى قطان
ت : زيهام حسين إبراهيم
ت : إكرام يوسف
ت : أحمد حسان
ت : نسيم مجلى
ت : سميرة رمضان
ت : نهاد أحمد سالم
ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
ت : لميس النقاش
ت : بإشراف/ رؤوف عباس
ت : نخبه من المترجمين
ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
ت : منيرة كروان
ت : أنور محمد إبراهيم
ت : أحمد فؤاد بليغ
ت : سمحه الخولى
ت : عبد الوهاب علوب
ت : بشير السباعي
ت : أميرة حسن نويره
ت : محمد أبو العطا وآخرون
ت : شوقي جلال
ت : لويس بقطر
ت : عبد الوهاب علوب
ت : طلعت الشايب
ت : أحمد محمود
ت : ماهر شفيق فريد
ت : سحر توفيق
ت : كاميليا صبحي
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت : مصطفى ماهر
ت : أمل الجبوري
ت : نعيم عطية
ت : حسن بيومي
ت : عدلى السمرى
ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دي ليس	ت : على عبد الرؤوف البمبي
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تالكريد نورست	ت : عبد الغفار مكاوي
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إثريكي أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأندريس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابي
١٥٣ - غرام الفراعنة	فيولين فاتويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال والآن وأوديت فيرمو	ت : مى التمساني
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
١٥٩ - الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسباني	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسوى	ت : صلاح عبد العزيز محبوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت : ياشراف : محمد الجوهري
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	جان لاکوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ. ن. أفانا سيفا	ت : سهير المصانفة
١٦٦ - العلاقات بين المذنبين والطمانيخ في إسرائيل	يشعياهو ليتمان	ت : محمد محمود أبو غنيم
١٦٧ - في عالم طاغور	رايندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عيار
١٦٨ - دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عيار
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عيار
١٧٠ - الطريق	ميغيل دالبييس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابي
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	أيليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سعحان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبي الأمريكى	فلسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

- ١٨٢ - العنف والنبوة و . ب . بيتس
- ١٨٣ - جان كوكو على شاشة السينما رينيه جيلسون
- ١٨٤ - القاهرة .. حالة لا تنام هانز إيندورفر
- ١٨٥ - أسفار العهد القديم توماس تومسن
- ١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل ميخائيل أنوود
- ١٨٧ - الأرضة يُدْرَجْ علوى
- ١٨٨ - موت الأدب الفين كرنان
- ١٨٩ - العصى والبصيرة پول دى مان
- ١٩٠ - محاورات كونفوشيوس كونفوشيوس
- ١٩١ - الكلام رأسمال الحاج أبو بكر إمام
- ١٩٢ - ساحت نامه إبراهيم بك جا زين العابدين المراغى
- ١٩٣ - عامل المنجم بيتر أبراهامز
- ١٩٤ - مخترعات من النقد الشطو - أمريكى مجموعة من النقاد
- ١٩٥ - شتاء ٨٤ إسماعيل فصيح
- ١٩٦ - المهلة الأخيرة هالنتين راسيوتين
- ١٩٧ - القاروق شمس العلماء شبلى النعمانى
- ١٩٨ - الاتصال الجماهيرى إيوين إمري وآخرون
- ١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية يعقوب لاتداوى
- ٢٠٠ - ضحايا التنمية جيرمى سيبوك
- ٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة جوزايا رويس
- ٢٠٢ - تاريخ النقد الألبى الحديث جا رينيه ويليك
- ٢٠٣ - الشعر والشاعرية أنطاف حسين حالى
- ٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم زلمان شازار
- ٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات لويجى لوقا كافاللى - سفورزا
- ٢٠٦ - الهيولية تصنع علماً جديداً جيمس جلايك
- ٢٠٧ - ليل إفريقى رامون خوتاسنديز
- ٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى دان أوربان
- ٢٠٩ - السرد والمسرح مجموعة من المؤلفين
- ٢١٠ - مثقوبات حكيم سنائى سنائى القرنوى
- ٢١١ - فرديناند دوسوسير جوثانان كلر
- ٢١٢ - قصص الأمير مرزيان مرزيان بن رستم بن شروين
- ٢١٣ - مصر منذ قوم تالين حتى رجل عبد النصر ريمون فلاور
- ٢١٤ - قواعد جديدة للملج فى علم الاجتماع أنتونى جيندز
- ٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بك جا زين العابدين المراغى
- ٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم مجموعة من المؤلفين
- ٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان صمويل بيكيت
- ٢١٨ - راويلا خوليو كورتازان
- ت : ياسين طه حافظ
- ت : فتحى العشرى
- ت : نسوقى سعيد
- ت : عبد الوهاب علوب
- ت : إمام عبد الفتاح إمام
- ت : علاء منصور
- ت : بدر الديب
- ت : سعيد الفانمى
- ت : محسن سيد فرجاني
- ت : مصطفى حجازى السيد
- ت : محمود سلامة علاوى
- ت : محمد عبد الواحد محمد
- ت : ماهر شفيق فريد
- ت : محمد علاء الدين منصور
- ت : أشرف الصباغ
- ت : جلال السعيد الحفناوى
- ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
- ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد الطيف حماد
- ت : فخرى اييب
- ت : أحمد الأنصارى
- ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ت : جلال السعيد الحفناوى
- ت : أحمد محمود هويدي
- ت : أحمد مستجير
- ت : على يوسف على
- ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
- ت : محمد أحمد صالح
- ت : أشرف الصباغ
- ت : يوسف عبد الفتاح فرج
- ت : محمود حمدي عبد الغنى
- ت : يوسف عبد الفتاح فرج
- ت : سيد أحمد على الناصرى
- ت : محمد محمود محي الدين
- ت : محمود سلامة علاوى
- ت : أشرف الصباغ
- ت : نادية البنهاوى
- ت : على إبراهيم على متوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كازر ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهولية في الكون	باري باركر	ت : علي يوسف علي
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيش	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جرائ	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم في مجتمع حر	بول فيراينر	ت : السيد محمد نقادى
٢٢٤ - نمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر ابراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جايريل جارثيا ماركت	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هريت نورانس	ت : طاهر محمد علي البريرى
٢٢٧ - المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	موسى ماريا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت رولف	ت : ماري تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مازق البطل الوحيد	نورمان كيمن	ت : أمير ابراهيم العمري
٢٣٠ - من الذباب والفئران واليشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى ابراهيم فهمى
٢٣١ - الارافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى ابراهيم فهمى
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام في السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس تبريزى ج ١	جلال الدين الرومى	ت : ابراهيم الدسوقي شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادى	روين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعيسى منبولى أحمد
٢٣٩ - العربى في الأدب الإسرائيلى	جيلرافر - رايوخ	ت : ثانيا سليمان خلفه رايهاب صلاح فايق
٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من القموض	وليام إميسون	ت : هبيرة محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروقنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الغليان	لاورا إسكييل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا انيس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جايريل جرثيا ماركت	ت : علي ابراهيم علي منوفى
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والعذات في مصر	ولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد الطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزيق	لراجو شتامبيوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	لومنيك فينك	ت : ماجدة أباطة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جورجون مارشال	ت : بإشراف : محمد الجوهري
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : علي بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روينسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روينسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ - ديكارت	ديف روينسون وجودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلي رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الفجر	سير أنجوس فريزر	ت : عبادة كحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرميني	نخبة	ت : فاروچان كازانچيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهري
٢٦١ - رحلة في فكر زكي نجيب محمود	زكي نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إدوارد منوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	جون جرين	ت : علي يوسف علي
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلي	ت : لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عروكي
٢٦٨ - نيوان شمس تبريزي ج ٢	جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج ١	وليم جيفورد بالجريف	ت : هبيري محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج ٢	وليم جيفورد بالجريف	ت : هبيري محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الفريية	توماس سي ، ياترسون	ت : شوقي جلال
٢٧٢ - الأديرة الأثرية في مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والتورة في الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوي
٢٧٤ - السيدة بريارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود علي مكي
٢٧٥ - د. س. إليوت شاعرًا وثقافيًا وكاتبًا مسرحيًا	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ - فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمساني
٢٧٧ - الجينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزي
٢٧٨ - البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ - من الأنبياء الهندي الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ - القربوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوي	ت : جلال الحفناوي
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وليبرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان روافر	ت : علي البمبي
٢٨٤ - فرقل مجنونًا	يويبيديس	ت : أحمد عثمان
٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامي	حسن نظامي	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ - سياحت نامه إبراهيم بك ج ٢	زين العابدين المراسي	ت : محمود سلامة علاوي
٢٨٧ - الثقافة والعولة والنظام العالمي	أنتوني كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ - الفن الروائي	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطي
٢٨٩ - ديوان منجوهري الدامقاني	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ - علم اللغة والترجمة	جورج مونا	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ - المسرح الإسباني في القرن العشرين ج ١	فرانشيسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ - المسرح الإسباني في القرن العشرين ج ٢	فرانشيسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ - مقدمة للادب العربي	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ - فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ - سلطان الاسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله النيب
٢٩٦ - مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بنوى
٢٩٧ - فن النحويين اليونانية والسورانية	ديونيسيوس ثراكس - يوسف الاهواني	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ - مؤسسة العبيد	أبو بكر تافاوبليوه	ت : مصطفى حجازي السيد
٢٩٩ - ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ - أسطورة برومثيروس معاً	لوريس عوض	ت : جمال الجزيري وبهاء جاهين
٣٠١ - أسطورة برومثيروس معاً	لوريس عوض	ت : جمال الجزيري ومحمد الجندى
٣٠٢ - فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفرز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ - بوذا	جين هوب ويورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ - ماركس	ريوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ - الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ - الحساسة - النقد الكانطى للتاريخ	جان - فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ - الشعر	ديفيد باييتو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ - علم الوراثة	ستيف جونز	ت : محمود عبد المنعم أحمد
٣٠٩ - الذهن والمخ	انجوس چيلتى	ت : جمال الجزيري
٣١٠ - يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ - مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ - روح الشعب الاسود	وايم دى بوز	ت : أسعد حليم
٣١٣ - أمثال فلسطينية	خاير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ - اللن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ - جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت : كاميليا صبحى
٣١٦ - محاكمة سقراط	آ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ - بلاغذ	شير لايموفا - زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ - ادب الروس فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ - صور دريدا	جايتو ياسبيفاك وكريستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ - لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ١)	ليقى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ - نهج نظرية فى تاريخ الفن الغربى	بيليو، إيوجين كلينباور	ت : خالد مقلح حمزة
٣٢٣ - فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ - اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ - عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كريستين يوسف
٣٢٦ - المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ - مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ - يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ - رسائل عيد الميلاد	تد هيزز	ت : محمد عيد إبراهيم

- ٢٢٠ - كل شيء عن التمثيل الصامت مارفن شبرد
٢٢١ - عندما جاء السويديون ستيفن جراي
٢٢٢ - رحلة شهر العسل وقصص أخرى نخبة
٢٢٣ - الإسلام في بريطانيا نيل مطر
٢٢٤ - لقطات من المستقبل آرثر س. كلارك
٢٢٥ - عصر الشك ناتالي ساروت
٢٢٦ - متون الأهرام نصوص قديمة
٢٢٧ - فلسفة الولاء جوزايا رويس
٢٢٨ - نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند نخبة
٢٢٩ - تاريخ الأدب في إيران ج٢ على أصغر حكمت
٢٤٠ - اضطراب في الشرق الأوسط بيرش بيريروجلو
٢٤١ - قصائد من رلكه راينر ماريا رلكه
٢٤٢ - سلامان وأيسال نور الدين عبد الرحمن بن أحمد
٢٤٣ - العالم البرجوازي الزائل ناين جورنيمر
٢٤٤ - الموت في الشمس بيتر يلانجوه
٢٤٥ - الركض خلف الزمن بونه نداني
٢٤٦ - سحر مصر رشاد رشدي
٢٤٧ - الصبية الطائشون جان كوكتو
٢٤٨ - المتصورة الأزرق في الأدب التركي ج١ محمد فؤاد كوبريلي
٢٤٩ - دليل القارئ إلى الثقافة الجادة آرثر والدرون وآخرين
٢٥٠ - يانوراما الحياة السياحية أقلام مختلفة
٢٥١ - مبادئ المنطق جوزايا رويس
٢٥٢ - قصائد من كفافيس قسطنطين كفافيس
٢٥٣ - الفن الإسلامي في الأندلس (مكتسبة) باسيليو بايون مالدونالد
٢٥٤ - الفن الإسلامي في الأندلس (كتابية) باسيليو بايون مالدونالد
٢٥٥ - التيارات السياسية في إيران حجت مرتضى
٢٥٦ - الميراث المر بول سالم
٢٥٧ - متون هيرميس نصوص قديمة
٢٥٨ - أمثال الهوسا العامية نخبة
٢٥٩ - محاورات بارمنيدس أفلاطون
٢٦٠ - أنثروبولوجيا اللغة أندريه جاكوب ونويلا باركان
٢٦١ - التصحر: التهديد والمجابهة ألان جرينجر
٢٦٢ - تلميذ باينبرج هاينرش شيرال
٢٦٣ - حركات التحرر الأفريقي ريتشارد جيبسون
٢٦٤ - حادثة شكسبير إسماعيل سراج الدين
٢٦٥ - سأم باريس شارل بودلير
٢٦٦ - نساء يركضن مع الذئب كلاريسا بنكولا
- ت : سامي صلاح
ت : سامية دياب
ت : علي إبراهيم علي منوفي
ت : بكر عباس
ت : مصطفى فهمي
ت : فتحى العشري
ت : حسن صابر
ت : أحمد الأنصاري
ت : جلال السعيد الحقاوي
ت : محمد علام الدين منصور
ت : فخرى لبيب
ت : حسن حلمي
ت : عبد العزيز بقوش
ت : سمير عبد ربه
ت : سمير عبد ربه
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : جمال الجزيري
ت : بكر الحلو
ت : عبد الله أحمد إبراهيم
ت : أحمد عمر شاهين
ت : عطية شحاتة
ت : أحمد الأنصاري
ت : نعيم عطية
ت : علي إبراهيم علي منوفي
ت : علي إبراهيم علي منوفي
ت : محمود سلامة علاوي
ت : بدر الرفاعي
ت : عمر الفاروق عمر
ت : مصطفى حجازي السيد
ت : حبيب الشاروني
ت : ليلى الشرييني
ت : عاطف معتمد وأمال شاور
ت : سيد أحمد فتح الله
ت : صبري محمد حسن
ت : نجلاء أبو عجاج
ت : محمد أحمد حمد
ت : مصطفى محمود محمد

٣٦٧ - القلم الجريء	فخية	٣ : البراق عبد الهادي رضا
٣٦٨ - المصطلح السردي	جيرالد برنس	٣ : عابد خزندار
٣٦٩ - المرأة في أدب نجيب محفوظ فوزية العشماوي		٣ : فوزية العشماوي
٣٧٠ - الفن والحياة في مصر الفرعونية كثير لا لويت		٣ : فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ - المتسقة الأولى في الألب الترمي ج.٢ محمد فؤاد كويريلي		٣ : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ - عاش الشباب	وانغ مينغ	٣ : وحيد السعيد عبد الحميد
٣٧٣ - كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	٣ : علي إبراهيم علي منوفي
٣٧٤ - اليوم السادس	أندريه شديد	٣ : حمادة إبراهيم
٣٧٥ - الخلود	ميلان كونديرا	٣ : خالد أبو اليزيد

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٥٨٥٣ / ٢٠٠٢



الخلود

نشأت هذه الرواية مرتبطة بالوسط الفرنسي الذي عاش فيه ميلان كونديرا بعد رحيله في تشيكوسلوفاكيا ؛ فهي تتناول حياة امرأة فرنسية جذابة ولدت من مخيلة المؤلف عندما كان يجلس بالقرب من حمام سباحة و رأى سيدة عجوزاً في الخامسة و الستين من عمرها وهي تنظر إلى مراقب حمام السباحة الشاب الذي كان يعلمها السباحة ، و عند انصرافها استدارت للخلف ولوحت له بيدها وهي تبتسم، و كأنها تلقى بكرة في الهواء إلى حبيبها ، ولكن هذه الابتسامة و هذا السحر لا يناسبان إلا أفضل فتاة في العشرين من عمرها، ولكن هذه الإيماءة و تلك الابتسامة كان لهما تأثيرهما على كونديرا؛ فهنا خطر على "أجنس" التي ولدت في فكرة عن هذه الإيماءة، ثم ولدت حواء من ضلع آدم، وكما ولد فينوس من البحر